عشرة أيام هزت العالم

وصف شاهد عيان لثورة أكتوبر الروسية 1917

تأليف : جون ريد

ترجمة فوّاز طرابلسي

دار الطليعة – بيروت- الطبعة الرابعة فبراير 1979

نسخ الكتروني: جريدة المناضل-ة www.almounadil-a.info

باهتمام بالغ وانتباه لا يكل قرأت كتاب جون ريد «عشرة أيام **هزت** العالم». وبدون أي تحفظ أوصي جميع عمال العالم بقراءته. أود أن أرى هذا الكتاب منشورا في ملايين النسخ، ومترجما إلى جميع اللغات، لأنه يرسم صورة صادقة وحية عن أحداث هي ذات أهمية قصوى لفهم حقيقة ثورة البروليتاريا ودكتاتوريتها. هذان الموضوعان يناقشان على نطاق واسع، ولكن قبل أن يقدم المرء على قبول مثل هذه الآراء أو رفضها عليه أن يعي أولا المغزى الكامل لقراره. ولا شك في أن كتاب جون ريد يساعد على توضيح هذه المسألة التي هي المسألة الأساسية بالنسبة للحركة العمالية العالمية.

ف - إ - لينين

أواخر عام 1919

مقدمة كروبسكايا للطبعة الروسية الأولى

«عشرة أيام هزّت العالم»، ذلك هو العنوان الذي أعطاه جون ريد لكتابه الرائع. يسترجع هذا الكتاب بكثافة وحدَّة مدهشتين الأيام الأولى من ثورة أكتوبر. إننا لا نلقى هنا مجرد تعداد للأحداث، أو مجموعة من الوثائق، وإنما سلسلة من المشاهد المعاشة، صادقة إلى درجة أنها لا بد وأن تسترجع في ذهن كل الذين عايشوا الثورة المشاهد التي حضروها. إن كل هذه اللوحات، المرسومة بدقة، تعبر عن مشاعر الجماهير. وتسمح بالتالي بفهم المعنى الحقيقي لمختلف أطوار الثورة العظيمة.

قد يبدو غريبا، لأول وهلة، أن يكون مؤلف هذا الكتاب أجنبيا، أمريكيا يجهل لغة البلد وتقاليده. يبدو وكأن لا بد له من أن يرتكب أجسم الأخطاء، عند كل خطوة، وأن يتغافل عن عوامل أساسية.

إن الكتّاب الأجانب لا يكتبون عن روسيا السوفييتية كما يكتب جون ريد، فإما أنهم لا يفهمون معنى الأحداث، وإما أن يلجأوا إلى التعميم انطلاقا من وقائع معزولة لا تكون هي الوقائع الأساسية المميزة. وصحيح أن القليل منهم فقط قد شاهد الثورة شخصيا.

لم يكن جون ريد مراقبا لا مباليا. إن كونه ثوريا وشيوعيا قد مكّنه من فهم معنى الأحداث، معنى النضال الكبير. من هنا هذه النظرة العميقة والتي لولاها ما كان هذا الكتاب.

إن الروس لا يتكلمون، هم أيضا، عن ثورة أكتوبر مثلما يتكلم جون ريد عنها: فإما أن يطلقوا حكما، وإما أن يكتفوا بوصف الفترات التي شاهدوها. أما كتاب ريد فإنه يرسم لوحة شاملة لثورة الجماهير الشعبية كما حدثت فعلا. لذا فهو يكتسب أهمية بالغة بالنسبة للشباب، للأجيال الطالعة التي ستصبح ثورة أكتوبر بالنسبة لها جزءا من التاريخ. إن كتاب ريد ملحمة بطريقته الخاصة.

يرتبط جون ريد بوشائج لا تنفصم بالثورة الروسية. كانت روسيا السوفييتية عزيزة عليه، قريبة إلى قلبه، وفيها أصيب بالتيفوييد، وها هو يرقد الآن عند عتبة «الجدار الأحمر» في الكرملين. فالذي وصف جنازة ضحايا الثورة، كما وصفها جون ريد، يستحق مثل هذا الشرف.

===

1- زوجة لينين، ومترجمة «عشرة أيام هزت العالم» إلى الروسية، عام 1919

مقـــدمـــة المـــؤلـــف

هذا الكتاب نبذة من التاريخ المكثف—التاريخ كما شاهدته. إنه لا يدّعي كونه أكثر من سرد مفصل لثورة أكتوبر، حين قام البلاشفة، على رأس العمال والجنود، باستلام الحكم في روسيا ووضعوه بين أيدي السوفييت.

يدور القسم الأكبر منه، طبعا، حول بتروغراد الحمراء، عاصمة الثورة وقلبها. ولكن لا بد من أن يعلم القارئ أن ما حدث في بتروغراد قد تكرر بحذافيره تقريبا، في أوقات مختلفة، في جميع أنحاء روسيا بنسبة أقل أو أكثر من الحدّة.

لقد اضطررت في هذا الكتاب، الذي هو واحد من عدة كتب أعدها، إلى الاقتصار على سرد متسلسل زمنيا للأحداث التي شاهدتها شخصيا، واختبرتها، وعلى ما هو مدعوم منها بالأدلة الثابتة. ويسبق ذلك فصلان يوضحان، بإيجاز، خلفية الثورة وأسبابها. وأني على بينة من أن هذين الفصلين ليسا سهلين للقراءة، ولكنهما أساسيان لفهم ما يليهما.

سوف يواجه القارئ بعدة أسئلة: ما هي البلشفية؟ أي نوع من الجهاز الحكومي أنشأ البلاشفة؟ إذا كان البلاشفة قد تبنوا الجمعية التأسيسية قبل ثورة أكتوبر، فلماذا فرقوها بقوة السلاح فيما بعد؛ وإذا كانت البرجوازية ظلت تعارض الجمعية التأسيسية إلى حين بروز الخطر البلشفي، فلماذا تبنتها فيما بعد؟

لا يمكن الإجابة على هذه الأسئلة ولا على سواها في حيز هذا الكتاب. في الجزء الثاني منه، «من كورنيلوف إلى بريست-ليتوفسك»، سوف أتتبع مسيرة الثورة حتى معاهدة الصلح مع الألمان. وفيه أفسر أصول المنظمات الثورية ووظائفها، وتطور الشعور الشعبي، وحل الجمعية التأسيسية، وتركيب الدولة السوفييتية، ومجرى مفاوضات «بريست-ليتوفسك» ونتائجها.

وفي معرض معالجة نشوء البلشفية، لابد من أن نفهم أن حياة روسيا الاقتصادية ووضع الجيش الروسي لم يكونا في حالة فوضى في 7 تشرين الأول عام 1917 فقط، وإنما تعود هذه الفوضى إلى ما قبل ذلك بأشهر عديدة. كنتيجة منطقية لعملية ترجع بدايتها إلى عام 1915. فقد عمل الرجعيون الفاسدون الذين يسيطرون على البلاط القيصري، عن قصد، على تدمير روسيا ليعقدوا صلحا منفردا مع الألمان. ونحن نعلم الآن أن نقص الأسلحة على الجبهة، الذي أدى إلى التراجع الكبير صيف 1915؛ وندرة الغذاء في الجيش والمدن الكبيرة، وانهيار الصناعات، وتعطيل حركة النقل عام 1917 إنما كانت جزء من حملة تخريب واسعة النطاق. ولقد وضعت ثورة آذار حدا لهذه الحملة في الوقت المناسب.

خلال الأشهر الأولى من ثورة آذار، ورغم الفوضى التي ترافق أية ثورة كبيرة، عندما حقق مليون وستمائة ألف من أكثر شعوب العالم انسحاقا الحرية فجأة، تحسن بالفعل الوضع الداخلي، وازدادت قوة الجيش القتالية.

إلاّ أن «شهر العسل» لم يدم طويلا. فالطبقات المالكة لا تريد سوى ثورة سياسية، تنتزع السلطة من القيصر، وتضعها بين أيديها. وتريد إقامة جمهورية دستورية في روسيا على غرار ما هو موجود في فرنسا أو الولايات المتحدة، أو ملكية دستورية على غرار ما هو موجود في إنكلترا. ومقابل ذلك، كانت الجماهير الشعبية تطالب بديمقراطية صناعية وزراعية حقيقية.

ولقد أجاد وليام انغليش وايلنغ، في كتابه عن ثورة عام 1905 -«**رسالة روسيا**»- في وصفة لكيفية تفكير العمال الروس الذي دعموا البلاشفة فيما بعد دعما شبه مطلق:

«لقد رأوا (أي العمال) أن من الممكن، حتى في ظل حكومة حرة، أن يبقوا في حالة المجاعة التي يعانون منها إذا ما سيطرت على الحكم طبقات أخرى غير طبقتهم.

العامل الروسي عامل ثوري. ولكنه ليس عنيفا ولا قطعيا ولا غبيا. إنه مستعد أن يقيم المتاريس، غير أنه الوحيد بين عمال العالم الذي درس هذه المتاريس، وتعلم عنها من خلال التجربة العملية. إنه مستعد ومندفع في خوض الصراع إلى النهاية ضد الطبقة الرأسمالية التي تضطهده. إلاّ أنه لا يتجاهل وجود الطبقات الأخرى. بل يطلب منها فقط أن تنضم إلى هذا الجانب أو ذاك في الصراع المرير المقبل.

كانوا (أي العمال) يعترفون بأن مؤسساتنا السياسية (في أمريكا) أفضل من مؤسساتهم، إلاّ أنهم لم يكونوا على استعداد لأن يستبدلوا مستبدا بآخر (أي الطبقة الرأسمالية).

إن عمال روسيا لم يُقتلوا ويعدموا بالمئات في موسكو، وريغا، وأوديسا، ولم يسجنوا بالمئات في كل سجن من سجون روسيا، ولم ينفوا إلى الصحاري وإلى المناطق الجليدية، لكي يحصلوا على امتيازات وهمية، كالتي حصل عليها العمال الأمريكيون في «غولد فيلدز» و«كريبل كريك»...

وهكذا، ففي خضم حرب أجنبية، نمت الثورة الاجتماعية في روسيا، على سطح الثورة السياسية، وانتهت بانتصار البلشفية.

وهذا ما يقوله «ا. ج. ساك»، مدير «مكتب الاستعلامات الروسي» المناهض للحكومة السوفييتية في هذا البلد، في كتابه «ولادة الديموقراطية الروسية»:

«شكّل البلاشفة وزارتهم برئاسة نيقولا لينين، وعضوية ليون تروتسكي وزيرا للخارجية. ولقد تجلت حتمية استلامهم الحكم بعد ثورة آذار مباشرة.. إن تاريخ البلاشفة بعد تلك الثورة هو تاريخ تطورهم المضطرد».

غالبا ما يؤكد الأجانب، والأمريكيون منهم خاصة، على «جهل» العمال الروس. لا شك في أنهم يفتقرون إلى التجربة السياسية التي اكتسبتها شعوب الغرب، إلا أنهم قد تدربوا تدريبا ممتازا على التنظيم الطوعي. ففي عام 1917، كان عدد أعضاء الجمعيات التعاونية الاستهلاكية في روسيا يبلغ أثنى عشر مليونا؛ وما مجالس السوفييت نفسها إلاّ الدليل الرائع على عبقريتهم التنظيمية. وإلى جانب ذلك، فلا يكاد يوجد شعب من شعوب العالم بلغ ذلك المستوى من الثقافة الاشتراكية النظرية، ومن المعرفة بتطبيقها العملي كالذي بلغه الشعب الروسي.

هكذا يصفهم «وليام انغليس وايلنغ»:

«إن شعب روسيا العامل قادر في معظمه على القراءة والكتابة. خلال عدة سنوات، كان البلد في وضع مضطرب فسنحت له فرصة أن يقوده أفراد أذكياء، خرجوا من بين صفوفه، بل وأيضا قسم كبير من الطبقة المثقفة التي لا تقل عنه ثورية، توجه إلى الطبقة العاملة حاملا معه الدعوة لبعث روسيا سياسيا واجتماعيا».

يفسر عدة كتّاب عداءهم للحكومة السوفييتية بحجة أن المرحلة الأخيرة من الثورة الروسية كانت مجرد صراع العناصر «المحترمة» ضد هجمات البلشفية الوحشية. ومهما يكن من أمر، فقد كانت الطبقات المالكة هي التي حطمت المنظمات الشعبية الثورية، وجمدت الثورة عندما أدركت مدى قوة هذه المنظمات. ولتحقيق هذه

الغاية، لجأت الطبقات المالكة إلى إجراءات انتحارية. فلكي تنسف حكومة كرنسكي ومجالس السوفييت عمدت إلى تعطيل حركة النقل، وإثارة الإضطرابات الداخلية؛ ولكي تسحق «لجان المصانع والمتاجر» أغلقت المصانع، وحولت الوقود والمواد الأولية عن وجهتها الأصلية، ولكي تحطم لجان الجيش في الجبهة، أعادت فرض عقوبة الإعدام وساهمت في الهزيمة العسكرية.

وكان ذلك وقودا غذى اضطرام النار البلشفية. فرد البلاشفة بالدعوة إلى حرب طبقية، وبالتشديد على سيادة السوفييت.

وبين هذين الطرفين، كان يقف الذين يطلق عليهم اسم الاشتراكيين «المعتدلين»، أي المناشفة والاشتراكيون الثوريون وسائر الأجنحة التي تمحضهم تأييدها كاملا أو جزئيا، بالإضافة إلى بضعة أحزاب سياسية أخرى. وقد تعرضت هذه المجموعات أيضا، التي كانت نظرياتها تعطل قدرتها على المقاومة، إلى هجمات الطبقة المالكة.

كان المناشفة والاشتراكيون الثوريون، بشكل عام، يؤمنون بأن روسيا لم تنضج بعد لقيام الثورة الاجتماعية، وبأن الثورة السياسية هي وحدها الممكنة. يفسرون ذلك بأن الجماهير الروسية لم تصل بعد إلى المستوى الكافي من الثقافة لكي تتمكن من استلام الحكم، وأن أية محاولة في هذا الاتجاه سوف تستجلب حتما ردة فعل يستغلها سياسي انتهازي لا يرحم لكي يعيد العهد البائد. وبالنتيجة فعندما أجبر الاشتراكيون «المعتدلون» على استلام الحكم نفروا منه.

كانوا يعتقدون أنه على روسيا أن تمر بمرحلة التطور السياسي والاقتصادي التي عرفتها أوروبا الغربية. وتخرج في النهاية، مع سائر بلدان العالم، إلى نظام اشتراكي كامل. لذا، كان من الطبيعي أن يتفقوا مع الطبقات المالكة على ضرورة مرور روسيا أولا في طور برلماني يحوي بعض التعديلات على الديموقراطية الغربية.

بين هذا الموقف وبين دعمهم للطبقات المالكة خطوة من السهل أن يخطوها. فالاشتراكيون «المعتدلون» بحاجة إلى البرجوازية، ولكن البرجوازية ليست بحاجة إليهم. فنجم عن ذلك اضطرار الوزراء الاشتراكيين إلى التنازل، شيئا فشيئا، عن برنامجهم بأكمله، في حين ازداد تصلّب الطبقات المالكة في مواقفها.

وفي النهاية، عندما وضع البلاشفة حدا لهذه المساومة الخرقاء، إذا بالمناشفة والاشتراكيين الثوريين يحاربون إلى جانب الطبقات الحاكمة... ويمكن مراقبة الظاهرة عينها اليوم في كل بلدان العالم تقريبا.

ويبدو لي أن البلاشفة، عوضا عن أن يكونوا قوة هدامة، كانوا الحزب الوحيد في روسيا الذي يملك برنامجا بنّاء، إلى جانب مقدرة على فرض هذا البرنامج على البلد. ولو أنهم لم يستلموا الحكم في الوقت الذي استلموه فيه، فما من شك لديّ أن جيوش ألمانيا الإمبراطورية كانت قد دخلت بتروغراد وموسكو في كانون الأول. وأعادت روسيا مرة أخرى إلى نير الحكم القيصري.

هناك عادة ما تزال سارية بعد مضي سنة كاملة على قيام الحكومة السوفييتية، وهي التحدث عن الثورة البلشفية على أنها «مغامرة». نعم. لقد كانت مغامرة. ولكنها إحدى أروع المغامرات التي خاضتها البشرية، مكتسحة التاريخ على رأس الجماهير الكادحة، ومراهنة بكل شيء في سبيل رغباتها الكبيرة البسيطة. لقد تم منذ الآن إنشاء الجهاز الذي سيتولى توزيع ملكيات الأرض الكبيرة على الفلاحين. أما «لجان المصانع والمتاجر» والنقابات، فكانت موجودة من قبل لتحقيق سيطرة

العمال على الصناعة. وفي كل قرية وبلدة ومدينة وحي ومقاطعة توجد «سوفييتات مندوبي العمال والجنود والفلاحين» المهيأة للاضطلاع بمهام الإدارة المحلية.

ومهما يكن رأينا في البلشفية، فلا يمكن أن ننكر أن الثورة الروسية هي واحدة من أعظم أحداث التاريخ الإنساني، وأن بروز البلاشفة ظاهرة ذات أهمية عالمية. ومثلما ينقب المؤرخون بين الوثائق بحثا عن أدق التفاصيل المتعلقة بتاريخ «عامية باريس»، كذلك سوف يودون معرفة ما الذي جرى في بتروغراد شهر تشرين الثاني عام 1917، وما هي الروح التي حركت الشعب، وكيف كان القادة يتكلمون ويتصرفون. لهذا السبب كتبتُ هذا الكتاب.

لم تكن عواطفي على الحياد في هذا الموضوع. غير أني، في عرضي لقصة هذه الأيام العظيمة، حاولت أن أرى الأحداث بعين المراقب الأمين الحريص على كشف الحقيقة.

جون ريد

نيويورك، 1 كانون الثاني، 1919

ملاحظـــــــــات وشـــــــــــروح

إن تعدد المنظمات الروسية من مجموعات سياسية، ولجان، ولجان مركزية، ومجالس سوفييت، ومجالس دوما، ونقابات سيولد بعض الالتباس في ذهن القارئ العادي. لهذا السبب أقدم فيما يلي بعض التعريفات والشروح الموجزة.

الأحزاب السياسية

في انتخابات الجمعية التأسيسية، تقدمت سبع عشرة لائحة في مدينة بتروغراد وحدها، وما يقارب الأربعين في بعض بلدان الريف، على أن هذا العرض الموجز لأهداف الأحزاب السياسية، ولتكوينها ينحصر بالمجموعات والأجنحة المذكورة في هذا الكتاب. ولم أتعرض فيه إلاّ لجوهر برنامجها وللطابع العام لمقوماتها.

1- الملكيون: على مختلف اتجاهاتهم من تشرينيين (1) (الأكتوبريين) وغيرهم. لم تعد هذه الأجنحة، التي كانت قوية فيما مضى، تعمل بشكل علني، فإما أنها استمرت بالعمل السري، وإما أخذ أعضاؤها ينضمون إلى حزب الكاديت كلما اقترب هذا الحزب شيئا فشيئا من تبني برنامجها السياسي. ممثلوهم الوارد ذكرهم في هذا الكتاب: رودزيانكو، شولغين.

-2

أ- الكاديت: اختصار لاسم «الديموقراطيين الدستوريين». اسم الحزب الرسمي «حزب حرية الشعب»، كان يتكون خلال الحكم القيصري من الليبراليين المنتمين إلى الطبقات المالكة، وكان الكاديت حزب الإصلاح السياسي بلا منازع. وعندما اندلعت الثورة في آذار (مارس) عام 1917، شكل الكاديت أول حكومة مؤقتة. وقد سقطت وزارتهم في نيسان (أبريل) لأنها أعلنت تأييدها لمطامح الحلفاء الاستعمارية بما فيها مطامح الحكومة القيصرية. وبقدر ما كانت الثورة تكتسب طابع الثورة الاجتماعية والاقتصادية، كان الكاديت ينحازون أكثر فأكثر إلى المحافظة. ممثلو الحزب المذكورون في هذا الكتاب: مليوكون، فينافير، شاتسكي.

ب- مجموعة رجال الحياة العامة Group of Public Men. بعد أن فقد الكاديت تأييدهم الشعبي بسبب ارتباطهم بثورة كورنيلوف المضادة، تشكلت مجموعة رجال الحياة العامة في موسكو. وشغل ممثلوها مناصب وزارية في حكومة كرنسكي الأخيرة. وأعلنت المجموعة أنها منظمة غير حزبية، رغم أن أناسا مثل رودزيانكو وشولغين كانوا من عداد قادتها المفكرين. كانت المجموعة تتكون من أصحاب المصارف والتجار الصناعيين «الحديثين» الذين كانوا على جانب كاف من الذكاء، يجعلهم يدركون أنه يجب محاربة مجالس السوفييت بسلاحها، أي بالتنظيم الاقتصادي، من ممثلي هذه المجموعة: ليانوزوف، كونومالوف.

3- الاشتراكيون الشعبيون: أو الترودوفيكي (المجموعة العمالية). حزب صغير من حيث العدد. يتكون من مثقفين راديكاليين وقادة جمعيات تعاونية وفلاحين محافظين. وهم، بالرغم من ادعائهم الاشتراكية، يمثلون، في الواقع، مصالح البرجوازية الصغيرة من موظفين وأصحاب حوانيت وغيرهم. وهم الورثاء المباشرون لتقاليد المساومة التي انتهجتها المجموعة العمالية في مجالس الدوما الإمبراطوري الرابع عندما كانت مكوّنة في غالبيتها من ممثلي الفلاحين. وكان كرنسكي قائد المجموعة العمالية في مجلس الدوما الإمبراطوري عندما اندلعت ثورة آذار (مارس) 1917. الاشتراكيون الشعبيون حزب «وطني»(2). ممثلوهم الوارد ذكرهم في هذا الكتاب: بيشيخونوف، شايكوفكسي.

4- حزب العمال الاشتراكي-الديموقراطي الروسي: يتكون في الأصل من الاشتراكيين الماركسيين. انشق الحزب في مؤتمره عام 1903، حول مسألة الخطة التكتيكية، إلى جناحين: البلاشفة –أعضاء الأكثرية- والمناشفة –أعضاء أقلية. وأصبح هذان الحزبان تنظيمين منفصلين يسمي كل منهما نفسه «حزب العمال الاشتراكي-الديموقراطي الروسي» ويتبنى الاشتراكية. بعد ثورة 1905، أصبح البلاشفة أقلية إلاّ أنهم عادوا فأصبحوا أكثرية في أيلول (شتنبر) عام 1917.

أ- المناشفة: يضم هذا الحزب مختلف الاتجاهات الاشتراكية التي تؤمن بأنه يتوجب على الجميع أن ينتقل بواسطة التطور الطبيعي إلى الاشتراكية، وأنه على الطبقة العاملة أن تسيطر أولا على السلطة السياسية. والحزب حزب «وطني» وهو حزب المثقفين الاشتراكيين، وبما أن جميع وسائل تحصيل العلم محصورة بيد الطبقات المالكة، فإن المثقفين يتصرفون تلقائيا بما ينسجم مع تربيتهم، فيقفون إلى جانب الطبقات المالكة. من ممثليهم الوارد ذكرهم في هذا الكتاب: دان، ليبر، تسيريتلي.

ب- المناشفة الأمميون: الجناح الراديكالي من المناشفة. أممي ومعارض لأي تحالف مع الطبقات المالكة، إلاّ أنه يرفض قطع العلاقات مع المناشفة المحافظين، ويعارض ديكتاتورية البروليتاريا التي يدعو إليها البلاشفة. كان تروتسكي عضوا في هذه المجموعة. من قادتها تسيرنوف، مارتينوف.

ج- البلاشفة: ويطلقون على أنفسهم الآن اسم الحزب الشيوعي تأكيدا على انقطاعهم التام مع تراث الاشتراكية «المعتدلة» أو «البرلمانية» الذي يطغى على المناشفة، وعلى من يسمّون «اشتراكيو الأكثرية» في جميع البلدان. دعا البلاشفة إلى ثورة بروليتارية مباشرة، وإلى استلام الحكم للتعجيل بقيام الاشتراكية بواسطة الاستيلاء القسري على الصناعة والأراضي والموارد الطبيعية والمؤسسات المالية. هذا الحزب يعبر عن رغبات عمال المصانع بشكل خاص، وعن رغبات قطاع واسع من الفلاحين الفقراء كذلك. من قادته لينين، تروتسكي، لوناتشارسكي.

د- الاشتراكيون-الديموقراطيون الأمميون المتحدون ويطلق عليهم أيضا اسم جماعة «الحياة الجديدة»، الصحيفة ذات النفوذ الواسع الناطقة باسمهم. هم مجموعة صغيرة من المثقفين تحظى بتأييد جد بسيط في أوساط الطبقة العاملة، هذا إذا استثنينا الشعبية الشخصية التي يتمتع بها قائدها مكسيم غوركي: وتتكون المجموعة من المثقفين، وبرنامجها مطابق تقريبا لبرنامج المناشفة الأمميين فيما عدا كونها ترفض الارتباط بأي من الجناحين الرئيسيين (أي البلاشفة والمناشفة). لم تنسحب المجموعة من الحكومة السوفياتية رغم معارضتها لخطط البلاشفة التكتيكية. ممثلوها الواردي ذكرهم في هذا الكتاب: أفيلوف، كراماروف.

هـ- يدينستوفا: مجموعة صغيرة في طريق الاضمحلال تتكون في غالبيتها الساحقة من أتباع بليخانوف الشخصيين. وبليخانوف أحد رواد الحركة الاشتراكية-الديموقراطية الروسية في الثمانينات ومفكرها الأكبر. الآن أصبح بليخانوف عجوزا ووطنيا متطرفا، وأكثر محافظة من المناشفة أنفسهم. اختفت منظمة يدينستوفا بعد الانقلاب البلشفي.

5- الحزب الاشتراكي الثوري: في الأصل: حزب الفلاحين الثوري، حزب «المنظمة المقاتلة» أي حزب الإرهابيين. انضمت إليه بعد ثورة آذار (مارس) عناصر كثيرة بعيدة عن الاشتراكية. كان آنذاك يؤيد إلغاء الملكية الفردية في الأرض فقط، على شرط أن يعوَّض الملاك بطريقة ما. وأخيرا، دفع الشعور الثوري المتزايد عند الفلاحين بالاشتراكيين الثوريين إلى التخلي عن مبدأ «التعويض»، كما أدى إلى انشقاق المثقفين الأكثر ثورية عن الحزب الأصلي في خريف 1917، وإلى تكوين حزب جديد: الحزب الاشتراكي الثوري اليساري.

وأطلق فيما بعد على أعضاء الحزب الأصلي اسم «الاشتراكيين الثوريين اليمينيين». وقد تبنى هؤلاء موقف المناشفة السياسي وتعاونوا معهم. وأصبحوا، في النهاية، يمثلون الفلاحين الميسورين، والمثقفين، والمجموعات غير الواعية سياسيا في المناطق الريفية النائية. إلاّ أن التباين في وجهات النظر السياسية والاقتصادية فيما بينهم أكبر منه عند المناشفة. من قادتهم الواردة ذكرهم في هذه الصفحات: أفاكسانتييف، غوتز، كرنسكي، تشيرنوف، «بوشكا»، بزيشكوفسكايا.

أ- الاشتراكيون الثوريون اليساريون: رغم تبنّيهم النظري لبرنامج البلاشفة، حول ديكتاتورية الطبقة العاملة. فقد تلكأوا، بادئ بدء، في إتباع الخطط التكتيكية الصارمة التي اتبعها البلاشفة. على أنهم بقوا في الحكومة السوفييتية وشغلوا المناصب الوزارية، وخاصة وزارة الزراعة. انسحبوا عدة مرات من الحكومة، لكنهم كانوا يعودون إليها في جميع الحالات. وعندما أخذ الفلاحون يهجرون صفوف الحزب الاشتراكي الثوري بأعداد متزايدة، انضموا إلى الحزب الاشتراكي الثوري اليساري. وقد غدا حزب الفلاحين الكبير الذي يدعم الحكومة السوفييتية والداعي إلى مصادرة الملكيات الكبيرة دون تعويض. وإلى إدارتها من قبل الفلاحين أنفسهم. من قادتهم: سبيردونوفا، كاريلين، كامكوف، كالاغاييف.

ب- المتطرفون Maximalistes: مجموعة انشقت عن الحزب الاشتراكي الثوري خلال ثورة 1905 عندما كان هذا الأخير حركة فلاحية جبارة، مطالبين بالتطبيق الفوري لبرنامج الحد الأقصى الاشتراكي. أضحوا الآن مجموعة ليست ذات بال من الفلاحين الفوضويين.

الإجراءات البرلمانية

إن الاجتماعات والمؤتمرات الروسية مبنية على النموذج الأوروبي، أكثر مما هي مبنية على النموذج الأمريكي. ويكون الإجراء الأول انتخاب المقررين والبريزيديوم.

البريزيديوم: هو مجلس الرئاسة، ويتكون من ممثلي المجموعات والأجنحة السياسية الممثلة في الاجتماع حسب قوتها العددية. يحضّر البريزديوم جدول الأعمال، ويحق للرئيس دعوة أعضائه لترؤس الاجتماع حسب الحاجة.

يطرح كل سؤال بشكل عام ثم تتم مناقشته، وعند انتهاء النقاش، تقدم المجموعات المختلفة مقرراتها، ويجري التصويت على كل واحدة منها على حدة. بالإمكان تجاوز جدول الأعمال، وهذا ما يتم في معظم الأحيان في أول نصف ساعة من الاجتماع. فبحجة «ظرف استثنائي»، يوافق عليه الحضور عادة، يستطيع أي كان من القاعة أن يقول ما يشاء عن أي موضوع. الحضور يسيطرون على الاجتماع، والوظيفتان الوحيدتان اللتان يمارسهما الرئيس عمليا هما أن يقرع جرسا صغيرا للمحافظة على النظام وأن يعطي حق الكلام لطالبيه. القسم الأكبر من عمل الجلسة يتم في اجتماعات تشاور تعقدها مختلف المجموعات والأجنحة السياسية التي تصوّت في غالبية الأحيان كمجموعات ممثلة بقادتها. فتكون النتيجة أنه عندما تبرز نقطة هامة جديدة، أو عند التصويت، يأخذ المجتمعون استراحة ليتسنى لمختلف المجموعات والأجنحة السياسية أن تعقد اجتماعاتها الخاصة.

المنظمات الشعبية

1- السوفييت: كلمة سوفييت تعني «مجلس». منذ الثورة. أصبح اسم السوفييت مرتبطا بنوع من البرلمان الذي ينتخبه أعضاء المنظمات الاقتصادية للطبقة العاملة، كسوفييت مندوبي العمال والجنود والفلاحين (3). علاوة عن منظمات السوفييت المحلية التي تنتخب في كل مدينة وبلدة وقرية في روسيا، وعلاوة عن

سوفييت الأحياء في المدن الكبرى، توجد سوفييت المقاطعات، واللجنة المركزية لمنظمات السوفييت لعموم روسيا التي يطلق عليها اسم «تسايكا» ومقرها العاصمة.

بعد ثورة آذار (مارس) مباشرة، توحدت سوفييت مندوبي العمال ومجالس مندوبي الجنود في جميع أنحاء روسيا تقريبا. أما فيما يتعلق بالمصالح الخاصة لكل فريق، فقد ظلت قطاعات العمال والجنود تجتمع على انفراد للبث فيها. ولم تنضم سوفييت مندوبي الفلاحين إلى المجلسين الآخرين إلاّ بعد الانقلاب البلشفي. وكانت هي كذلك منظمة على غرار تنظيم العمال والجنود، وكانت العاصمة مقر «اللجنة التنفيذية لسوفييت مندوبي الفلاحين لعموم روسيا».

2- النقابات: ظل يطلق على النقابات العمالية الروسية اسم «النقابات المهنية»، رغم غلبة الطابع الصناعي عليها. وكان عدد أعضائها يتراوح بين ثلاثة وأربعة ملايين عضو عند قيام الثورة البلشفية. وكانت هذه النقابات منضمة إلى اتحاد عام لعموم روسيا، وكانت العاصمة مقر لجنته المركزية التنفيذية.

3- لجان المصانع والمتاجر: هي منظمات شكّلها العمال بشكل عفوي في محاولتهم السيطرة على الصناعة، مستغلين الانهيار الإداري الذي أصاب الدولة. وكانت مهمتها العمل الثوري للسيطرة على المصانع وإدارتها. وللجان المصانع والمتاجر تنظيم لعموم روسيا ولجنته المركزية في بتروغراد تتعاون مع النقابات.

4- مجالس الدوما: كلمة «الدوما» تعني: «هيئة استشارية». إن مجلس الدوما الإمبراطوري القديم، الذي عايش الثورة خلال ستة أشهر بشكل ديموقراطي. توفي وفاة طبيعية في أيلول (شتنبر) 1917. أما مجلس دوما المدينة المشار إليه في هذا الكتاب، فهو المجلس البلدي بعد إعادة تنظيمه، وكان يسمى أيضا: «الحكومة الذاتية البلدية». ينتخب بواسطة الاقتراع السري المباشر. ويعود السبب الوحيد لفشله في السيطرة على الجماهير خلال الثورة البلشفية إلى ضعف نفوذ جميع المنظمات السياسية المختصة. مقابل تزايد قوة المنظمات المبنية على المجموعات الاقتصادية.

5- زييمستوفا: يمكن ترجمتها بشكل عام بـ«مجلس المقاطعات». وهي منظمات شبه سياسية. وشبه اجتماعية ذات صلاحية إدارية محدودة. نمت في ظل حكم القيصر، وكان يسيطر عليها، إلى حد بعيد، المثقفون الليبراليون من أبناء الطبقات المالكة للأرض. وأهم مسؤولياتها العمل التثقيفي والخدمات الاجتماعية في أوساط الفلاحين. خلال الحرب. حصرت مجالس الزييمستوفا بنفسها، شيئا فشيئا، جميع مسؤوليات تقديم الكسوة والغذاء للجيش الروسي، ومهمات الاستيراد من الدول الأجنبية والقيام بنشاطات في أوساط الجنود تشابه النشاطات التي تقوم بها جمعية الشبان المسيحية الأمريكية في الجبهة. وبعد ثورة آذار (مارس)، تم تحويل الزييمستوفا ديموقراطيا بغية جعلها مؤسسات للحكم الذاتي في المناطق الريفية. على أنها، شأنها شأن مجالس دوما المدن، فشلت في منافسة السوفييت.

6- التعاونيات: هي جمعيات العمال والفلاحين التعاونية، التي كانت تضم بضع مليون عضو في جميع أنحاء روسيا قبل الثورة. أسسها الليبراليون والاشتراكيون «المعتدلون»، إلاّ أن المجموعات الأكثر ثورية لم تدعمها لأنها كانت بديلا لانتقال وسائل الإنتاج والتوزيع كليا إلى أيدي العمال. نمت التعاونيات نموا سريعا بعد ثورة آذار (مارس)، وسيطر عليها الاشتراكيون الشعبيون والمناشفة والاشتراكيون الثوريون، ولعبت دور القوة السياسية المحافظة إلى حين قيام الثورة البلشفية. ولكن التعاونيات هي التي أطعمت روسيا عندما انهار البنيان القديم للتجارة والمواصلات.

7- لجان الجيش: شكل الجنود لجان الجيش في الجبهة للنضال ضد نفوذ ضباط العهد البائد الرجعي. وكان لكل سرية وفوج وكتيبة وفرقة وجيش لجنتها، وتشكل لجنة الجيش المنتخبة السلطة العليا. وكانت اللجنة المركزية للجيش تعمل بالتعاون مع القيادة العامة. ومع انهيار إدارة الجيش نتيجة الثورة، أخذت لجان الجيش على عاتقها معظم أعمال دائرة الإعاشة والتموين، حتى أنها تولت قيادة الجنود في بعض الحالات.

8- لجان الأسطول: المنظمات المقابلة للجان الجيش في الأسطول.

اللجان المركزية

في ربيع وخريف 1917، عقدت في بتروغراد اجتماعات لمختلف أنواع المنظمات لعموم روسيا، فعقدت مؤتمرات وطنية لمجالس مندوبي العمال والجنود والفلاحين، والنقابات ولجان المصانع والمتاجر، ولجان الجيش والأسطول، ولجان كل فرع من فروع القطاع العسكري أو البحري، والتعاونيات، والقوميات إلى آخره. وانتخب كل مؤتمر من هذه المؤتمرات لجنة مركزية، أو لجنة مركزية تنفيذية، لرعاية مصالحه الخاصة في مقر الحكومة، ومع ضعف الحكومة المؤقتة، أجبرت هذه اللجان على أن تأخذ بين أيديها سلطات إدارية متوسعة باستمرار.

1- اتحاد الاتحادات: خلال ثورة 1905، أسس البروفيسور مليكوف، مع غيره من الليبراليين، اتحادات لرجال المهن الحرة من أطباء ومحامين وصيادلة وغيرهم. واجتمعت هذه في منظمة مركزية واحدة دعيت اتحاد الاتحادات. وفي عام 1905، عمل اتحاد الاتحادات إلى جانب الديموقراطية الثورية إلاّ أنه وقف ضد الانتفاضة البلشفية عام 1917، ووحَّد جهود الموظفين الحكوميين المضربين ضد سلطة السوفييت.

2- تسايكا: هي «اللجنة المركزية التنفيذية لسوفييت مندوبي العمال والجنود لعموم روسيا». وسميت هكذا نسبة إلى الأحرف الأولى من اسمها.

3- تسنترفلوت: (الأسطول المركزي) هي اللجنة المركزية للأسطول.

منظمات أخرى

الحرس الأحمر: يضم عمال المصانع المسلحين في روسيا. تشكل الحرس الأحمر للمرة الأولى خلال ثورة 1905، وعاد إلى الظهور من جديد في أيام آذار (مارس) عام 1917 عندما برزت الحاجة إلى حفظ الأمن في المدينة. كان العمال مسلحين، حينذاك، وقد فشلت جميع محاولات الحكومة المؤقتة لتجريدهم من السلاح. وفي كل أزمة كبيرة من أزمات الثورة، كان الحرس الأحمر يظهر في الشوارع، بدون تنظيم ولا تدريب كافٍ، ولكنه، مع ذلك، مليء بالاندفاع الثوري.

الحرس الأبيض: ويضم المتطوعين البرجوازيين. برز في آخر مراحل الثورة للدفاع عن الملكية الخاصة ضد البلاشفة الساعين إلى إلغائها. وكان قسم كبير من أعضائه من الطلاب الجامعيين.

تيخنتسي: أو «الفيالق المتوحشة» في الجيش. وتضم رجال القبائل المسلمين من أواسط آسيا الذين يدينون بالولاء الشخصي للجنرال كورنيلوف. وهم مشهورون بطاعتهم العمياء، وبعنفهم الوحشي في الحرب.

فيالق الموت: أو «فيالق الصدام». عرف «فيلق النساء» بالنسبة للعالم باسم «فيلق الموت» ولكن كانت توجد فيالق موت أخرى مكونة من الرجال. تشكلت هذه

الفيالق في صيف عام 1917 بأمر من كرنسكي لتقوية انضباط الجيش واستعداده للقتال بواسطة الأمثولة البطولية. كانت فيالق الموت تتكون في معظمها، من الشباب الوطنيين المندفعين الذين ينتمون إلى الطبقات المالكة.

اتحاد الضباط: وهو منظمة كوّنها الضباط الرجعيون في الجيش للعمل السياسي ضد تزايد نفوذ لجان الجيش.

فرسان القديس جورجيوس: كان صليب القديس جورجيوس يمنح لكل من يقوم بعمل خارق خلال القتال. فيصبح حامله فارسا من فرسان القديس جورجيوس والنفوذ الأقوى داخل المنظمة لمؤيدي الفكرة العسكرية.

اتحاد الفلاحين: كان اتحاد الفلاحين عام 1905 منظمة فلاحية ثورية. على أنه أصبح عام 1917 الممثل السياسي للفلاحين الأوفر يسرا، فحارب «سوفييت مندوبي الفلاحين» المتزايد قوة، وأهدافه الثورية.

التسلسل الزمني

اعتمدت في هذا الكتاب الروزنامة الغربية، عوضا من الروزنامة القديمة المتأخرة ثلاثة عشر يوما عن الأولى.

المصادر

القسم الأكبر من هذا الكتاب مأخوذ من ملاحظاتي الخاصة. ولكني اعتمدت كذلك على ملف هو مزيج من بضع مئات من الصحف الروسية المنوعة، تغطي تقريبا كل يوم من الأيام التي أعالجها، وعلى ملف الصحف الإنجليزية: Russian Daily News (الأخبار اليومية الروسية)؛ وعلى الصحيفتين الفرنسيتين: Journal de Russie, Entente وقد أفادتني أكثر من أي شيء آخر النشرة الصحفية Bulletin de la Presse التي تصدر يوميا عن مكتب الاستعلامات الفرنسي في بتروغراد، والتي تنقل أخبار جميع الخطب والأحداث الهامة مع تعليقات الصحافة الروسية عليها. وبحوزتي ملف كامل تقريبا من هذه النشرة بين ربيع عام 1917 ونهاية كانون الثاني (يناير) 1918.

وقد جمعت إلى جانب كل ذلك، جميع البيانات والقرارات والبلاغات التي علقت على جدران بتروغراد بين منتصف أيلول (شتنبر) 1917، ونهاية كانون الثاني (يناير) 1918. هذا بالإضافة إلى جميع القرارات والأوامر الحكومية، والنصوص الرسمية للمعاهدات السرية التي نشرتها الحكومة، ووثائق أخرى اكتشفت في وزارة الخارجية بعد استيلاء البلاشفة عليها.

====

هوامش

1- حزب يميني يمثل البورجوازية الكبيرة التجارية والصناعية والعقارية يرأسه غوتشكوف. أطلق عليه هذا الاسم بسبب دعمه للبيان الإمبراطوري الصادر في تشرين الأول (أكتوبر) عام 1905 والداعي إلى إنشاء مجلس دوما. (المترجم)

2- تجد الإشارة هنا إلى أن صفة «وطني» تشير خاصة إلى الذين يقدمون «الدفاع عن الوطن»، أي الاستمرار في الحرب ضد ألمانيا، على جميع المشكلات والمطالب الداخلية. (المترجم)

3- ستعتمد في هذه الترجمة كلمة «سوفييت» للإشارة إلى هذا النوع من المنظمات لتمييزها عن المجالس الأخرى. (المترجم)

مساق تاريخي للثورة الروسية

(حسب الروزنامة الروسية القديمة)

1774

ثورة الكوزال والفلاحين بقيادة بوغاتشيف.

1825 كانون الأول (ديسمبر)

انتفاضة كانون الأول (ديسمبر) ضد القيصرية بقيادة الضباط الليبراليين.

1848

كارل ماركس وفريدريك انغلز ينشران «البيان الشيوعي» أساس الاشتراكية الثورية أو الشيوعية.

1861

إصلاحات تمسّ الفلاحين؛ إلغاء الرق في روسيا.

1864

ماركس ورفاقه يؤسسون «الأممية الأولى».

1871

ثورة عامية باريس.

1882

بليخانوف يصدر أول منشور، مدخلا الاشتراكية الماركسية إلى روسيا.

1905

ثورة عام 1905 في روسيا. عمال بتروغراد يشكلون أول منظمة لهم: «سوفييت مندوبي العمال»، في بتروغراد، برئاسة ليون تروتسكي.

9 كانون الثاني (يناير): «يوم الأحد الدموي» تظاهرة عمالية سلمية في بتروغراد بقيادة الأب غابون تتوجه إلى القيصر حاملة عريضة يحدد فيها العمال مشاكلهم ومطالبهم. القيصر يأمر بإطلاق النار على العمال. مئات القتلى.

1914

1 **أغسطس (آب-)**: بداية الحرب العالمية الأولى.

ألمانيا تعلن الحرب على روسيا.

4 **تشرين الثاني (نوفمبر)**: اعتقال النواب البلاشفة في مجلس الدوما، ونفيهم إلى سيبريا.

1915

نيسان (أبريل): صدور الصحيفة الثورية الأممية الروسية في باريس: «ناشي سلوفا» (كلمتنا).

أيلول (شتنبر): مؤتمر اشتراكي أممي في زيمروالد بسويسرا.

1916

أيار (ماي): المؤتمر الثاني للاشتراكيين الأمميين في كيينثال.

1917

9 كانون الثاني (يناير): اجتماع في الشوارع وإضراب عمال الطباعة في ذكرى «يوم الأحد الدموي».

14 شباط (فبراير): اجتماع آخر مجلس الدوما.

23 شباط (فبراير): الاحتفال بيوم المرأة العالمي يطلق شرارات الثورة.

24 شباط (فبراير): إضراب 200 ألف عامل في بتروغراد.

25 شباط (فبراير): إضراب عام في بتروغراد.

26 شباط (فبراير): القيصر يحل مجلس الدوما. النواب يتفرقون، ولكنهم يقررون عدم مغادرة بتروغراد.

عشرات الآلاف من العمال يملأون الشوارع.

27 شباط (فبراير): تمرد فرق الحرس.

تكوين سوفييت مندوبي العمال.

تكوين لجنة الدوما المؤقتة.

28 شباط (فبراير): اعتقال وزراء القيصر.

اجتياح سجن «سلوزلبرغ».

صدور أول عدد من صحيفة «ازفستيا» (الأنباء) لسان حال السوفييت.

1 آذار (مارس): صدور «الأمر رقم 1» إلى الجنود.

تكوين قطاع خاص بالجنود تابع للسوفييت.

أول اجتماع لسوفييت مدينة موسكو.

2 آذار (مارس): القيصر يتنازل عن العرش لصالح الدوق الأكبر ميخائيل. لجنة الدوما المؤقتة تعلن قيام الحكومة المؤقتة التي يدعمها السوفييت، والتي يشغل فيها كرنسكي منصب وزير العدل.

3 **آذار (مارس)**: استقالة الدوق الأكبر ميخائيل.

الحكومة المؤقتة تعلن قيام الثورة إلى العالم بواسطة الراديو.

5 **آذار (مارس)**: صدور صحيفة «برافدا» (الحقيقة)، لسان الحال المركزي لحزب البلاشفة.

6 **آذار (مارس)**: الحكومة المؤقتة تعلن العفو عن المساجين السياسيين.
8 **آذار (مارس)**: اعتقال القيصر في موغيلييف.

14 **آذار (مارس)**: نداء السوفييت «إلى شعوب العالم أجمع» معلنا السلم بدون ضم أو تعويضات.

23 آذار (مارس): جنازة شهداء الثورة.

29 آذار (مارس): مؤتمر مجالس السوفييت لعموم روسيا.

3 نيسان (أبريل): وصول لينين وزينوفييف وبلاشفة آخرين من سويسرا.

4 نيسان (أبريل): لينين يعرض «أطروحات نيسان (أبريل)» التي يحدد فيها سياسة الثورة البروليتارية.

18 نيسان (أبريل): الاحتفال بعيد أول أيار (ماي)، العيد الاشتراكي الدولي.

مليوكوف، وزير الخارجية، يبعث بمذكرة إلى الحلفاء واعدا باستمرار الحرب حتى النصر على أساس الشروط السابقة.

20 نيسان (أبريل): تظاهرات مسلحة احتجاجا على مذكرة مليوكوف - «أيام نيسان (أبريل)».

24 نيسان (أبريل): انعقاد المؤتمر العام للحزب البلشفي.

1 أيار (ماي): سوفييت بتروغراد يصوّت مع إنشاء حكومة ائتلافية.

2 أيار (ماي): استقالة مليوكوف.

4 أيار (ماي): تروتسكي يصل من الولايات المتحدة، ويتبنى سياسة لينين.

افتتاح المؤتمر العام لمندوبي الفلاحين في بتروغراد.

5 أيار (ماي): تشكيل الحكومة الائتلافية. كرنسكي وزير حربية فيها.

17 أيار (ماي): سوفييت كرونستاد يعلن للحزب الاشتراكي الثوري.

25 أيار (ماي): انعقاد المؤتمر العام للحزب الاشتراكي الثوري.

30 أيار (ماي): أول ندوة للجان المتاجر والمصانع في بتروغراد.

3 حزيران (يونيو): أول مؤتمر عام للسوفييت.

16 حزيران (يونيو): كرنسكي يأمر الجيوش الروسية بالهجوم.

18 حزيران (يونيو): البلاشفة يسيطرون بشعاراتهم على مظاهرة دعا إليها المناشفة والاشتراكيون الثوريون.

19 حزيران (يونيو): مظاهرة وطنية في شارع نييفسكي، تحمل صور كرنسكي.

3-5 تموز (يوليو): «أيام تموز (يوليو)»: شبه ثورة تعقبها حملة ضد البلاشفة في بتروغراد.

6 تموز (يوليو): فشل الهجوم الذي دعا إليه كرنسكي عندما حطم الألمان الخطوط الروسية في «ترنابول» على الجبهة الجنوبية.

7 تموز (يوليو): كرنسكي يشكل ويترأس حكومة اشتراكية لإنقاذ الثورة.

12 تموز (يوليو): إعادة عقوبة الإعدام في الجيش.

16 تموز (يوليو): كورنيلوف يحل محل بروزيلوف في منصب القائد الأعلى للجيش.

23 تموز (يوليو): اعتقال تروتسكي ولوناتشارسكي. لينين يختبئ.

24 تموز (يوليو): حكومة ائتلافية جديدة يدخلها «الكاديت»، تحل محل حكومة انقاذ الثورة.

26 تموز (يوليو): المؤتمر السادس للحزب البلشفي. دخول منظمة المناطق (4000 عامل، من قادتها تروتسكي، يوفّا، لوناتشارسكي، انطونوف-أوفسينكو) في الحزب البلشفي. انتخاب اللجنة المركزية التي قادت الحزب في ثورة أكتوبر.

12 أغسطس (آب-): ندوة حكومية في موسكو يجابهها إضراب عام لعمال موسكو. الندوة تحيي كورنيلوف الذي يحدد سرا يوم 27 تموز (يوليو) موعدا لثورته المضادة.

18-21 أغسطس (آب-): الألمان يخترقون الجبهة الشمالية، يحتلون «ريغا» ويهددون بتروغراد.

26 أغسطس (آب-): الحكومة تضاعف سعر الحبوب. الوزراء يستقلون ليجعلوا كرنسكي طليق اليد في الحكم.

27 أغسطس (آب-): يحاول كرنسكي خلع كورنيلوف الذي يتجاهل أوامره ويبدأ زحفه على بتروغراد. تشكيل لجنة تابعة للسوفييت للنضال ضد الثورة المضادة.

27 و29 و30 أغسطس (آب-): فشل مؤامرة كورنيلوف بعدما نسف العمال طريق تقدمه وفر جنوده.

1 أيلول (شتنبر): اعتقال كورنيلوف في مقره العام في «موغيلييف». نجاح اقتراح بلشفي في سوفييت بتروغراد لأول مرة.

4 أيلول (شتنبر): الحكومة المؤقتة تطلق سراح تروتسكي بكفالة.

5 أيلول (شتنبر): نجاح اقتراح بلشفي في سوفييت موسكو.

9 أيلول (شتنبر): البلاشفة يحصلون على أغلبية ثابتة في سوفييت بتروغراد.

مجلس الرئاسة الائتلافي يستقيل.

14 أيلول (شتنبر): افتتاح «الندوة الديموقراطية» في بتروغراد.

21 أيلول (شتنبر): انتهاء جلسات «الندوة الديموقراطية» بعد أن انتخبت «مجلس الجمهورية» أو الهيئة التحضيرية للبرلمان. سوفييت بتروغراد يدعو إلى عقد المؤتمر العام للسوفييت في 20 تشرين الأول (أكتوبر).

24 أيلول (شتنبر): تشكيل آخر حكومة ائتلافية برئاسة كرنسكي.

7 تشرين الأول (أكتوبر): انسحاب البلاشفة من «مجلس الرئاسة».

9 تشرين الأول (أكتوبر): سوفييت بتروغراد يصوّت مع اقتراح بتكوين «لجنة الدفاع الثورية».

10 تشرين الأول (أكتوبر): اللجنة المركزية لحزب البلاشفة تتبنّى اقتراح لينين الداعي إلى الانتفاضة المسلحة كمهمة عاجلة.

13 تشرين الأول (أكتوبر): سوفييت جنود بتروغراد يصوّت مع اقتراح بنقل السلطة العسكرية من القيادة العامة إلى «اللجنة العسكرية الثورية». سوفييت منطقة الشمال يدعم الدعوة إلى عقد المؤتمر العام للسوفييت، ويعلن تأييده لاستلام السوفييت السلطة.

15 تشرين الأول (أكتوبر): سوفييت «كييف» يعلن تأييده لاستلام السوفييت السلطة.

16 تشرين الأول (أكتوبر): المؤتمر المنطقي لسوفييت الجنوبي الغربي في «مينسك» يعلن تأييده لاستلام السوفييت السلطة. اجتماع اللجنة المركزية لحزب البلاشفة يدعم اقتراح لينين حول الثورة مرة أخرى، ضد معارضة زينوفييف وكامينيف.

17 تشرين الأول (أكتوبر): إشاعة بأن البلاشفة يحضرون الانتفاضة. الإشاعة لا تصدق. زينوفييف وكامينيف يهاجمان سياسة اللجنة المركزية البلشفية الثورية في الصحافة. اللجنة المركزية التنفيذية العامة للسوفييت تعلن تأجيل موعد المؤتمر العام للسوفييت من 20 تشرين الأول (أكتوبر) إلى 25 منه.
19 تشرين الأول (أكتوبر): مؤتمر السوفييت المنطقي في «الأورال» يعلن تأييده لاستلام السوفييت السلطة.

20 تشرين الأول (أكتوبر): «لجنة الدفاع الثورية»، المسماة «اللجنة العسكرية الثورية»، تبدأ بالتحضير للثورة.

22 تشرين الأول (أكتوبر): اجتماعات ضخمة في جميع أنحاء بتروغراد لمشاهدة عرض الفرق العسكرية التابعة للسوفييت.

23 تشرين الأول (أكتوبر): «حصن بطرس-بولس»، آخر عقبة عسكرية هامة في بتروغراد، ينضم إلى السوفييت.

24 تشرين الأول (أكتوبر): الحكومة المؤقتة تصدر أوامرها باتخاذ إجراءات قانونية ضد «اللجنة العسكرية الثورية»، ومصادرة الصحف البلشفية، وجلب الفرق العسكرية الموالية إلى العاصمة. إلا أن هذه الأوامر لم تنفذ. كرنسكي يخطب لآخر مرة أمام «المجلس الجمهوري». الاشتراكيون الثوريون اليساريون يعلنون استعدادهم للاشتراك في «اللجنة العسكرية الثورية».

25 تشرين الأول (أكتوبر): الثورة تبدأ في الساعة الثامنة صباحا. الجنود يقفلون «مجلس الجمهورية» في الساعة الثانية عشرة ظهرا. لينين يظهر علنا لأول مرة في اجتماع سوفييت بتروغراد في الساعة الثالثة بعد الظهر. العمليات العسكرية ضد مقر الحكومة المؤقتة في «قصر الشتاء» تبدأ في الساعة التاسعة مساء. المؤتمر العام الثاني للسوفييت يعقد أول اجتماع له في «سمولني» في الساعة الحادية عشرة مساء.

26 تشرين الأول (أكتوبر): سقوط «قصر الشتاء» واعتقال أعضاء الحكومة المؤقتة في الساعة الثانية صباحا.

26 و27 تشرين الأول (أكتوبر): المؤتمر العام للسوفييت يصدر قراراته عن السلم والأرض، ويشكل حكومة جديدة: مجلس مفوضي الشعب.

الفصل الأول

خـــلـــفـيـــــــة

في أواخر شهر أيلول (سبتمبر) عام 1917، جاءني مدرّس أجنبي في علم الاجتماع كان يزور روسيا. وكان قد أخبره بعض رجال الأعمال والمثقفين أن الثورة في جزر. فكتب الأستاذ مقاله عن الموضوع، ثم راح يتجول في البلاد، زائرا المدن الصناعية والمجمعات الفلاحية حيث أدهشه أن يلاحظ أن الثورة في تقدم مضطرد. فقد ألِف المرء أن يسمع، في أوساط المأجورين والعمال الزراعيين، حديثا عن «كل الأراضي للفلاحين، وكل المصانع للعمال». ولو أن الأستاذ زار الجبهة، لسمع الجيش بأسره يتحدث عن السلم.

ووقع الأستاذ في حيرة، مع أنه لا يوجد مبرر لهذه الحيرة، فكلا الملاحظتين على صواب. الطبقة المالكة تزداد محافظة، وجماهير الشعب تزداد جذرية في موقفها.

كان ثمة شعور في أوساط رجال الأعمال والانتلجنسيا عامة بأن الثورة قد تعدت حدودها، وبأنها قد طالت أكثر مما كان مقدرا لها، وبأن الوقت قد حان لتعود الأمور إلى مجراها الطبيعي. وتشاركهم في ذلك الشعور جميع الفئات الاشتراكية «المعتدلة» المسيطرة، «المدافعون»(1) من مناشفة واشتراكيين ثوريين، التي تدعم حكومة كرنسكي المؤقتة.

في 14 تشرين الأول (أكتوبر)، كتبت الصحيفة الناطقة بلسان الاشتراكيين «المعتدلين»:

«أن مسرحية الثورة ذات فصلين: هدم النظام القديم وبناء النظام الجديد. لقد طال الفصل الأول. وحان وقت الانتقال إلى الفصل الثاني وإنهائه بأسرع وقت ممكن. فقد قال أحد الثوريين الكبار: «فلنسرع، أيها الأصدقاء، بإتمام الثورة. لأن الذي يجعلها تطول كثيرا لن يجني ثمارها».

غير أن الشعور العنيد الذي كان يسود أوساط الجماهير العمالية والفلاحية هو أن «الفصل الأول» لم ينته بعد. فغالبا ما كانت «لجان الجيش» في الجبهة تسجل الشكاوي بحق الضباط الذين لم يعتادوا معاملة رجالهم كبشر؛ وفي المؤخرة كان مندوبو «لجان الأرض»، الذين انتخبهم الفلاحون، يزجُّون في السجون لأنهم يحاولون تنفيذ تشريعات الحكومة بشأن الأرض، وكان العمال في المصانع يحاربون اللوائح السوداء وإغلاق المصانع (2). ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، فالمنفيون السياسيون الذين عادوا إلى بلادهم طردوا منها بحجة أنهم مواطنون «غير مرغوب فيهم» وحصل في بعض الحالات أن سُجن وعُذب العائدون من الخارج إلى قراهم على نشاط ثوري قاموا به عام 1905.

إزاء التذمر الشعبي المتعدد الجوانب، كان الاشتراكيون «المعتدلون» يقدمون حلا واحدا: انتظروا «الجمعية التأسيسية» التي ستنعقد في كانون الأول (ديسمبر). على أن الجماهير لم تكتف بذلك. الجمعية التأسيسية على الرأس والعين. ولكن ثمة أشياء محددة قامت الثورة من أجلها، ولها أودع الشهداء الثوريون في «مقبرة الأخوة» المقفرة في «حقل مارس»، ويجب تحقيقها أوُجدت الجمعية التأسيسية أم لم توجد: السلم، الأرض، سيطرة العمال على الصناعة. لقد تأجلت الجمعية التأسيسية المرة تلو الأخرى، وربما تأجلت مجددا إلى حين يهدأ الشعب –وربما حتى يعدّل مطالبه! وعلى كل حال، ها قد انقضت ثمانية أشهر على الثورة وليس إلاّ النزر اليسير ليشير إلى أنها قامت أصلا.

خلال تلك المدة، بدأ الجنود يحلّون مسألة السلم بالفرار من الجيش، بكل بساطة، وأحرق الفلاحون قصور الإقطاعيين وصادروا الملكيات الكبيرة، وأضرب العمال وقاموا بعمليات تخريب... وكما كان متوقعا وطبيعيا، استعمل الصناعيون وملاك الأرض وضباط الجيش كل ما لديهم من نفوذ لكي يحولوا دون أية تسوية ديموقراطية...

سياسة الحكومة المؤقتة تتراوح بين إصلاحات غير مجدية وبين إجراءات القمع الصارمة. فقد صدر قرار عن وزير العمل الاشتراكي يحرم فيه على «لجان العمال» الاجتماع إلاّ بعد ساعات العمل. وفي الجبهة، بين الجنود، شُنت حملة اعتقالات على دعاة أحزاب المعارضة، وأُغلقت الصحف الراديكالية، ونفذت أحكام الإعدام بحق الدعاة الثوريين. وجرت محاولات لتجريد «الحرس الأحمر» من السلاح. وأرسلت فرق القوزاق للمحافظة على الأمن في المقاطعات.

ولقد دعم الاشتراكيون «المعتدلون» وقادتهم من المتربعين على كراسي الوزارة هذه الإجراءات لاعتقادهم بضرورة التعاون مع الطبقات المالكة. فتخلى الشعب عنهم بسرعة وانضم إلى البلاشفة الذين ينادون بالسلم، والأرض وسيطرة العمال في المصانع، وبحكم الطبقة العاملة. وفي شهر أيلول (سبتمبر) عام 1917، تأزمت الأمور. كان كرنسكي والاشتراكيون «المعتدلون» قد نجحوا في تشكيل حكومة ائتلافية مع الطبقات المالكة، متحدّين بذلك الرأي العام في البلاد، فخسر المناشفة والاشتراكيون الثوريون بذلك ثقة الشعب إلى الأبد.

وفي منتصف شهر تشرين الأول (أكتوبر)، نشرت صحيفة «رابوتشي بوت» (طريق العمال[*]) مقالة بعنوان «الوزراء الاشتراكيون»، تعبر عن شعور جماهير الشعب تجاه الاشتراكيين «المعتدلين».

«فيما يلي لائحة بخدماتهم (3):

تسيريتللي: جرّد العمال من أسلحتهم بالتعاون مع الجنرال بولوفتسيف، واضطهد الجنود الثوريين، وأقر عقوبة الإعدام في الجيش.

سكوبيليف: بدأ بمحاولة فرض ضريبة بنسبة 100% على أرباح الرأسماليين، وانتهى بمحاولة حل «لجان العمال» في المصانع والمتاجر.

أفاكسانتييف: سجن مئات الفلاحين من أعضاء «لجان الأرض» وأغلق عشرات الصحف الناطقة باسم الجنود والعمال.

تشيرنوف: وقع على البيان «الإمبراطوري» القاضي بحل «مجلس الدايت الفنلندي».

سافينكوف: عقد تحالفا علنيا مع الجنرال كورنيلوف. إذا كان «منقذ الوطن» هذا قد فشل في تسليم بتروغراد، فذلك يعود إلى أسباب خارجة عن إرادته.

زارودني: سجن أفضل عمال وجنود وفلاحي الثورة، حائزا بذلك على بركة الكزينسكي وكرنسكي.

نيكيتين: تصرف كشرطي مبتذل مع عمال سكك الحديد.

كرنسكي: الأفضل أن لا نقول عنه شيئا، إن لائحة خدماته طويلة جدا...»

وفي مؤتمر مندوبي أسطول البلطيق المنعقد في «هلسينغفورس»، أقرت التوصية التي تبدأ كما يلي:

«إننا نطالب بعزل المغامر السياسي «الاشتراكي» كرنسكي من الحكومة المؤقتة فورا لأنه يمتهن كرامة الثورة العظيمة ويخربها، ومعها الجماهير الثورية، بعملية الابتزاز السياسي الصلفة التي يقوم بها لحساب البرجوازية...».

وكان صعود البلاشفة النتيجة المباشرة لجميع هذه الأحداث.

منذ آذار (مارس) 1917، عندما تدفقت السيول الهادرة من العمال والجنود نحو «قصر التوريد» وأجبرت «مجلس الدوما الإمبراطوري» المتردد على استلام السلطة العليا في روسيا، أصبحت جماهير الشعب من عمال وجنود وفلاحين هي التي تقرر كل خطوة من خطوات مسيرة الثورة. فأسقطت هذه الجماهير وزارة مليوكوف؛ وكان سوفييت مندوبيها هو الذي أذاع على العالم شروط روسيا لتحقيق السلم: «لا دمج، لا تعويض، حق تقرير المصير لجميع الشعوب»، وهكذا فإن الانتفاضة العفوية التي قامت بها البروليتاريا غير المنظمة، في تموز (يوليو)، هي التي اجتاحت مجددا «قصر التوريد» مطالبة بتسليم الحكم في روسيا إلى السوفييت.

كان البلاشفة على رأس هذه الحركة، وهم في ذلك الحين منظمة صغيرة. ونتيجة للفشل الذريع الذي منيت به هذه الانتفاضة، ثار الرأي العام عليهم، وتراجعت قواهم، التي فقدت قادتها، إلى «حي فيبورغ» المقابل في بتروغراد لحي سان أنطوان الباريسي [**]. وعقب ذلك حملة وحشية ضد البلاشفة سجن فيها المئات، وبينهم تروتسكي، ومدام كولونتاي، وكامنييف، واختبأ لينين وزينوفييف هربا من وجه العدالة، وألغيت صحفهم. وأشاع المخربون والرجعيون أن البلاشفة عملاء لألمانيا حتى صدّقهم الناس في جميع أنحاء العالم.

إلاّ أن الحكومة المؤقتة وجدت نفسها عاجزة عن إثبات تهمها، وتبين أن الوثائق التي تثبت وجود المؤامرة الألمانية مزورة، فأطلق سراح البلاشفة الواحد تلو الآخر، بدون محاكمة، بواسطة كفالة اسمية وحتى بدونها أحيانا، ولم يبقَ منهم داخل السجن إلاّ ستة. وكان عقم الحكومة المؤقتة المتقلبة وترددها أمرا لا يستطيع أحد إنكاره. فعاد البلاشفة إلى رفع شعار عزيز جدا على قلوب الجماهير: «كل السلطات للسوفييت». ولم يكونوا بذلك يسعون إلى الحكم لأنفسهم لأن غالبية منظمات السوفييت كانت آنذاك بيد الاشتراكيين «المعتدلين» -أعدائهم الألداء.

ومما يؤكد خصب رؤياهم، أكثر من ذلك، أنهم تبنوا الرغبات الأولية والبسيطة للجنود والعمال والفلاحين، وبنوا على أساسها برنامجهم المرحلي. وهكذا، في حين كان «المدافعون» من مناشفة واشتراكيين ثوريين منشغلين بمساومة البرجوازية، كان البلاشفة يسيطرون بسرعة على الجماهير الروسية. كانوا مطاردين ومكرهين في تموز (يوليو)، ولكن ما أن حل شهر أيلول (سبتمبر) حتى كانوا قد كسبوا تأييد عمال المدن، وبحارة أسطول البلطيق، والجنود إلى قضيتهم. وللانتخابات التي جرت في أيلول (سبتمبر)، في المدن الكبيرة، دلالة عميقة، فقد بلغت نسبة نجاح المناشفة والاشتراكيين الثوريين فيها 18% مقابل 70% في انتخابات يونيو(4).

ظاهرة حيرت المراقبين الأجانب: «اللجنة المركزية التنفيذية للسوفييت» (التسايكا) و«اللجنة المركزية للجيش وللأسطول»، واللجان المركزية لبعض النقابات وخاصة عمال البرق والبريد وعمال سكك الحديد قد عارضت جميعها البلاشفة بعنف شديد. والواقع أنه تم انتخاب هذه اللجان المركزية في أواسط الصيف، أو قبل ذلك الوقت، عندما كان المناشفة والاشتراكيون الثوريون يتمتعون بشعبية ضخمة، فأخذوا يؤجلون الانتخابات الجديدة أو يمنعونها. بمقتضى دستور

«سوفييت مندوبي العمال والجنود»، كان يجب دعوة «المؤتمر العام» إلى الانعقاد في أيلول (سبتمبر)، إلاّ أن «التسايكا» امتنعت عن دعوته بحجة أن الجمعية التأسيسية ستنعقد بعد شهرين فقط، وألمحت إلى أن السوفييت ستحل نفسها آنذاك. وفي ذلك الحين، كان البلاشفة يفوزون في السوفييت المحلية، الواحدة تلو الآخر، من أقصى البلاد إلى أقصاها، وفي فروع النقابات، وبين الجنود والبحارة. وظلت «سوفييت الفلاحين» ذات اتجاه محافظ، لأن الوعي السياسي كان ينمو ببطء في المناطق الريفية الكسولة، وكان الحزب الاشتراكي الثوري ما زال نافذا، هذا الحزب الذي ظل يحرك الفلاحين طوال جيل بأكمله... إلاّ أن جناحا ثوريا بدأ بالظهور بين أوساط الفلاحين. وقد حدث ذلك في تشرين الأول (أكتوبر) عندما انشق الجناح اليساري من الاشتراكيين الثوريين، وشكل تنظيما سياسيا جديدا يسمى «الحزب الاشتراكي اليساري».

وفي عين الوقت، ظهرت في كل مكان، إشارات تؤكد أن قوى الرجعية آخذة باسترداد ثقتها بنفسها (5). ففي «مسرح ترويتسكي الهزلي» في بتروغراد، مثلا، أوقفت مجموعة من الملكيين ملهاة تدعى «خطايا القيصر» وهددت بشنق الممثلين لأنهم «أهانوا الإمبراطور». وبدأت بعض الصحف تتحسّر على «نابليون الروسي». وكان من المألوف في أوساط الانتلجنسيا البرجوازية تسمية سوفييت مندوبي العمال بسوفييت مندوبي الكلاب.

في 15 تشرين الأول (أكتوبر)، أجريت مقابلة مع رأسمالي روسي كبير، ستيفان جيورجيفيتش ليازانوف، الملقب «روكفلر روسيا»، والذي ينتمي سياسيا إلى حزب الكاديت.

فقال لي: «الثورة مرض. ولا بد للقوى الأجنبية من أن تتدخل هنا، عاجلا أم آجلا، كما يتدخل الطبيب لمداواة طفل مريض وتعليمه المشي. سيكون الأمر غير لائق طبعا، ولكن على الشعوب أن تعي خطر البلشفة في بلادها، المتمثل بأفكار سارية مثل «دكتاتورية البروليتاريا»، و«الثورة الاجتماعية العالمية». آمل بأن لا يكون هذا التدخل ضروريا. فالنقل مشلول، والمصانع مقفلة، والألمان يتقدمون، ولعل الجوع والهزيمة يعيدان الشعب الروسي إلى صوابه».

وقد أصر السيد ليازانوف على رأيه بأن من المستحيل، مهما تكن الأحوال، أن يسمح التجار والصناعيون بوجود «لجان العمال في المتاجر»، أو بأن يساهم العمال بإدارة القطاع الصناعي.

«أمّا بالنسبة للبلاشفة، فسوف يتم القضاء عليهم بإحدى طريقتين. فإما أن تخلي الحكومة بتروغراد وتعلن حالة حصار، فيصبح بامكان الحاكم العسكري في المقاطعة أن يتدبر أمر هؤلاء السادة بمعزل عن الشكليات القانونية؛ وإمّا أن يتم تفريق الجمعية التأسيسية بقوة السلاح مثلا، إذا تبين أنها تحمل اتجاهات طوباوية»...

الشتاء الروسي الرهيب يقترب. وقد سمعت رجال الأعمال يتكلمون عنه بهذا الشكل: «لقد كان الشتاء أوفى صديق لروسيا. ولعله سيخلصنا الآن من الثورة». الجيوش البائسة تجوع وتموت بدون حماس، ودرجة الحرارة تهبط تحت الصفر. سكك الحديد تتوقف، والغذاء يقلّ، والمصانع تقفل. فصاحت الجماهير البائسة أن البرجوازية تخرِّب حياة الشعب جالبة الهزيمة على الجبهة. وتم تسليم «ريغا» بعد أن صرح الجنرال كورنيلوف علنا: «هل يجب أن تذهب «ريغا» ثمن إعادة الوطن إلى الشعور بالواجب؟».

قد لا يصدق الأمريكيون أن الحرب الطبقية قد تصل إلى هذا الحد. ولكني قابلت، شخصيا، ضابطا على الجبهة الشمالية يفضلون صراحة الكارثة العسكرية على

التعاون مع لجان الجنود. وقال لي أمين سر فرع حزب الكاديت في بتروغراد أن انهيار الحياة الاقتصادية في البلد هو جزء من حملة غايتها التجريح بالثورة. وقد أكد هذا القول ديبلوماسي تابع لإحدى دول الحلفاء، وعدت ألاّ أنشر اسمه، اعتمادا على معلوماته الخاصة. وسمعت عن بعض مناجم الفحم في «خاركوف» أحرقها أصحابها وأغرقوها، وعن مصانع للنسيج في موسكو عطّل المهندسون آلاتها وتركوها، وعن موظفين في سكك الحديد قبض عليهم العمال وهم يعطلون القاطرات...

وكان قسم كبير من الطبقات الحاكمة يفضل الألمان على الثورة –حتى على الحكومة المؤقتة- ولم يكن يتردد في الإفصاح عن رأيه هذا. ففي النزل الروسي الذي كنت أسكن، كان موضوع الحديث الدائم على مائدة الطعام هو مجيء الألمان حاملين «الأمن والنظام» ... وذات أمسية قضيتها في منزل تاجر روسي سُئل أحد عشر شخصا، خلال العشاء، من الذي يفضلون «وليم» - القيصر الألماني- أم البلاشفة. وكانت نتيجة التصويت عشرة أصوات لصالح وليم مقابل صوت واحد ضده.

واستغل المضاربون الفوضى العامة ليكدسوا الثروات التي أنفقوها على الحفلات الصاخبة أو على رشوة موظفي الحكومة. وخزنت المواد الغذائية والمحروقات أو جرى إرسالها خارج البلد إلى السويد. ففي الأشهر الأربعة الأولى من الثورة، مثلا، نُهب المخزون من المواد الغذائية في مستودعات البلدية في بتروغراد، بشكل شبه علني، بحيث لم يبق من مؤونة سنتين من الحبوب ما يكفي لإعاشة المدينة شهرا واحدا... ويقول تقرير رسمي رفعه آخر وزير للتموين في الحكومة المؤقتة أن القهوة التي كانت تشترى بالجملة من «فلاديفوستوك» على أساس روبلين لليرة الواحدة، كانت تباع للمستهلك في بتروغراد بثلاثة عشر روبلا. جميع مخازن المدن الكبرى تعج بأطنان الغذاء والألبسة، ولكن الأغنياء هم وحدهم الذين يستطيعون شراءها.

في بلدة ريفية، عرفت عائلة من التجار تحولت إلى المضاربة، أو إلى قطاع طرق على حد تعبير الروس. الأبناء الثلاثة تخلصوا من الخدمة العسكرية بواسطة الرشوة. أحدهم يهرِّب المواد الغذائية. والآخر يتاجر بالذهب، في السوق السوداء، من مناجم «لينا» إلى جهات مجهولة في فنلندا. بينما يملك الثالث أكبر حصة في معمل «للشوكولا» ويموِّن الجمعيات التعاونية المحلية، على شرط أن تمده هذه بدورها بكل ما يحتاجه... وهكذا، في حين لم يكن يحق لجماهير الشعب أكثر من ربع ليرة من الخبز الأسود، حسب بطاقات تموين الخبز، كان هو يملك فيضا من الخبز الأبيض، والسكر، والشاي، والسكاكر، والحلوى والزبدة...، ومع ذلك، فعندما لم يعد الجنود يستطيعون الاستمرار في القتال على الجبهة بسبب البرد والجوع والإرهاق، كانت العائلة تصيح مستنكرة: «يا للجبناء!» -وكم كانوا يخجلون لأنهم روس... وفي النهاية عندما وجد البلاشفة مخازن تحوي إمدادات مخبأة، وصادروها، قالوا: «إنهم لصوص».

تحت هذا التعفن الخارجي كله، كانت تتحرك القوى السوداء العائدة إلى عهد مضى، والتي لم تتغير منذ سقوط نقولا الثاني، وتعمل سرا وبنشاط عظيم. عملاء «الاواخرانا[***]» الشهيرة ما زالوا نشيطين، يعملون لصالح الذي يدفع، أكان مع القيصر أو ضده، مع كرنسكي أو ضده... وتحت جنح الظلام، كانت المنظمات السرية المختلفة، كمنظمة «المئات السوداء[****]»، منشغلة في محاولة إعادة الرجعية بشكل أو بآخر.

وفي هذا الجو الخانق من الفساد والأكاذيب الكبرى، يصدح صوت واحد هو صوت البلاشفة الذي يزداد ارتفاعا يوما بعد يوم: «كل السلطات للسوفييت! الحكم لممثلي الملايين من العمال والجنود والفلاحين العاديين. الأرض والخبز ونهاية

الحرب التي لا معنى لها ونهاية الدبلوماسية السرية والمضاربة والخيانة... الثورة في خطر ومعها قضية الشعب في جميع أنحاء العالم»!

الصراع القائم بين البروليتاريا والبرجوازية، وبين السوفييت والحكومة، الذي بدأ في أول أيام شهر آذار (مارس)، يبلغ ذروته. فبقفزها دفعة واحدة من القرون الوسطى إلى القرن العشرين، كانت روسيا تكشف للعالم المشدوه نظامين من أنظمة الثورة –النظام السياسي والنظام الاجتماعي- في صراع مميت بينهما.

ويا له من تعبير عن حيوية الثورة الروسية، بعد كل هذه الأشهر من الجوع وخيبة الأمل. كان على البرجوازية أن تعرف روسيا معرفة أفضل. سوف يمر زمن طويل قبل أن يأخذ «مرض» الثورة مجراه...

وإذا ما ألقينا نظرة على روسيا ما قبل ثورة تشرين الثاني (نوفمبر)، بدت لنا محافظة إلى درجة لا تصدق وكأنها في عصر آخر. لقد كيَّفنا أنفسنا بسرعة مع الحياة الجديدة السريعة، والسياسة تنحاز إلى اليسار بحيث أصبح الكاديت منبوذين «كأعداء للشعب»، وكرنسكي «معاديا للثورة»، والقادة الاشتراكيون أمثال تسيريتللي ودان وغوتز وأفاكسنتييف مغرقين في الرجعية بالنسبة لأتباعهم، وأصبح أمثال فكتور تشيرنوف وحتى مكسيم غوركي محسوبين على الجناح اليميني.

في أواسط كانون الأول (ديسمبر) 1917، قامت مجموعة من قادة «الاشتراكيين الثوريين» بزيارة خاصة للسفير الإنكليزي، السير جورج بوكانان، وتوسلت إليه ألاّ يذكر أمر الزيارة لأنهم –أي القادة الاشتراكيون- معتبرون «يمينيين متطرفين».

فقال السير جورج: «تصوروا. منذ سنة، كانت حكومتي تطلب مني ألاّ أستقبل مليكوف [*****] لأنه يساري خطر جدا»!

أيلول (سبتمبر) وتشرين الأول (أكتوبر) هما أسوأ شهرين في السنة الروسية، وخاصة في بتروغراد. في النهارات التي تزداد قصرا يتساقط المطر مرنخا بلا انقطاع تحت السماء الرمادية الباهتة. الوحل عميق تحت الأقدام، دبق ولزج، عليه آثار أحدية ثقيلة؛ وكان أسوأ من العادة بسبب الانهيار التام الذي أصاب الإدارة البلدية. الرياح الرطبة القارسة تهب من خليج فنلندا، والضباب البارد يتجول في الشوارع. أنوار الشوارع قليلة ومتباعدة، في المساء، للاقتصاد وخوفا من مناطيد «الزبلين»؛ وفي بنيات السكن والمنازل الخاصة، كانت الكهرباء تشعل من السادسة مساءا حتى منتصف الليل، والشموع تباع بأربعين سنتا للشمعة الواحدة والمحروقات نادرة. والظلام يخيم من الثالثة بعد الظهر حتى العاشرة صباحا. وقد أزدادت السرقات وعمليات السطو على البيوت. فراح سكان البنايات من الرجال يتناوبون على الحراسة طوال الليل متنكبين البنادق المجهزة. وكان ذلك في ظل الحكومة المؤقتة.

وازداد الخبز ندرة أسبوعا بعد أسبوع. وهبطت الإعاشة اليومية للخبز من ليبرة ونصف إلى ليبرة واحدة ثم إلى ثلاثة أرباع الليبرة، ثم إلى نصف فربع ليبرة. وفي النهاية، مر أسبوع بأكمله دون خبز. وكان يحق للشخص الواحد ما يقارب الليبرتين من السكر شهريا، هذا عندما يكون السكر متوفرا ونادرا ما كان. وكان ثمن لوح الشوكولاته، أو ثمن ليبرة من الحلوى بدون طعم، في أي مكان، ما بين سبعة أو عشرة روبلات، وعلى الأقل دولارا واحدا. الحليب يكفي نصف أطفال المدينة فقط، ومعظم الفنادق والمنازل لم تستلم الحليب منذ أشهر. وفي موسم الفاكهة، كان التفاح والإجاص يباع بحوالي الروبل للقطعة الواحدة عند زاوية الشارع.

ولكي يحصل المرء على الخبز والسكر والتبغ، كان عليه أن يقف في الصف ساعات طوال تحت المطر المنهمر. وفي طريق عودتي إلى البيت من اجتماع دام طوال الليل، كنت أرى صفا بدأ يتكون قبل الفجر من النساء خاصة، يحمل بعضهن أطفال. لقد وصف «كارلايل» في كتابه «الثورة الفرنسية» الشعب الفرنسي بأنه يتميز عن سائر الشعوب بمقدرته على الوقوف في الصف. أما روسيا فقد اعتادت ابتداء من عهد «نقولا المبارك» عام 1915، واستمرت فيها دون انقطاع حتى صيف عام 1917، عندما أصبحت جزءا من المجرى الطبيعي للأمور. تصوروا هؤلاء الأناس المساكين الواقفين في شوارع بتروغراد المكسوة بالثلج أياما بأكملها في الشتاء الروسي! لقد أنصتّ إلى صفوف الخبز، وسمعت نبرة التذمر المريرة الغاضبة التي كانت تنفجر، من وقت لآخر، وسط الجمع الروسي ذي الطيبة العجائبية.

كانت المسارح، طبعا، تعمل كل ليلة بما فيها ليالي الآحاد. وظهرت كارسافينا في باليه جديدة في مسرح مارنيسكي، وذهب جميع محبي الرقص في روسيا لمشاهدتها. شالابين يغني. وفي مسرح «الكسندريتسكي» كانوا يحيون إخراج ميير هولد لمسرحية تولستوي «موت إيفان الرهيب». وأذكر أني لاحظت في تلك المسرحية طالبا من «مدرسة الحاشية الإمبراطورية» يقف بين الفصول، مرتديا بزته الرسمية، قبالة المقصورة الإمبراطورية الخالية وقد نزعت عنها الشارات ذات النسور. وفي «كريغويي زيركالا» عرض فخم لمسرحية شنيتزلر: «ريجين».

ورغم أن معرض «الهيرميتاج» وغيره، ومعارض الرسم قد نقلت إلى موسكو، كان ثمة معارض أسبوعية للرسم. جموع المثقفات من النساء تتدفق لحضور المحاضرات عن الفن والآداب والفلسفة. وكان الموسم يتميز بنشاط بارز قام به فلاسفة اللاهوت، في حين ملأ «جيش الإنقاذ»، الذي سُمح به في روسيا لأول مرة، الجدران بالإعلانات عن اجتماعات إنجيلية كانت تُضحِك المستمعين الروس وتدهشهم.

طوال تلك المدة، كانت نوافل الحياة اليومية في المدينة تسير بمجراها الطبيعي، متجاهلة الثورة بقدر الإمكان. الشعراء ينظمون الأشعار ولكن ليس عن الثورة. والرسامون الواقعيون يرسمون مناضر من تاريخ روسيا في القرون الوسطى، يرسمون كل شيء ما عدا الثورة. الأوانس ينزلن العاصمة من الريف لتعلم اللغة الفرنسية ولتحسين أصواتهن؛ والضباط الشباب الوسيمون المرحون، يعتمرون البرانس الحمراء الموشّاة باللون الذهبي ويضعون سيوفهم القوقازية المرصّعة، ويتجمعون في باحات الفنادق. أمّا السيدات اللواتي ينتمين إلى القطاع الأدنى من البيروقراطية، فكن يتناولن الشاي معا بعد الظهر، تحمل كل واحدة منهن علبة السكر الصغيرة خاصتها، المصنوعة من الذهب أو الفضة أو المرصعة بالأحجار الكريمة، ونصف رغيف من الخبز، ويتمنين عودة القيصر أو مجيء الألمان، أو أي كان ليحل لهن مشكلة الخدم. وأذكر أن ابنة أحد أصدقائي عادت ذات بعد ظهر إلى البيت بحالة هستيرية، لأن قاطعة التذاكر في السيارة العمومية نادتها «يا رفيقة»!

وحول هؤلاء جميعا كانت روسيا تعاني آلام المخاض، حبلى بعالم جديد. بدأ الخدم ينالون استقلالهم، وقد كانوا في السابق يعاملون كالبهائم ويتقاضون أجور جد ضئيلة: كان ثمن الحذاء يزيد عن مائة روبل. ولما كانت الأجور لا تتعدى خمسة وثلاثين روبلا في الشهر، امتنع الخدم عن الوقوف في الصف حتى لا تهترئ أحذيتهم. بل أكثر من ذلك: في روسيا الجديدة، نال كل رجل وامرأة حق الانتخاب، وصدرت صحف الطبقة العاملة تتكلم عن أشياء جديدة مذهلة؛ وتأسست منظمات السوفييت، وتكونت الإتحادات. وكوّن سائقو السيارات العمومية اتحادا لهم، وكانوا

ممثلين في سوفييت بتروغراد. وكان مستخدمو المقاهي والفنادق منظمين، ويرفضون «البقشيش» وقد علقوا على جدران المطاعم إعلانات تقول: «لا يقبل البقشيش هنا» أو «لمجرد أن الإنسان مضطر أن يخدم على الطاولة ليحصل على لقمة العيش، فهذا ليس مبررا لإهانته بإعطائه البقشيش»!

وفي الجبهة، كان الجنود يخوضون المعارك ضد ضباطهم، وقد تعلموا التسيير الذاتي من خلال لجانهم. وفي المصانع، كانت «لجان المصانع والمتاجر» تلك المنظمات الروسية الفريدة من نوعها، تكتسب الخبرة وتزداد قوة وتعي رسالتها التاريخية، من خلال النضال ضد العهد القديم. كل روسيا تتعلم القراءة، وتقرأ في السياسة والاقتصاد والتاريخ، لأن الشعب كان متعطشا للمعرفة. وفي كل مدينة، وعلى طول الجبهة، كان لكل جناح سياسي صحيفة أو عدة صحف أحيانا. آلاف المنظمات توزع مئات الآلاف من المنشورات، وتغرق بها الجيوش والقرى والمصانع والشوارع. إن التعطش إلى العلم، وقد كان مكبوتا مدة طويلة، انفجر مع الثورة، معبرا عن نفسه بشكل محموم. خلال الأشهر الستة الأولى، كانت تخرج كل يوم من «مؤسسة سمولني» وحدها أطنان الورق تحملها السيارات والقاطرات إلى مختلف أنحاء البلاد. كانت روسيا تمتص مواد القراءة مثلما تمتص الرمال الحارة الماء، دون أن ترتوي. ولم تكن هذه أساطير، أو تاريخا مشوّها، أو كتابات دينية مخففة، أو قصصا رخيصة مفسدة، بل نظرات اجتماعية واقتصادية، وفلسفية، وأعمال لتولستوي وغوغول وغوركي.

أما سيل الكلام، فكان «طوفان البلاغة الفرنسية» على حد تعبير كارلايل –يبدو إلى جانبه مجرد جدول صغير. محاضرات، مناظرات، خطب في المسارح والسيرك والمدارس والنوادي وغرف السوفييت ومقرات الاتحادات والثكنات... واجتماعات في خنادق الجبهة، وفي ساحات القرى، والمصانع... ويا له من مشهد رائع أن يرى المرء عمال مصنع «بوتيلوف» الأربعين ألفا يتدفقون للاستماع إلى أي شيء يقوله الاشتراكيون-الديموقراطيون، أو الاشتراكيون الثوريون، أو الفوضويون، أو إلى أي كان، ما دام ثمة من يتكلم! خلال أشهر، تحولت كل زاوية شارع في بتروغراد وفي مختلف أنحاء روسيا إلى منبر عام. وفي القطار أو السيارات العمومية، كان النقاش يبدأ بشكل عفوي دائما وفي كل مكان...

وانعقدت المؤتمرات، والمؤتمرات العامة، مقربة بين أبناء القارتين: اجتماعات للسوفييت، والتعاونيات، والزيميستوفا، والقوميات، ورجال الدين، والفلاحين والأحزاب السياسية؛ والندوة الديموقراطية، وندوة موسكو، ومجلس الجمهورية الروسية. كان يوجد باستمرار ثلاثة أو أربعة اجتماعات منعقدة في بتروغراد. وفي كل اجتماع، تفشل محاولات تحديد وقت للمتكلمين، ويتمتع كل شخص بكامل الحرية في التعبير عن آرائه...

نزلنا إلى جبهة الجيش الثاني عشر، وراء «ريغا»، حيث الرجال الأشداء الحفاة الذين أمرضهم وحل الخنادق ويأسها؛ وعندما رأونا توجهوا إلينا بوجوههم المنكمشة والجلد المزرقّ البادي من خلال ثيابهم الممزقة، يسألون بلهفة: «معكم أي شيء للقراءة»؟

ورغم أن المظاهر الخارجية المرئية للتغيُّر كانت عديدة: تمثال «كاترين العظيمة» قبالة «مسرح الكسندرينسكي» يحمل علما صغيرا أحمر في يده، في حين ترفرف أعلام أخرى، بهت لونها بعض الشيء، على جميع البنايات العامة؛ والشعارات والنسور الإمبراطورية قد انتزعت أو غطيت؛ وراحت دوريات المليشيا المكونة من المواطنين المؤدبين غير المسلّحين تجوب الشوارع عوضا عن شرطة المدينة المتوحشة، رغم هذا كله ظل المرء يشاهد عددا كبيرا من المفارقات الأليفة.

مثلا، كانت «لائحة الرتب»، التي فرضها بطرس الأكبر على روسيا بيد من حديد، ما تزال موضع تنفيذ. فالجميع تقريبا، ابتداء من تلميذ المدرسة يرتدي الزي المعيّن له مع إشارة الإمبراطور على الزر أو على الكتف. وحوالي الساعة الخامسة بعد الظهر، كانت الشوارع ملأى بالكهول المرهقين الذين يرتدون الزي الرسمي ويحملون الحقائب وهم في طريقهم من الوزارات أو المؤسسات الحكومية الضخمة الشبيهة بالثكنات إلى منازلهم، يحسبون عدد الذين يجب أن يموتوا من رؤسائهم لكي تتم ترقيتهم إلى منصب مفتش ضرائب أو مستشار خاص، ويحلمون بالإحالة إلى التقاعد وبتعويض مريح، وربما بنيل «صليب القديسة حنة».

ويحكى عن سوكولوف، عضو مجلس الشيوخ، الذي جاء ذات يوم من أيام الثورة العصيبة إلى اجتماع مجلس الشيوخ مرتديا ثيابه المدنية العادية، فمنع من الدخول لأنه لا يرتدي الزي المعين له بوصفه أحد الذين يعملون في خدمة القيصر!

أمام هذه الخلفية لأمة بكاملها في حالة غليان وتفكك، حدثت انتفاضة الجماهير الروسية...

==========

[*] لسان حال البلاشفة.
[**]منظمة البروليتاريا الصناعية في باريس ومعقل ثورتها في عامي 1848 و1871.
[***]منظمة الشرطة السرية القيصرية.
[****]الاسم الذي يطلق على «اتحاد الشعب الروسي». وهي منظمة من العناصر الرجعية المتطرفة من ملكيين وقوميين تستعمل وسائل الإرهاب الإجرامي ضد الثوريين.
[*****]مليوكوف أحد قادة الكاديت – حزب البرجوازية.

==========

هوامش الفصل الاول

1- **المدافعون**

جميع المجموعات الاشتراكية «المعتدلة» تبنّت، أو أطلقت عليها، هذا الاسم، لأنها وافقت على استمرار الحرب بقيادة الحلفاء، على أساس أنها حرب دفاع وطني. وكان البلاشفة، والاشتراكيون الثوريون اليساريون، والمناشفة الأمميون (جناح مارتوف)، والاشتراكيون-الديموقراطيون الأمميون (جماعة غوركي) يؤيدون إجبار الحلفاء على إعلان أهداف ديموقراطية للحرب، وعرض الصلح على ألمانيا على هذا الأساس.

2- الأجور وأكلاف المعيشة قبل الثورة وبعدها

الجداول التالية عن الأجور والأكلاف جمعتها، في تشرين الأول (أكتوبر) 1917، لجنة مشتركة من غرفة التجارة في موسكو وفرع موسكو في وزارة العمل، ونشرت في «الحياة الجديدة» (نوفاياجيزن) في 25 تشرين الأول (أكتوبر) 1917.

الأجور اليومية (روبل وكوبيك)

الصنعة	تموز (يوليو) 1914	تموز (يوليو) 1916	آب (أغسطس-) 1917
نجّار	2-1.60	6-4	8.50
فاعل	1.50-1.30	3.50-3	-
معلم عمار	2.35-1.70	6-4	8
دهّان، منجد	2.20-1.80	5.50-3	8
حداد	2.25-1	5-4	8.50
منظف مداخن	2-1.50	5.50-4	7.50
مصلح أقفال	2-0.90	6-3.50	9

مساعد	1.50-1	4.50-2.50	8

بالرغم من الروايات العديدة عن الزيادات الضخمة في الأجور التي عقبت ثورة آذار (مارس) 1917 مباشرة، فإن هذه الأرقام التي نشرتها وزارة العمل على أنها تلخص الظروف في جميع أنحاء روسيا، تبين أن الأجور لم ترتفع رأسا بعد الثورة وإنما تدريجيا. وكان معدل زيادة الأجور يزيد قليلا عن 500% .

ولكن قيمة الروبل هبطت في الوقت ذاته إلى أقل من ثلث قوته الشرائية السابقة، وازدادت تكاليف ضروريات الحياة بشكل ضخم.

الجدول التالي أعده مجلس موسكو البلدي، حيث الغذاء أرخص وأكثر وفرة من بتروغراد:

سعر المواد الغذائية (روبل وكوبيك)

	آب (أغسطس-) 1914	آب (أغسطس-) 1917	نسبة الزيادة المئوية
خبز أسود	0.025	0.12	%330
خبز أبيض	0.05	0.20	%300
لحم بقر	0.22	1.10	%400
لحم عجل	0.26	2.15	%727
لحم خنزير	0.23	2	%770
سمك	0.06	1.52	%767
جبنة	0.40	3.50	%754
زبدة	0.48	3.20	%557
بيض	0.30	1.60	%443
حليب	0.07	0.40	%471

وقد ارتفع سعر المواد الغذائية بمعدل 566%، أو 51% أكثر من الأجور.

أمّا بالنسبة للحاجيات الضرورية، فإن سعرها ارتفع بطريقة مذهلة.

أعدّ الجدول التالي القصم الاقتصادي التابع لسوفييت مندوبي العمال في موسكو، ووافقت على صحته وزارة التموين في الحكومة المؤقتة.

سعر الحاجيات الضرورية الأخرى (روبل وكوبيك)

	آب (أغسطس-)1914	آب (أغسطس-)1917	نسبة الزيادة المئوية
خام	0.11	1.40	%1173
نسيج قطني	0.15	2	%1233
نسيج للثياب	2	40	%1900
قماش كاستور	6	80	%1233
أحذية رجالية	12	144	%1097
نعل جلد	20	400	%1900
نعل كاوتشوك	2.50	15	%500
ثياب رجالية	40	455-400	%1109-900
شاي	4.50	18	%300
عود كبريت (العلبة)	0.10	0.50	%400
صابون	4.50	40	%780
كاز	1.70	11	%547
شمع	8.50	100	%1076
حلويات	0.30	4.50	%1400

حطب	10	120	%1100
فحم	1.08	13	%1525
أوعية حديدية متفرقة	1	20	%1900

وقد ارتفعت أسعار مجموعات الحاجيات الضرورية المذكورة أعلاه بمعدل 1109%، أي ضعف زيادة الأجور. وقد ذهب الفرق، طبعا، إلى جيوب المضاربين والتجار.

في تشرين الأول (أكتوبر) عام 1917، عندما وصلت إلى بتروغراد، كان معدل الأجر اليومي لعامل صناعي ماهر –مثلا عامل صلب في مصانع بوتيلوف- يبلغ حوالي 8 روبلات. وفي الوقت ذاته، كانت الأرباح هائلة... وقال لي أحد أصحاب الشركات الإنكليزية «مصنع ثورنتون للأصواف» في ضواحي بتروغراد أنه بينما ازدادت الأجور بحوالي 300% في مصنعه، ارتفعت أرباحه إلى 900%.

3– الوزراء الاشتراكيون

إن تاريخ جهود الاشتراكيين في حكومة تموز () المؤقتة لتحقيق برنامجهم بالتحالف مع الوزراء البرجوازيين، هو مثال مفيد عن الصراع الطبقي في السياسة. يقول لينين في تفسيره لهذه الظاهرة:

«إن الرأسماليين... وقد وجدوا أن مركز الحكومة موشك على الانهيار، لجئوا إلى أسلوب استعمله الرأسماليون منذ 1848 لعدة عقود من الزمن، لكي يضللوا ويقسموا الطبقة العاملة وبالتالي ينتصروا عليها. هذا الأسلوب هو ما يسمى «الوزارات الائتلافية» التي تضم البرجوازيين والمرتدين من المعسكر الاشتراكي.

في تلك البلدان حيث تتعايش الحرية السياسية والديموقراطية مع حركة العمال الثورية –في إنكلترا وفرنسا مثلا- استعمل الرأسماليون هذه الخديعة، وقد نجحوا فيها نجاحا ملحوظا. إن القادة «الاشتراكيين» عند دخولهم الوزارات، يكشفون في جميع الحالات، عن كونهم مجرد واجهات مجرد دمى، بل مجرد درع الرأسماليين، وأدوات لخداع العمال. إن الرأسماليين «الديموقراطيين» و«الجمهوريين» في روسيا حركوا هذا النهج نفسه. وقد وقع الاشتراكيون الثوريون والمناشفة ضحية له. وفي 1 حزيران يونيو، تشكلت وزارة «ائتلافية» اشترك فيها تشيرنوف، وتسيريتللي، وسكوبيليف، وأفاكسانتييف، وسافينكوف، وزارودني، ونكيين...»

(لينين، «قضايا الثورة»)

4– انتخابات أيلول (سبتمبر) البلدية في موسكو

في أول أسبوع من تشرين الأول (أكتوبر) 1917، نشرت صحيفة «الحياة الجديدة» الجدول الذي يحوي مقارنة لنتائج الانتخابات، مبيِّنة أن هذا يعني إفلاس سياسة التحالف مع الطبقات المالكة: «إذا كان ما يزال بالامكان تفادي الحرب الأهلية، فهذا يمكن أن يتم فقط بواسطة جبهة موحدة تضم جميع القوى الديموقراطية الثورية...»

انتخابات مجالس الأحياء والمجلس المركزي في موسكو

	حزيران (يونيو) 1917	أيلول (سبتمبر) 1917
الاشتراكيون الثوريون	58 عضوا	14 عضوا
الكاديت	17 عضوا	30 عضوا
المناشفة	12 عضوا	4 أعضاء
البلاشفة	11 عضوا	47 عضوا

5 – تزايد صلافة الرجعيين:

18 أيلول (سبتمبر). يقول شولغين، عضو حزب الكاديت، في مقالة له في إحدى صحف «كييف» أن تصريح الحكومة المؤقتة بأن روسيا جمهورية، يشكل تجاوزا كبيرا لصلاحياتها: «إننا لن نسمح بجمهورية ولا بالحكومة الجمهورية الحالية... ولسنا أكيدين من أننا نريد جمهورية في روسيا».

23 تشرين الأول (أكتوبر): في اجتماع لحزب الكاديت عُقد في «ريازان»، صرح السيد دوكنيين: «يجب أن ننشئ ملكية دستورية في أول آذار (مارس). لا يجب أن نرفض الوريث الشرعي للعرش، ميخائيل الكسندروفيتش...»

27 تشرين الأول (أكتوبر): القرار الذي صدر عن «ندوة رجال الأعمال» في موسكو:

«ان الندوة ... تصر على أن تتخذ الحكومة المؤقتة الإجراءات الحالية في الجيش:

1- حظر جميع أنواع الدعاية السياسية لأنه يجب أن يظل الجيش بمعزل عن السياسة.

2- إن الدعاية المضادة للقومية والأفكار والنظريات الأممية تنكر ضرورة الجيوش وتسيء إلى الانضباط، لذا يجب منعها ومعاقبة جميع دعاتها...

3- يجب حصر وظيفة لجان الجيش بالقضايا الاقتصادية فقط. ويجب أن تنال جميع قراراتها موافقة الضباط الرؤساء الذين يمتنعون بحق حل هذه اللجان في أي وقت...

4- يجب إعادة التحية وجهلها إجبارية. كما يجب إعادة السلطة التأديبية كاملة على الضباط مع حق الاستئناف...

5- يُطرد من سلك الضباط الذين يسيئون إليه باشتراكهم في حركة جماهير الجنود التي تعلمهم عصيان الأوامر... يجب إعادة تكوين «محاكم الشرف» لهذه الغاية...

6- يجب على الحكومة المؤقتة أن تتخذ الإجراءات اللازمة لتمكين الجنرالات والضباط الآخرين، الذين سرِّحوا ظلما تحت تأثير اللجان أو المنظمات غير المسؤولة الأخرى، من العودة إلى الجيش...»

الفصل الثاني

العاصفة المقتربة

في أيلول (سبتمبر)، هجم الجنرال كورنيلوف على بتروغراد لينصب نفسه دكتاتورا عسكريا على روسيا. وفجأة، لاحت وراءه قبضة البرجوازية، مزرّدة، تحاول سحق الثورة بصلافة. وكان لبعض الوزراء الاشتراكيين علاقة بالمؤامرة. وحتى كرنسكي نفسه كان موضع شبهة (1). وعندما دعي سافينكوف للمثول أمام اللجنة المركزية لحزبه –الاشتراكيون الثوريون- رفض، ففصل. وألقت لجان الجنود القبض على كورنيلوف وجرت عملية تسريح للجنرالات وتجريد الوزراء من مناصبهم، وسقطت الحكومة.

وحاول كرنسكي تشكيل وزارة جديدة تضم الكاديت، حزب البرجوازية فأمره حزبه –الاشتراكيون الثوريون- بطرد الكاديت. فلم يذعن، وهدد بالاستقالة من الحكومة إذا ما أصر الاشتراكيون. ومهما يكن من أمر، فالشعور الشعبي كان مضطرما بحيث لم يتجرأ كرنسكي على معارضته في ذلك الوقت، فأعطيت السلطة إلى مديرية مكونة من خمسة وزراء سابقين برئاسة كرنسكي إلى حين يتم البت نهائيا بالأمر.

لقد وجدت مؤامرة كورنيلوف صفوف جميع المجموعات الاشتراكية -«معتدلين» وثوريين على حد سواء- في غريزة دفاع عن النفس قوية. كان يجب الحيلولة دون مجيء كورنيلوف آخر. ويجب تكوين حكومة جديدة مسؤولة أمام العناصر التي تؤيد الثورة. ولهذا السبب، وجهت «التسايكا» دعوة إلى المنظمات الشعبية لإرسال مندوبين عنها إلى «الندوة الديموقراطية» التي تقرر عقدها في بتروغراد في شهر أيلول (سبتمبر).

وبرزت حالا ثلاثة أجنحة داخل «التسايكا». طالب البلاشفة بانعقاد «المؤتمر العام للسوفييت». وانضم الجناح «الوسطي» من الاشتراكيين الثوريين بقيادة تشيرنوف إلى الاشتراكيين الثوريين اليساريين بقيادة كامكوف وسبيريدونوفا، وإلى المناشفة الأمميين الذين يمثلهم بوغدانوف وسكوبيليف في المطالبة بتشكيل حكومة اشتراكية صرفة. أمّا تسيريتللي ودان وليبر، قادة الجناح اليميني من المناشفة والاشتراكيون الثوريون اليمينيون، بقيادة أفاكسانتييف وغوتز، فقد أصروا على اشتراك الطبقات المالكة في الحكومة الجديدة.

وبسرعة حاز البلاشفة على الأكثرية في سوفييت بتروغراد، وسرعان ما لحقت به مجالس السوفييت في موسكو وكييف وأوديسا والمدن الأخرى.

واكتشف الاشتراكيون الثوريون، الذين يسيطرون على «التسايكا»، بذعر، إنهم أصبحوا يخافون خطر كورنيلوف أقل مما يخافون خطر لينين. فعدّلوا خطة التمثيل في «الندوة الديموقراطية»(2)، مدخلين إليها عددا أكبر من مندوبي الجمعيات التعاونية والهيئات المحافظة الأخرى. وحتى هذا الاجتماع المزوَّر صوّت في بادئ الأمر، إلى جانب حكومة ائتلافية بدون الكاديت. ولكن تهديد كرنسكي العلني بالاستقالة وصيحات الذعر التي أطلقها الاشتراكيون «المعتدلون» أن «الجمهورية في خطر» هي وحدها التي أقنعت الندوة بأن تعلن، بأغلبية ضئيلة، تأييدها لمبدأ التحالف مع البرجوازية، وأن توافق على إنشاء نوع من البرلمان الاستشاري، لا يتمتع بأية سلطة تشريعية، دعي «المجلس المؤقت للجمهورية الروسية». وقد سيطرت الطبقات المالكة عمليا على الوزارات الجديدة، واحتلت في مجلس الجمهورية الروسية عددا من المقاعد أكثر مما يحق لها.

والواقع أن «التسايكا» لم تعد تمثل قاعدة السوفييت، وكانت قد رفضت، بطريقة غير شرعية، أن تدعو إلى عقد مؤتمر عام جديد للسوفييت، الذي كان مفروضا أن ينعقد في أيلول (سبتمبر). فلم يكن في نيتها دعوة المؤتمر أو السماح بدعوته للانعقاد. وبدأ لسان حالها الرسمي، «إزفستيا» (الأنباء)، بالتلميح إلى أن وظيفة السوفييت قد قاربت نهايتها(3)، وأنه ربما جرى حلها قريبا. وفي ذلك الحين، أعلنت الحكومة كذلك عزمها على تصفية «المؤسسات غير المسؤولة» -أي مجالس السوفييت.

فردّ البلاشفة بدعوة «المؤتمر العام للسوفييت» إلى الانعقاد في بتروغراد في 2 تشرين الثاني (نوفمبر) واستلام الحكم في روسيا. وانسحبوا في عين الوقت من مجلس الجمهورية الروسية، معلنين رفضهم الاشتراك في «حكومة خيانة الشعب»(4)

إلا أن انسحاب البلاشفة لم يجلب الأمان للمجلس السيء الطالع. فقد أصبحت الطبقات المالكة متعجرفة، بعد أن أضحى أعضاؤها في مراكز السلطة. فأعلن الكاديت أنه لا يحق للحكومة، شرعيا، أن تعلن الجمهورية في روسيا. وطالبوا باتخاذ إجراءات حازمة في الجيش والبحرية لتحطيم لجان الجنود والبحارة، وهاجموا السوفييت. وفي الطرف الثاني من القاعة، كان المناشفة الأمميون والاشتراكيون الثوريون اليساريون يطالبون بالسلم فورا وبالأرض للفلاحين، وبسيطرة العمال على المصانع –أي البرنامج البلشفي تقريبا.

سمعت خطاب مارتوف ردا على الكاديت. كان هذا الرجل المشرف على الموت منحنيا فوق المنبر، يتكلم بصوت أبحّ لا يكاد يُسمع، ويهز بإصبعه مشيرا إلى مقاعد اليمين:

«تنعتوننا بالانهزامية. إن الانهزاميين الحقيقيين هم الذين ينتظرون فرصة أفضل ليعقدا الصلح، ويصرّون على تأجيل السلم إلى وقت لاحق حتى لا يتبقى شيء من الجيش الروسي، وحتى تصبح روسيا موضع مساومة الأطراف الاستعمارية المختلفة... إنكم تحاولون فرض سياسة تمليها مصالح البرجوازية على الشعب الروسي. يجب إثارة موضوع السلم بدون تأخير... وسوف ترون أن نشاط جماعة «زيمروالد» الذين تتهمونهم بأنهم عملاء لألمانيا لم يكن عبثا، فهؤلاء هم الذين مهّدوا ليقظة الوعي عند الجماهير الديموقراطية في كل البلاد».

كان المناشفة والاشتراكيون الثوريون يتأرجحون بين هاتين المجموعتين، يجذبهم إلى اليسار ضغط لا يقاوم هو تذمر الجماهير المتزايد. وكان العداء المستشري يفصل القاعة إلى جماعات لا يمكن أن تتعايش فيما بيتها.

هكذا كان الوضع عندما أعلن عن عقد ندوة الحلفاء في باريس، وكانت موضع انتظار منذ مدة، فأثارت مسألة السياسة الخارجية بإلحاح.

نظريا، كانت جميع الأحزاب السياسية في روسيا تؤيد سلما عاجلا قدر الإمكان وفق شروط ديموقراطية. منذ أيار (مايو) 1917، أعلن سوفييت بتروغراد، الذي كان تحت سيطرة المناشفة والاشتراكيين الثوريين آنذاك شروط السلم الروسية الشهيرة، مطالبا الحلفاء بعقد ندوة لمناقشة أهداف الحرب. وكان المفروض أن تعقد الندوة في آب (أغسطس-)، ثم تأجلت إلى أيلول (سبتمبر)، فإلى تشرين الأول (أكتوبر) حتى حدد موعد انعقادها في 10 تشرين الثاني (نوفمبر).

اقترحت الحكومة المؤقتة أن يمثلها: الجنرال الكسييف، وهو عسكري رجعي، وتيريشنكو، وزير الخارجية، واختارت السوفييت سكوبيليف متكلما باسمها وأصدرت بيانها الشهير: «التعليمات» (ناكاز-5-). وقد اعترضت الحكومة

المؤقتة على سكوبيليف وعلى «التعليمات» وحذا حذوها سفراء الحلفاء، وأخيرا أعلن بونارلو ببرودة ردا على سؤال وجَّه إليه في مجلس العموم البريطاني: «لن تناقش ندوة باريس، على حد علمي، أهداف الحرب مطلقا، وإنما ستناقش أساليب خوض الحرب فحسب»...

وقد شعرت الصحافة الروسية الرجعية بنشوة النصر لهذا القول، بينما صاح البلاشفة: «انظروا إلى أين جرّت أساليب المساومة المناشفة والاشتراكيين الثوريين»!

على طول ألف ميل من خط الجبهة، هاج كالبحر ملايين الرجال في الجيوش الروسية لافظين إلى العاصمة الآلاف ثم الآلاف من الوفود التي تصيح: «السلم! السلم!».

ذهبت إلى «السيرك العصري» على ضفة النهر الأخرى، إلى أحد الاجتماعات الشعبية الكبيرة التي تعقد في جميع أنحاء المدينة، والتي تتزايد ليلة بعد ليلة. كان المدّرج العاري المظلم، الذي تضيئه خمسة أنوار صغيرة تتدلى من سلك رفيع، مكتظا من الحلبة صعودا إلى سقفه نفسه، وعلى المنحدر السريع من المقاعد الوسخة كان يجلس الجنود والبحارة والعمال والنساء جميعهم منصتون فكأن حياتهم متعلقة بما يقال. جندي يتكلم عن الفرقة رقم 548، وليس مهما أن نعلم ما هي وأين هي. فصاح والقلق الحقيقي يبدو على وجهه المستطيل وحركاته اليائسة:

«يا رفاق. الناس فوق يطلبون منا دائما أن نضحي أكثر وأكثر في حين نجد أن لا أحد يمس الذين يملكون كل شيء.

نحن في حالة حرب مع ألمانيا. هل ندعو الضباط الألمان ليخدموا في قيادة الأركان عندنا؟ حسنا. نحن في حالة حرب مع الرأسماليين كذلك، ومع ذلك فنحن ندعوهم للاشتراك في حكومتنا...

الجندي يقول: أرني ما الذي أقاتل من أجله. أمن أجل القسطنطينية أم من أجل تحرير روسيا؟ أمن أجل الديموقراطية أم من أجل الرأسماليين اللصوص؟ إذا استطعتم أن تقنعوني بأني أدافع عن الثورة، فإني سأخرج وأقاتل دون حاجة إلى عقوبة الإعدام الإجباري على ذلك.

عندما تصبح الأرض للفلاحين، والمصانع للعمال، والسلطة للسوفييت، إذ ذاك نعرف من أجل ماذا نقاتل، وسوف نقاتل من أجله».

في الثكنات والمصانع وعند زوايا الشوارع متحدثون من الجنود لا حصر لهم، وجميعهم يضج مطالبا بإنهاء الحرب، معلنا أنه إذا لم تبذل الحكومة جهدا حيويا لتحقيق السلم، فإن الجيش سوف يغادر الخنادق ويعود الجنود كل إلى بيته.

قال متحدث باسم الجيش الثامن:

«نحن ضعفاء، لم يبق منا إلاّ بضع رجال في كل سرية. يجب أن يعطونا غذاء وأحذية وإمدادات، وإلاّ لن يبقى إلاّ الخنادق الخاوية. إمّا السلم وإمّا الإمدادات... أمّا أن تنهي الحكومة الحرب وإمّا أن تساعد الجيش»...

وقال متحدث باسم المدفعية رقم 46 في سيبريا:

«الضباط يرفضون التعاون مع لجاننا، إنهم يخونوننا للعدو، ويطبقون بحق دعاتنا عقوبة الإعدام، والحكومة المضادة للثورة تدعمهم. كنا نظن أن الثورة ستحقق

السلم. أمّا الآن، فإن الحكومة تذهب إلى حد منعنا من التحدث عن مثل هذه الأمور، وتضن علينا، في الوقت ذاته، بالغذاء الكافي للبقاء على قيد الحياة، وبالذخيرة الكافية للاستمرار في القتال»...

ووردت في أوروبا شائعات عن تحقيق السلم على حساب روسيا (6). كذلك وردت أخبار عن سوء معاملة الجنود الروس في فرنسا فزادت من حدة التذمر الموجود. فقد حاولت الكتيبة الأولى أن تستبدل ضباطها بلجان الجنود، مثلما فعلت زميلاتها في روسيا، ورفضت أمرا بالتوجه إلى «سالونيكا»، مطالبة بالعودة إلى روسيا. فجرى تطويقها وتجويعها، ثم أطلقت نار المدفعية عليها، فقتل العديد من جنودها...

في 29 تشرين الأول (أكتوبر)، ذهبت إلى الباحة الحمراء ذات الرخام الأبيض في قصر «مارينسكي» حيث يجتمع مجلس الجمهورية، لأستمع إلى بيان تيريشنكو عن سياسة الحكومة الخارجية، الذي كان هذا البلد المنهك المتعطش للسلم ينتظره بفارغ الصبر.

شاب طويل أنيق الملبس، ذو وجه حليق وعظام خد عالية، يقرأ بسلاسة خطابه الحذر الغامض. لاشيء... العبارات الفارغة نفسها عن سحق العسكرية الألمانية بمساعدة الحلفاء، كلام عن «مصالح الدولة الروسية» وعن «الإحراج» الذي أحدثته «تعليقات» سكوبيليف خاتما بيانه بهذه الجملة الرئيسية:

«إن روسيا قوة كبرى. وسوف تبقى روسيا قوة كبرى مهما حصل. يجب أن ندافع عنها. يجب أن نثبت أننا حماة مثال عظيم. وأننا أبناء قوة كبرى».

لم يكن أحد راضيا. الرجعيون يطالبون بسياسة استعمارية «قوية»، والأحزاب الديموقراطية تريد تأكيدا بأن الحكومة ستصر على تحقيق السلم... فيما يلي افتتاحية صحيفة «رابوتشيه إي سولدات» (العامل والجندي) لسان حال سوفييت بتروغراد التي يسيطر عليه البلاشفة :

جواب الحكومة إلى الخنادق

إن السيد تريشنكو، أكثر وزرائنا صمتا، قال للخنادق فعليا ما يلي:

1-إننا متحدون مع حلفائنا (مع حكوماتهم وليس مع شعوبهم).

2-لا حاجة للقوى الديموقراطية أن تناقش إمكان أو استحالة شن حملة شتوية. هذا ما ستقرره حكومات حلفائنا.

3-إن هجوم الأول من تموز (يوليو) كان ضروريا وقد نجح نجاحا تاما. (لم يذكر شيئا عن النتائج).

4-ليس صحيحا أن حلفائنا لا يهتمون بنا. في حوزة الوزير بلاغات جد هامة حول الموضوع (بلاغات؟ ماذا عن الأعمال؟ ماذا عن تصرف الأسطول البريطاني؟ ماذا عن اجتماع ملك إنكلترا بالجنرال المنفي «غوركو» المعادي للثورة؟ لم يذكر الوزير أيا من هذه الأمور).

5-إن «تعليمات» سكوبيليف سيئة وهي لم ترق للحلفاء، ولا للديبلوماسيين الروس. يجب أن نتكلم جميعا «لغة واحدة» في ندوة الحلفاء.

أهذا كل ما في الأمر؟ نعم. وما المخرج؟ الحل هو الإيمان بالحلفاء وبتريشنكو. ومتى يتحقق السلم؟ عندما يسمح الحلفاء.

هذا كان جواب الحكومة للخنادق حول السلم!»

الآن بدا يظهر في مؤخرة السياسة الروسية الغامضة قوة رهيبة! القوزاق. إن صحيفة غوركي «الحياة الجديدة» لفتت الأنظار إلى نشاطهم:

«عند بداية الثورة، رفض القوزاق أن يطلقوا الرصاص على الشعب: وعندما هاجم كورنيلوف على بتروغراد، رفضوا السير معه. لقد انتقل القوزاق من الولاء المستكين إلى الهجوم السياسي المتحرك ضدها. وتقدموا فجأة من مؤخرة الثورة إلى مقدمة المسرح...».

كانت الحكومة المؤقتة قد سرّحت خالدين -«أتامان» القوزاق في منطقة «الدون» - لاشتراكه في مؤامرة كورنيلوف. فرفض الاستقالة بكل وقاحة، وأحاط نفسه بثلاثة جيوش ضخمة من القوزاق، وتمركز في «نوفوتشير كاسك» يتآمر ويتوعد. وكانت قوته من الضخامة بحيث أجبرت الحكومة عن غض النظر عن عصيانه. بل أكثر من ذلك، فقد اضطر إلى الاعتراف رسميا بمجلس «اتحاد جيوش القوزاق»، وإعلان لا شرعية «قطاع القوزاق التابع للسوفييت» الذي تشكل حديثا...

وفي أوائل شهر تشرين الأول (أكتوبر)، جاء وفد من القوزاق إلى كرنسكي، مصرا، بغطرسة، على إلغاء جميع الاتهامات الموجهة ضد خالدين، لائما رئيس الوزراء على انصياعه لإدارة السوفييت. فوافق كرنسكي على أن يترك خالدين وشأنه، ويروى أنه قال: «أنا مستبد طاغية في نظر قادة السوفييت، أمّا بالنسبة للحكومة المؤقتة، فإنها لا تعتمد على السوفييت، وهي تعتقد أنه من المؤسف أن تكون السوفييت موجودة أصلا».

في عين الوقت، قام وفد آخر من القوزاق بزيارة السفير البريطاني، وواجهه بصراحة بصفته ممثل «شعب القوزاق المستقل».

وأنشئت في منطقة «الدون» ما يشبه جمهورية للقوزاق. وأعلنت منطقة «كوبك» نفسها دولة قوزاق مستقلة. وقام القوزاق المسلحون بتفريق اجتماع سوفييت «روستوف-على-الدون» و«بيكاته ييرغ»؛ وهوجم المقر العام لاتحاد عمال مناجم الفحم في «خاركوف». كانت حركة القوزاق، بجميع أوجهها،عسكرية ومعادية للاشتراكية. وكان قادتها من النبلاء وملاك الأرض الكبار أمثال خالدين وكورنيلوف والجنرالات دوتوف، وكارولوف، ومانديجي الذين يحظون بتأييد التجار الكبار وأصحاب المصارف في موسكو...

كانت روسيا القديمة تتفكك بسرعة. وأخذت الحركات القومية في أوكرانيا وفنلندا وبولونيا وروسيا البيضاء تستجمع قواها وتزداد إقداما. وطالبت الحكومات المحلية، التي تسيطر عليها الطبقات المالكة، بالحكم الذاتي رافضة الانصياع لأوامر بتروغراد. وفي «هلسينغفورس»، رفض مجلس الشيوخ الفنلندي إعطاء قرض للحكومة المؤقتة، وأعلن الحكم الذاتي في فنلندا، وطالب بانسحاب القوات الروسية. وفي «كييف»، وسع مجلس «الرادا» البرجوازي حدود أوكرانيا حتى شملت كل الأراضي الزراعية الخصبة في جنوب روسيا إلى جبال «الأورال» شرقا؛ وبدأ بتكوين جيش وطني. وألمح رئيس الوزراء فينيشنكو بصلح منفرد مع الألمان؛ ووقفت الحكومة المؤقتة عاجزة حيال كل ذلك. وطالبت سيبريا والقوقاز بجمعيات تأسيسية منفصلة. وفي جميع أنحاء البلاد، شب صراع مرير بين السلطات وبين السوفييت المحلية لمندوبي العمال والجنود...

الأوضاع تزداد اضطرابا يوما بعد يوم. مئات آلاف الجنود تهجر الجبهة وتتحرك في موجات كبيرة تهيم على وجهها فوق سطح الأرض. فلاحو حكومات «تامبوف» و«تفير» يحرقون الاهراءات ويقتلون مالكي الأرض، بعد أن ملوا انتظار توزيع الأراضي عليهم، ويئسوا من إجراءات القمع التي تمارسها الحكومة ضدهم. إضرابات ضخمة وإقفال مصانع تهز موسكو وأوروبا ومناجم الفحم في الدون. المواصلات مشلولة، والجيش جائع، والمدن الكبيرة تفتقر إلى الخبز.

حيال كل ذلك، كانت الحكومة عاجزة عن القيام بأي شيء، إذ كانت تؤيد دوما مصالح الطبقات المالكة. فترسل فرق القوزاق لتوطيد الأمن بين الفلاحين ولقمع الإضرابات: في طشقند، حلّت السلطات الحكومية السوفييت؛ وفي بتروغراد، انتهى «المجلس الاقتصادي»، الذي أنشئ لإعادة بناء هيئات البلد الاقتصادية المنهارة، إلى طريق مسدود بين قوى رأس المال وقوى العمل المتناقضة، فحله كرنسكي. عسكريو العهد البائد، يدعمهم الكاديت، يطالبون باتخاذ إجراءات قاسية لإعادة الانضباط إلى الجيش والبحرية. وعبثا أصر الأميرال فيرورفسكي، وزير البحرية الوقور، والجنرال فيرخوفسكي، وزير الحربية، على أن الطريقة الوحيدة لإنقاذ الجيش والبحرية تكمن في قيام انضباط ديموقراطي طوعي جديد، يقوم على التعاون بين لجان الجنود والبحارة، فأهملت توصيتهما.

بدا الرجعيون مصممين على إثارة نقمة الشعب. وكان موعد محاكمة كورنيلوف قد اقترب. فأخذت الصحافة البرجوازية تدافع عنه بصراحة أكثر فأكثر، متحدثة عنه بصفته «الوطني الروسي العظيم». ودعت صحيفة «بورتزيف» (القضية المشتركة) إلى قيام دكتاتورية بقيادة كورنيلوف وخالدين وكرنسكي.

تكلمت مع بورتزيف ذات يوم في قاعة الصحفيين في مجلس الجمهورية. كان صغير الجسم، منحنيا، له وجه مجعد وعينان ضعيفتا النظر وراء نظارتين سميكتين، وشعر أشعث ولحية مخططة بالشعر الأبيض.

«تذكّر كلامي يا شاب! إن ما تحتاجه روسيا هو رجل قوي. يجب أن نقلع عن التفكير بالثورة الآن، ونركز فكرنا على الألمان. قام الرعاع ليهزموا كورنيلوف ووراء هؤلاء الرعاع يستتر عملاء الألمان. كان يجب أن ينتصر كورنيلوف...».

وعند أقصى اليمين، لم تعد صحف المالكين بحاجة إلى التستر. فأخذت «منبر الشعب» لبوريشيفيتش، و«روسيا الجديدة» و«الكلمة الحية» تدعو علنا إلى إبادة الديموقراطية الثورية!

وعمّت الفرحة أجواء الصحافة البرجوازية. فكتبت «الكلام»، صحيفة حزب الكاديت: «في موسكو، تستطيع الحكومة متابعة أعمالها في جو هادئ بعيدا عن إزعاج الفوضويين».

وأعلن «رودزيانكو»، قائد الجناح اليميني في حزب الكاديت في صحيفة «صباح روسيا» أن استيلاء الألمان على روسيا أمر مستحسن، لأنه يؤدي إلى تحطيم السوفييت، وإلى التخلص من أسطول البلطيق الثوري:

«بتروغراد في خطر. أقول لنفسي: «ليحمِ الله بتروغراد». إنهم يخافون أن تتحطم المنظمات الثورية المركزية إذا سقطت بتروغراد. وأنا أجيبهم على ذلك: أني أبتهل إذا تحطمت جميع هذه المنظمات لأنها لا تجلب إلاّ الدمار لروسيا»...

ومع الاستيلاء على بتروغراد، سيتحطم كذلك أسطول البلطيق... ولكن لا شيء يؤسف عليه، فإن معظم بوارجه محطمة المعنويات تماما»...

وفي وجه عاصفة من المعارضة الشعبية، رُفضت خطة الإخلاء.

في ذلك الحين، كان مؤتمر السوفييت يحوم حول روسيا كغيمة رعد تخترقها البرق. لم تكن تعارضه الحكومة فحسب، ولكن جميع الاشتراكيين المعتدلين أيضا. إن اللجنة المركزية للجيش، واللجنة المركزية للأسطول، وبعض اللجان المركزية للنقابات، وسوفييت الفلاحين، وبشكل خاص «التسايكا» نفسها بذلت جميع الجهود لتحول دون انعقاد المؤتمر. فهاجمت بعنف «الأخبار» (إزفستيا) و«صوت الجندي» (غولوس سوالداتا)، الصحيفتان اللتان أنشأهما سوفييت بتروغراد، واللتان استولت عليهما «التسايكا»؛ وحذت حذوهما كل مدفعية صحافة الحزب الاشتراكي الثوري: «قضية الشعب» و«إرادة الشعب».

أرسل المندوبون إلى جميع أنحاء البلاد، كما أرسلت البرقيات إلى اللجان المسؤولة عن السوفييت المحلية، وإلى لجان الجيش مع تعليمات بوقف انتخابات المؤتمر أو تأخيرها. واتخذت قرارات عامة صارمة ضد المؤتمر، وصدرت بلاغات تقول أن القوى الديموقراطية تعارض اجتماعا قريبا ذلك القرب من موعد انعقاد «الجمعية التأسيسية»؛ واحتجّ مندوبو الجبهة، واتحاد الزيمستوفا، واتحاد الفلاحين، واتحاد جيوش القوزاق، واتحاد الضباط، وفرسان القديس جورج، وفيالق الموت... وأعلن «مجلس الجمهورية الروسية» معارضته. وأخذ الجهاز الذي أنشأته ثورة آذار (مارس) يعمل بكامله لعرقلة مؤتمر السوفييت...

وفي جهة ثانية، كانت إرادة البروليتاريا الهلامية، عمالا وجنودا وفلاحين فقراء. وكان العديد من منظمات السوفييت المحلية قد انضم إلى البلاشفة، وحذت حذوها منظمات عمال الصناعة -«لجان المصنع والمتجر»- ومنظمات الجيش الثائر والبحرية. وفي بعض الأمكنة، حيث مُنع الناس من انتخاب مندوبيهم العاديين إلى السوفييت، أخذوا يعقدون اجتماعات استثنائية ويختارون من يذهب منهم إلى بتروغراد.

وفي أمكنة أخرى، حلوا اللجان التي تعمل علي عرقلة المؤتمر، وشكلوا لجانا غيرها. كان بركان التمرد يرعد إلى أن تكسرت القشرة القاسية أمام اندفاع الحمم الثورية التي كانت ضامرة طوال تلك الأشهر. ولم يعد بالإمكان عقد مؤتمر عام لمنظمات السوفييت إلا بواسطة حركة جماهيرية عفوية.

يوميا يدور الخطباء البلاشفة علي الثكنات و المصانع مهاجمين بعنف "حكومة الحرب الأهلية " .وذات يوم، ركبنا حافلة ضخمة تسير علي البخار ،وتتعثر في بحور من الوحل بين المصانع والكنائس الضخمة الي "اوبوكوفسكي زافورد"وهو مصنع ذخيرة حكومي يقع في شارع "شلوسلبغ".

عقد الاجتماع بين الجدران الملساء لبناية ضخمة لم تنجز بعد. وقد اجتمع عشرة آلاف رجل وامرأة يرتدون الثياب السوداء حول الصقالة الموشحة بالأحمر، تراكموا علي كومات خشب وقرميد، أو اعتلوا الجسور الخشبية المعتمة مركزين أفكارهم علي ما يقال وأصواتهم تدوي كالرعد. وفي السماء الباهتة الثقيلة ، كانت الشمس تطل بين الحين والآخر ،مرسلة أشعتها الحمراء ،خلال النوافذ التي لم يتم بناؤها، علي جمع من الوجوه البسيطة الملتفتة نحونا .

لوناتشارسكي، ذو القامة النحيلة الشبيهة بقامة تلميذ، والوجه المرهف الشبيه بوجه فنان، يشرح لماذا يجب أن يستولي السوفييت علي السلطة. لا شيء غير السوفييت يستطيع أن يحمي الثورة من أعدائها الذين يخربون البلد والجيش عن قصد ، خالقين فرصة مجيء كورنيلوف جديد.

صاح جندي من الجبهة الرومانية نحيلا ومأساويا ووحشيا: «يا رفاق! نحن نهلك من الجوع في الجبهة ونتجمد من البرد. نموت دون أي سبب. اسأل رفاقنا الأمريكيين أن يقولوا لأمريكا أن الروس لن يتخلوا مطلقا عن ثورتهم حتي يموتوا: سنحمي هذا الحصن بكل ما نملك من قوة إلى حين تهب شعوب العالم لنجدتنا! قولوا للعمال الأمريكيين أن يهبوا ويناضلوا من أجل الثورة الاجتماعية!»

وعقبه بتروفسكي النحيل ذو الصوت البطيء الشرس: «لقد حان وقت الأعمال لا الأقوال. الوضع الاقتصادي سيء، ولكن يجب أن نعتاد عليه، إنهم يحاولون إهلاكنا جوعا وبردا. إنهم يحاولون استفزازنا. فليعلموا أنهم يستطيعون أن يفعلوا ما يريدون، ولكن إذا تجاسروا علي مس منظمات البروليتاريا فسوف نمحيهم كالحثالة عن سطح الأرض!»

فجأة اتسعت الصحافة البلشفية. إلى جانب صحيفتي الحزب «رابوتشي بوت» (طريق العمال) و«سولدات» (الجندي) ،صدرت صحيفة جديدة للفلاحين: «ديريفنسكايا بيادنوتا» (فقراء الريف)، التي تطبع نصف مليون نسخة يوميا، وفي 17تشرين الأول، صدرت «رابوتشي أي سولدات» (العامل والجندي). وكانت افتتاحيتها تلخص وجهة النظر البلشفية .

«إن حملة السنة الرابعة سوف تؤدي إلى فناء الجيش والبلد. الخطر يهدد **يهدد سلامة بتروغراد. وأعداء الثورة يهللون لمآسي الشعب**...الفلاحون يثورون بدافع اليأس، بينما يغتالهم ملاك الأرض والسلطات الحكومية بحملاتها التأديبية، المصانع والمناجم تقفل، العمال مهددون بالهلاك جوعا... البرجوازية، وأذنابها من القادة العسكريين، تريد إعادة الانضباط الأعمى إلى الجيش... وجماعة كورنيلوف تستعد، بمساعدة البرجوازية، لنسف اجتماع الجمعية التأسيسية..

إن حكومة كرنسكي معادية للشعب. وكرنسكي سيخرب البلد. هذه الصحيفة هي للشعب وتقف إلى جانب الشعب، إلى جانب الطبقات الفقيرة من عمال وجنود وفلاحين. لا خلاص للشعب إلاّ بإنجاز الثورة... ولتحقيق ذلك يجب أن توضع جميع السلطات بيد السوفييت..

هذه الصحيفة تدعو إلى ما يلي:

كل السلطات للسوفييت –في العاصمة وفي المناطق.

الهدنة فورا على جميع الجبهات.

سلام عادل بين الشعوب.

أراضي الملّاك للفلاحين بدون تعويض.

سيطرة العمال على الإنتاج الصناعي.

جمعية تأسيسية منتخبة في انتخابات حرة نزيهة».

وجدير بالذكر هنا هذا المقطع من الصحيفة نفسها، الناطقة بلسان هؤلاء البلاشفة الذين يعرفهم العالم عملاء للألمان:

«إن قيصر ألمانيا، الملطخ بدماء ملايين القتلى، يريد أن يهجم بجيشه على بتروغراد. إن العمال والجنود والفلاحين الألمان، الذين يتوقون مثلنا إلى السلم، مدعوون إلى الوقوف ضد هذه الحرب اللعينة.

وهذا لن يتحقق إلاّ بواسطة حكومة ثورية تتكلم حقا باسم عمال روسيا وجنودها وفلاحيها، تتوجه من فوق رؤوس الديبلوماسيين، إلى الجيوش الألمانية مباشرة، وتملأ الخنادق الألمانية بالبلاغات المكتوبة باللغة الألمانية... يتولى الطيارون الروس إسقاطها فوق جميع أنحاء ألمانيا».

في مجلس الجمهورية، كانت الهوة آخذة بالاتساع، يوما بعد يوم، بين طرفي القاعة.

يصيح كاريلين، باسم الاشتراكيين الثوريين اليساريين: «الطبقة المالكة تريد أن تستغل جهاز الدولة الثوري لتربط روسيا بعربة الحلفاء الحربية! إن الأحزاب الثورية تعارض هذه السياسة معارضة كاملة...».

ويتكلم نقولا تشايكوفسكي العجوز، عن الاشتراكيين الشعبيين، ضد توزيع الأراضي على الفلاحين، واقفا إلى جانب الكاديت:

«يجب فرض انضباط قوي في الجيش... منذ بداية الحرب لم أتوقف عن التأكيد على أن القيام بإصلاحات اجتماعية واقتصادية في حالة الحرب هو جريمة. أننا نرتكب جريمة، ومع ذلك فأنا لست عدوا لهذه الإصلاحات، لأني اشتراكي».

صيحات من اليسار: «لا نصدقك!». تصفيق حاد من اليمين.

وجاء كرنسكي نفسه مرتين يدافع بحماس عن الوحدة الوطنية، وانفجر باكيا في نهاية إحدى المرتين. وقد أنصت المجلس إليه ببرودة، وقاطعه بتعليقات هازئة.

تقع مؤسسة «سمولني»، المقر العام للتسايكا ولسوفييت بتروغراد على بعد أميال إلى طرف المدينة، قرب نهر «النييفا» العريض. ذهبت إلى هناك في سيارة عمومية، تسير ببطء السلحفاة، وتتأوه وسط شوارع محفرة وموحلة ومكتظة بالناس. عند نهاية الخط، ترتفع قباب «دير سمولني» بلونها الأزرق-الرمادي، الجميلة، وموشاة باللون الذهبي الباهت. وإلى جانبها واجهة «مؤسسة سمولني» الكبيرة التي تشبه الثكنة؛ طولها حوالي مأتي ياردة وعلوها ثلاثة طوابق، وما يزال يعلو مدخلها بصفاقة الشعار الإمبراطوري كبيرا ومحفورا في الحجر.

استولت المنظمات الثورية للعمال والجنود على المؤسسة التي كانت، في ظل العهد البائد، ديرا ومدرسة لبنات النبلاء الروس تشرف عليها زوجة القيصر بنفسها. وكانت تحوي أكثر من مئة غرفة كبيرة. بيضاء وفارغة على أبوابها إشارات فضية ما تزال تخبر العابر أن في داخلها «قاعة درس السيدات رقم 4» أو «غرفة المعلمات»، وقد علقت فوقها إشارات مكتوبة بخط رديء تدل على حيوية العهد الجديد: «اللجنة المركزية لسوفييت بتروغراد»، «تسايكا»، «مكتب الشؤون الخارجية»، «اتحاد الجنود الاشتراكيين»، «اللجنة المركزية العامة للنقابات»، «لجان المصنع والمتجر»، «اللجنة المركزية للجيش»، والمكاتب المركزية للأحزاب السياسية وغرف اجتماعاتها.

الأروقة الطويلة ذات القناطر، مضاءة ببضعة أنوار كهربائية، تعج بالجنود والعمال المسرعين، ينوء البعض تحت ثقل رزمات ضخمة من الصحف والبلاغات والدعاية المطبوعة من مختلف الأنواع. وصوت أحذيتهم الثقيلة يولد هديرا عميقا متواصلا على الأرضية الخشبية... الإشارات معلقة في كل مكان: «رفاق! من أجل صحتكم، حافظوا على النظافة!» وعند نهاية السلّم في كل طابق أو في الاستراحات طاولات مستطيلة تتكوم فوقها المناشير ومطبوعات الأحزاب السياسية المختلفة، جميعها معروضة للبيع...

المطعم الوسيع ذو السقف الواطئ ما زال يستعمل للأكل. اشتريت بروبلين بطاقة تخولني تناول وجبة العشاء، ووقفت في الصف مع حوالي ألف شخص آخر منتظرا الوصول إلى طاولات الخدمة المستطيلة، حيث يغرف عشرون رجلا وامرأة من قدور كبيرة حساء الملفوف وشرائح اللحم وقطع الخبز الأسود. خمسة «كوبيك» ثمن الشاي في طاسة صفيح. وتتناول من إحدى السلال ملعقة خشبية يعلوها الدهن.. المقاعد الممتدة وراء الطاولات الخشبية مزدحمة بالعمال الجياع، يلتهمون أكلهم، ويخططون، ويطلقون النكات الفظة من أقصى الغرفة إلى أقصاها...

في الطابق الأعلى، تقع غرفة طعام أخرى مخصصة لأعضاء «التسايكا» ومع ذلك فالكل يرتادها. هناك تستطيع شراء خبز مطلي بزبدة سميكة وأعداد لا حصر لها من أكواب الشاي..

في الجناح الجنوبي من الطابق الثاني تقع قاعة الاجتماعات الكبرى، التي كانت في السابق قاعة الرقص في المؤسسة. إنها غرفة بيضاء عالية السقف، تضيئها شمعدانات بيضاء لمَّاعة تحمل مئات اللمبات الكهربائية المزدانة، يقسمها صفان من الأعمدة الضخمة، وفي المؤخرة منصة مرتفعة ينتصب إلى جانبها شمعدانان لهما عدة فروع، وخلفها إطار مذهب انتزعت فيه صورة الإمبراطور. هنا، في المناسبات الاحتفالية كان يصطف ذوو الأزياء العسكرية والأسقفية؛ مكان يليق بكبار النبلاء.

خارج القاعة مباشرة يقع مكتب «لجنة الاعتمادات لمؤتمر السوفييت». وقفت هناك أتطلع إلى المندوبين الجدد، جنود ملتحون ضخام، وعمال يرتدون القمصان السود، وبعض الفلاحين ذوي الشعور الطويلة. الفتاة المسؤولة التي تنتمي إلى مجموعة «يدنيستوفا» التي يرأسها بليخانوف، تبتسم بمكر، وتقول: «هؤلاء يختلفون كثيرا عن مندوبي المؤتمر الأول، أنظر كم يبدون خشنين وجهلة! إنهم سواد الشعب»... صحيح، لقد تحركت أعماق روسيا، وطاف ما في القاع إلى السطح «كانت لجنة الاعتمادات» التي يعينها «التسايكا» القديمة تتحدى المندوب تلو الآخر، متهمة إياه أنه أنتخب بطريقة غير شرعية. كاراخان، عضو اللجنة المركزية لحزب البلاشفة، يبتسم فقط، قائلا: «لا بأس. عندما يحين الوقت، ستجدون مقاعدكم محفوظة»...

كتبت صحيفة «العامل والجندي»:

«نريد أن نلفت انتباه المؤتمر العام الجديد إلى محاولات بعض أعضاء «لجنة التنظيم» لعرقلة المؤتمر، مؤكدين أنه لن يعقد، وبأنه من المستحسن بالنسبة للمندوبين أن يغادروا بتروغراد... لا تعيروا هذه الأكاذيب أي اهتمام.. إن أياما عظيمة تنتظركم» ...

اتضح أنه لا يمكن تأمين النصاب يوم 2 تشرين الثاني (نوفمبر)، فتقرر تأجيل موعد افتتاح المؤتمر إلى السابع منه. ولكن البلد كله كان قد استنفر، وأدرك المناشفة والاشتراكيون الثوريون أنهم قد هُزموا، فغيَّروا خططهم التكتيكية فجأة، وأبرقوا بنبرة هستيرية إلى منظماتهم في الريف طالبين منها أن تنتخب أكبر عدد من المندوبين الاشتراكيين «المعتدلين». وفي الوقت نفسه، أرسلت «اللجنة التنفيذية لسوفييت الفلاحين» نداء مستعجلا تدعو فيه إلى عقد مؤتمر فلاحي في 31 كانون الأول (ديسمبر) إفشال أي محاولة يقدم عليها العمال والجنود.

ماذا سيفعل البلاشفة؟ سرت شائعات في المدينة تقول أن العمال والجنود سيخرجون في تظاهرة مسلحة. وتنبأت الصحافة البرجوازية والرجعية بمحاولة انقلابية ثورية، وطالبت الحكومة بأن تعتقل أعضاء سوفييت بتروغراد، أو على الأقل أن تحول دون اجتماع المؤتمر. ودعت بعض «الوريقات» مثل «روسيا الجديدة» إلى مجزرة عامة يقتل فيها البلاشفة.

وأعلنت «الحيات الجديدة» -صحيفة غوركي- اتفاقها مع البلاشفة بأن الرجعيين يحاولون تخريب الثورة، وبأنه من الضروري مقاومتهم بقوة السلاح، ولكنها دعت إلى التقاء جميع الأحزاب الديموقراطية الثورية في جبهة موحدة:

«ما دامت الديموقراطية لم تنظم قواها الرئيسية، وما دامت مقاومة نفوذها ما تزال قوية، فلا فائدة من الانتقال إلى المرحلة الهجومية. ولكن إذا لجأت القوى المعادية إلى العنف، يتوجب على الديموقراطية الثورية، آنذاك، أن تخوض معركة استلام السلطة، وسوف تدعمها في ذلك أوسع قطاعات الشعب».

وأشار غوركي إلى أن صحف الرجعية وصحف الحكومة على حد سواء، تستفز البلاشفة للجوء إلى العنف. هذا مع العلم أن الثورة سوف تمهد الطريق لمجيء كورنيلوف جديد. وألح على البلاشفة أن ينفوا الشائعات. ونشر لوتريسوف في صحيفة «اليوم» المنشفية قصة مثيرة مصحوبة بخريطة، مدعيا أنها الخطة السرية لحملة البلاشفة.

وبمثل فعل سحري، امتلأت الجدران بالتحديرات والبلاغات والنداءات الصادرة من اللجنة المركزية للأجنحة «المعتدلة» والمحافظة في «التسايكا» تستنكر أي نوع من «التظاهر» وترجو العمال والجنود عدم الالتفات إلى تخرصات المحرّضين(7). وفيما يلي نموذج عنها صدر عن «القطاع العسكري» التابع لحزب الاشتراكيين الثوريين:

«عادت الشائعات تملأ شوارع المدينة مجددا، متحدثة عن مشروع تظاهرة مسلحة. ما هو مصدر هذه الشائعات؟ من هي المنظمة التي تسمح لدعاتها بأن يبشروا بالثورة؟ لقد أنكر البلاشفة، ردا على سؤال وجه إليهم في «التسايكا»، أن تكون لهم أية علاقة بذلك... ولكن هذه الشائعات تحمل معها خطرا عظيما. من السهل أن يقدم أفراد متهورون على دعوة بعض العمال والجنود للنزول إلى الشارع محرّضين إياهم على الثورة، ومتجاهلين بذلك شعور غالبية العمال والجنود والفلاحين.

... في هذا الوضع المتأزم الذي تجتازه روسيا-الثورة، يسهل تحويل أية ثورة إلى حرب أهلية، ولن ينتج عن ذلك إلا تحطيم جميع منظمات البروليتاريا التي بنيت بكثير من العناء والجهد... إن المتآمرين المعادين للثورة ينوون استغلال هذه الانتفاضة لتحطيم الثورة، ولفتح الجبهة للقيصر وليام، وتخريب الجمعية التأسيسية... أثبتوا في مراكزكم! لا تخرجوا إلى الشارع!».

في 28 تشرين الأول (أكتوبر)، تكلمت إلى كامنيف في أروقة «سمولني»، أنه رجل صغير ذو لحية حمراء دقيقة، وحركات فرنسية. لم يكن متأكدا من حضور العدد الكافي من المندوبين.. قال: «إذا انعقد المؤتمر، فسوف يعبر عن شعور غالبية الشعب؛ وإذا كان البلاشفة هم الأكثرية فيه، كما سيحصل برأيي، فسوف نطلب أن يستولي السوفييت على السلطة، وأن تستقيل الحكومة المؤقتة...».

أما فولودارسكي الشاب ذو الوجه الشاحب الدميم الذي يضع نظارة، فقد كان أكثر تحديدا: «إن ليبرودان وجميع المساومين يعملون على نسف المؤتمر. إذا نجحوا في أن يحولوا دون انعقاده، إذ ذاك سنكون واقعيين بما فيه الكفاية فلا نعتمد على المؤتمر».

وجدت بين أوراقي المواد التالية المقتطفة من الصحف يوم 29 تشرين الأول (أكتوبر): «موغلييف (مقر قيادة الأركان العامة): تمركز أفواج الحرس الموالية، والفرق الوحشية، وفيالق الموت.

الحكومة تأمر «الينكرز» في كليات الضباط في بافلوسك وستارسكويي وسيكومبيترهوف، أن يستعدوا للتحرك إلى بتروغراد. إن «ينكرز» مدرسة أورانيانبوم قد وصلوا المدينة.

قسم من فرقة السيارات المصفحة التابعة لحامية بتروغراد تتمركز في القصر الجمهوري.

تم تسليم عدة آلاف بندقية من مصنع الأسلحة الحكومي في سيستروتيك إلى مندوبي عمال بيتروغراد بأمر تروتسكي.

في اجتماع لمليشيا المدينة في قطاع ليتيني السفلى، فاز قرار يطالب بإعطاء كل السلطات للسوفييت».

هذا مجرد عينة من الأحداث المضطربة في تلك الأيام المحمومة، عندما كان الجميع يعلم أن شيئا سيحدث، ومع ذلك فلم يكن أحد يعلم ما هو بالضبط.

في اجتماع سوفييت بتروغراد في سمولني، ليلة 30 تشرين الأول (أكتوبر)، وصم تروتسكي ادعاءات الصحافة البرجوازية أن السوفييت ينوون القيام بثورة مسلحة بأنها «محاولة من قبل الرجعيين أن يلوثوا مؤتمر منظمات السوفييت وينسفوه...» وأعلن: «إن سوفييت بتروغراد لم يصدر أمرا بأي تظاهرة مسلحة. وعندما يصبح ضروريا أن نقوم بذلك، سوف نحظى بدعم حامية بتروغراد... إنها (أي الحكومة) هي التي تستعد لثورة مضادة؛ وسوف نرد عليها بهجوم حاسم وبلا هوادة».

صحيح أن سوفييت بتروغراد لم يصدر أمرا بالتظاهر، إلا أن اللجنة المركزية لحزب البلاشفة كانت تناقش موضوع الثورة. وقد اجتمعت طوال ليلة 23 من تشرين الأول (أكتوبر)، بحضور جميع مثقفي الحزب وقادته ومندوبي عمال بتروغراد وحاميتها. كان لينين وتروتسكي الوحيدين من بين المثقفين الذين وقفوا إلى جانب القيام بثورة. حتى العسكريين كانوا معارضين. وجرى تصويت وهُزم اقتراح القيام بثورة!

ثم وقف عامل فظ تشنّج وجهه من الغضب وقال بحدة: «إني أتكلم باسم عمال بتروغراد. نحن نؤيد الثورة. افعلوا ما تريدون، ولكن إذا سمحتم بتحطيم السوفييت، فسوف نتخلى عنكم». وانظم إليه بعض الجنود ثم جرى تصويت مجددا، ففاز اقتراح القيام بالثورة...

ومع ذلك، فقد واصل الجناح اليميني من البلاشفة، بقيادة ريازانوف وكامينيف وزينوفييف، شن حملته ضد الثورة المسلحة. في صباح 31 تشرين الأول (أكتوبر)، ظهر في «رابوتشيه بوت» (طريق العمال) القسم الأول من «رسالة إلى الرفاق» للينين، وهي أجرأ كتابات الدعاية السياسية التي عرفها العالم.

يعرض لينين فيها، بجدّية، الحجم التي تؤيد الثورة منطلقا من اعتراضات كامنييف وريازانوف. كتب: «أما أن نتخلى علنا عن شعار «كل السلطات للسوفييت» وإما أن نقوم بالثورة. لا يوجد طريق وسط».

في اليوم نفسه، ألقى بول مليوكوف، قائد الكاديت خطابا لامعا ومريرا في مجلس الجمهورية، وصم فيه «تعليمات سكوبيليف» بأنها موالية للألمان، معلنا أن الديموقراطية الثورية تسير بروسيا إلى الخراب، مهاجما تريشنكو، وصرح علنا أنه يفضل الدبلوماسية الألمانية على الدبلوماسية الروسية... وكانت مقاعد اليسار طوال خطابه تضج بصخب مرتفع...

ولم يكن باستطاعة الدولة، من جهتها، أن تتجاهل أهمية النجاح التي أحرزته الدعاية البلشفية. في 29 تشرين الأول (أكتوبر)، صدر قانونان عن لجنة مشتركة من الحكومة ومن مجلس الجمهورية، منح احداهما الأراضي مؤقتا للفلاحين في حين دعا الآخر إلى انتهاج سياسة خارجية نشيطة تؤدي إلى السلم وفي اليوم الثالث علّق كرنسكي عقوبة الإعدام في الجيش. وبعد ظهر اليوم نفسه جرى، في احتفال كبير، افتتاح الجلسة الأولى «للجنة تدعيم النظام الجمهوري والنضال ضد الفوضى والثورة المضادة» الجديد، وكان ذلك أول وآخر ما سمعه التاريخ عند هذه

اللجنة... في صباح اليوم التالي، قابلت كرنسكي مع مراسلين آخرين في آخر لقاء له مع الصحفيين(8).

قال بمرارة: «إن الشعب الروسي يعاني من الإرهاق الاقتصادي ومن خيبة أمل في الحلفاء! يظن العالم أن الثورة قد انتهت. لا تخطئوا. هذه مجرد بداية الثورة الروسية»: كلمات تحمل مقدارا أكبر من النبوءة مما كان يظن قائلها.

كان اجتماع سوفييت بتروغراد عاصفا طوال ليلة 30 تشرين الأول (أكتوبر) الذي حضرته. كان الاشتراكيون «المعتدلون» من مثقفين وضباط وأعضاء لجان الجيش وأعضاء «التسايكا» موجودين بكثرة. يواجههم العمال والفلاحون والجنود العاديون باندفاعهم وبساطتهم.

تكلم فلاح عن الاضطرابات في «تغير» مؤكدا أن سببها هو اعتقال أعضاء «لجان الأرض»، وصاح: «كرنسكي هذا ليس سوى درع لملاك الأرض. إنهم يعرفون أننا سنستولي على الأرض في الجمعية التأسيسية على كل حال، لذلك يحاولون تحطيم الجمعية التأسيسية»!

ووصف عامل ميكانيكي من مؤسسة «بوتيلوف» كيف يغلق الوكلاء الأقسام الواحدة تلو الآخر، بحجة عدم توفر المحروقات والمواد الأولية. وأعلن أن «لجنة المصنع والمتجر» قد اكتشفت كمية كبيرة من الإمدادات المخزونة.

وأردف قائلا: «هذا تحدٍ صارخ. إنهم يريدون تجويعنا أو دفعنا إلى العنف»!

وتكلم أحد الجنود: «يا رفاق! أحمل إليكم التحية من حيث يحفر الرجال قبورهم ويسمونها خنادق»!

ثم انتصب جندي شاب طويل نحيل ذو عينين برّاقتين استقبل بضجة ترحاب. إنه شودنوفسكي الذي أشيع أنه مات خلال القتال في تموز (يوليو)؛ وها هو الآن يبعث حيا: «لم تعد جماهير الجنود تثق بضباطها. حتى لجان الجيش التي رفضت دعوة السوفييت إلى الانعقاد. قد خانتنا... إن جماهير الجنود تريد انعقاد الجمعية التأسيسية في الموعد المقرر، والذين يتجرأون على تأجيلها ستحل عليهم اللعنة، ولن يلعنوا بالشتائم الأفلاطونية فحسب، لأن الجيش يملك أسلحته كذلك»...

وتحدثت عن حمى الحملة الانتخابية للجمعية التأسيسية في «الجيش الخامس»: «إن الضباط، والمناشفة والاشتراكيين الثوريين خاصة، يحاولون شل نشاط البلاشفة عن قصد. إنهم يمنعون توزيع صحفنا في الخنادق. ويعتقلون خطبائنا»...

وصاح أحد الجنود: «لماذا لا نتكلم عن ندرة الخبز؟».

فأجاب شودنوفسكي بحزم: «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان»...

ثم عقبه ضابط منشفي «مدافع»، مندوبا عن سوفييت «فيتيبسك»: «المسألة ليست مسألة من يسيطر على الحكم. الحكومة لا تثير أية مشكلة، وإنما الحرب... لذا يجب أن نكسب الحرب قبل تحقيق أي تغيير». فقابله الزعيق والصياحت الهازئة: «هؤلاء الدعاة البلاشفة ديماغوجيون»! وردت القاعة بالضحك. «فلننسَ الصراع الطبقي لحظة واحدة»، لكنه لم يكمل جملته. فصاح صوت: «ألا تتمنى لو نفعل ذلك»!

كانت بتروغراد مشهدا غريبا في تلك الأيام. غرف اللجان في المصانع مليئة بكومات البنادق، والرسل يدخلون ويخرجون. والحرس الأحمر يتدرب.. وفي

الثكنات تعقد الاجتماعات كل ليلة؛ وطوال النهار تجري نقاشات حامية متواصلة وعندما يحين المساء الخانق، تحتشد الجموع في الشوارع في أمواج متدفقة على طول شارع «نييفسكي»، وتتنازع الصحف. وتكاثرت السرقات بحيث أصبح خطرا أن يسير المرء في الشوارع الفرعية.. وذات عشية، رأيت على «السادوفايا»، جمعا يضم المئات يضرب ويدوس حتى الموت جنديا قبض عليه يسرق... وكان أفراد مشبوهون يحومون نحو النسوة المقرورات اللواتي ينتظرن توزيع الخبز والحليب في الصف طوال ساعات باردة طويلة، هامسين أن اليهود يخزنون الغذاء، وأن أعضاء السوفييت يعيشون حياة باذخة في حين يموت الشعب من الجوع...

عند أبواب «سمولني» الداخلية والخارجية، وقف حراس صامتون يطلبون إذن المرور من الجميع. وغرف اللجان تطن وتضج طوال النهار والليل، وينام مئات الجنود والعمال على الأرض حيثما يجدون متسعا. وفي القاعة الكبرى في الطابق الأعلى يزدحم آلاف الناس الذين يحضرون جلسات سوفييت بتروغراد الصاخبة.

نوادي القمار تعمل بشكل محموم من الغسق إلى الفجر، فتفور «الشامبانيا» وتبلغ المراهنات عشرون ألف «روبل». وفي الليل تتسكع المومسات، وسط المدينة، بجواهرهن ومعاطفهن الفراء الثمينة، ويملأن المقاهي...

مؤامرات ملكية، جواسيس ألمان، ومهربون يعدّون الخطط..
وفي المطر والبرد القارس المرير، تندفع المدينة النابضة الكبيرة، تحت السموات القاتمة، أسرع وأسرع نحو... نحو ماذا؟

==========

[*]يبدو أن ريد لم يكن مطلعا الإطلاع الكافي على ما جرى في اجتماع اللجنة المركزية. لقد حضر الإجتماع اثنى عشر من أعضاء اللجنة هم: لينين، زينوفييف، كامنييف، تروتسكي، ستالين، سفردلوف، دزيرجنسكي، أوريتسكي، كولونتاي، بونبوف، سكولنيكوف، لوموف. وتكلم لينين عن الوضع الراهن معلنا أن الوضع ناضج بما فيه الكفاية لاستلام الحكم. وعند التصويت صوّت عشرة أعضاء مع الإقتراح وإثنان فقط ضده هما كامنييف وزينوفييف.

وفي نفس الاجتماع، جرى انتخاب المكتب السياسي الذي قاد الثورة من سبعة أعضاء هم: لينين، زينوفييف، كامينيف، تروتسكي، ستالين، سكولنيكوف، بوبنوف. (من محاضر اجتماعات اللجنة المركزية للحزب البلشفي – آب (أغسطس-) 1917 إلى شباط (فبراير) 1918- كما ورد في كتاب «البلاشفة وثورة أكتوبر» ص 135-139 دار ماسبيرو 1964. (المترجم)

==========

هوامش الفصل الثاني

1- لقد تأكدت الآن، بقدر كبير من الوضوح، مسؤولية كرنسكي، في إيجاد الوضع الذي أدى إلى محاولة كورنيلوف الانقلابية. يقول العديد من «المدافعين» عن كرنسكي أنه كان يعلم بخطط كورنيلوف، وأنه أجبره على كشف نفسه قبل ساعة الصفر، بواسطة خدعة، وسحقه. ولكن أناسا مثل أ.ج. ساك في كتابه «ولادة الديموقراطية الروسية» يقولون:

«ثمة عدة أشياء شبه أكيدة. أولها أن كرنسكي كان يعلم بتحرك عدة وحدات من الجبهة نحو بتروغراد، ومن الممكن أن يكون رئيس الوزراء ووزير الحربية قد استدعياها بعد أن أدركا تفاقم الخطر البلشفي...»

الخطأ الوحيد في هذه الحجة هو أنه لم يكن ثمة «خطر بلشفي» في ذلك الحين، لأن البلاشفة كانوا آنذاك أقلية ضعيفة في السوفييت، وكان قادتهم في السجون أو المخبأ..
==========

2- الندوة الديموقراطية

عندما اقترح كرنسكي عقد ندوة ديموقراطية لأول مرة، تكلم عن جمعية تضم جميع عناصر الأمة -«القوى الحية» كما سمّاها- بما فيها أصحاب المصارف، والصناعيون، وملاك الأراضي، وممثلو حزب الكاديت. فرفض السوفييت، وقدم جدول الممثلين التالي الذي وافق عليه كرنسكي:

سوفييت مندوبي العمال والجنود لعموم روسيا	100 مندوب
سوفييت مندوبي الفلاحين لعموم روسيا	100 مندوب
سوفييت مندوبي العمال والجنود لعموم في المحافظات	50 مندوبا
لجان الأراضي الفلاحية في المناطق	50 مندوبا
النقابات	100 مندوب
لجان الجيش في الجبهة	84 مندوبا
الجمعيات التعاونية للعمال والفلاحين	150 مندوبا
اتحاد عمال سكك الحديد	20 مندوبا
اتحاد عمال البرق والبريد	10 مندوبين
موظفو المحلات التجارية	20 مندوبا
المهن الحرة- أطباء، محامون، صحفيون الخ.	15 مندوبا
«زيمستوفا» المحافظات	50 مندوبا
هيئات القوميات –البولونيون، الأوكرانيون الخ،	59 مندوبا

وقد جرى تعديل هذه النسب مرتين أو ثلاث مرات. وكان التوزيع النهائي للمندوبين على الشكل التالي:

سوفييت مندوبي العمال والجنود والفلاحين	300 مندوب
الجمعيات التعاونية	300 مندوب
البلديات	300 مندوب
لجان الجيش في الجبهة	150 مندوبا
«زيمستوفا» المحافظات	150 مندوبا
النقابات	200 مندوب
المنظمات الوطنية	100 مندوب
مجموعات صغيرة متفرقة	200 مندوب

==========

3- انتهت مهمة السوفييت

في 28 سبتمبر 1917، نشرت صحيفة «الأنباء» (أزفستيا)، لسان حال «التسايكا»، مقالة ورد فيها ما يلي عن الوزارة المؤقتة الأخيرة:

«أخيرا تشكلت حكومة ديموقراطية حقة، ولدت من إرادة جميع طبقات الشعب الروسي، وهي قاعدة النظام البرلماني الليبرالي المقبل. وعما قريب تنعقد الجمعية التأسيسية، التي ستحل جميع المسائل القانونية الأساسية والتي سيكون تكوينها ديموقراطيا في جوهره. إن مهمة السوفييت تشارف نهايتها، وقد اقترب وقت انسحابها، مع سائر الجهاز الثوري، من ساحة الشعب الحر المنتصر الذي ستكون أسلحته من الآن فصاعدا أسلحة العمل السياسي السلمية».

في 23 تشرين الأول (أكتوبر)، كانت افتتاحية «أزفستيا» تحمل العنوان التالي:
«أزمة في منظمات السوفييت». وبدأت بالقول أن المسافرين حملوا أخبارا تقول أن نشاط مجالس السوفييت المحلية يتناقص في كل مكان. قال الكاتب:

«هذا طبيعي لأن الشعب يهتم بالأجهزة التشريعية الأكثر دواما –كمجالس الدوما البلدية والزميستوفا...

في المراكز الرئيسية من موسكو وبتروغراد حيث توجد أفضل تنظيمات السوفييت، نجد أنها لم تضم جميع العناصر الديموقراطية.. فغالبية المثقفين لم تشارك في نشاطها والعديد من العمال كذلك؛ أمّا البعض من العمال الذي شارك فقد فعل ذلك إما لتخلفه السياسي، وإمّا لأن مركز الثقل بالنسبة له هو النقابات.. إننا لا نستطيع أن ننكر أن هذه المنظمات ترتبط بالجماهير بعرى وثيقة، وهي أفضل من يخدم هذه الجماهير...

إن التنظيم الحيوي للإدارات الديموقراطية المحلية أمر في غاية الأهمية. يجري انتخاب مجالس الدوما بالاقتراع العام، وهي تتمتع بسلطات أوسع من سلطات السوفييت في الشؤون المحلية المحضة. وما من ديموقراطي يرى أي خطأ في هذا...

تجري انتخابات البلديات بشكل أفضل، وأكثر ديموقراطية من انتخابات السوفييت... جميع الطبقات ممثلة في البلديات... وما أن تبدأ أجهزة الإدارة الذاتية المحلية بتنظيم الحياة في البلديات، حتى ينتهي دور السوفييت المحلية بشكل طبيعي.

ثمة عاملان يفسران هبوط الاهتمام بالسوفييت. ويعزى الأول إلى انخفاض مستوى الاهتمام السياسي لدى الجماهير؛ أمّا الثاني، فيعزى إلى تزايد جهود الأجهزة الحاكمة المحلية والمنطقية في تنظيم وبناء روسيا الجديدة... وبقدر ما تسيير الأمور في هذا الاتجاه الأخير، بقدر ما تضمحل أهمية السوفييت...

إنهم يقولون عنا أننا نحفر قبر منظماتنا بأيدينا. والواقع أننا أنشط العاملين لبناء روسيا جديدة...

عندما سقط نظام الحكم الفردي والبيروقراطية، أنشأنا السوفييت كثكنات تلتجئ إليها الديموقراطية مؤقتا. والآن، ها نحن نشيّد البنيان الدائم لنظام جديد، عوضا عن الثكنات؛ ومن الطبيعي أن يغادر الشعب الثكنات تدريجيا منتقلا إلى بنايات توفر له المزيد من الراحة».

==========

4- خطاب تروتسكي في مجلس الجمهورية الروسية

كان الهدف من الندوة الديموقراطية، التي دعت إليها «التسايكا»، القضاء على الحكومة غير المسؤولة التي أنجبت كورنيلوف، وتشكيل حكومة مسؤولة تستطيع أن تضع حدا للحرب، وتضمن انعقاد الجمعية التأسيسية في الموعد المحدد. ولكننا تلقينا نتيجة هي عكس الهدف المعلن رسميا، بواسطة الخداع والتحالفات بين المواطن كرنسكي والكاديت وقادة المناشفة والاشتراكيين الثوريين التي عقدت وراء ظهر الندوة الديموقراطية. فنشأت سلطة يوجد فيها، وحولها، أقران لكورنيلوف، مستورين ومكشوفين، يلعبون أدوارا بارزة. ولقد عبرت الحكومة عن لامسؤوليتها رسميا عندما أعلنت أن مجلس الجمهورية الروسية سيكون جهازا استشاريا، وليس تشريعيا. وهكذا نجد الحكومة غير المسؤولة، في الشهر الثامن للثورة، تعيد بناء واجهة لها هي هذه النسخة الجديدة عن مجلس دوما بوليفين. (بولفين: نسبة إلى أحد الوزراء الذي أراد من «الدوما» أن تكون هيئة استشارية لدى القصر، مكونة من كبار الملاك العقاريين والرأسماليين وحفنة ضئيلة من الفلاحين الأغنياء. (المترجم))

إن الطبقات المالكة قد دخلت المجلس المؤقت بنسب تدل بوضوح، من خلال الانتخابات في جميع أنحاء البلد، على أنه لا يحق لها أن تكون فيه. وبالرغم من ذلك، فإن حزب الكاديت الذي كان حتى الأمس يطالب بأن تكون الحكومة مسؤولة تجاه «مجلس الدولة»، حزب الكاديت هذا نفسه هو الذي أمَّن استقلال الحكومة عم مجلس الجمهورية. ولا شك في أن الطبقات المالكة ستكون في الجمعية التأسيسية أضعف مما هي في هذا المجلس، ولا يمكنها أن تتصرف بطريقة غير مسؤولة تجاه الجمعية التأسيسية.

إذا كانت الطبقات المالكة تتهيأ حقا للجمعية التأسيسية التي ستنعقد بعد ستة أسابيع، فلا يوجد مبرر لجعل الحكومة غير مسؤولة الآن. الحقيقة، كل الحقيقة، هي أن البرجوازية، التي تسيِّر سياسة الحكومة المؤقتة، تهدف إلى إفشال الجمعية التأسيسية. وهذا هو في الوقت الحاضر الهدف الرئيسي الذي تعمل له الطبقات المالكة المسيطرة على كل سياستنا الوطنية: الداخلية منها والخارجية. ففي مجالات الصناعة والزراعة والتموين تتجه سياسة الطبقات المالكة، العاملة يدا بيد مع الحكومة، نحو زيادة الفوضى الطبيعية التي أحدثتها الحرب. الطبقات المالكة تثير انتفاضات الفلاحية! الطبقات المالكة تثير حربا أهلية، وتستمر في سيرها مستخدمة «يد الجوع الهزيلة» لتقضي على الثورة والجمعية التأسيسية!

وليس أقلّ إجراما من هذا السياسة الخارجية للبرجوازية والحكومة. فبعد أربعين شهرا من الحرب نجد العاصمة مهددة بخطر محيق. وكجواب على هذا الوضع تبرز خطة نقل الحكومة إلى موسكو. إن فكرة هجر العاصمة لا تثير احتجاج البرجوازية، بل على العكس تماما، إنها تقبلها كجزء طبيعي من سياسة عامة غايتها تعزيز التآمر المعادي للثورة... وعوضا عن الاعتراف بأن خلاص الوطن يكمن في عقد الصلح، عوضا عن أن تقترح علنا فكرة الصلح الفوري على جميع الشعوب المنهكة، فوق رؤوس الدبلوماسيين والإمبرياليين، وأن تضع حدا للحرب –عوضا عن أن تقوم بذلك، فإن الحكومة المؤقتة، بأمر من الكاديت وأعداء الثورة والحلفاء الاستعماريين، تحكم بالموت العبثي على مئات الآلاف الجديدة من الجنود والبحارة، بدون سبب، بدون هدف ولا خطة؛ وتمهد لتسليم بتروغراد والقضاء على الثورة. وبينما يموت الجنود والبحارة البلاشفة جنبا إلى جنب مع سائر الجنود والبحارة نتيجة الأخطاء وجرائم الآخرين، لا يزال كرنسكي الذي يسمي نفسه «القائد الأعلى» يمنع الصحف البلشفية من الصدور. إن الأحزاب الرئيسية في المجلس تعمل كواجهة طوعية لهذه السياسة.

نحن الجناح الديموقراطي-الاشتراكي البلشفي، نعلن أنه لا يوجد أي شيء مشترك بيننا وبين حكومة خيانة الشعب هذه. إننا براء من عمل مجرمي الشعب هؤلاء الذي يجري وراء الكواليس الرسمية. إننا نرفض أن نتغافل، مباشرة أو غير مباشرة، عن يوم واحد من هذا العمل، فبينما تهدد قوات وليم بتروغراد، تحضّر حكومة كرنسكي وكورنيلوف للهرب من بتروغراد، وتحويل موسكو إلى قاعدة للثورة المضادة!

إننا ندعو عمال وجنود موسكو لأقصى درجات اليقظة. ونحن، إذ نغادر هذا المجلس، نتوجه إلى شجاعة وحكمة العمال والفلاحين والجنود في جميع أنحاء روسيا. بتروغراد في خطر! الثورة في خطر! الحكومة قد ضاعفت الخطر- والطبقات الحاكمة تجعله يتفاقم. الشعب وحده هو الذي يستطيع أن ينقذ نفسه وأن ينقذ وطنه.

إننا نناشد الشعب: عاش السلم الديموقراطي الفوري! كل السلطات للسوفييت! كل الأراضي للشعب! عاشت الجمعية التأسيسية».

==========

5- «تعليمات» سكوبيليف (الناكاز)

تلخيص

(صدرت عن «التسايكا» وأعطيت لسكوبيليف كتعليمات يحملها ممثل القوى الديموقراطية الثورية في ندوة باريس):

يجب أن تقوم معاهدة الصلح على مبدأ «لا ضم، لا تعويض، حق الشعوب في تقرير المصير».

قضايا الحدود

1) انسحاب الجيوش الألمانية من روسيا. حق تقرير المصير الكامل لبولونيا، ليتوانيا لتونيا.

2) الاستقلال لأرمينيا التركية، ثم حق تقرير المصير لها بعد إنشاء الحكومات المحلية.

3) حل قضية الألزاس-اللورين بواسطة استفتاء بعد انسحاب جميع القوات الأجنبية.

4) إعادة بلجيكا ككيان. تعويض على الأضرار من صندوق دولي.

5) إعادة كيان صربيا ومونتينيغرو، ومساعدتهما بواسطة صندوق دولي. يكون لصربيا منفذ إلى البحر الأدرياتيكي. الحكم الذاتي لبوزنيا وهيرزيفوفينيا.

6) تُمنح المقاطعات موضع النزاع في البلقان حكما ذاتيا مؤقتا يعقبه استفتاء.

7) إعادة رومانيا ككيان مع إجبارها على منح دوبرودجا حق تقرير المصير كاملا.. تجبر رومانيا على تنفيذ بنود «معاهدة برلين» فيما يتعلق بالاعتراف باليهود كمواطنين رومانيين.

8) منح مقاطعة ايريدنتا، في إيطاليا، حكما ذاتيا مؤقتا يعقبه استفتاء لتقرير استقلال الدولة.

9) إعادة المستعمرات الألمانية.

10) إعادة كيان اليونان وإيران.

حرية البحار

اعتبار جميع المضايق المؤدية إلى البحار الداخلية، وقناتي السويس وباناما مناطق حيادية. حرية الملاحة التجارية. إلغاء حق الاستيلاء على السفن الخاصة ومنع إغراق السفن التجارية.

التعويضات

تتخلى جميع الأطراف المتحاربة عن جميع التعويضات، المباشرة منها وغير المباشرة، مثلا تكاليف إعاشة السجناء. تُعاد التعويضات والتبرعات التي جمعت خلال الحرب إلى أصحابها.

الشروط الاقتصادية

لا تكون المعاهدات الاقتصادية جزءا من شروط السلم. يجب أن تكون كل دولة مستقلة في علاقاتها التجارية، ولا يجوز أن تفرض معاهدة السلم، أو تمنع أية دولة من عقد معاهدة اقتصادية. إلاّ أنه يجب على جميع الدول أن تلتزم، وفق معاهدة السلم، بعدم القيام بحصار اقتصادي بعد الحرب ولا عقد اتفاقيات جمركية منفصلة. إن حق الدولة الأكثر رعاية يجب أن يمنح إلى جميع البلدان دون تمييز.

ضمانات السلم

يتفق على السلم في ندوة السلم التي يحضرها مندوبون تنتخبهم المؤسسات التمثيلية الوطنية في كل دولة. وتقر هذه المجالس النيابية شروط السلم.

تلغي الدبلوماسية السرية، وتتعهد جميع الأطراف بعدم عقد اتفاقيات سرية. إن مثل هذه الاتفاقات تتناقض مع القانون الدولي وهي بالتالي لاغية. تعتبر جميع المعاهدات لاغية إلى أن تقرها المجالس النيابية في البلدان المختلفة.

نزع السلاح تدريجيا في البر والبحر، واعتماد نظام المليشيا. إن «عصبة الأمم» التي يقترحها الرئيس ويلسون قد تساعد على حفظ القانون الدولي إذا: (أ) أجبرت جميع الأمم على الاشتراك فيها مع منحها حقوقا متساوية، (ب) إذا أصبحت السياسة الدولية ديموقراطية.

الطريق نحو السلم

يعلن الحلفاء فورا استعدادهم للبدء بمفاوضات سلم حالما تعلن قوات العدو تخليها عن أي ضم قسري.

يلتزم الحلفاء بعدم الشروع بمفاوضات السلم، ولا عقد اتفاقية سلم، إلاّ في مؤتمر عام للسلم يشترك فيه مندوبون عن جميع البلدان الحيادية.

تزال جميع العقبات من وجه ندوة ستوكهولم الاشتراكية، وتمنح جوازات السفر فورا إلى جميع مندوبي الأحزاب والمنظمات التي ستشترك فيها.

(ولقد أصدرت اللجنة التنفيذية لسوفييت الفلاحين تعليمات –ناكاز- وهي لا تكاد تختلف عما سبق ذكره).

=======

6- السلم على حساب روسيا

إن اعترافات «ريبو» عن عرض النمسا الصلح على فرنسا؛ وما سمَّي «ندوة السلم» في بيرن بسويسرا خلال صيف 1917 التي اشترك فيها مندوبون عن البلدان المشاركة بالحرب والذين يمثلون المصالح الاقتصادية الكبرى في جميع هذه البلدان؛ ومحاولة التفاوض التي أجراها عميل إنكليزي مع أحد أحبار الكنيسة البلغارية؛ كل هذه تشير إلى أنه كانت توجد تيارات قوية في كلا الطرفين، تدعو إلى عقد الصلح على حساب روسيا.

==========

7- نداءات ضد الثورة

«إلى العمال والجنود،

أيها الرفاق! إن القوات السوداء تضاعف محاولاتها لإحداث الفوضى والمجازر في بتروغراد والمدن الأخرى. إن الفوضى ضرورية للقوى السوداء، لأنها تتيح لها فرصة سحق الحركة الثورية سحقا دمويا. فهي، بحجة توطيد الأمن وحماية المواطنين، تأمل أن تحقق سيطرة كورنيلوف الذي استطاع الشعب الثوري أن يقمع مؤامرته منذ زمن ليس ببعيد. ويل للشعب إذا تحققت هذه المطامح! إن الثورة المضادة، إذا انتصرت، سوف تقضي على السوفييت ولجان الجيش، وتفرّق الجمعية التأسيسية، وتوقف عملية انتقال الأرض إلى لجان الأرض، وتقضي على آمال الشعب في سلم سريع، وتملأ السجون بالجنود والعمال الثوريين.

إن أعداء الثورة وقادة «المئات السوداء» يعتمدون في حساباتهم، على التذمر الخطر بين الفئات غير المتنورة من الشعب من عدم تنظيم التموين، واستمرار الحرب، ومصاعب الحياة بشكل عام. وهم يأملون أن تحوّلوا أية تظاهرة للجنود والعمال إلى مجزرة تفزع السكان المسالمين وترمي بهم في أحضان «موطدي الأمن والنظام»

في مثل هذه الظروف ستكون كل محاولة لتنظيم مظاهرة الآن، حتى ولو كانت لأنبل الأهداف، جريمة لا تُغتفر. إن جميع العمال والجنود الواعين، المعارضين لسياسة الحكومة، سوف يجرون الخراب على أنفسهم وعلى الثورة إذا اشتركوا في التظاهرات.

لذا فإن التسايكا تطلب من جميع العمال عدم تلبية أية دعوة للتظاهر.

أيها العمال والجنود! لا ترضخوا للتحريض! تذكروا واجبكم تجاه وطنكم وتجاه الثورة! لا تبعثروا وحدة الجبهة بالقيام بتظاهرات ستفشل حتما.

اللجنة المركزية التنفيذية
لسوفييت مندوبي العمال والجنود (التسايكا)»

***

حزب العمال الاشتراكي الديموقراطي الروسي

الخطر مداهم!

إلى جميع العمال والجنود

اقرأها وأعطها للآخرين

«أيها الرفاق العمال و الجنود،

بلادنا في خطر. وبسبب هذا الخطر، تجتاز حريتنا وثورتنا أياما عصيبة. العدو أمام أبواب بتروغراد. والفوضى تتفاقم ساعة بعد ساعة. وتتعاظم صعوبة تزويد بتروغراد بالخبز وتتزايد. الجميع، من أصغر واحد إلى أكبر واحد فينا، مطالب بأن يضاعف مجهوداته ويحاول ترتيب الأمور بشكل سليم... يجب أن ننقذ البلد، وننقد الحرية... المزيد من الأسلحة والإمدادات للجيش! الخبز للمدن الكبيرة. الأمن والتنظيم للبلد...

وفي هذه الأيام العصيبة الرهيبة تروج إشاعات بأن تظاهرة يجري تحضيرها في مكان ما، وأن أحدهم يدعوا العمال والجنود لتحطيم الأمن والنظام الثورين... «طريق العمال»، صحيفة البلاشفة، تصب الزيت على النيران، وتتزلّف، محاولة إرضاء الناس غير المتنورين، وتراود العمال والجنود عن أنفسهم، محرضة إياهم ضد الحكومة، واعدة بكثير من الأشياء الجميلة... فيصدقها السذّج الجهلة لأنهم لا يفكرون... ومن الجهة الأخرى، ترد شائعات تقول أن القوى السوداء وأصدقاء القيصر والعملاء الألمان يفركون أيديهم فرحا. إنهم على استعداد للانضمام إلى البلاشفة وتحويل الاضطرابات إلى حرب أهلية.

إن البلاشفة والجنود والعمال الجهلة الذين غرروا بهم يصيحون بلا معنى: «تسقط الحكومة! كل السلطة للسوفييت!» وخدام القيصر المشبوهون وجواسيس وليم سوف يحرضونهم قائلين: «اضربوا اليهود، اضربوا أصحاب الحوانيت، اسرقوا الأسواق، حطموا المتاجر، انهبوا مستودعات الخمر! اذبحوا، احرقوا، اسرقوا؟»

وبعد ذاك ستبدأ فوضى رهيبة، تبدأ حرب بين قسم من الشعب وآخر. الكل سيصبح أقل انضباطا، وربما أريق المزيد من الدم في شوارع العاصمة. وماذا يجري بعد ذاك؟

ينفتح طريق بتروغراد، أمام وليام. وينقطع الخبز عن بتروغراد، ويموت الأطفال من الجوع. بعد ذاك، يبقى الجيش على الجبهة بدون مساعدة، ويترك إخواننا في الخنادق تحت رحمة رصاص العدو. وتفقد روسيا كل احترام لها في البلدان الأخرى، وتهبط قيمة عملتنا؛ ويصبح كل شيء باهظ الثمن بحيث تغدو الحياة مستحيلة. ويؤجل انعقاد الجمعية التأسيسية الذي ننتظره منذ أمد بعيد، فيستحيل عقدها في الموعد المحدد، بعد ذاك: الموت للثورة، الموت لحريتنا...

أهذا هو ما تريدون، يا أيها العمال والجنود؟ كلا! وإذا لم يكن هذا ما تريدونه، فاذهبوا إلى الجهلة الذين يغرر بهم الخونة، وقولوا لهم الحقيقة الكاملة التي نقولها لكم!

فليعلم الجميع أن كل من يدعوكم للخروج إلى الشارع والتظاهر ضد الحكومة في هذه الأيام الراهنة، هو عميل سري للقيصر، أو محرض، أو متواطئ مع أعداء الشعب وعميل مأجور لوليم.

إن كل عامل ثوري واع، وكل فلاح واع، وكل جندي ثوري، وجميع الذين يقدرون الضرر الذي تتعرض له قضية الشعب نتيجة تظاهرة أو ثورة ضد الحكومة، يجب أن يضموا الصفوف وأن يمنعوا أعداء الشعب من القضاء على حريتنا».

اللجنة الانتخابية التابعة للمناشفة
المدافعين في بتروغراد

==========

8-مقابلة مع كرنسكي

جرّب مراسل «أسوشيتد بريس» حظه، فقال مبتدءا: «سيد كرنسكي في إنكلترا وفرنسا خاب ظن الناس بالثورة».

وقاطعه كرنسكي بطريقة هزلية: نعم، أعلم ذلك ولم تعد الثورة مألوفة في الخارج»!.

«ما تفسيرك لسبب توقف الروس عن القتال»؟

«هذا سؤال أحمق»، قال كرنسكي منزعجا: «إن روسيا قد دخلت الحرب قبل جميع الحلفاء وتحملت كل أعبائها وحدها طوال فترة. إن خسائرها أضخم بكثير من خسائر جميع الأمم الأخرى مجتمعة. ويحق لروسيا الآن أن تطالب الحلفاء بالمشاركة بقوى أكبر». وتوقف للحظة محدقا بمحدثه. «سألت لماذا توقف الروس عن القتال، والروس يسألون أين البحرية البريطانية، مع البوارج الألمانية في خليج ريغا؟» وتوقف فجأة مرة أخرى ثم انفجر قائلا: «الثورة الروسية لم تخفق، والجيش الثوري لم يخفق. ليست الثورة التي أحدثت الفوضى في تنظيم الجيش –إن هذه الفوضى أحدثها العهد البائد منذ سنين. لماذا لا يحارب الروس؟ سأقول لك. لأن جماهير الشعب منهكة اقتصاديا، ولأن أملها بالحلفاء قد خاب»!

لقد أرسل الحديث الذي أثبتنا هنا مقطعا منه بالبرق إلى الولايات المتحدة، وأعدته وزارة الخارجية الأمريكية بعد بضعة أيام، طالبة «تعديله». فرفض كرنسكي، إلاّ أن التعديل جرى على يد سكرتيره، السيد دافيد سوسكيس، وهكذا وزع على الصحافة في العالم بعد أن حذفت منه جميع الإشارات الهجومية على الحلفاء....

الفصـــل الثـــــالث

العشيـــــة

في العلاقات بين حكومة ضعيفة وشعب ثائر، يأتي وقت يؤدي فيه أي عمل تقوم به السلطات إلى إثارة غضب الجماهير، كما يؤدي أي امتناع عن العمل إلى إثارة حقدهم.

ولقد أثار الاقتراح بالتخلي عن بتروغراد عاصفة غضب شعبية، وعندما نفى كرنسكي علنا أن تكون للحكومة أية نية للقيام بذلك، قوبل بصراخات الاستهزاء فصاحت صحيفة «طريق العمال» (رابوتشيه بوت):

«بعد أن أحرجت الحكومة البرجوازية المؤقتة من جراء ضغط الثورة، أخذت تحاول التملص بإطلاق التأكيدات الكاذبة بأنها لم تفكر مطلقا بأن تهجر بتروغراد، وأنها لم تكن تريد أن تسلم العاصمة»...

في خاركوف، أعلن ثلاثون ألف عامل منظم من عمال المناجم أنه «لا يوجد أي شيء مشترك بين الطبقة العاملة وطبقة أرباب العمل»! ففرقتهم قوات القوزاق، وطرد أصحاب المنجم بعضهم، وأعلن البعض الآخر الإضراب. فأوكل كونومالوف، وزير التجارة والصناعة، إلى مساعده، أورلوف، مهمة القضاء على الفتنة مانحا إياه صلاحيات استثنائية. وكان عمال المناجم يكرهون أورلوف. إلاّ أن «التسايكا» لم تؤيد تعيينه فحسب، وإنما رفضت المطالبة بسحب القوزاق إلى حوض نهر الدون كذلك..

وعقب ذلك تفريق السوفييت في «كالوغا». فبعد أن أحرز البلاشفة أكثرية في السوفييت، أطلقوا سراح بعض المعتقلين السياسيين. فاستدعى مجلس الدوما الجنود من «مينسك» وقصف مقر السوفييت بالمدفعية بعد موافقة «مفوض الحكومة». فانصاع البلاشفة، وبينما كانوا يغادرون البناية، هاجمهم القوزاق الصائحين: «هذا ما سنفعله بجميع منظمات السوفييت البلشفية الأخرى: بما فيها سوفييت موسكو وبتروغراد!» فأثارت هذه الحادثة موجة من الذعر في جميع أنحاء روسيا.

في بتروغراد، كان «المؤتمر المنطقي لسوفييت الشمال» يختتم جلساته، وقد ترأسه كيريلينكو البلشفي. فقرر، بأغلبية ساحقة، أن يستلم مؤتمر السوفييت العام كل السلطات؛ وختم قراراته محييا البلاشفة المسجونين، طالبا منهم أن يهللوا لأن ساعة تحررهم أضحت وشيكة. وفي الوقت نفسه، أعلنت الندوة الأولى «للجان المصانع والمتاجر في عموم روسيا» تأييدها المطلق للسوفييت، وورد في قراراتها هذا المقطع الهام (1):

«إن الطبقة العاملة، بعد أن انعتقت سياسيا من الحكم القيصري، تريد انتصار النظام الديموقراطي في مجال نشاطها المنتج. وهذا يعبر عن نفسه أصدق تعبير في سيطرة العمال على الإنتاج الصناعي، الذي نشأ، طبعا، في جو التفكك الاقتصادي الذي خلفته السياسة الإجرامية للطبقة الحاكمة».

وكان «اتحاد عمال سكك الحديد» يطالب بإقالة ليفيروفسكي، وزير المواصلات..:

وأصر سكوبيليف، باسم «التسايكا»، على تقديم «التعليمات» (الناكاز) إلى «ندوة الحلفاء»، واحتج رسميا على إرسال تريشنكو إلى باريس، فأعلن هذا الأخير استعداده للاستقالة.

لعجزه عن إنجاز إعادة تنظيم الجيش، كان الجنرال فيرخوفسكي يحضر جلسات مجلس الوزراء في فترات متباعدة. وفي 3 تشرين الثاني (نوفمبر)، صدرت صحيفة «أوبيشي ديبلو» (القضية المشتركة)، التي يحررها بورتزيف، بالعناوين الكبيرة التالية:

«أيها المواطنون! أنقذوا الوطن!

لقد علمت لتوّه أنه في اجتماع لجنة الدفاع الوطني، اقترح وزير الحربية الجنرال فيرخوفسكي، أحد المسؤولين الرئيسيين عن سقوط كورنيلوف، عقد صلح منفرد بمعزل عن الحلفاء.

هذه خيانة لروسيا!

لقد أعلن تريشنكو أن الحكومة المؤقتة لم تدرس اقتراح فيرخوفسكي.

فقال تريشنكو: «يبدو لي كأننا في مصح للأمراض العقلية!»

وذهل أعضاء اللجنة من كلمات الجنرال.

لا! ليس المر جنونيا! إنه أسوأ من ذلك. إنه خيانة صريحة لروسيا!

المطلوب من كرنسكي وتريشنكو ونكرازوف أن يجيبونا حول كلمات فيرخوفسكي.

هبّوا، أيها المواطنون!

إنهم يبيعون روسيا!

فانقذوها!»

أما ما قاله فيرخوفسكي فعلا فهو أنه يجب الضغط على الحلفاء لفرض السلم، لأنه لم يعد بإمكان الجيش الروسي أن يقاتل.

فكانت الضجة عظيمة في روسيا والخارج. مُنح فيرخوفسكي «إجازة مرضية غير محدودة» واستقال من الحكومة. وألغت صحيفة «القضية المشتركة».

وأعلن أن يوم الأحد 4 تشرين الثاني (نوفمبر) سيكون «يوم سوفييت بتروغراد»، ووضعت خطة لعقد اجتماعات ضخمة في جميع أنحاء المدينة غايتها، ظاهريا، جمع التبرعات للتنظيم والصحافة، وفعليا، إظهار قوة السوفييت. وفجأة أعلن أن القوزاق سيسيرون في «مسيرة الصليب» في اليوم نفسه تكريما لأيقونة عام 1612 التي تم إجلاء قوات نابليون عن موسكو بفضل قدرتها العجائبية. كان الجو متوترا، وأي شرارة تهدد باشتعال حرب أهلية. فأصدر سوفييت بتروغراد بيانا بعنوان: «أيها الإخوة القوزاق!»

«إنهم يحرضونكم، أيها القوزاق، ضدنا، نحن العمال والجنود. إن أعداءنا المشتركين، من مستغلين وأصحاب امتيازات، وجنرالات وأصحاب المصارف وملاك الأراضي وموظفين سابقين وخدام للقيصر، ينفذون خطة قايين... إن جميع المرتشين والأثرياء والأمراء والنبلاء والجنرالات، بمن فيهم جنرالات القوزاق، يكرهوننا. وهم مستعدون، في أية لحظة، أن يقضوا على سوفييت بتروغراد وأن يسحقوا الثورة..

في 4 تشرين الثاني (نوفمبر) سينظم البعض مسيرة دينية للقوزاق. إن اشتراك المرء أو عدم اشتراكه فيها يعود إلى ضميره الحي. إننا لا نتدخل في هذا الشأن، ولا نعرقل عمل أحد... ولكننا، ننذركم، يا قوزاق! إحذروا. ولا تستمعوا إلى تحريض أمثال خالدين ضد العمال وضد الجنود بحجة «مسيرة الصليب»...

فألغيت المسيرة بسرعة...

كان البلاشفة يبشرون في الثكنات والأحياء العمالية في المدينة «كل السلطات للسوفييت!» في حين يحث عملاء قوى الظلام الشعب على الانقضاض وذبح اليهود وأصحاب الحوانيت والقادة الاشتراكيين...

من جهة، الصحافة الملكية تحرض على القمع الدموي؛ ومن جهة أخرى يزار صوت لينين المدوّي: «إلى الثورة... لا نستطيع الانتظار أكثر من ذلك!».

حتى الصحافة البرجوازية كانت مرتبكة (2). فقد اتهمت «مجلة البورصة» الدعاية البلشفية بأنها هجوم «على أبسط مبادئ المجتمع الأولية، السلامة الشخصية، واحترام الملكية الخاصة».

إلاّ أن صحف الاشتراكيين «المعتدلين» كانت الأكثر عداء(3). أعلنت صحيفة «دييلو نارودا» (قضية الشعب): «أن البلاشفة هم أخطر أعداء الثورة». وكتبت صحيفة المناشفة «ديين» (اليوم): «يجب على الحكومة أن تحمي نفسها وتحمينا. أما صحيفة بليخانوف «يدينستوفا» (الوحدة) (4) ، فقد لفتت نظر الحكومة إلى أن عمال بتروغراد يتسلحون، مطالبة باتخاذ إجراءات حازمة ضد البلاشفة.

وبدت الحكومة أكثر فأكثر عجزا يوما بعد يوم. حتى الادارة البلدية أخذت تنهار، وكانت صحف الصباح مليئة بأخبار أكثر السرقات والجرائم وقاحة، في حين ظل المجرمون فارين من وجه العدالة.

ومن جهة أخرى، كان العمال المسلحون يجوبون الشوارع ليلا، ويشتبكون مع اللصوص ويصادرون الأسلحة أينما وجدوها.

وفي أول تشرين الثاني (نوفمبر)، صدر البلاغ التالي عن الكولونيل بولكوفنيكوف الحاكم العسكري لمدينة بتروغراد:

«رغم الأيام العصيبة التي يمر بها البلد، فإن النداءات غير المسؤولة تحث على التظاهرات المسلحة والمجازر. وأعمال السرقة والفوضى تتزايد يوما بعد يوم في بتروغراد.

إن هذه الحالة تزرع الاضطراب في حياة المواطنين، وتعيق عمل الحكومة والبلديات المنتظم.

وعيا لمسئوليتي وواجبي تجاه وطني، آمر بما يلي:

1- يتوجب على كل وحدة عسكرية، بمقتضى التعليمات الخاصة بها، وضمن حدود عمل الحامية التي تنتمي إليها، ان تقدم كل مساعدة للبلدية والمفوضين والمليشيا للحفاظ على المؤسسات الحكومية.

2- تنظيم الدوريات، وبالتعاون مع قائد المنطقة ومع ممثلي مليشيا المدينة، واتخاذ الإجراءات لإلقاء القبض على المجرمين والهاربين.

3- إلقاء القبض على جميع الذين يدخلون الثكنات ليحثوا على التظاهرات المسلحة والمجازر، وتسليمهم إلى مقر نائب حاكم المدينة.

4- قمع أية تظاهرة مسلحة أو أي شغب عند بدايته، باستخدام جميع القوى المتوفرة.

5- تقديم المساعدة للمفوضين للحيلولة دون التفتيش الكيفي للمنازل والاعتقالات التعسفية.

6- إبلاغ قيادة منطقة بتروغراد العسكرية فورا بكل ما يجري في القطاع الذي تعمل فيه الوحدة العسكرية.

إني أدعو كافة لجان الجيش ومنظماته إلى مساعدة القادة في القيام بالمهمات **الموكلة إليهم**».

أعلن كرنسكي في مجلس الجمهورية أن الحكومة على علم تام بما يحضّر له البلاشفة، وأنها تملك القوة الكافية للرد على أية تظاهرة (5). واتهم صحيفتي «نوفايا روس» (روسيا الجديدة) و«رابوشي بوت» (طريق العمال) بالعمل المخرب نفسه. ثم أضاف: نظرا لحرية الصحافة المطلقة، فإن الحكومة ليست في وضع يسمح لها أن تحارب الأكاذيب المطبوعة»... وبعد أن أعلن أن أقوال الصحفيين هما وجهان لدعاية واحدة تهدف إلى الثورة المضادة التي تتمناها بشدة «قوى الظلام». أردف قائلا: «أنا إنسان هالك، لا يهم ماذا يجري لي، وأني أملك الجرأة على القول أن اللغز هو حالة الاستفزاز العنيفة التي خلقها البلاشفة في المدينة»!

في 2 تشرين الثاني (نوفمبر) كان خمسة عشر مندوبا لمؤتمر السوفييت قد حضروا فقط. وفي اليوم التالي، أصبحوا مائة؛ وفي صباح اليوم الذي تلاه، أصبحوا مائة وخمسة وسبعون بينهم مائة وثلاثة مندوب بلاشفة... النصاب يحتاج إلى أربعمائة مندوب، والمؤتمر سيعقد بعد ثلاثة أيام.

قضيت وقتا طويلا في «سمولني». لم يعد سهلا دخولها. كانت مفرزتان من الحرس تحرسان البوابة الخارجية. وما أن تجتاز البوابة الأمامية حتى تجد صفا طويلا ينتظر الدخول، ويجري استجواب كل دفعة من أربعة أشخاص عن هويتها وشغلها. ووزعت الأذونات، وكان يجري تغيير نظام الأذونات كل بضع ساعات لأن الجواسيس كانوا يتسللون إلى الداخل باستمرار.

ذات يوم، وأنا أقترب من البوابة الخارجية، رأيت تروتسكي وزوجته قدّامي وقد أوقفهما أحد الجنود. تروتسكي يفتش في جيوبه ولكنه عبثا يجد أذنه.

فقال أخيرا: «لا بأس. أنت تعرفني. اسمي تروتسكي».

فأجاب الجندي بعناد: «ما معك إذن. لا تستطيع الدخول. الأسماء لا تعني شيئا بالنسبة لي».

«ولكني رئيس سوفييت بتروغراد»!

«حسنا! إذا كنت مهما إلى هذا الحد، يجب أن يكون معك قصاصة ورق صغيرة على الأقل».

كان تروتسكي جد صبور: «دعني أقابل القائد». فتردد الجندي وتمتم ما معناه أنه لا يريد إزعاج القائد في كل مناسبة يأتي فيها شخص بدون إذن. أخيرا أومأ إلى الجندي المسؤول عن الحرس. فشرح له تروتسكي الوضع مرددا: «اسمي تروتسكي».

«تروتسكي؟» وحك الجندي الآخر رأسه. ثم قال أخيرا: «سمعت هذا الاسم في مكان ما. أظن أن لا بأس. تستطيع أن تدخل يا رفيق».

قابلت كاراخان، عضو اللجنة المركزية لحزب البلاشفة، في الممشى وفسّر لي كيف ستكون الحكومة الجديدة:

«هي منظمة منفتحة، حساسة للإرادة الشعبية التي تعبر عن نفسها من خلال السوفييت، مفسحة المجال أمام القوى المحلية لكي تلعب دورها. الحكومة المؤقتة، حاليا، تعيق عمل الإدارة الديموقراطية المحلية، تماما مثلما فعلت حكومة القيصر. إن المبادرة في بناء مجتمع جديد سوف يأتي من تحت... وسيكون شكل الحكومة على غرار دستور حزب العمال الاشتراكي الديموقراطي الروسي، فتكون «التسايكا» الجديدة، المسئولة تجاه الاجتماعات المستمرة لمؤتمر السوفييت العام، هي البرلمان؛ وتترأس اللجان عمل الوزارات المختلفة عوضا عن الوزراء، تكون مسؤولة مسؤولية مباشرة تجاه السوفييت».

في 30 تشرين الأول (أكتوبر)، كنت على موعد لإجراء حديث مع تروتسكي، فقصدت غرفة جرداء صغيرة في الطابق العلوي من «سمولني». كان يجلس في وسط الغرفة على كرسي عتيق وراء طاولة فارغة. لم يكن عليّ سوى أن أطرح بضعة أسئلة، حتى انطلق يتكلم بسرعة ودون انقطاع طوال أكثر من ساعة. وفيما يلي ملخص أقواله بكلماته هو:

«الحكومة المؤقتة عاجزة تماما. البرجوازية هي التي تسيطر، ولكن هذه السيطرة مقنَّعة بتحالف وهمي مع الأحزاب «المدافعة». إننا نشاهد الآن، في ظل حكم الثورة، انتفاضات الفلاحين الذين ملوا انتظار الأراضي التي وُعدوا بها. كما يتجلى نفس القرف في جميع أنحاء البلاد وفي أوساط جميع الطبقات الكادحة. إن سيطرة البرجوازية هذه ليست ممكنة إلاّ بواسطة حرب أهلية. ووسيلة كورنيلوف هي الطريق الوحيد الذي يؤمن سيطرة البرجوازية. ولكن البرجوازية تفتقر إلى القوة... فالجيش معنا. وقد فقد المساومون ودعاة المصالحة، من اشتراكيين ثوريين ومناشفة، كل سلطة، لأن الصراع بين الفلاحين وملاك الأرض، وبين العمال وأرباب العمل، وبين الجنود والضباط قد أصبح أكثر مرارة وانعدمت إمكانية المصالحة. إن تحقيق الثورة وخلاص الشعب لا يمكن أن يتما إلاّ بنضال الجماهير الشعبية المركَّز، إلا بانتصار ديكتاتورية البروليتاريا.

إن منظمات السوفييت هي أصدق ممثل للشعب. إنها كاملة بتجربتها الثورية وبأفكارها وأهدافها. وهي العامود الفقري للثورة، لأنها تعتمد مباشرة على الجيش في الخنادق، والعمال في المصانع، والفلاحين في الحقول.

جرت محاولة لإقامة سلطة بدون السوفييت، فكان مصيرها الفشل. إن مختلف أنواع الخطط المضادة للثورة ترى النور حاليا في أروقة مجلس الجمهورية الروسية. حزب الكاديت يمثل القطاع المقاتل من الثورة المضادة. تقابله، في الجهة الثانية، السوفييت التي تمثل قضية الشعب. ولا توجد مجموعات كبيرة الأهمية بين هذين المعسكرين. هذه هي المعركة الأخيرة الحاسمة. الثورة البرجوازية المضادة تستجمع جميع قواها وتنتظر اللحظة الملائمة للانقضاض علينا. إن جوابنا سيكون حازما. سوف ننجز العمل الذي بدأ تقريبا في آذار (مارس)، والذي تقدم خلال مؤامرة كورنيلوف»...

ثم انتقل للحديث عن السياسة الخارجية للحكومة الجديدة:

«سيكون أول عمل نقوم به هو الدعوة إلى الهدنة على جميع الجبهات، وإلى انعقاد ندوة للشعوب لمناقشة شروط سلم ديموقراطي. إن كمية الديموقراطية التي سوف نتمكن من إدخالها إلى اتفاقية السلم تعتمد على كمية الاستجابة الثورية الموجودة في أوروبا. إذا خلقنا هنا حكومة للسوفييت، فسوف يكون ذلك ركنا أساسيا في تحقيق سلم ناجز في أوروبا. لأن هذه الحكومة سوف تتوجه فورا ومباشرة إلى جميع الشعوب، من فوق رؤوس حكوماتها، عارضة عليها الهدنة. وعندما يحين موعد توقيع اتفاقية الصلح، سيكون ضغط الثورة الروسية باتجاه المطالب التالية: «لا دمج. لا تعويض. حق الشعوب في تقرير مصيرها»، وبناء جمهورية فيدرالية أوروبية...

وعند انتهاء هذه الحرب، أرى انبعاث أوروبا على يد البروليتاريا وليس على يد الدبلوماسيين. جمهورية فيدرالية في أوروبا –الولايات المتحدة الأوروبية- هذا ما يجب تحقيقه. لم يعد الحكم الذاتي القومي يكفي. إن التطور الاقتصادي يفرض إزالة الحدود القومية. وإذا ظلت أوروبا مجزأة إلى مجموعات قومية، فإن الإمبريالية سوف تعاود نشاطها. إن جمهورية أوروبا الفيدرالية هي وحدها التي تستطيع تأمين السلام للعالم».

وارتسمت على وجهه ابتسامة الرقيقة الساخرة بعض الشيء وأضاف:

«ولكن بدون نضال الجماهير الأوروبية لا يمكن تحقيق هذه الأهداف الآن»...

بينما كان الجميع ينتظر أن يظهر البلاشفة في الشوارع فجأة، ذات صباح، وأن يطلقوا الرصاص على كل ذي ياقة بيضاء، أخذت الثورة الحقيقية مجراها بشكل جدي طبيعي وعلني.

قررت الحكومة المؤقتة إرسال حامية بتروغراد إلى الجبهة. وكانت هذه الحامية تضم حوالي ستين ألف جندي، ممن لعبوا دورا بارزا في الثورة. فهم الذين رجّحوا كفة الميزان في أيام آذار (مارس) العظيمة، وأنشأوا سوفييت مندوبي الجنود، وصدّوا هجوم كورنيلوف عن أبواب بتروغراد.

وكان القسم الأكبر منهم قد انظم إلى البلاشفة. وعندما تحدثت الحكومة عن إخلاء العاصمة، كانت حامية بتروغراد هي التي أجابتها: «إذا كنتم لا تستطيعون عقد الصلح، فأفسحوا المجال أمام حكومة الشعب التي تستطيع أن تحقق كلا الهدفين».

وكان واضحا أن أية محاولة ثورية مرتهنة بموقف حامية بتروغراد. وكانت خطة الحكومة استبدال أفواج الحامية بوحدات «موثوقة» من القوزاق، وفيالق الموت. وحظيت الحكومة بتأييد لجان الجيش والاشتراكيين «المعتدلين» و«التسايكا». فشنت حملة دعائية واسعة في الجبهة وفي بتروغراد تؤكد أن جنود حامية بتروغراد يعيشون حياة مترفة، منذ ثمانية أشهر في ثكنات العاصمة، في حين يجوع رفاقهم المنهكون ويموتون في الخنادق.

لا شك في أن التهمة القائلة أن أفواج الحامية كانت مترددة في استبدال راحتها النسبية بمصاعب الحملة الشتوية تحوي بعض الحقيقة. ولكن كانت يوجد أسباب أخرى لرفضهم الذهاب. كان سوفييت بتروغراد يتوجس شرا من نوايا الحكومة، وجاء مئات المندوبين من الجبهة ممن انتخبهم الجنود العاديون صائحين: «صحيح أننا بحاجة إلى إمدادات، ولكن الأهم من ذلك هو أن نتأكد من أن بتروغراد والثورة محروستان حراسة جيدة.. احموا المؤخرة، يا رفاق، ونحن نحمي الجبهة»!

في 25 تشرين الأول (أكتوبر)، عقدت اللجنة المركزية لسوفييت بتروغراد جلسة سرية ناقشت فيها موضوع تكوين لجنة عسكرية خاصة. وفي اليوم التالي في اجتماع قطاع الجنود التابع لسوفييت بتروغراد، جرى انتخاب لجنة أعلنت فورا مقاطعة الصحافة البرجوازية، وأدانت «التسايكا» لمعارضتها انعقاد مؤتمر السوفييت. وفي 29 منه، اقترح تروتسكي، في اجتماع علني لسوفييت بتروغراد، أن يوافق السوفييت رسميا على تشكيل اللجنة العسكرية الثورية قائلا: «يجب أن نخلق منظمة خاصة تسير إلى المعركة وتموت إذا اقتضى الأمر». وتقرر إرسال وفدين إلى الجبهة، وفد عن السوفييت وآخر عن الحامية، للتشاور مع لجان الجنود والقيادة العامة.

وفي «بسكوف»، قابل الجنرال تشيريميزوف، قائد الجبهة الشمالية، موفدي السوفييت وقال لهم باختصار أنه قد أصدر أمرا إلى حامية بتروغراد بالانتقال إلى الجبهة وأن هذا كل ما في الأمر. هذا وقد مُنع وفد الحامية من مغادرة بتروغراد.

وطالب وفد من قطاع الجنود في سوفييت بتروغراد تمثيله في قيادة منطقة بتروغراد العسكرية. فرفض الطلب كذلك، وقيل للموفدين برعونة: «إننا لا نعترف إلاّ بـ«التسايكا». إننا لا نعترف بكم؛ وسوف نعتقلكم إذا خالفتم القانون».

وفي 30 منه، اتخذ اجتماع ممثلي جميع أفواج بتروغراد القرار التالي:

«إن حامية بتروغراد لم تعد تعترف بالحكومة المؤقتة. إن سوفييت بتروغراد هو حكومتنا. ولن نطيع إلاّ أوامره من خلال اللجنة العسكرية الثورية».

وصدرت أوامر إلى أوامر إلى الوحدات العسكرية المحلية أن تنتظر تعليمات من قطاع الجنود في سوفييت بتروغراد.

وفي اليوم التالي، دعت «التسايكا» إلى عقد اجتماعها المؤلف بشكل خاص من الضباط، وشكلت لجنة للتعاون مع القيادة العسكرية، وعيّنت مفوضين في جميع أحياء المدينة.

وفي اجتماع كبير للجنود في «سمولني» في 3 منه، تقرر ما يلي:

«نحيِّي إنشاء اللجنة العسكرية الثورية. وإن حامية بتروغراد تعد هذه اللجنة بتأييدها المطلق في جميع أعمالها في سبيل وحدة أوثق بين الجبهة والمؤخرة من أجل مصالح الثورة.

وإلى جانب ذلك، فإن الحامية تعلن بأنها سوف تحافظ على الانضباط الثوري في بتروغراد بالتعاون مع البروليتاريا الثورية. وأن أية محاولة استفزاز يقوم بها جماعة كورنيلوف أو البرجوازية سوف تقابل بمقاومة ضارية».

بعد أن أصبحت مدركة لقوتها، وجهت «اللجنة العسكرية الثورية» أمرا حازما إلى قيادة منطقة بتروغراد العسكرية بالامتثال لسلطتها. وأصدرت الأوامر إلى جميع المطابع بعدم نشر أية نداءات أو بلاغات بدون موافقتها. وتوجه مفوضون مسلحون إلى مخزن «كرونفرسك» واستولوا على كميات وفيرة من السلاح والذخيرة، وأوقفوا شحنة تحوي عشرة آلاف حربة كانت مرسلة إلى «نوفوشيركاسك»، المقر العام لخالدين...

وفجأة، أفاقت الحكومة على الخطر، فعرضت العفو على أعضاء اللجنة إذا ما حلّت نفسها. ولكن بعد فوات الأوان. وفي منتصف ليلة 5 تشرين الثاني (نوفمبر)،

أرسل كرنسكي ماليفسكي ليعرض على سوفييت بتروغراد تمثيله في القيادة العسكرية. فقبلت اللجنة العسكرية الثورية. وبعد مضي ساعة، أقدم الجنرال مانيوفسكي، وزير الحربية بالوكالة، على سحب العرض.

في صباح يوم الثلاثاء في تشرين الثاني (نوفمبر)، كانت المدينة في حالة هيجان بسبب ظهور بلاغ يحمل توقيع «اللجنة العسكرية الثورية الملحقة بسوفييت بتروغراد لمندوبي العمال والجنود».

«إلى شعب بتروغراد. أيها المواطنون!

إن الثورة المضادة قد رفعت رأسها المجرم. وجماعة كورنيلوف تستجمع قواها لسحق المؤتمر العام للسوفييت وتحطيم الجمعية التأسيسية. وفي الوقت نفسه، قد يحاول المشاغبون دعوة شعب بتروغراد إلى إثارة الاضطرابات وسفك الدماء. إن سوفييت بتروغراد لمندوبي العمال والجنود يأخذ على عاتقه تأمين النظام الثوري في المدينة ضد جميع محاولات الثورة المضادة وأعمال الشغب.

إن حامية بتروغراد ترفض السماح بأي أعمال عنف أو تعكير الأمن. وهي تطلب من السكان أن يقبضوا على المتآمرين والمحرضين الذين ينتمون إلى منظمة «المئات السوداء»، وأن يسوقوهم إلى مفوضي السوفييت في أقرب ثكنة. عند أول محاولة تقوم بها قوى الظلام لإثارة المشاكل في شوارع بتروغراد، إن بواسطة السرقة أو بواسطة القتال، فإن المجرمين سوف يمحون عن سطح الأرض!

أيها المواطنون! إننا ندعوكم إلى المحافظة على الهدوء التام والسيطرة على النفس. إن قضية النظام والثورة بين أيد قوية أمينة».

وفي 3 منه، عقد قادة البلاشفة اجتماعا تاريخيا سريا آخر. أعلمني زالكنيد بالأمر، فانتظرت في الممشى خارج الباب، وكان فولودارسكي يوافيني بآخر الأخبار كلما خرج.

تكلم لينين قائلا: «6 تشرين الثاني (نوفمبر) سيكون باكرا جدا. يجب أن تكون ثمة قاعدة عامة في كل البلاد ترتكز إليها الانتفاضة. في ذلك التاريخ لن يكون مندوبو المؤتمر قد وصلوا بعد... ومن جهة أخرى، ففي 8 تشرين الثاني (نوفمبر)، تكون الفرصة قد فاتت. حينذاك يكون المؤتمر قد انتظم، فيصعب على هيئة تحوي عددا كبيرا من الناس المنظمين أن تأخذ قرارا سريعا حاسما. يجب أن نتحرك في 7 تشرين الثاني (نوفمبر)، يوم انعقاد المؤتمر، فنتوجه إليه قائلين: «هذه هي السلطة بين أيديكم! ماذا ستفعلون بها؟»».

في غرفة من غرف الطابق الأعلى، يجلس رجل نحيل الوجه طويل الشعر، كان ضابطا في جيوش القيصر ثم أصبح ثوريا ونُفي. إنه أوفسينكو، الملقب أنطونوف، عالم الحساب ولاعب الشطرنج الذي كان يعد الخطط المحكمة للسيطرة على العاصمة.

الحكومة تتهيأ من جهتها. فاستدعت بعض الأفواج الموالية، بشكل خفي، من وحدات جد متباعدة. وجلبت مدفعية «اليونكرز[*]» إلى قصر الشتاء. وظهرت دوريات القوزاق لأول مرة في الشوارع منذ أيام يوليو. وأصدر بولكوفنيكوف الأمر تلو الأمر مهددا بقمع أي عصيان «بحزم تام». وجرى تعيين كيشكين، وزير التربية وأكره الوزراء في أعين الشعب، مفوضا خاصا مهمته حفظ الأمن في بتروغراد؛ فاختار لمعاونته رجلين مكروهين بقدر ما هو مكروه هما روتنبرغ وبالشينسكي. وأعلنت حالة الطوارئ في بتروغراد وكرونستاد وفنلندا، مما أدى بصحيفة «الأزمنة الحديثة» البرجوازية إلى أن تعلق بسخرية قائلة:

«لماذا أعلنت حالة الطوارئ؟ فقدت الحكومة قوتها. إنها لا تملك السلطة المعنوية ولا الجهاز اللازم لفرض هيبتها... وهي، في أحسن الحالات، لا تستطيع أكثر من أن تفاوض أي طرف مستعد للتفاوض. إن سلطتها لا تتعدى ذلك...».

في صباح يوم الاثنين في 5 منه، مررت بقصر «مارينسكي» لكي أطلع على الذي يجري في مجلس الجمهورية الروسية: نقاش مرير حول سياسة تريشنكو الخارجية. أصداء قضية بورتزيف-فيرخوفسكي. وقد حضر جميع الديبلوماسيين ما عدا السفير الإيطالي الذي روى الجميع عنه أنه يعاني من انهيار عصبي من جراء كارثة «كورزو».

دخلت وكاريلين، الاشتراكي الثوري اليساري، يقرأ افتتاحية «التايمز» اللندنية التي تقول: «أن علاج البلشفية هو الرصاص!». ثم التفت إلى الكاديت صائحا: «هذا رأيكم أنتم كذلك!».

أصوات من اليمين: «إي! أي!».

ويجيب كاريلين بحدة: «بلى. أعلم أن هذا رأيكم. ولكنكم لا تملكون الجرأة الكافية للإقدام عليه!»

ثم جاء دور سكوبيليف وقد بدأ مثل نجم سينمائي ناجح بلحيته الشقراء الملساء وشعره الأصفر المتماوج، فدافع، بما يقارب الاعتذار، عن «تعليمات» السوفييت. وتلام تريشنكو تقابله من اليسار صيحات «الاستقالة! الاستقالة!» فأصر على أن يكون لمندوبي الحكومة «التسايكا» إلى باريس وجهة نظر واحدة، وجهة نظره هو. ثم تكلم قليلا عن إعادة الانضباط إلى الجيش وعن تحويل الحرب إلى انتصار... وتعالت جلبة، ورغم المعارضة العنيدة التي شنها اليسار بضراوة، انتقل مجلس الجمهورية إلى الجدول العادي لأعمال اليوم.

وكانت صفوف مقاعد البلاشفة خالية منذ اليوم الأول الذي انسحبوا فيه من المجلس حاملين معهم الكثير من الحيوية. وبينما كنت أنزل السلم، بدا لي أن ما من صوت حقيقي من هذا العالم الفظ في الخارج يستطيع أن يخترق جدران هذه القاعة العالية الباردة، وأن الحكومة المؤقتة قد تحطمت على صخرة الحرب والسلم نفسها التي تحطمت عليها وزارة مليكوف... وتذمر البواب وهو يلبسني معطفي «لست أدري ماذا حل بروسيا المسكينة. كل هؤلاء المناشفة والبلاشفة والترودوفيك... وأكرانيا والاستعماريون الألمان والاستعماريون الإنكليز... عمري خمسة وأربعون سنة، وطوال حياتي لم أسمع عددا من العبارات كالذي أسمعه في هذا المكان».

في الممشى التقيت البروفيسور شاتسكي ذا وجه الجرذ وهو يرتدي معطفا أنيقا، وكان يتمتع بنفوذ كبير في أوساط حزب الكاديت. فسألته عن رأيه في التظاهرة البلشفية المسلحة التي كثر اللغو حولها. فهز كتفه هازئا وأجاب:

«إنهم قطيع من السفلة! لن يتجرأوا على ذلك، وحتى لو تجرأوا فسوف يقضى عليهم. لن يكون الأمر مسيئا بالنسبة لنا، لأنهم سيجلبون الكارثة على أنفسهم، ويفقدون قوتهم في الجمعية التأسيسية...

لكن، اسمح لي، يا سيدي العزيز، أن أعرض عليك خطتي التي سأقدمها إلى الجمعية التأسيسية حول تشكيل الحكومة. أنا، كما تعلم، رئيس لجنة عينتها هذه الهيئة بالتعاون مع الحكومة المؤقتة لتقديم مشروع دستور... سيكون لنا جمعية تشريعية ذات مجلسين، مثلما يوجد عندكم في الولايات المتحدة. فيضم المجلس

الأدنى ممثلي المناطق، ويضم المجلس الأعلى ممثلي المهن الحرة والزيمستوفا والتعاونياتت والنقابات»...

في الخارج هبت ريح غربية رطبة وباردة، وأخذ الوحل ينفذ إلى حذائي. ومرت سريتان من «الينكرز» مخترقة شارع «مورسكايا»، يدق أفرادها الأرض بخطاهم الثابتة وهم يرتدون المعاطف الطويلة، وينشدون لحنا قديما مدويا من أيام القيصر... عند أول مفترق طرق، لاحظت أن أفراد مليشيا المدينة يعتلون الأحصنة ويتمنطقون المسدسات في أغماد برّاقة جديدة، بينما وقف جمع صغير من الناس يحدق بهم بصمت. وعند زاوية «جادة نييفسكي»، اشتريت منشورا للينين بعنوان «هل يستطيع البلاشفة الاحتفاظ بالسلطة؟»، ودفعت ثمنه إحدى الطوابع التي يستعاض عنها بالقطع الصغير. ومرت الحافلات العامة تجرجر نفسها، والجنود متعلقون بها من الخارج... وعلى طول الرصيف صف من الفارين من الجيش، بزيهم العسكري، يبيعون السجائر وحبوب «دوار الشمس».

وفي «شارع نييفسكي» ذاته، كانت الجموع تتنازع آخر الصحف مع دغشة الغروب، بينما تتدافع حلقات الناس لقراءة العدد الكبير من النداءات والبلاغات الملصقة على كل مكان فارغ أملس، صادرة عن «التسايكا»، وسوفييت الفلاحين، والأحزاب الاشتراكية «المعتدلة»، ولجان الجيش، مهددة، شاتمة، ومتضرعة إلى العمال والجنود أن يلتزموا بيوتهم وأن يؤيدوا الحكومة (6).

سيارة مصفحة تعبر الشارع وتطلق زعيق صفارتها. وعند كل زاوية، وفي كل فسحة تتحلق مجموعات كبيرة من الجنود والطلاب تتحاور. وهبط الظلام بسرعة، وأضيئت أنوار الشارع المتباعدة، وتدفقت حشود من الناس لا حصر لها ولا عد... هذا ما يحدث دائما في بتروغراد قبل انفجار الاضطرابات.

المدينة في حالة من التوتر العصبي. تهب عند سماع أدنى صوت. ولكن لا أثر للبلاشفة، فلازم الجنود ثكناتهم والعمال مصانعهم... دخلنا عرضا سينمائيا قرب «كاتدرائية قازان»، وكان فيلما إيطاليا دمويا عن الغرام والدسائس. وقد جلس، في الصفوف الأمامية، بعض الجنود والبحارة يحدقون بالشاشة بدهشة طفولية، عاجزين تماما عن فهم لماذا يدور هذا القدر من العنف والقتال....

من هناك أسرعت إلى «سمولني». وفي الغرفة رقم 10 في الطابق الأعلى، كانت اللجنة العسكرية الثورية تعقد اجتماعا متواصلا برئاسة صبي في الثامنة عشرة من عمره، مرفوع الرأس، يدعى لازيمير. وكان مارا، فتوقف وصافحني ببعض الخجل وقال بابتسامة رضية: «استولت قواتنا على «حصن بطرس-بولس». منذ لحظة، بلغنا الخبر من فوج أمرته الحكومة بالتوجه إلى بتروغراد، فارتاب الرجال بالأمر، وأوقفوا القطار في «غاتشينا» وأرسلوا وفدا إلينا يسأل: ماذا يجري؟ ما هي أوامركم إلينا؟ لقد اتخذنا قرارا لتوه: كل السلطات للسوفييت؟ فردت عليهم اللجنة العسكرية: «أيها الأخوة: نحييكم باسم الثورة. الزموا أمكنتكم بانتظار تعليمات جديدة!»

وأبلغني أن جميع خطوط الهاتف مقطوعة، إلاّ أن الاتصال بالمصانع والثكنات يجري بواسطة هاتف ميداني تابع للجيش.

تيار متواصل من الرسل والمفوضين يروح ويجيء. وخارج الباب، عشرات المتطوعين ينتظرون، مستعدين لنقل الرسائل إلى أبعد أحياء المدينة. وقال أحدهم بالفرنسية، وهو رجل ذو وجه غجري يرتدي بزة ملازم: «كل شيء جاهز ويتحرك عند الضغط على الزر»...

ومر بودفويسكي، المدني النحيل الملتحي الذي وضع استراتيجية الثورة [**] ثم أنطونوف بدون حلاقة وبياقة متسخة وقد بدا ثملا من قلة النوم؛ ثم كريلنكو، الجندي الأحدب ذو الوجه العريض الدائم الابتسام بحركاته العنيفة وكلامه المنقطع؛ وأخيرا ديبنكو، البحَّار العملاق الملتحي بوجهه الهادئ. هؤلاء كانوا رجال الساعة، ورجال الساعة المقبلة.

في الطابق الأسفل جلس سيراتوف في مكتب «لجان المصانع والمتاجر» يوقع الأوامر الموجهة إلى مخزن الحكومة لتسليم السلاح: مئة وخمسون بندقية لكل مصنع. وكان حوالي أربعين مندوبا يقفون في الصف...

مررت في القاعة ببعض البلاشفة من أبناء القاعدة. وشهر أحدهم مسدسا وقال بوجه شاحب: «بدأت المعركة! إذا تحركنا أو لم نتحرك، فالطرف الآخر يعلم أنه يجب أن يقضي علينا وإلا فهو هالك...».

كان سوفييت بتروغراد منعقدا ليل نهار، فدخلت القاعة الكبرى وتروتسكي يوشك أن ينهي كلمته:

«يسألوننا إذا كنا ننوي القيام بتظاهرة مسلحة. أستطيع أن أجيب بوضوح على هذا السؤال. إن سوفييت بتروغراد يشعر أن الوقت قد حان أخيرا لتنتقل السلطة إلى أيدي السوفييت. إن المؤتمر العام هو الذي سيغير الحكومة. إن ضرورة التظاهرة المسلحة تتوقف على الذين يريدون التدخل في شؤون المؤتمر العام.

إننا نشعر أن حكومتنا، وقد تسلمها موظفو الوزارة المؤقتة، هي حكومة عاجزة تدعو إلى الشفقة، وهي تنتظر مكنسة التاريخ لكي تخلي المجال أمام حكومة شعبية حقيقية. ولكننا لا زلنا نحاول أن نتفادى الصراع. إننا نأمل أن يأخذ المؤتمر العام على عاتقه الحكم والسلطة التي تقوم على حرية الشعب المنظمة. ولكن إذا كانت الحكومة تريد أن تستغل ما تبقى لها من حياة –أربعة وعشرون ساعة، ثمان وأربعون ساعة أو اثنان وسبعون ساعة- لتهاجمنا، إذ ذاك سوف نجيب بالهجمات المضادة، فنرد الكيل كيلين ونفلّ الحديد بالفولاذ!» (7)

ثم أعلن، وسط الهتافات، إن الاشتراكيين الثوريين اليساريين قد وافقوا على إرسال ممثليهم إلى اللجنة العسكرية الثورية.

بينما كنت أغادر «سمولني»، في الساعة الثالثة صباحا، لاحظت أنه قد تم تنصيب مدفعين رشاشين، واحدا عند كل جهة من الباب، ورأيت دوريات الجنود المعززة تحرس البوابات وزوايا الشارع القريبة. وكان بيل شاتوف [***] يصعد السلم مهرولا فصاح: «حسنا، انطلقنا. كرنسكي أرسل الينكرز ليغلقوا صحيفتي «الجندي» و«طريق العمال». ولكن قواتنا حطمت الأختام الحكومية، وقد أرسلنا الآن مفرزات لتستولي على مكاتب الصحف البرجوازية». وبنشوة بالغة ضربني على كتفي وهرول إلى الداخل.

في صباح يوم 6 منه كنت على موعد مع الرقيب في مكتبه في وزارة الخارجية. كل الجدران مليئة بنداءات هستيرية تحث الشعب على أن يبقى «هادئا». وكان بولكوفينكوف يصدر الأمر تلو الأمر:

«إني آمر جميع الوحدات والمفارز العسكرية أن تلازم ثكناتها بانتظار صدور أوامر جديدة من قيادة المنطقة العسكرية. إن جميع الضباط الذين يتصرفون بدون أوامر رؤسائهم سوف يقدمون إلى المحكمة العسكرية بتهمة العصيان. إني أمنع منعا باتا تنفيذ الجنود لأي تعليمات تصدر لهم من منظمات أخرى».

وورد في صحف الصباح أن الحكومة قد أغلقت الصحف التالية «روسيا الجديدة» (نوفايا روس) و«الكلمة الحية» (جيفويي سلوفا) و«طريق العمال» و«الجندي [****]»، وأمرت بإلقاء القبض على قادة سوفييت بتروغراد وأعضاء اللجنة العسكرية الثورية.

وفيما كنت أجتاز «باحة القصر» كانت عدة وحدات من المدفعية التابعة لقوى «الينكرز» تجتاز «القوس الأحمر» بخبيب مرتفع الصوت واصتفت قبالة القصر. البناية الحمراء الضخمة، مقر القيادة العامة، حية بطريقة غير عادية، وعلى الباب تصطف عدة سيارات مصفحة بينما السيارات المليئة بالضباط تروح وتجيء... كان الرقيب متحمسا جدا مثل صبي صغير في السيرك. وقال أن كرينسكي قد توجه لتوه إلى مجلس الجمهورية ليقدم استقالته. فأسرعت إلى «قصر مارينسكي» حيث وصلت في نهاية خطاب كرنسكي، الذي لا يكاد يفهم منه شيء، والمليء بالتبرير وبالاتهامات المريرة ضد خصومه:

«سأقرأ أهم مقطع من سلسلة كاملة من المقالات التي نشرت في «طريق العمال» بإمضاء أوليانوف-لينين، وهو مجرم فار من وجه العدالة ونحن نحاول العثور عليه.. إن هذا المجرم بحق الدولة قد دعا البروليتاريا وحامية بتروغراد إلى تكرار تجربة 16-18 تموز (يوليو)، وهو يصر على الضرورة الملحة للقيام بثورة مسلحة... وعلاوة عن ذلك فإن القادة البلاشفة الآخرون قد اعتلوا المنبر داعيين، هم أيضا، إلى الثورة فورا. وفي هذا الصدد يجب أن نشير، بشكل خاص، إلى نشاط الرئيس الحالي لسوفييت بتروغراد: برنشتاين-تروتسكي...

وأني أرى من واجبي أن الفت انتباهكم إلى أن الأسلوب والتعابير التي ترد في سلسلة كاملة من مقالات «طريق العمال» و«الجندي» تشبه مقالات «روسيا الجديدة» شبها كاملا.

إننا لا نجابه تحركات هذا الحزب أو ذاك بقدر ما نجابه عملية استغلال للجهل السياسي والغرائز الإجرامية لدى قسم من المواطنين تقوم به منظمة غايتها أن تثير في روسيا، بأي ثمن، حركة تخريب ونهب طائشة. ونظرا للطريقة التي تفكر فيها الجماهير حاليا، سوف تؤدي أية حركة إلى أفظع المجازر التي سوف تغطي اسم روسيا الحرة بوصمة عار أبدية.

لقد اعترف أوليانوف-لينين نفسه بأن أوضاع الجناح اليساري المتطرف من الاشتراكيين-الديموقراطيين في روسيا مشجعة للغاية».

(وهنا تلا كرنسكي المقطع التالي من مقالة لينين):

«فكروا في الأمر!.. إن الرفاق الألمان لهم قائد واحد اسمه ليبكنخت، وهم محرومون من الصحف ومن حرية الاجتماع ومن السوفييت... تواجههم عداوة فظيعة من قِبل جميع طبقات الشعب –ومع ذلك فإن الرفاق الألمان مستعدون للعمل، بينما نحن، الذين نملك عشرات الصحف، ونتمتع بحرية الاجتماع وبالأغلبية في السوفييت وبأحسن مكانة دولية بلغتها البروليتاريا في العالم كله، نحن الذين نتمتع بهذا كله: هل يحق لنا أن نرفض تقديم المساعدة للثوريين الألمان ولمؤسساتهم الثورية؟».

(ثم أردف كرنسكي قائلا):

«هكذا، فإن منظمي الثورة يعترفون علنا أن أفضل الظروف لكي يعمل حزب سياسي بحرية متوفرة الآن في روسيا التي تقودها حكومة يرأسها رجل يعتبره الحزب: «غاصبا قد باع نفسه للبرجوازية –ذلك هو رئيس الوزراء كرنسكي».

«إن منظمي الثورة لا يساعدون البروليتاريا الألمانية بل الطبقات الحاكمة في ألمانيا، وهم يفتحون الجبهة الروسية أمام قبضات وليام الحديدية وأمام أصدقائه... إن دوافع هؤلاء الناس لا تهم الحكومة المؤقتة كثيرا، ولا يهمها أيضا ما إذا كانوا يعملون بوعي أو بدون وعي. وعلى كل حال، فإني من على هذا المنبر، وبوعي كامل لمسؤوليتي، أعتبر الأعمال التي يقوم بها هذا الحزب السياسي الروسي خيانة لروسيا!

إني أقف إلى جانب وجهة نظر اليمين واقترح بدأ التحريات وإجراء الاعتقالات فورا. (صخب من اليسار)».

(فصاح بصوت عظيم:)

«أصغوا إليّ! في هذا الوقت، والدولة تحدق بها الأخطار بسبب خيانة واعية أو غير واعية، تفضل الحكومة المؤقتة كما أفضل شخصيا أن نموت على أن نخون حياة روسيا وشرفها واستقلالها».

(في تلك اللحظة أعطيت ورقة لكرنسكي):
«لقد استلمت لتوّه البلاغ الذي يوزعونه على الأفواج، وها هي محتوياته:

(يقرأ):

إن سوفييت بتروغراد لمندوبي العمال والجنود في خطر. نأمر الأفواج بأن تتأهب للحرب وأن تنتظر الأوامر اللاحقة. إن كل تأخر أو عصيان لهذا الأمر يعتبر خيانة.

اللجنة العسكرية الثورية
عن الرئيس: **بودوفسكي**
أمين السر: **أنطونوف**

هذه في الواقع محاولة لإثارة السوقة ضد النظام القائم ولنسف الدستور وفتح الجبهة لأفواج قبضة وليام الحديدية...

إني أستعمل كلمة سوقة عن قصد. لأن القوى الديموقراطية الواعية و«التسايكا» التابعة لها، وجميع منظمات الجيش، وكل ما تمجده روسيا من تعقل وشرف وضمير الديموقراطية الروسية العظيمة يمج هذه الأشياء.

ما جئتكم متضرعا، وإنما جئت لأؤكد إيماني الراسخ بأن الحكومة المؤقتة التي تدافع، في هذه اللحظة، عن حريتنا المكتسبة، وبأن الدولة الروسية، التي ينتظرها مستقبل زاه، سوف تلقى تأييدا مطلقا من الجميع ما عدا هؤلاء الذين لم يجرأوا أبدا على مواجهة الحقيقة.

إن الحكومة المؤقتة لم تمس حرية مواطني الدولة في التمتع بحقوقهم السياسة. ولكن الحكومة المؤقتة تعلن الآن: يجب أن تصفّى فورا وبحزم تلك العناصر من الشعب الروسي، وتلك المجموعات والأحزاب، التي تجرأت على رفع أيديها ضد إرادة الشعب الروسي مهددة، في نفس الوقت، أن تفتح الجبهة أمام ألمانيا...

فليفهم سكان بتروغراد أن قوة حازمة ستواجههم. فربما ينتصر. في آخر الأمر، التعقل والضمير والشرف في قلوب الذين ما زالوا يملكونها»...

كانت القاعة تضج بأصوات مدوية طوال هذا الخطاب. وعندما نزل رئيس الوزراء شاحب الوجه يبلله العرق، وخرج يحيط به مرافقوه الضباط، تتالى الخطباء من اليسار والوسط مهاجمين اليمين، وكانوا جميعا يزأرون زئيرا غاضبا واحدا بمن فيهم الاشتراكيون الثوريون على لسان غوتز:

«إن سياسة البلاشفة ديماغوجية ومجرمة في استغلالهم التذمر الشعبي. ولكن ثمة سلسلة كاملة من المطالب الشعبية لم تتحقق بعد... إن قضايا السلم والأرض وتحقيق الديموقراطية في الجيش يجب أن تُذكر بحيث لا يبقى أدنى شك لدى جندي أو فلاح أو عامل بأن حكومتنا تحاول، بحزم وصواب، أن تحلها...

نحن المناشفة لا نريد إثارة أزمة وزارية، ونحن على استعداد للدفاع عن الحكومة المؤقتة بكل ما أوتينا من قوة حتى آخر قطرة من دمائنا، ولكن بشرط أن تتكلم حول جميع هذه القضايا الراهنة بالوضوح والدقة اللذين ينتظرهما الشعب بفارغ الصبر»..

ثم قال مارتوف غاضبا:

«إن كلمات رئيس الوزراء التي سمحت له بالتحدث عن «السوقة»، في حين أن المسألة هي مسألة حركة قطاعات هامة من البروليتاريا والجيش –رغم كونها تساق في الاتجاه الخاطئ، ما هي إلاّ دعوة للحرب الأهلية».

وجرى التصويت على جدول الأعمال الذي اقترحه اليسار وكان يعني عمليا تصويتا بنزع الثقة:

1- «إن التظاهرات المسلحة التي يجري التحضير لها منذ بضعة أيام تهدف إلى القيام بانقلاب، وتهدد بإثارة حرب أهلية، وبخلق الظروف المؤاتية لقيام أعمال الشغب واستثارة الثورة المضادة، واستنفار قواها كالمئات السوداء، مما سوف يؤدي إلى استحالة عقد الجمعية التأسيسية وإلى كارثة عسكرية وتصفية الثورة وشل حياة البلد الاقتصادية وخراب روسيا.

2- لقد توفرت الظروف الملائمة لهذا الاضطراب بسبب التأخر في اتخاذ الإجراءات السريعة، وبسبب ظروف موضوعية خلقتها الحرب والفوضى العامة. إنه لمن الضروري قبل أي شيء آخر أن يصدر فورا قرارا يضع الأراضي بين أيدي لجان الفلاحين وتبني سياسة خارجية نشطة تطالب الحلفاء بإعلان شروطهم للسلم، والشروع بالمفاوضات لتحقيق السلام.

3- يجب مواجهة التظاهرات وحركات الشغب الملكية بإجراءات قمع حازمة، كما يجب إنشاء لجنة للسلامة العامة في بتروغراد من ممثلي البلدية وأجهزة الديموقراطية الثورية التي تعمل بالتعاون مع الحكومة المؤقتة».

وجدير بالذكر أن المناشفة والاشتراكيين الثوريين صوّتوا جميعا إلى جانب هذا القرار... ومع ذلك، فلما رآه كرنسكي. استدعى أناكسانتييف إلى قصر الشتاء ليشرح له. فقال أنه إذا كان هذا القرار يعني نزع الثقة عن الحكومة المؤقتة، فهو يرجو أناكسانتييف أن يشكل بنفسه الوزارة الجديدة. وهكذا نفذ القادة «المساومون» آخر مساومة لهم... ففسروا لكرنسكي أن القرار لا يحمل أي نقد للحكومة!

عند زاوية شارع «مورسكايا» و«نييفسكي»، كانت مفرزات من الجنود الذين وضعوا الحراب على بنادقهم، توقف جميع السيارات الخاصة وتخرج ركابها وتأمرهم بالتوجه إلى قصر الشتاء. وكان جمع كبير قد تحلّق للتفرج عليهم. ولم يكن أحد يعلم ما إذا كان هؤلاء الجنود تابعين للحكومة أم للجنة العسكرية الثورية.

وأمام «كاتدرائية قازان» جرى الشيء نفسه وكانت السيارات ترسل عبر شارع نييفسكي. وجاء خمسة أو ستة بحارة يتنكبون بنادقهم، ويضحكون بحماس، وأخذوا يتحدثون مع اثنين من الجنود. وقد كتبت على شرائط قبعات البحارة الكلمات التالية: «أورورا»، «زاريا»، «سفوبودي» وهي أسماء البوارج البلشفية الرئيسية في أسطول البلطيق. وقال أحدهم: «كرونستاد قادمة»! فكأن أحدهم يقول عام 1792 في شوارع باريس: «أهالي مرسيليا قادمون»! لأن كرونستاد كانت تضم خمسة وعشرين ألف بحّارا، جميعهم بلاشفة حتى العظم ولا يهابون الموت...

وكانت صحيفة «العامل والجندي» (رابوتشي أي سولدات) قد صدرت لتوه، وعلى صفحاتها الأولى البلاغ التالي المطبوع بأحرف ضخمة:

«أيها الجنود! أيها العمال! أيها المواطنون!

إن أعداء الشعب انتقلوا الليلة الماضية إلى الهجوم. إن جماعة كورنيلوف في القيادة تستقدم وحدات «الينكرز» والمتطوعين من الضواحي. ولقد رفض «الينكرز» في «أورانينبوم» والمتطوعون في «ستارسكويي سيلا» تلبية النداء. إن ضربة غدر تهيأ ضد سوفييت بتروغراد... إن حملة المعادين للثورة موجهة ضد المؤتمر العام للسوفييت عشية افتتاحه، وضد الجمعية التأسيسية، وضد الشعب. إن سوفييت بتروغراد يحرس الثورة. واللجنة العسكرية الثورية تقود عملية ضد هجوم المتآمرين. إن حامية بتروغراد وطبقتها العاملة بأسرها مستعدة لتوجِّه لأعداء الشعب الضربة القاضية.

إن اللجنة العسكرية الثورية تأمر بما يلي:

1- يطلب من جميع لجان الأفواج والسرايا والمفارز، بالتعاون مع مفوضي السوفييت وجميع المنظمات الثورية، عقد اجتماعات دائمة وجمع جميع المعلومات عن خطط المتآمرين.

2- لا يسمح لأي جندي بمغادرة وحدته العسكرية دون إذن من اللجنة.

3- يطلب من كل وحدة عسكرية إرسال مندوبَين عنها إلى سمولني. كما يطلب من كل سوفييت في كل حي من أحياء المدينة إرسال خمسة مندوبين.

4- إن جميع أعضاء سوفييت بتروغراد وجميع مندوبي المؤتمر العام مدعوون إلى سمولني فورا لحضور اجتماع استثنائي.

إن الثورة المضادة قد رفعت رأسها المجرم.

إن خطرا عظيما يهدد جميع مكتسبات وآمال العمال والجنود ولكن قوى الثورة تفوق بكثير قوى أعدائها.

إن قضية الشعب بين أيد أمينة، وسوف يسحق المتآمرون.

لا تردد ولا شكوك! الحزم، والصلابة، والانضباط، والتصميم!
عاشت الثورة!».

اللجنة العسكرية الثورية

كان سوفييت بتروغراد في اجتماع دائم في «سمولني» وقد أصبحت منطلق العاصفة. والمندوبين ينامون على الأرض ثم يستيقظون ليشاركوا في النقاش.

وكان تروتسكي وكامنييف وفولودارسكي يتكلمون طوال ست ساعات أو ثماني أو اثنتي عشر ساعة على التوالي كل يوم.

نزلت إلى الغرفة رقم 18 في الطابق الأول حيث كان المندوبون البلاشفة يعقدون اجتماعا، وكان صوت غليظ يتعالى بانتظام، هو صوت الخطيب وقد حجبه الجمهور عني:

«يقول المساومون أننا معزولون. لا تسمعوا كلامهم. ما أن تبدأ (الثورة) حتى ينجرون وراءنا، وإلا فقدوا أتباعهم».

ثم رفع ورقة: «إننا نجرهم وراءنا! وصلتني لتوه رسالة من المناشفة والاشتراكيين الثوريين! يقولون أنهم يدينون أعمالنا. ولكنهم لن يقفوا ضد قضية البروليتاريا إذا هاجمتها الحكومة!» صراخ فرح...

فيما كان يحل المساء امتلأت القاعة الكبرى بالجنود والعمال في جمع رمادي عظيم، يهدر هديرا عميقا وسط سحابة من الدخان الأزرق. كانت «التسايكا» قد قررت أخيرا الترحيب بالمؤتمر الجديد الذي سيؤدي إلى دمارها. وربما إلى دمار النظام الثوري الذي شيدته. ولكن لم يسمح إلا لأعضاء «التسايكا» بالتصويت في هذا الاجتماع...

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل عندما ترأس غوتز الاجتماع، وقام دان ليتكلم وسط صمت كثيف يكاد يكون معاديا. فقال:

«إن الساعات التي نعيشها تبدو جد مأساوية. العدو على أبواب بتروغراد، والقوى الديموقراطية تحاول تنظيم صفوفها لمقاومته. ومع ذلك فإننا نتوقع أن يجري الدم في شوارع العاصمة، وتهدد المجاعة ليس بإبادة حكومتنا المتجانسة فحسب وإنما بإبادة الثورة نفسها كذلك...

الجماهير مريضة ومرهقة لا تبدي أي اهتمام بالثورة. وإذا ما حاول البلاشفة القيام بأية حركة فسيكون ذلك نهاية الثورة. (صيحات: كذب) إن أعداء الثورة ينتظرون، مع البلاشفة، بداية أعمال الشغب والمجازر... وإذا قامت تظاهرة مسلحة، فلن تنعقد الجمعية التأسيسية. (صيحات «كذب! عار!»).

إن ما نرفض السماح به هو عصيان حامية بتروغراد أوامر القيادة في منطقة العمليات العسكرية... يجب أن تطيعوا أوامر القيادة و«التسايكا» التي انتخبتم. كل السلطات للسوفييت –هذا يعني الهلاك! اللصوص والسارقون ينتظرون اللحظة الملائمة لينهبوا ويحرقوا... عندما تطرح عليكم مثل هذه الشعارات: «أدخلوا المنازل، وخذوا أحذية البرجوازية وثيابها» (صخب، صيحات: «لا يوجد مثل هذا الشعار! كذب! كذب!») قد يبدأ الأمر بشكل آخر ولكنه سينتهي هكذا!

إن «التسايكا» تتمتع بكافة السلطات للتصرف. ويجب أن نعطيها.. إننا لا نهاب الحراب.. «التسايكا» ستدافع عن الثورة... (صيحات: «التسايكا جثة هامدة منذ زمن بعيد»).»

وتعالى صخب عظيم متواصل، سمع فيه صوته زاعقا وهو يضرب الطاولة بيده: «الذين يدفعونكم في هذا الاتجاه هم مجرمون!».

صوت: «لقد ارتكبتم جريمة منذ زمن طويل، عندما استوليتم على السلطة ووضعتموها بين أيدي البرجوازية»!

غوتز (وهو يقرع جرس الرئاسة) «سكوتا، وإلا أخرجتكم».

صوت: «حاول» (هتافات وصفير).

«والآن فيما يتعلق بسياستنا حول السلم.. (ضحك) إن روسيا لا تتحمل استمرار الحرب مع الأسف. سوف يتحقق السلم، ولكنه لن يكون السلم الدائم ولا السلم الديموقراطي. لكي نتفادى إراقة الدم، أصدرنا اليوم في مجلس الجمهورية، أمرا بتسليم الأرض للجان الأرض، والمباشرة بمفاوضات السلم»..
(ضحك وصيحات: «فات الأوان»)!

ثم اعتلى تروتسكي المنبر، ممثلا البلاشفة، تحمله إليه موجة تصفيق مدوية، تحولت إلى هتافات ثم انتصبت القاعدة راعدة. وكان وجهه النحيل المسنَّن مثل وجه ميفيستو فاليس[*****] في تعبيره عن السخرية والازدراء:

«إن خطط دان التكتيكية تثبت أن الجماهير –الجماهير الواسعة التافهة، اللامبالية- تمحضه دعمها المطلق!» (همهمة صاخبة).

(ثم التفت الرئيس بحركة درامية قائلا:)

«عندما تكلمنا عن توزيع الأراضي الفلاحين، كنتم ضدنا. فقلنا للفلاحين: «إذا لم يعطوكم الأرض خذوها بأنفسكم!» وسمع الفلاحون نصيحتنا. وها أنتم الآن تدعون إلى ما قمنا نحن به منذ ستة أشهر...

لا أظن أن مثل كرنسكي هي التي أملت عليه إصدار أمر بتعليق حكم الإعدام على الجبهة. إن حامية بتروغراد هي التي أقنعت كرنسكي عندما رفضت أن تطيعه...

لقد وُجهت إلى دان اليوم تهمة إلقاء خطاب في مجلس الرئاسة تكشف من خلاله أنه بلشفي مستتر. وقد يأتي يوم يقول فيه دان أن زهرة شباب الثورة اشتركت في انتفاضة السادس عشر والثامن عشر من تموز (يوليو)... لا يوجد في قرار دان اليوم في مجلس الرئاسة أي ذكر لفرض الانضباط في الجيش مع أن دعاية حربه تدعو إلى ذلك...

لا. إن تاريخ الأشهر السبعة الأخيرة يبين أن الجماهير قد تخلت عن المناشفة. لقد انتصر المناشفة والاشتراكيون الثوريون على الكاديت. ولما استلموا الحكم سلموه بدورهم للكاديت.

يقول دان «لا يحق لكم القيام بثورة. إن الثورة هي من حق جميع الثوريين! وعندما تثور الجماهير المظلومة، فهذا حقها.»

ثم تكلم ليبر ذو الوجه الطويل واللسان السليط. وقابله الحضور بالهمهمة والضحك:

«قال ماركس وانغلز أنه لا يحق للبروليتاريا أن تستلم السلطة إلاّ عندما تكون مهيأة لذلك. في ثورة برجوازية كهذه الثورة، يؤدي استلام الجماهير للحكم إلى نهاية الثورة نهاية مفجعة... إن تروتسكي، كمفكر اشتراكي ديموقراطي، لا يوافق دعاكم إليه الآن.. (صرخات: «كفى! يسقط!»).

مارتوف يقاطع باستمرار: «الأمميون لا يعارضون انتقال السلطة إلى الديموقراطية، ولكنهم لا يوافقون على أساليب البلاشفة. ليس هذا وقت استلام الحكم»...

واعتلى دان المنبر مجددا، ليحتج بعنف ضد عمل اللجنة العسكرية الثورية التي أرسلت مفوضا لمصادرة مكتب صحيفة «ازفستيا» (الأنباء) وفرض الرقابة عليها. وعقب كلامه أشرس ضجيج. وحاول مارتوف أن يتكلم ولكن أحدا لم يسمعه. فقد كان مندوبو الجيش وأسطول البلطيق واقفين، في مختلف أنحاء القاعة، يصيحون أن السوفييت هي حكومتهم الوحيدة.

وسط هذه الفوضى الشاملة اقترح أهيرليتش مشروع قرار يناشد فيه العمال والجنود المحافظة على الهدوء وعدم الاستجابة للتحريض على التظاهر، معترفا بضرورة إنشاء لجنة للسلامة العامة فورا، مطالبا الحكومة المؤقتة العمل فورا على إصدار قرار تنتقل الأراضي بموجبه إلى الفلاحين وتبدأ مفاوضات السلم.

ثم انتصب فولدارسكي صارخا بقسوة أنه لا يحق «للتسايكا» أن تتخذ لنفسها صلاحية المؤتمر عشية موعد انعقاده. وقال:

«إن «التسايكا» ميتة عمليا، وما القرار سوى خدعة لبث الروح في قوتها المتهالكة.. أما بالنسبة لنا، نحن البلاشفة، فلن نصوّت على هذا القرار»...

وعند ذلك غادر جميع البلاشفة القاعة، وجرت الموافقة على القرار.

حوالي الرابعة صباحا، التقيت زورين في القاعة الخارجية وكان يحمل بندقيته.

وقال ببطء ولكن بارتياح لقد انطلقنا. قبضنا على مساعد وزير العدل وعلى وزير الديانات. انهما في القبو الآن. ولقد تحرك فوج للاستيلاء على مركز الهاتف، وآخر على وكالة البرق، وآخر على مصرف الدولة. الحرس الأحمر في الشارع...

عند درج «سمولني» في الظلمة الباردة، شاهدنا الحرس الأحمر لأول مرة. كانوا جمعا متراصا من الشباب بثياب العمال، يحملون البنادق ذوات الحراب ويتكلمون بعصبية فيما بينهم.

ومن البعيد، فوق السطوح الآمنة جهة الغرب، ترامت أصوات طلقات نار قصية، حيث كان «اليونكرز» يحاولون فتح الجسور على نهر «النييفا» لمنع عمال المصانع والجنود القاطنين في «حي فيبورغ» من الانضمام إلى قوى السوفييت في وسط المدينة، في حين كان بحارة كرونستاد يغلقونها من جديد...

ووراءنا كانت «سمونلي» العظيمة، تتلألأ بالأنوار وتطن كقفير نحل كبير...

==========

[*] «اليونكرز» هو الاسم الرسمي لطلاب كليات الضباط.

[**]* - في قول ريد بعض المبالغة. إن واضع خطة الاستيلاء على الحكم، وهذا ما يعنيه ريد بعبارة استراتيجية الثورة، هو تروتسكي، رئيس سوفييت بتروغراد ورئيس اللجنة العسكرية الثورية. ولعل أصدق شهادة على ذلك هي ما يقوله ستالين عدوه الألد:

«إن كل التنظيم العملي للثورة جرى تحت قيادة الرفيق تروتسكي المباشرة، بصفته رئيسا لسوفييت بتروغراد. ومن الممكن أن نقول قول البقين أنه فيما يتعلق بالانتقال السريع للحامية (حامية بتروغراد) إلى جانب السوفييت، والتنفيذ الجريء لعمل اللجنة العسكرية الثورية، فإن الحزب مدين بهما أولا وبشكل خاص للرفيق تروتسكي».

(ستالين: «دور أبرز قادة الثورة»، صحيفة «البرافدا»، العدد 241 –عام 1918- هذا النص موجود أيضا في الطبعة الرسمية لكتاب ستالين «ثورة أكتوبر» باللغة الانجليزية ص 30- وظل منشورا في «مؤلفات ستالين الكاملة» الجزء 4، ص 154 حتى عام 1946 عندما حذف ومنع المؤرخون السوفييت من الاستشهاد به) (المترجم).

[***] من الحركة العمالية الأمريكية.

[****]«نوفيا روس» و«جيفويي سلوفا» صحيفتان رجعيتان، و«طريق العمال» و«الجندي» تنطقان بلسان البلاشفة.
[*****] ميفيستو فاليس هو الشيطان في مسرحية «فوست» لغوته.

==========

هوامش الفصل الثالث

1– مقررات لجان المصانع والمتاجر
السيطرة العمالية

1- (راجع نص هذا البند في الفصل الثالث نفسه).

2- إن تنظيم السيطرة العمالية هو تعبير عن نفس النشاط الصحي في مجال الإنتاج الصناعي، الذي تقابله التنظيمات الحزبية في مجال السياسة، والنقابات في المجال المهني، والتعاونيات في مجال الاستهلاك، والنوادي الأدبية في مجال الثقافة.

3- للطبقة العاملة مصلحة أكبر في السير الصحيح والمنتظم للمصانع... مما للطبقة الرأسمالية. وفي هذا الصدد، تكون السيطرة العمالية ضمانا أفضل لمصالح المجتمع الحديث، والشعب بأسره، من إرادة المالكين الكيفية الذين تحركهم فقط رغبتهم الأنانية في تحقيق الأرباح المادية أو الامتيازات السياسية. لهذا، إن البروليتاريا تطالب بالسيطرة العمالية ليس فقط لأنها في مصلحتها، وإنما لأنها في مصلحة البلد كله أيضا، ويجب على الجيش الثوري والفلاحين الثوريين أن يساندوها في ذلك.

4- نظرا للموقف المعادي الذي تقفه غالبية الطبقة الرأسمالية من الثورة، فإن التجربة تؤكد أن التوزيع السليم للمحروقات والمواد الأولية، والطريقة الأفضل لإدارة المصانع مستحيلة إلا في ظل السيطرة العمالية.

5- إن السيطرة العمالية في المؤسسات الرأسمالية، التي تنمي موقف العمال الواعي تجاه العمل وتوضح معناه الاجتماعي، هي وحدها التي تستطيع توفير الظروف المؤدية إلى نمو انضباط ذاتي صارم في العمل وتطوير جميع الطاقات الإنتاجية لدى الطبقة العاملة.

6- إن التحويل المطلوب للصناعة من صناعة حربية إلى صناعة سلمية، وإعادة توزيع القوى العاملة على أنحاء البلد وبين مختلف المصانع، لا يمكن أن يتم، دون اضطرابات كبيرة، إلا بواسطة التسيير الذاتي والديموقراطي للعمال أنفسهم... ولذا فإن تحقيق السيطرة العمالية شرط أولي لا غنى عنه لرفع التعبئة العامة المفروضة على الصناعة.

7- بمقتضى الشعار الذي رفعه حزب العمال الاشتراكي الديموقراطي الروسي (البلاشفة) فإن السيطرة العمالية على الصعيد الوطني، لكي تأتي بالنتائج المرجوة، يجب أن تشمل جميع المؤسسات الرأسمالية، وألا تنظم بطريقة اعتباطية، بل يجب توافر التخطيط الصحيح لها وعدم فصلها عن الحياة الصناعية للبلد ككل.

8- إن حياة البلد الاقتصادية –من زراعة وصناعة وتجارة ونقل- يجب أن تخضع لخطة موحدة غايتها سد الحاجات الفردية والجماعية لأوسع الجماهير الشعبية، ويجب أن تحظى بموافقة ممثليهم المنتخبين، وأن تنفذ تحت إشراف هؤلاء الممثلين بواسطة تنظيمات محلية ووطنية.

9- يجب تنفيذ ذلك القسم من الخطة الذي يتعلق بالعمل الزراعي تحت إشراف تنظيمات الفلاحين وعمال الأرض. وأما القسم المتعلق بالصناعة والتجارة والنقل فيجب أن ينفذه الأجراء أنفسهم بواسطة السيطرة العمالية. تكون الهيئات الطبيعية للسيطرة العمالية داخل المصنع هي لجان المصنع والمتجر أو اللجان المشابهة؛ وتلعب النقابات الدور نفسه في سوق العمل.

10- العقود الجماعية المتعلقة بالأجور التي تحققها النقابات لغالبية العمال في أي فرع من فروع العمل، يجب أن تكون ملزمة لجميع أصحاب المصانع الذين يشغلون هذا النوع من العمل في منطقة معينة.

11- توضع مكاتب التوظيف تحت سيطرة وإدارة النقابات بوصفها منظمات طبقية تعمل ضمن حدود الخطة الصناعية العامة وبمقتضى أحكامها.

12- يحق للنقابات أن تبادر إلى المطالبة باتخاذ إجراءات قانونية ضد كل رب عمل يخرق عقود العمل أو التشريع العمالي، مثلما يحق لها أن تفعل ذلك نيابة عن أي عامل فرد في أي فرع من فروع العمل.

13- يجب على النقابات أن تتشاور مع العمال في المؤسسات الفردية عبر لجان المصانع والمتاجر التي ينتمي هؤلاء العمال إليها، وذلك بشأن جميع القضايا المتعلقة بالسيطرة العمالية على الإنتاج والتوزيع والتوظيف.

14- إن جميع القضايا المتعلقة بالتوظيف والفصل، والاجازات، وسلّم الأجور، والامتناع عن العمل، ونسبة الإنتاجية والمهارة، وأسباب إلغاء الاتفاقيات، والخلافات مع الإدارة والقضايا المشابهة المرتبطة بحياة المصنع الداخلية، يجب حلها بمقتضى التحقيقات التي تقوم بها لجنة المصنع والمتجر التي يحق لها حرمان أي عضو من أعضاء إدارة المصنع عن المشاركة في النقاش.

15- تشكل لجنة المصنع والمتجر لجنة لمراقبة تزويد المصنع بالمواد الأولية والمحروقات، والطلبات، والقوة العاملة، والجهاز التقني (بما فيه الأدوات)، وجميع الاتفاقات والإمدادات الأخرى. ولتأمين عمل المصنع بانسجام مع الخطة الاقتصادية العامة، على إدارة المصنع أن تضع تحت تصرف أجهزة السيطرة العمالية، لمساعدتها وإعلامها، جميع الإحصائيات المتعلقة بالعمل. كما يتوجب عليها السماح لها بالتحقيق في هذه الإحصائيات، وأن تبرز دفاتر الشركة عند طلب لجنة المصنع والمتجر.

16-إن أي أعمال غير شرعية تقوم بها الإدارة وتكتشفها لجان المصانع والمتاجر، أو أي شك بوجود مثل هذه الأعمال، التي لا يستطيع العمال بمفردهم التحقيق فيها أو تصحيحها، يجب أن ترفع إلى التنظيم المركزي المنطقي للجان المتاجر والمصانع التابعة لفرع العمل المعني بالأمر، والتي تناقش الأمر مع المؤسسات المكلفة بتنفيذ الخطة الصناعية العامة، وتجد وسائل معالجة الموضوع التي قد تصل إلى حجز المصنع.

17- إن توحيد لجان المصانع والمتاجر التابعة لمؤسسات مختلفة يجب أن يتم على أساس المهن المختلفة لكي يسهل السيطرة على فرع الصناعة كله بحيث ينسجم مع الخطة الصناعية العامة؛ ولكي يضع خطة فعالة لتوزيع الطلبات، والمواد الأولية، والمحروقات، والقوى العاملة والتقنين بين مختلف المصانع؛ وأيضا لكي يسهل التعاون مع النقابات المنظمة وفق المهن.

18- إن مجالس المدن المركزية التابعة للنقابات ولجان المصانع والمتاجر تمثل البروليتاريا في المؤسسات المحلية والمنطقية المقابلة والتي تكونت لكي تساهم في وضع وتنفيذ الخطة الصناعية العامة، ولتنظيم العلاقات الاقتصادية بين المدن والقرى (بين العمال والفلاحين). وهي تتمتع أيضا بأعلى سلطة لإدارة لجان المصانع والمتاجر والنقابات فيما يتعلق بالانضباط في عملية الإنتاج، إلا أنه يجب أن يقر العمال أنفسهم هذه الأنظمة بواسطة التصويت.

19- إن المؤتمر إذ يطالب بالسيطرة العمالية على نطاق الدولة، يدعو الرفاق إلى تحقيقها منذ الآن بالقدر الذي يتجه ميزان القوى، ويعلن أن مصادرة العمال لبعض المؤسسات أمر لا يتفق مع أهداف السيطرة العمالية.

==========

2- أقوال الصحافة البرجوازية عن البلاشفة

روسكايا فوليا (إرادة روسي) في 28 تشرين الأول (أكتوبر): «إن اللحظة الحاسمة تقترب... وهي حاسمة بشكل خاص بالنسبة للبلاشفة. فإما أن يقدموا لنا نسخة جديدة عن أحداث 16-18 تموز (يوليو)، وإما أن يضطروا إلى الاعتراف بأنهم قد هزموا نهائيا مع خططهم ونواياهم، ومع سياستهم الصلفة التي تعكس إرادتهم في أن يعزلوا أنفسهم عن كل عمل وطني واع...

ما هي فرصة نجاح البلاشفة؟

تصعب الإجابة على هذا السؤال لأن دعامتهم الرئيسية.. هي جهل الجماهير الشعبية. إنهم يتكهنون حولها، ويغذونها بديماغوجية لا يقف في وجهها رادع..

يجب على الحكومة أن تقوم بواجبها إزاء هذا الوضع. يجب عليها أن تتخذ موقفا واضحا من البلاشفة، معتمدة على الدعم المعنوي لمجلس الجمهورية...

أما إذا قام البلاشفة بانتفاضة ضد السلطة الشرعية، وسهّلوا بذلك الاجتياح الألماني إذ ذاك يجب معاملتهم كعصاة وخونة...

بيرجيفيا فييدومتسي («أنباء البورصة» في 28 تشرين الأول (أكتوبر)): «إن النضال ضد البلاشفة قد أصبح أسهل الآن وقد عزلوا أنفسهم عن سائر القوى الديموقراطية. ولا يُعقل في هذا النضال أن ننتظر إلى حين قيامهم بتظاهرة. لا بل يجب على الحكومة ألاّ تتيح المجال لمثل هذه التظاهرة...

إن دعوة البلاشفة إلى الثورة والفوضى هي أعمال تعاقب عليها المحاكم الجزائية، في البلدان الأكثر تمتعا بالحرية، ويتلقى دعاتها أشد العقاب. لأن ما يخوضه البلاشفة ليس نضالا سياسيا ضد الحكومة، أو حتى من أجل استلام السلطة، إنه دعاية للفوضى والمجازر والحرب الأهلية. يجب استئصال هذه الدعاية من جذورها، ومن غريب الأمر أن ننتظر لكي نتخذ الإجراءات ضد الدعاية للقيام بمذابح إلى حين بداية هذه المذابح...

نوفويي فريميا («الأزمنة الحديثة» في 1 تشرين الثاني (نوفمبر)): «...لماذا تهتاج الحكومة بسبب يوم الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) (موعد دعوة مؤتمر السوفييت إلى الانعقاد) ولا تهتاج بسبب يوم 12 أيلول (سبتمبر) أو يوم 3 تشرين الثاني (نوفمبر)؟

ليس هذه أول مرة تحترق فيها روسيا وتصبح ركاما ويعمي دخان الانفجار الرهيب أعين حلفائنا..

منذ أن استلمت الحكومة زمام الحكم، هل أصدرت أمرا واحدا غايته وضع حد للفوضى، أو هل حاول أحد أن يوقف الانفجار الروسي؟

كان ثمة مهام أخرى...

اهتمت الحكومة بمشكلة أكثر إلحاحا. فسحقت الثورة (مؤامرة كورنيلوف) وبهذا الصدد الجميع يسأل «هل كان ثمة مؤامرة حقا»؟

==========

3- أقوال الصحافة الاشتراكية المعتدلة عن البلاشفة

«ديبلو نارودا» («قضية الشعب»، صحيفة الاشتراكيين الثوريين – في 28 تشرين الأول (أكتوبر)): «إن أشنع جريمة ارتكبها البلاشفة بحق الثورة هي أنهم يعتبرون أن جميع المصائب القاسية التي تعانيها الجماهير إنما تعود إلى سوء نوايا الحكومة الثورية؛ والواقع أن هذه المصائب هي وليدة ظروف موضوعية.

إنهم يعدون الجماهير بوعود مغرية، وهم يعرفون سلفا أنهم عاجزون عن تحقيق أي منها؛ فيقودون الجماهير على طريق الضلال، ويخفون عنها مصدر جميع مشاكلها...»

«ديين» («اليوم»، منشفية، في 30 تشرين الأول (أكتوبر)): «هل هناك حرية صحافة حقيقية؟ كل يوم تدعو صحيفتا «روسيا الجديدة» و«طريق العمال» إلى الثورة. كل يوم تقترف هاتان الصحيفتان جرائم فعلية على صفحاتهما. كل يوم تحرضان على المجازر... أهذه هي «حرية الصحافة»؟.

يجب على الحكومة أن تدافع عن نفسها وعنا. لنا الحق في أن نصر ألاّ يبقى جهاز الدولة مستكينا بينما الاضطرابات تهدد حياة المواطنين»..

==========

4- «يدينستوفا» (الوحدة)

توقفت صحيفة بليخانوف «يدينستوفا» عن الصدور قبل بضعة أسابيع من استلام البلاشفة الحكم. وعلى عكس الرأي الشائع، فإن «يدينستوفا» لم تُمنع عن الصدور بأمر من الحكومة السوفييتية؛ فقد ورد إعلان في آخر عدد لها يعترف بأنها عاجزة عن الاستمرار في الصدور بسبب قلة عدد المشتركين.

==========

5- هل كان البلاشفة متآمرين؟

يوم 15 تشرين الثاني (نوفمبر)، نشرت الصحيفة الفرنسية «آنتانت» (الوفاق) التي تصدر من بتروغراد مقالة نقتطف منها المقطع التالي:

«حكومة كرنسكي تناقش وتتردد. حكومة لينين وتروتسكي تهجم وتعمل.
الحكومة الأخيرة تدعى «حكومة المتآمرين»، ولكن هذا خطأ. حكومة مغتصبين؟ نعم، مثل جميع الحكومات الثورية التي تنتصر على أعدائها. متآمرون؟ كلا!

كلا! إنهم لم يتآمروا. بل على العكس، فقد عملوا علنا وبإقدام ودون كلمات خادعة ودون أن يخفوا نواياهم، فضاعفوا التحريض، وكثفوا الدعاية في المصانع والثكنات والجبهة والريف، في كل مكان، حتى أنهم حددوا سلفا موعد الثورة المسلحة، موعد الاستيلاء على الحكم...

هم –متآمرون؟ أبدا..»

==========

6- نداء ضد الثورة
من اللجنة المركزية للجيش

«... إننا نؤكد، قبل أي شيء آخر، على التنفيذ الصارم للإرادة المنظمة لغالبية الشعب، كما تعبر عنها الحكومة المؤقتة بالاتفاق مع مجلس الجمهورية و«التسايكا» بوصفهما جهازين من أجهزة السلطة الشعبية...

إن أية محاولة لإسقاط هذا الحكم بواسطة العنف –في وقت يؤدي فيه نشوء أزمة حكومية إلى الفوضى وخراب البلد والحرب الأهلية، سوف يعتبرها الجيش عملا مضادا للثورة ويقمعها بالقوة المسلحة.

يجب إخضاع مصالح الجماعات والأفراد لمصلحة واحدة: مصلحة زيادة الإنتاج الصناعي والتوزيع العادل لضرورات الحياة...

إن جميع المخربين وزارعي الفوضى والهاربين من الجيش وعلقة السبيل واللصوص يجب أن يُجبروا على الخدمة في مؤخرة الجيش...

إننا ندعوا الحكومة المؤقتة إلى أن تكوّن، من خارقي إرادة الشعب وأعداء الثورة هؤلاء، فرق عمل تعمل في المؤخرة، على الجبهة، في الخنادق تحت نار العدو»...

==========

7- أحداث ليلة 6 تشرين الثاني (نوفمبر)

عند المساء، بدأت فصائل من الحرس الأحمر بالاستيلاء على مطابع الصحف البرجوازية، وأخذت تطبع محلها «طريق العمال» و«الجندي» وبلاغات أخرى بمئات الآلاف من النسخ. وصدرت الأوامر لميليشيا المدينة باخلاء الأبنية من رجال الحرس الأحمر، إلا أنها وجدت المكاتب محصنة يحميها رجال مسلحون. وعندما صدرت الأوامر للجنود بالهجم على المطابع، رفضوا تنفيذها.

وحوالي منتصف الليل، وصل مقدم وسرية من «الينكرز» إلى نادي «الفكر الحر» يحمل امرا بالقبض على محرر «طريق العمال». حالا تجمع في الشارع جمع عفير مهددا بشنق «الينكرز». فأخذ المقدم يرجو ان يلقي القبض عليه وعلى «الينكرز» الذين بقيادته وأن يساقوا إلى حصن بطرس-بولس حيث يكونون في أمان. وقد حققت رغبته.

وفي الواحدة صبحا، قامت فرقة من الجنود والبحارة القادمين من سمولني باحتلال مركز البرق. وفي الواحدة وخمس وثلاثين دقيقة، تم احتلال مركز البريد. وحوالي الصبح، كان قد تم الاستيلاء على الفندق العسكري، كما تم احتلال مركز الهاتف في الخامسة صباحا. وعند الفجر، كان مصرف الدولة محاصرا. وعند العاشرة صباحا بدأ الجنود يحاصرون قصر الشتاء.

الفصـــل الـــــرابع

سقـوط الحكـومـــة المـــؤقتـــة

الأربعاء في 7 تشرين الثاني (نوفمبر)، استيقظت متأخرا جدا. دوي صوت المدفع في «حصن بطرس-بلس» وأنا أعبر شارع نييفسكي. النهار جاف وقارس. وأمام أبواب مصرف الدولة المقفلة يقف بعض الجنود، بنادقهم مشرَّعة الحراب.

سألت: «إلى أي جهة تنتمون؟ أنتم من رجال الحكومة؟»

فأجاب أحدهم بابتسامة: «لم يعد يوجد حكومة. الحمد لله» هذا كل ما استطعت أن أعلم منه...

السيارات العمومية تجتاز شارع نييفسكي، والرجال والنساء والأطفال يتدلون من جميع جهاتها. الحوانيت مفتوحة، وبدا كأن الشارع أقل ضجيجا من الأمس. كانت مجموعة كاملة من النداءات الجديدة المعادية للثورة قد ألصقت على الجدران خلال الليل، موجهة إلى الفلاحين، إلى الجنود في الجبهة وإلى عمال بتروغراد. وهذا ما جاء في إحدها:

من مجلس بتروغراد البلدي

إن مجلس بتروغراد البلدي يحيط المواطنين علما أنه، في اجتماعه الاستثنائي المنعقد يوم 6 تشرين الثاني (نوفمبر)،، قد شكل «لجنة للسلامة العامة» مؤلفة من أعضاء مجالس الأحياء، والمجالس المركزية، ومن ممثلين عن المنظمات الديموقراطية الثورية التالية: «التسايكا»، اللجنة المركزية العامة لمندوبي الفلاحين، تنظيمات الجيش، الأسطول المركزي، سوفييت بتروغراد لمندوبي العمال والجنود، مجالس النقابات وغيرها.

سيداوم أعضاء لجنة السلامة العامة في بناية المجلس البلدي. أرقام التلفون: 40-15؛ 77-223 ؛ 36-138.

في 7 تشرين الثاني (نوفمبر)، 1917»

هكذا أعلن المجلس البلدي الحرب على البلاشفة رغم أني لم أستوعب ذلك في حينه.

اشتريت نسخة من «طريق العمال» (رابوتشي بوت) التي بدا أنها الصحيفة الوحيدة المعروضة للبيع. وبعد قليل دفعت لأحد الجنود خمسين كوبيكا ثمن نسخة مستعملة من «اليوم» (ديز). كانت صحيفة البلاشفة، المطبوعة على صفحات كبيرة في مكاتب «إرادة روسيا» بعد استيلائهم عليها، تحمل العنوان الكبير التالي: «**كل السلطات لسوفييت العمال والجنود والفلاحين! السلم! الخبز! الأرض!**» وكانت المقالة الرئيسية بإمضاء زينوفييف، رفيق لينين في الاختباء. وهذا مطلعها:

«إن كل جندي وعامل، وكل اشتراكي حقيقي وديموقراطي صادق يدرك الآن أنه يوجد مخرجان للوضع:

أما أن تبقى السلطة بين أيدي طغمة البرجوازيين وملاك الأرض، وهذا يعني ممارسة جميع أنواع القمع ضد العمال والجنود والفلاحين، واستمرار الحرب، والجوع والموت المحتم.

وإما أن تنتقل السلطة إلى أيدي العمال والجنود والفلاحين الثوريين، وهذا يعني إلغاء استبداد ملاك الأرض إلغاء تاما، وإيقاف الرأسماليين عند حدهم فورا، والاقتراح رأسا بتحقيق سلم عادل.

إذ ذاك تؤمن للفلاحين أرضهم، وللعمال سيطرتهم على الصناعة، وللجياع خبزهم، وتنتهي هذه المجزرة الخرقاء»!

أما صحيفة «اليوم»، فكانت تحوي أخبارا متفرقة عن الليلة المضطربة، استيلاء البلاشفة على مركز الهاتف، وقاعدة البلطيق، ووكالة البرق؛ عجز «ينكرز بيترهوف» عن بلوغ بتروغراد، تردُّد القوزاق، اعتقال بعض الوزراء، مقتل ماير رئيس ميليشيا المدينة، اعتقالات، اعتقالات مضادة، مناوشات بين دوريات الجنود و«الينكرز» والحرس الأحمر (1).

عند زاوية شارع «مورسكايا»، التقيت بالنقيب غونبرغ، وهو منشفي مدافع، وسكرتير القطاع العسكري في حزبه. وعندما سألته إذا كانت الثورة قد قامت فعلا، هز كتفيه بتعب، وأجاب: «الشيطان وحده يعلم! ربما كان باستطاعة البلاشفة أن يستولوا على الحكم، ولكنهم لن يستطيعوا المحافظة عليه لأكثر من ثلاثة أيام. إنهم لا يملكون العدد الكافي من الرجال لإدارة الحكومة؛ وربما من المستحسن أن ندعهم يجربون، هذا سيقضي عليهم»...

البحارة المسلحون يحاصرون الفندق العسكري عند زاوية ساحة «القديس اسحق». وفي باحته العديد من الضباط الشباب الأنيقين يذرعونه ذهابا وإيابا، ويتهامسون فيما بينهم، وقد منعهم البحارة من مغادرته...

وفجأة دوت طلقة بندقية في الخارج، عقبها دوي عدة طلقات متباعدة. أسرعت خارجا. شيء غير عادي يجري حول قصر «فارينسكي» حيث يجتمع مجلس الجمهورية الروسية. من أقصى الساحة إلى أقصاها كان ثمة صف من الجنود. متأهبين لإطلاق النار، محدقين بسطح الفندق.

«يا للمحرِّضين! أطلقوا الرصاص علينا»! صاح أحدهم بينما كان آخر يهرع نحو الباب.

عند زاوية القصر الغربية تقف سيارة مصفحة كبيرة يرفرف عليها علم أحمر، وقد خطت عليها حديثا الأحرف التالية «S.R.S.D.» (الأحرف الأولى من اسم «سوفييت مندوبي العمال والجنود»؛ وكانت كل مدافعها مصوبة نحو ساحة «القديس اسحق». عند مدخل «نوفايا أوليتزا» أقيم متراس بواسطة الصناديق والبراميل ورفاص سرير قديم وعربة ترام مقلوبة. وكانت كومة من الخشب تسد مؤخرة رصيف «مويكا». والأحطاب القصيرة تؤخذ من كومة مجاورة وتبنى منها الاستحكامات.

سألت: «هل سيجري قتال؟»

فأجاب أحد الجنود بعصبية «قريبا. قريبا. ابتعد، يا رفيق، وإلا أصبت بأذى. سيأتون من هذه الجهة» وأشار باتجاه «مقر قيادة البحرية».

«من سيأتي؟»

«هذا ما لا أستطيع أن أخبرك به، يا أخ». أجاب وبصق.

أمام باب القصر جمع من الجنود والبحارة. وكان أحد البحارة يقص حكاية نهاية مجلس الجمهورية الروسية. قال «دخلنا إلى هناك وملأنا جميع الأبواب بالرفاق. ثم تقدمت من الكورنيلوفي المعادي للثورة الذي كان جالسا إلى كرسي الرئاسة، وقلت له: «انتهى المجلس. اذهب إلى بيتك الآن»؟

وتعالى ضحك . وتمكنت من الوصول إلى الغرفة المخصصة للصحفيين بعد أن لوّحت بمجموعة من الأوراق. وعندها، أوقفني بحّار ضخم باسم، وقال عندما أبرزت إذني: «لن تستطيع الدخول، يارفيق، حتى ولو كنت مار مخائيل نفسه»! ومن خلال زجاج الباب بدأ لي الوجه المنقبض لمراسل فرنسي وذراعاه الملوّحان، وكان محبوسا في الداخل...

وفي مكان آخر، كان رجل أشيب الشارب يرتدي بزة جنرال يقف وسط حلقة من الجنود. وكان الاحمرار يصبغ وجهه.

صاح: «أنا الجنرال الكسييف. بصفتي رئيسكم وبصفتي عضوا في مجلس الجمهورية، أطلب المرور!». فحكّ الحارس رأسه، ناظرا بعدم ارتياح من طرف عينه، ثم أومأ إلى ضابط كان يقترب منهم؛ وما أن وصل هذا حتى ارتبك عندما تعرّف على الجنرال وألقى التحية قبل أن يدرك ما يفعل.

ثم تمتم على طريقة العهد البائد: «يا صاحب المعالي، الدخول إلى القصر ممنوع منعا باتا، لا يحق لي».

ومرت سيارة، ورأيت غوتز جالسا في داخلها، ويبدو أنه كان يضحك بفرح عظيم. وبعد بضع دقائق، مرت سيارة أخرى يجلس في مقعدها الأمامي جنود مسلحون، وكانت مليئة بأعضاء الحكومة المؤقتة المعتقلين، وكان بيترز، العضو الليتواني في اللجنة العسكرية الثورية يجتاز الساحة مسرعا.

فقلت له مشيرا إلى السيارة: «ظننت أنكم قد سجنتم جميع هؤلاء السادة ليلة أمس».

وأجاب بتعابير صبي خاب ظنه: «أوه. المجانين أطلقوا سراح معظمهم قبل أن نعتمد على قرار...»

عند «شارع فوسكريفسكي» جمع كبير من البحارة، ووراءهم، على مرمى البصر، جنود يتقدمون.

واتجهنا نحو «قصر الشتاء» عن طريق مقر القيادة البحرية. أفراد الحرس يسدّون جميع مداخل ساحة القصر، بينما يمتد شريط من الجنود على طول الطرف الغربي يحاصره جمع مضطرب من المواطنين. كان كل شيء هادئا فيما عدا جلبة جنود بعيدين يبدو أنهم يحملون الخشب خارج باحة القصر، ويراكمونه عند البوابة الأمامية الرئيسية.

لم نستطع أن نتأكد ما إذا كان الحرس مع الحكومة أو مع السوفييت. ولم تكن أوراقنا من «سمولني» ذات نفع، فاقتربنا من الطرف الثاني من الصف، وادّعينا الأهمية، وأبرزنا جوازات سفرنا الأمريكية: «مهمة رسمية!»، ودخلنا. عند باب القصر يقف أفراد حرس «الشفيتزاري» ذاتهم ببزاتهم الزرقاء ذات الأزرار النحاسية واللياقات الحمراء والذهبية، فتناولوا منا معاطفنا وقبعاتنا بكل أدب، وصعدنا؛ في أرجاء الممشى المعتم الكئيب، الذي جرّد من السجاد، يرتاح بعض المساعدين، وأمام باب كرنسكي ضابط شاب يروح ويجيء وهو يعض على شاربيه. سألناه إذا كان يمكننا أن نقابل رئيس الوزراء. فانحنى وقرقع حذاءه، وأجاب بالفرنسية:

«لا مع الأسف. ألكسندر فيدوروفيتش مشغول جدا الآن...» ونظر إلينا لبرهة ثم أردف قائلا: «الواقع أنه ليس هنا...»

«أين هو؟»

«ذهب إلى الجبهة (2). ولم يكن في سيارته ما يكفي من الوقود. فاضطررنا إلى الذهاب إلى المستشفى الإنكليزي لنقترض من هناك.»

«هل الوزراء هنا؟»

«إنهم يعقدون اجتماعا في إحدى الغرف –لست أدري أين».

«هل سيهجم البلاشفة؟»

«طبعا سيهجمون بالتأكيد. إني أتوقع مخابرة هاتفية بين لحظة وأخرى تعلن قدومهم. ولكننا على استعداد. عندنا فرق من «الينكرز» في مقدمة القصر. وراء ذلك الباب هناك».

«هل نستطيع الدخول»؟

«لا. بالتأكيد لا. ممنوع». وتصافحنا بسرعة ثم غادرنا. وتوجهنا نحو الباب الممنوع دخوله، وكان وسط قاطع مؤقت يقسم البهو إلى قسمين. إنه مقفل من الخارج. وترامت أصوات من الجهة الثانية، وكان أحدهم يضحك. وفيما عدا ذلك، كانت الفسحات الكبيرة في القصر القديم صامتة كمقبرة. وركض خادم عجوز نحونا: «لا، يا سادة، ممنوع الدخول».

«لماذا اقفل الباب»؟

وأجاب: «لكي لا يخرج الجنود». وبعد دقائق تمتم شيئا في عن رغبته في تناول قدح شاي وعاد إلى البهو. ففتحنا الباب.

المدخل يحرسه جنديان ولكنهما لم يتفوّها بشيء. في نهاية الممشى غرفة واسعة مفروشة ذات افرازات مذهبة وثريات ضخمة من الكريستال، تحتها عدة ثريات صغيرة، وكانت جدران الغرفة محاطة بالخشب الغامق. على جانبي الأرضية الخشبية صفوف من الفراش والأغطية المتسخة، وقد تمدد عليها بعض الجنود. أعقاب السجائر، كسرات الخبز، ثياب، وزجاجات فارغة لأصناف ثمينة من النبيذ الفرنسي تملأ المكان. المزيد والمزيد من الجنود، على أكتافهم شارات كلية «الينكرز» الحمراء، يتحكمون في جو عابق بدخان السجائر ورائحة أجسام لم تغتسل منذ زمن بعيد. وكان أحد الجنود يحمل زجاجة نبيذ «البرغاندي» الأبيض، وبديهي أنه سرقها من أقبية القصر. الجنود ينظرون إلينا بدهشة ونحن نمر بهم، غرفة بعد غرفة، إلى أن وصلنا إلى سلسلة من القاعات الكبيرة التي تطل نوافذها الواسعة الوسخة على الساحة. الجدران تغطيها لوحات ضخمة في إطارات مذهبة، تمثل معارك تاريخية... «12 تشرين الأول (أكتوبر) 1812»، «6 تشرين الثاني (نوفمبر) 1812»، و«16-28 آب (أغسطس-) 1813»... وكانت إحدى اللوحات ممزوعة من فوق، جهة اليمين.

وكان المكان قد تحول إلى ثكنة كبيرة، والواضح أنه على هذه الحال منذ أسابيع، تدل على ذلك حالة الأرضية والجدران. الرشاشات منصوبة على حافة النوافذ، والبنادق موضوعة بين الفراش.

وبينما كنا ننظر إلى اللوحات، هجمت عليّ من جهة أذني اليسرى رائحة كحول، وقال صوت بلغة فرنسية طليقة ولكنها غليظة: «من الطريقة التي تنظرون فيها إلى اللوحات، يبدو أنكم أجانب». إنه رجل قصير بدين تبين أنه أصلع بعدما خلع قبعته.

«أمريكيون؟ تشرّفنا. أنا النقيب فلاديمير آرتزيباتشيف تحت أمركم». ويبدو أنه لم يستغرب أن يكون أربعة غرباء، بينهم امرأة، يتجولون بين تحصينات جيش ينتظر الهجوم. فبدأ يتذمر من حالة روسيا:

«كل تقاليد الجيش الروسي العظيمة قد انهارت. وهذا ليس بسبب البلاشفة وحدهم. أنظروا حولكم. هؤلاء تلامذة في كليات تدريب الضباط. ولكن هل هم نبلاء؟ لقد فتح كرنسكي كليات الضباط أمام الرتب الدنيا، أمام أي جندي ينجح في الامتحان. ومن الطبيعي أن نجد العديد بينهم ممن انتقلت إليه عدوى الثورة»...

وفجأة غيّر الموضوع: «أنا بشوق بالغ إلى الخروج من روسيا. صمّمت على الانخراط في الجيش الأمريكي. من فضلكم، هل يمكنكم الذهاب إلى قنصلكم وإجراء الترتيبات اللازمة؟ سأعطيكم عنواني». ورغم احتجاجنا، كتب عنوانه على ورقة، فبدأ كأنه شعر بتحسن مفاجئ. مازال العنوان معي...

ثم أردف وهو يقودنا إلى الغرف ويشرح لنا كل شيء: «قمنا بعرض في الصباح الباكر. قررت «الكتيبة النسائية» البقاء إلى جانب الحكومة».

«ما تزال الجنديات في القصر»؟

«إي. في الغرف الخلفية حتى لا يصبهن مكروه إذا حدثت اضطرابات». وتنهد قائلاً: «إنها لمسؤولية جسيمة»!

وقفنا لبرهة أمام النوافذ، نتطلع إلى ساحة القصر حيث اصطفت ثلاث سرايا من «الينكرز» المسلحين ذوي المعاطف الطويلة، يخطب فيهم ضابط طويل نشيط عرفت أنه ستانكيفيتش، المفوض العسكري الرئيسي الملحق بالحكومة المؤقتة. وبعد بضع دقائق، تنكبت سريتان السلاح بجلبة، وبعد إطلاق ثلاث صرخات حادة، اجتازت الساحة ثم اختفت تحت «القوس الأحمر» في المدينة الساكنة.

«ذهبوا ليستولوا على مركز الهاتف»، قال أحدهم. وكان ثلاثة عسكريين برتبة صف ضابط يقفون قربنا، فدخلنا في حديث. قالوا أنهم دخلوا إلى الكليات من الرتب الدنيا وأعطونا أسماءهم: روبرت أوليف، الكساي فاسيلييفكو وأرني شاشس من استونيا. ولكنهم لا يريدون أن يصبحوا ضباطا الآن لأن الضباط مكروهون. ويبدو أنهم لا يدرون ماذا سيفعلون، وكان واضحا أنهم ليسوا سعداء.

ولكن سرعان ما بدأوا يتبجحون: «إذا تقدم البلاشفة، سوف نعلّمهم القتال إنهم لا يجسرون على القتال، إنهم جبناء. ولكن إذا تغلبوا علينا، فكل منا يحتفظ بالرصاصة الأخيرة لنفسه»...

وفي تلك اللحظة لعلع الرصاص في مكان ليس ببعيد. بدأ الناس يهربون من الساحة، خارجا، أو ينبطحون أرضا على وجوههم؛ وتفرق فرسان «الازفوشيكي»، الواقفين عند الزوايا، في كل اتجاه. وتعالى الصخب في الداخل: جنود يركضون من كل صوب، يختطفون البنادق، وأحزمة الرصاص ويصيحون: «جاءوا! جاءوا!»... ولكن الأحوال هدأت بعد بضع دقائق. عاد الفرسان، ووقف

الناس الذين كانوا على الأرض. وظهر «الينكرز» تحت «القوس الأحمر» يمشون بشيء من عدم الانتظام، وكان أحدهم يتكئ على رفيقين له.

وكان الوقت متأخرا عندما غادرنا القصر. لقد اختفى جميع الحراس من الساحة. وبدت البنايات الحكومية المنتصبة في نصف دائرة، مهجورة. ذهبنا إلى «فندق فرنسا» لتناول العشاء، وبينما كنا نحتسي الحساء، جاء النادل، شاحب الوجه، وأصر علينا أن ننتقل إلى غرفة الطعام الرئيسية في مؤخرة الفندق، لأنهم يريدون إطفاء الأنوار في المقهى: «سيدور قتال عنيف».

وعندما خرجنا إلى رصيف «مورسكايا» كانت الظلمة تخيم فيما عدا قنديل واحد شحيح الضوء عند زاوية شارع «نييفسكي». وقد وقفت تحته سيارة مصفحة ضخمة، يهدر محركها ويتصاعد منها الدخان وقد تسلق عليها أحد الصبية وأخذ يحدّق في فوهة مدفع رشاش. الجنود والبحارة يتحلقون حولها منتظرين شيئا ما. وعدنا إلى «القوس الأحمر» حيث تحلّق جمع من الجنود، يحدقون بقصر الشتاء الذي يتلألأ بالأضواء، ويتكلمون بأصوات مرتفعة. وكأن أحدهم يقول: «لا، يا رفاق! كيف يمكننا أن نطلق الرصاص؟ الكتيبة النسائية في الداخل –وسوف يقولون أننا أطلقنا النار على النساء الروسيات».

ولما عدنا إلى شارع نييفسكي مرت سيارة مصفحة أخرى، وأطل رجل برأسه في قلعتها صائحا:

«إلى الأمام! تقدموا. أهجموا!»

فاقترب سائق السيارة الأخرى وصاح لكي يغطي صوته هدير المحرك: «اللجنة تقول أن ننتظر. عندهم مدفعية وراء أكوام الخشب هناك»...

كانت السيارات العمومية قد توقفت، والقليل من الناس يمر، والأنوار مطفأة؛ لكننا استطعنا أن نرى، على بعد مسافة قصيرة، الحافلات والجموع ونوافذ المتاجر المضاءة والإشارات الكهربائية لدور السينما –الحياة تسير كالمعتاد. كانت معنا بطاقات لحضور حفلة باليه في قصر مارينسكي- فقد كانت جميع المسارح مفتوحة. إلاّ أننا لم نذهب إليها لأن الوضع في الخارج كان أكثر إثارة...

تعثرنا في الظلمة أكوام الحطب التي تسد «جسر الشرطة»، ورأينا بضعة جنود ينصبون مدافع ميدان من عيار ثلاث بوصات قبالة قصر «ستروغانوف». رجال يرتدون أزياء مختلفة يذرعون المكان بلا هدف، ويتكلمون بكثرة...

وبدا كأن المدينة كلها تتمشى في شارع نييفسكي. عند كل زاوية تتحلق جموع حول مناقشة حامية. عند كل تقاطع طرق، تقف دوريات من عشرات الجنود مشرعة الحراب، بينما يتوعدهم كهول، ذوو خدود حمراء، ومعاطف فراء ثمينة، وتقذف النساء الأنيقات الشتائم في وجوههم. وكان الجنود يناقشون بضعف، ويبتسمون بإحراج... السيارات المصفحة تذرع الشارع، وقد سمّيت على أسماء القياصرة الأول –أوليغ، روريك، سفيتوسلاف- وقد كتبت عليها بخط كبير أحمر الأحرف الأولى لعبارة «حزب العمال الاشتراكي-الديموقراطي الروسي .R.S.D.R.P. ظهر رجل يتأبط رزمة صحف عند شارع ميخايلوفسكي، وسرعان ما تدافع الناس المهتاجون نحوه، يدفعون روبلا أو خمسة أو عشرة ويتنازعون الجرائد كالحيوانات. وكانت معه صحيفة «العامل والجندي»، معلنة انتصار الثورة البروليتارية. وإطلاق سراح البلاشفة المعتقلين، داعية الجيش، في الجبهة والمؤخرة، إلى تأييد الثورة... هي وريقة محمومة من أربع صفحات، مطبوعة بأحرف كبيرة، ولا تحتوي أية أخبار...

تجمّع حوالي ألفي مواطن عند زاوية شارع «سادوفايا» يحدقون بسطح بناية شاهقة حيث وميض شرارة حمراء صغيرة.

وقال فلاح طويل مشيرا إليها: «أنظروا! إنه مخرّب. الآن سيطلق النار على الشعب...» ويبدو أن أحدا لم يفكر في التحقيق بالأمر.

حين وصلناها، كانت واجهة «سمولني» العريضة تتلألأ بالأضواء، تتدفق إليها، من كل شارع، موجات من الأشكال المسرعة في العتمة. السيارات والدراجات النارية تروح وتجيء؛ وتنطلق سيارة مصفحة، رمادية اللون، يرفرف على قلعتها علمان أحمران، وقد أطلقت العنان لصفارتها. الجو بارد، وعند البوابة الخارجية أشعل أفراد الحرس الأحمر النار. وكذلك فعلوا عند البوابة الداخلية وقرأوا على ضوئها، أذوناتنا ويتفحصوننا من رأسنا إلى أخمص قدمينا. الأغطية نزعت من المدافع الأربعة السريعة الطلقات عند كل جانب من جوانب الباب، وأحزمة الرصاص تتدلى منها كالأفاعي. تحت أشجار الباحة، تقف مجموعة من السيارات المصفحة، ذات لون ترابي، ومحركاتها دائرة. الصالات الطويلة الجرداء الشحيحة النور تضج بجلبة الأرجل والنداء الصارخ. الجو مضطرب. جمع يتدافع على السلّم، كانوا عمالا يرتدون قمصانا سوداء، ويعتمرون قبعات سوداء مستديرة من الفراء، والعديد منهم يتنكب البنادق؛ وجنودا يرتدون معاطف خشنة ترابية اللون ويعتمرون قلانس مسطحة؛ وبضعة قادة -أمثال كامنييف ولوناتشارسكي- يهرولون وسط جمع يتكلم كل أفراده في آن واحد، بوجوه متعبة قلقة، ويتأبطون الحقائب اليدوية المنتفخة. كان الاجتماع الاستثنائي لسوفييت بتروغراد قد انتهى. فاستوقفت كامنييف، وهو رجل صغير يتحرك بسرعة له وجه كبير طافح بالحيوية وملتصق بكتفيه. أخذ يقرأ، بدون مقدمات، بلغة فرنسية سريعة، نسخة عن القرار الذي تم اتخاذه لتوه:

إن سوفييت مندوبي العمال والجنود في بتروغراد، إذ يحيي الثورة المظفرة التي قامت بها بروليتاريا بتروغراد وحاميتها، يهمه أن يؤكد على الوحدة والتنظيم والانضباط والتعاون التام الذي أظهرته الجماهير في هذه الانتفاضة. نادرا ما سالت مثل هذه الكمية القليلة من الدم، وناذرا ما لاقت ثورة مثل هذا النجاح.

إن السوفييت يعبر عن إيمانه الراسخ بأن حكومة العمال والفلاحين، التي ستؤلفها الثورة كحكومة للسوفييت، والتي ستضمن للبروليتاريا الصناعية دعم كل جماهير الفلاحين الفقراء، سوف تتقدم بحزم نحو الاشتراكية، الطريقة الوحيدة لتجنيب البلد بؤس الحرب وفظائعها.

إن حكومة العمال والفلاحين الجديدة سوف تقترح فورا السلام الديموقراطي العادل على جميع البلدان المتحاربة.

وسوف تصادر فورا ملكيات الأراضي الكبيرة. وتوزعها على الفلاحين. وسوف تحقق سيطرة العمال على إنتاج وتوزيع السلع المصنوعة، وتراقب المصارف بعد أن تحولها إلى احتكار للدولة.

إن سوفييت مندوبي العمال والجنود يدعو عمال وفلاحي روسيا إلى تأييد الثورة البروليتارية بكل عزم وإخلاص. والسوفييت يهمه أن يعبر عن اقتناعه بأن عمال المدن المتحالفين مع فقراء الفلاحين سوف يحافظون على الانضباط الثوري، الشرط الذي لابد منه لانتصار الاشتراكية. والسوفييت مقتنع أيضا بأن بروليتاريا بلدان أوروبا الغربية سوف تساعدنا على دفع قضية الاشتراكية نحو انتصارها الكامل النهائي.

«إذا، تظن أنكم ربحتم الجولة؟»

ورفع كتفيه: «أمامنا عمل كثير. كثير جدا. إنها البداية فقط».

عند نهاية السلّم، التقيت بريازانوف، نائب رئيس اتحاد نقابات العمال، وكان يلتفت إلى الخلف ويعضّ لحيته الشائبة صائحا: «إنه جنون! جنون! الطبقة العاملة الأوروبية لن تتحرك! كل روسيا...». وحرّك يده بإشارة غامضة، ثم غادر المكان مسرعا. كان ريازانوف وكامنييف قد عارضا القيام بثورة، وتعرّضا للسع لسان لينين القاسي...

كان الاجتماع تاريخيا. أعلن فيه تروتسكي، باسم اللجنة العسكرية الثورية، سقوط الحكومة المؤقتة، فقال:

«إن طبيعة الحكومات البرجوازية هي خداع الشعب. نحن، سوفييت مندوبي العمال والجنود، سوف نقوم بتجربة فريدة من نوعها في التاريخ: سوف ننشئ سلطة لا هدف لها غير إشباع حاجات الجنود والعمال والفلاحين».

ثم ظهر لينين داعيا إلى الثورة الاجتماعية العالمية، فاستقبلته عاصفة من التصفيق والهتاف... وصاح زينوفييف: «اليوم سدّدنا ديننا إلى البروليتاريا العالمية موجهين ضربة قاسية للحرب. ولكمة قاتلة لجميع الاستعماريين وبشكل خاص لوليم السفاح»...

ثم عاد تروتسكي قائلا: «إن البرقيات قد أرسلت إلى الجبهة معلنة انتصار الثورة ولكن ما من جواب». وخبّر عن تقدم بعض الفرق العسكرية نحو بتروغراد، وعن إرسال وفد ليعلمها الحقيقة.

صيحات:«إنكم تستبقون إرادة مؤتمر السوفييت العام»!

تروتسكي، ببرود: «إن انتفاضة عمال وجنود بتروغراد هي التي استبقت إرادة مؤتمر السوفييت العام»!

دخلنا قاعة الاجتماع الكبيرة بعد أن شققنا طريقنا وسط الجموع الصاخبة عند الباب. مندوبو عمال وجنود روسيا ينتظرون بصمت قلق تارة أو بصخب عظيم تارة أخرى أن يقرع رئيس الجلسة الجرس. وقد جلسوا على الكراسي تحت الثريات البيضاء، أو حشروا دون حراك في المماشي وعلى الأطراف، جالسين على حافة النوافذ أو حتى على أطراف المنصة. فيما عدا الدفء المنبعث من أجساد غير مغتسلة لم يكن هناك تدفئة في القاعة. كانت تتصاعد من هذا الجمع غمامة زرقاء قاتمة وتستقر في الهواء الثقيل. ومن وقت لآخر؛ يصعد ذو سلطة إلى المنبر ويطلب من الرفاق الإقلاع عن التدخين، فيصيح الجميع، مدخنين أو غير مدخنين على حد سواء: «لا تدخنوا، يا رفاق»! ثم يستمرون بالتدخين. أقعدني بتروفسكي قربه، وهو مندوب فوضوي عن مصنع «أوبوخوف». وكان متسخا، لم يحلق منذ أيام، يتمايل مرهقا من ثلاث ليال قضاها بدون نوم عاملا في اللجنة العسكرية الثورية.

أعضاء «التسايكا» القديمة على المنصة، يديرون لآخر مرة السوفييت الصاخبة التي أداروها منذ الأيام الأولى، والتي ثارت عليهم اليوم. تلك نهاية المرحلة الأولى من الثورة الروسية التي قادها هؤلاء الرجال بطرقهم الحذرة... إلاّ أن الثلاثة العظام لم يكونوا بينهم: كرنسكي هرب إلى الجبهة مارا بمدن ريفية تتهيأ للانتفاض؛ شكيدزي، النسر القديم، تقاعد حانقا في جبال جورجيا حيث أصيب بالسل؛ وتسيرتللي ذو المعنويات العالية، المشرف أيضا على الموت، والذي عاد، رغم ذلك، ليضع براعته في الخطابة في خدمة قضية خاسرة، أمّا الحاضرون،

فكانوا: غوتز، ودان، ولبير، وبوغدانوف، وبرويدو، وفيليبوفسكي، بوجوههم الشاحبة وعيونهم الغائرة الحاقدة وتحتهم يغلي ويموج المؤتمر العام الثاني للسوفييت، وفوق رؤوسهم تنتصب اللجنة العسكرية الثورية التي تعمل بشبه حمَّى، وتمسك بين أيديها الخيوط التي تحرك الثورة وتضرب بحزم... الساعة الحادية عشرة إلاّ عشرين دقيقة مساءا.

دان يقرع الجرس. بوجهه الرائق وقامته الصلعاء وزيه العسكري. وساد صمت ثقيل مفاجئ، لا يعكره إلاّ جلبة الناس الواقفين عند الباب وشجارهم...

«إننا نمسك السلطة بين أيدينا»، بدأ بحزن، ثم توقف لحظة، وأردف بصوت خافت: «أيها الرفاق! إن مؤتمر السوفييت يعقد في ظروف غير عادية وفي مرحلة استثنائية بحيث لا يخفى عليكم لماذا تعتبر «التسايكا» أن لا جدوى من التوجه إليكم بخطبة سياسية. وهذا يتضح أكثر إذا تذكرتم أني عضو في «التسايكا» وأن رفاقي الحزبيين موجودون، في هذه اللحظة، في قصر الشتاء الذي تنهال عليه القنابل، وهم يضحون بحياتهم لينفذوا الأوامر التي صدرت لهم من «التسايكا» (ضجة).

«إني أعلن افتتاح الجلسة الأولى للمؤتمر الثاني لسوفييت مندوبي العمال والجنود»!

وجرى انتخاب مجلس الرئاسة وسط الجلبة والحراك. فأعلن أفانيسوف أن البلاشفة، والاشتراكيين الثوريين اليساريين، والمناشفة الأمميين قد اتفقوا على اعتماد التمثيل النسبي في مجلس الرئاسة. وانتصب بعض المناشفة محتجين. فصاح بهم جندي ملتح: «تذكروا ماذا فعلتم بنا، نحن البلاشفة، عندما كنا أقلية»! النتيجة –14 بلشفي، 7 اشتراكيين ثوريين، 3 مناشفة، وواحد منشفي أممي من جماعة غوركي. وأعلن هندلمان، باسم جناحي الاشتراكيين الثوريين اليميني والوسطي، رفضهما الاشتراك في مجلس الرئاسة؛ وأيد قوله خينشوك، باسم المناشفة؛ وأعلن المناشفة الأمميون أنهم أيضا لن يشتركوا في مجلس الرئاسة إلاّ إذا جرى التحقيق حول بضعة أمور. تصفيق متقطع وزعيق، وقال صوت: «أيها المرتدون، تعتبرون أنفسكم اشتراكيين؟!». وطلب أحد مندوبي أوكرانيا مقعدا، فأعطي له. وثم انسحاب «التسايكا» القديمة، وظهر مكانها تروتسكي، لوناتشارسكي، مدام كولونتاي، ونوغين... وهبت القاعة راعدة. كم حلّق هؤلاء البلاشفة! كانوا زمرة مكروهة ومضطهَدة منذ أربعة أشهر، وها هم الآن في هذا المكان الرفيع، يديرون دفة روسيا العظيمة في عز ثورتها!

وقرأ كامنييف جدول الأعمال: أولا، تنظيم السلطة؛ ثانيا، الحرب والسلم؛ ثالثا، الجمعية التأسيسية. وقام لوزوفسكي معلنا أن مكاتب جميع الفرقاء تقترح الاستماع إلى تقرير سوفييت بتروغراد ومناقشته، ثم إعطاء حق الكلام لأعضاء «التسايكا» والأحزاب المختلفة، قبل الانتقال إلى مواد جدول الأعمال.

وفجأة ترامى صوت جديد، أعمق من جلبة الجمهور، ملحاحا، مقلقا: إنه دوي المدافع الأصم. ونظر الناس بقلق نحو النوافذ المغبشة، وامتلكهم نوع من الحمى. طلب مارتوف حق الكلام صائحا بصوت أبح: «الحرب الأهلية قد بدأت، أيها الرفاق! يجب أن تكون أول مسألة هي مسألة تسوية الأزمة بطريقة سلمية. يجب أن نناقش بسرعة، وسيلة تفادي الحرب الأهلية، من زاوية مبدئية وسياسية. إن إخواننا يُقتلون في الشوارع! في هذه اللحظة، نجد أن أحد الأحزاب الثورية يحل مسألة السلطة بواسطة انقلاب عسكري، وكل هذا قبل افتتاح مؤتمر السوفييت-» وعجز، خلال برهة، عن إسماع صوته بسبب الضجة: «يجب على جميع الأحزاب الثورية أن تواجه الحقيقة! المسألة الأولى المعروضة أمام المؤتمر هي مسألة السلطة، وهذه المسألة يجري حلها الآن بقوة السلاح في الشوارع... يجب أن

ننشئ سلطة تعترف بها جميع القوى الديموقراطية. وإذا كان المؤتمر يريد أن يعبر عن الديموقراطية الثورية، فلا يجوز أن يقف مكتوف الأيدي أمام نشوب الحرب الأهلية، التي ستكون نتيجتها انفجارا خطرا للثورة المضادة... إن فرصة الوصول إلى مخرج سلمي هي في تشكيل سلطة ديموقراطية موحدة... يجب أن ننتخب وفدا ليتفاوض مع جميع الأحزاب والمنظمات الاشتراكية الأخرى»...

دوي المدافع الأصم ما زال يُسمع بانتظام من خلال النوافذ، والمندوبون يتصايحون. وهكذا، كانت روسيا الجديدة تولد، بقذف المدفعية، وسط العتمة، والخوف والحقد والبسالة اللامتناهية.

ووافق الاشتراكيون الثوريون اليساريون والاشتراكيون-الديموقراطيون المتحدون على اقتراح مارتوف. فجرى إقراره. وأعلن أحد الجنود أن المؤتمر العام لسوفييت الفلاحين قد رفض إرسال مندوبين عنه إلى هذا المؤتمر، واقترح إرسال لجنة لتوجه له دعوة رسمية، وقال: «يوجد بعض المندوبين هنا» واقترح السماح لهم بالتصويت. فقبل الاقتراح.

النقيب خاراش يطلب الكلام بإلحاح صارخا: «إن الدجالين السياسيين الذين يسيطرون على هذا المؤتمر قالوا لنا أننا سنسوّي مسألة السلطة، وها هي تسوّى من وراء ظهرنا قبل افتتاح المؤتمر! الضربات توجه إلى قصر الشتاء، ولكنها ليست إلاّ المسامير التي تدق في نعش الحزب السياسي الذي جازف بمثل هذه المغامرة!» جلبة. وعقبه غارا: «المعارك تدور في الشوارع ونحن هنا نناقش الاقتراحات حول السلم... إن الاشتراكيين الثوريين والمناشفة يرفضون الاشتراك بما يجري، ويدعون جميع القوى الشعبية إلى مقاومة محاولة الاستيلاء على الحكم...» ثم تكلم كوشين، مندوب الجيش الثاني عشر وممثل مجموعة «الترودوفيك»: «جئت إلى هنا لأجمع المعلومات وأنا سأعود فورا إلى الجبهة، حيث تعتبر جميع لجان الجيش أن استلام السوفييت للحكم، قبل ثلاث أسابيع فقط من انعقاد الجمعية التأسيسية، طعنة في ظهر الجيش، وجريمة بحق الشعب!» صيحات: «كذب! كذب». وعندما سُمع صوته من جديد، كان يقول: «فلنقض على هذه المغامرة في بتروغراد! إني أدعو جميع المندوبين إلى مغادرة هذه القاعة لإنقاذ البلد والثورة!» وبينما كان يعبر الممشى وسط أصوات تصمّ الآذان، انقضَّ البعض عليه مهددين... وجاء دور خينشوك، وهو ضابط ذو لحية بنّية طويلة، فتكلم بطريقة سلسة مقنعة: «إني أتكلم باسم مندوبي الجبهة. الجيش ممثل تمثيلا صحيحا في هذا المؤتمر، ومع ذلك، فالجيش لا يعتقد أن انعقاد مؤتمر السوفييت ضروري في هذا الوقت قبل ثلاثة أسابيع فقط من موعد افتتاح الجمعية-»، صيحات وضربات الأرجل على الأرض تتزايد عنفا. «إن الجيش لا يعتقد أن مؤتمر السوفييت يملك السلطة الضرورية-»، بدأ الجنود بالوقوف في كل أنحاء القاعة، صائحين:

«باسم من تتكلم؟ ماذا تمثل؟»

«إني أمثل اللجنة المركزية التنفيذية لسوفييت الجيش الخامس، الفوج الثاني، والفوج الأول، وفرقة القناصة الثالثة...»

«متى جرى انتخابك؟ انك تمثل الضباط وليس الجنود! ما رأي الجنود فيما تقول؟» زعاق وصيحات استهزاء.

«نحن، مجموعة مندوبي الجبهة، نتنصل من مسؤولية ما حدث وما يحدث، ونعتبر أنه من الضروري تعبئة جميع القوى الثورية الواعية لإنقاذ الثورة! إن مجموعة مندوبي الجبهة سوف تنسحب من المؤتمر... ساحة القتال هي في الخارج، في الشارع!»

زعقات حانقة مدوية: «إنك تتكلم باسم الضباط وليس باسم الجيش!»

«إني أتوجه إلى جميع الجنود العقلاء لينسحبوا من هذا المؤتمر!»

وانصبّ عليه وابل من الشتائم: «كورنيلوفي! عدو الثورة! استفزازي!»

ثم أعلن خينشوك، باسم المناشفة، أن الطريقة الوحيدة للوصول إلى حل سلمي هي البدء بمفاوضات مع الحكومة المؤقتة لتشكيل وزارة جديدة، تحظى بتأييد جميع فئات المجتمع. ومنع من إكمال حديثه طوال عدة دقائق. ثم تلا بلاغ المناشفة بصوت مرتفع:

«يستحيل علينا البقاء في المؤتمر لأن البلاشفة قاموا بمؤامرة عسكرية بمساعدة سوفييت بتروغراد دون استشارة الأجنحة والأحزاب الأخرى، لهذا ننسحب داعين المجموعات الأخرى إلى أن تحذو حذونا وإلى الاجتماع لمناقشة الوضع».

«خائن»! وخلال الاستراحات بين الإزعاج شبه المتواصل، كان يترامى صوت هندلمان محتجا، باسم الاشتراكيين الثوريين، على قصف قصر الشتاء... «إننا نعارض هذا النوع من الفوضى»...

وما أن نزل عن المنبر، حتى قفز إليه جندي شاب نحيل الوجه ورفع يده بحركة درامية صائحا: «يا رفاق»! فساد الصمت: «اسمي بيترسون، وأنا أتكلم باسم فرقة القناصة الليتوانية الثانية. لقد استمعتم إلى ممثلين عن لجان الجيش، إن كلامهما يعني شيئا إذا كانا يمثلان الجيش»... تصفيق حاد «ولكنهما لا يمثلان الجنود»! وهز قبضته. «إن الجيش الثاني عشر يصر منذ زمن طويل على إعادة انتخاب السوفييت الأكبر ولجنة الجيش، ولكن لجنتنا، شأنها شأن «التسايكا»، رفضت أن تدعو ممثلي الجماهير إلا في نهاية أيلول (سبتمبر) بحيث يتسنى للرجعيين أن ينتخبوا مندوبيهم المزيفين إلى هذا المؤتمر. إني أعلمكم الآن أن جنود ليتوانيا قد قالوا المرة تلو الأخرى: كفانا قرارات! كفانا كلاما! نريد أعمالا – يجب أن تكون السلطة بين أيدينا! فليترك المندوبون المحتالون المؤتمر! إن الجيش ليس معهم».

وعصفت القاعة بالهتاف. كان المندوبون قد ترددوا في أول الاجتماع لأن سرعة الأحداث صعقتهم وأذهلهم دوي المدافع. وخلال ساعة بأكملها كانت الضربات تنهال عليهم، من على ذلك المنبر، لتصهرهم في بوتقة واحدة، ولكن لتسحقهم أيضا. فأخذوا يتساءلون: هل أننا نقف وحدنا؟ هل ستثور روسيا ضدنا؟ أصحيح أن الجيش يزحف على بتروغراد؟ ثم تكلم هذا الجندي ذو العينين الصافيتين، فاكتشفوا فجأة أن ما يقوله هو الحقيقة.. هذا الجندي ذو العينين الصافيتين، فاكتشفوا فجأة أن ما يقوله هو الحقيقة.. هذا هو صوت الجنود، فالملايين المائجة من الفلاحين والعمال الذين يرتدون الزي العسكري هم بشر مثلهم، وأفكارهم ومشارعهم هي مثل أفكارهم ومشاعرهم..

وتكلم جنود آخرون. وأعلن غجيلشاخ، باسم مندوبي الجبهة، أنهم قرروا الانسحاب من المؤتمر بأغلبية ضعيفة، وأن المندوبون البلاشفة رفضوا حتى أن يشتركوا في التصويت، لأن المندوبين انقسموا حسب انتمائهم الحزبي وليس كمجموعات، ثم قال: «يجري انتخاب المئات من مندوبي الجبهة بدون اشتراك الجنود، لأن لجان الجيش لم تعد الممثلة الحقيقية للقواعد...» وصاح لوكيانوف أن ضباطا مثل خاراش وشينخوك لا يمكن أن يمثلوا الجيش في هذا المؤتمر وإنما القيادة العليا فقط: «إن سكان الخنادق يتمنون، من كل قلوبهم، أن تنتقل السلطة إلى أيدي السوفييت، وهم يعقدون عليها الآمال الكبيرة»... كان الجزر ينقلب إلى المد.

ثم تقدم أبراموفيتش، باسم «العصبة» لسان حال الاشتراكيين-الديموقراطيين اليهود، وكانت عيناه تقدحان شررا وهو يرتجف من الغضب:

«إن ما يحدث الآن في بتروغراد لهو نكبة عظيمة! إن مجموعة «العصبة» تؤيد بلاغ المناشفة والاشتراكيين الثوريين وسوف تنسحب من المؤتمر!» ورفع صوته ويده: «إن واجبنا تجاه البروليتاريا الروسية لا يسمح لنا بالبقاء هنا وتحمل مسؤولية هذه الجرائم. ولأن قصف قصر الشتاء لم يتوقف، فقد قرر مجلس الدوما البلدي بالاشتراك مع المناشفة والاشتراكيين الثوريين واللجنة التنفيذية لسوفييت الفلاحين، أن يموتوا مع الحكومة المؤقتة ونحن سنذهب معهم بدون سلاح، وسوف نفتح صدورنا لرشاشات الإرهابيين.. إننا ندعو جميع مندوبي هذا المؤتمر...» وغرقت بقية خطابه في عاصفة من العياط والتهديدات والشتائم التي تحولت إلى دوي جهنمي بينما كان خمسون مندوبا يقفون ويشقون طريقهم إلى الخارج...

قرع كامنييف الجرس صارخا: «لازموا أمكنتكم ولنتابع عملنا». ثم وقف تروتسكي بوجهه الشاحب القاسي، وأطلق صوته الجهوري بكل ازدراء: «هؤلاء الذين يسمون أنفسهم الاشتراكيين المساومين، هؤلاء المناشفة الخائفون والاشتراكيون الثوريون، وأعضاء «العصبة»، فليذهبوا! ليسوا سوى حثالة سوف ترمي في مزبلة التاريخ!».

وأعلن ريازانوف، باسم البلاشفة، أن اللجنة العسكرية الثورية قد استجابت لطلب مجلس دوما المدينة، فأرسلنا وفدا ليفاوض قصر الشتاء «بهذا نكون قد بذلنا كل مجهود لتفادي إراقة الدماء..».

خرجنا مسرعين وتوقفنا لبرهة في الغرفة حيث تعمل اللجنة العسكرية الثورية بسرعة رهيبة، تستقبل وتبعث الرسل اللاهثين، وتوفد المفوضين، الذين يملكون سلطة الحياة والموت، إلى جميع أنحاء البلد، وسط رنين أجهزة الهاتف. فتحنا الباب، فتدفق تيار من الهواء الفاسد ورائحة الدخان، ولمحنا الرجال المرهقين منكبين على خريطة تحت نور مصباح كهربائي. وكتب الرفيق جوزيفوف-دوخفينسكي أذوناتنا، وهو يافع باسم تتدلى على جبينه خصلة شعر صفراء.

الليلة قارسة البرد، وواجهة «سمولني» تعج بالسيارات القادمة والذاهبة، يرتفع فوق ضجيجها دوي المدفع البعيد البطيء. وكانت شاحنة كبيرة واقفة هناك، تهتز مع هدير محركها. وبعض الرجال يقذفون إليها برزم يلتقطها آخرون، وبنادقهم قربهم.

صحت: «إلى أين؟».

«إلى كل أنحاء المدينة، إلى كل مكان» أجاب عامل صغير باسم بحركة منتشية رحبة.

أبرزنا أذوناتنا، فدعونا «تعالوا! ولكن ربما حدث إطلاق نار». فتسلقنا، وأرخي الكابح محدثا صوتا غريبا، وتقدمت السيارة بهزة، فانقلبنا فوق الذين يصعدون، واجتزنا النار الكبيرة عند البوابة الداخلية والأخرى عند البوابة الخارجية التي تصبغ بالأحمر وجوه العمال المسلحين الجالسين القرفصاء حولها. ثم انطلقت بنا السيارة مسرعة في «سوفوروفسكي» تتهادى في سيرها... ومزق أحد الرجال غلاف رزمة من الرزم وبدأ يرمي الورق، ففعلنا مثله، وإذا بنا ننزل الشارع المظلم وينسحب وراءنا ذيل من الأوراق البيضاء الطافية المزوبعة. وتوقف المشاة يلتقطونها، وخرج أفراد الدوريات المتحلقين حول النيران مسرعين رافعي الأيدي ليلتقطوها. أحيانا يبرز بعض الرجال المسلحين صائحين: «قف!» رافعين بنادقهم، إلا أن سائقنا كان يكتفي بأن يصيح بكلمات غير مفهومة ونستمر في سيرنا.

والتقطت إحدى هذه النسخ وقرأتها تحت قنديل الشارع الخافت:

إلى مواطني روسيا:

لقد خُلعت الحكومة المؤقتة. وانتقلت سلطة الدولة إلى أيدي اللجنة العسكرية الثورية، التابعة لسوفييت بتروغراد لمندوبي العمال والجنود الذي يقود بروليتاريا بتروغراد وحاميتها.

القضية التي ناضل الشعب من أجلها: اقتراح فوري لعقد سلم عادل، إلغاء حقوق ملاك الأراضي على الأرض، سيطرة العمال على الإنتاج، تشكيل حكومة سوفييتية – هذه القضية بين أيدٍ أمينة الآن.

عاشت ثورة العمال والجنود والفلاحين
اللجنة العسكرية الثورية
سوفييت بتروغراد لمندوبي العمال والجنود

كان يجلس بقربي رجل ذو عينين لوزيتين ووجه منغولي يرتدي معطفا من وبر المعز، وزعق: «انتبه! هنا يطلق المحرضون النار دائما من النوافذ»! واتجهنا صوب ساحة «زنامنسكي» المعتمة المهجورة تقريبا، وانعطفنا حول تمثال «تروبتسكوي» الشرس ثم نحو شارع نييفسكي العريض حيث كان ثلاثة رجال واقفين مصوبين بنادقهم نحو النوافذ. الشارع من ورائنا، يعج بالناس المهرولين المنكفّين على أنفسهم ... لم نعد نسمع صوت المدفع، وكلما اقتربنا من طرف المدينة حيث قصر الشتاء، كلما بدت الشوارع هادئة وخاوية. مجلس دوما المدينة مشعشع الأنوار. ورأينا وراءه حشدا داكنا من الناس، وصفا من البحارة يصيحون بنا أن نقف. فأبطأت السيارة وترجلنا منها.

المشهد مذهل. عند زاوية «قناة إيكاترينا» يقف صف من البحارة المسلحين على عرض شارع نييفسكي يسدون الطريق في وجه جمع منتظم في أربعة صفوف. كانوا بين الثلاثمائة وأربعمائة من رجال يرتدون معاطف السهرة، ونساء أنيقات، وضباط –باختصار: أناس من كل الأنواع والفئات. وعرفنا منهم العديد من مندوبي المؤتمر من قادة المناشفة والاشتراكيين الثوريين: أفكسانتييف رئيس سوفييت الفلاحين النحيل الملتحي، ساروكين الناطق الرسمي باسم كرنسكي، وأبراموفيتش. يقف على رأسهم شرايدر محافظ بتروغراد العجوز ذو اللحية البيضاء، وبروكوبوفيتش وزير التموين في الحكومة المؤقتة الذي أعتقل في الصباح ثم أطلق سراحه. ولمحت مالكين، مراسل صحيفة «الأخبار الروسية اليومية» فصاح بغبطة: «إننا ذاهبون لنموت في قصر الشتاء». كان الموكب واقفا، تتعالى من مقدمته جلبة جدال حاد: شرايدر، وبروكوبوفيتش يزعقان بوجه بحّار ضخم يبدو أنه القائد:

«نريد المرور! أنظر، هؤلاء الرفاق قادمون من مؤتمر السوفييت! أنظر إلى بطاقاتهم! إننا ذاهبون إلى قصر الشتاء»!

كان واضحا أن البحّار مرتبك. فأخذ يحك رأسه بيده الغليظة، مقطبا حاجبيه، ثم زمجر قائلا: «معي أوامر من اللجنة بألاّ أسمح لأحد أن يذهب لقصر الشتاء. ولكني سأبعث أحد الرفاق ليخابر سمولني»..

فصاح شرايدر العجوز بانفعال شديد: «نصرّ على المرور! ما معنا سلاح! سنتقدم شئت أم أبيت!»

«معي أوامر-»، ردد الجندي بعبوس.

فتعالت صيحات من كل جهة: «أطلق الرصاص علينا إن شئت! سوف نمر! إلى الأمام! نحن مستعدون للموت إذا كنت تملك الشجاعة الكافية لإطلاق الرصاص على رفاق روس! إننا نفتح صدورنا لرصاصكم!»

أجاب البحّار بعناد: «لا. لن أسمح لكم بالمرور».

«ماذا تفعل إذا تقدمنا؟ تطلق الرصاص؟»

«لا. لن أطلق الرصاص على أناس عزل. لن نطلق الرصاص على مواطنين روس عزَّل...»

«سوف نتقدم. ماذا تستطيع أن تفعل؟»

«سنفعل شيئا ما»، أجاب البحّار وكان واضحا أنه ضائع، «سنمنعكم من المرور! سنفعل شيئا ما».

وتقدم بحَّار آخر وصاح بغيض شديد: «سوف نضربكم على قفاكم! وإذا اضطررنا، سوف نطلق الرصاص عليكم أيضا. اذهبوا إلى بيوتكم الآن، واتركونا لحالنا!»

عند ذاك، تعالت جلبة عظيمة من الغضب والاحتجاج، وكان بروكوبوفيتش قد اعتلى صندوقا، وأخذ يخطب ملوحا بمظلته:

«أيها الرفاق، أيها المواطنون! إنهم يستعملون القوة ضدنا! ونحن نرفض أن تلوّث دماؤنا الطاهرة أيدي هؤلاء الجهلة! عار علينا أن نموت هنا في الشارع على يد رعاع... فلنعد إلى مجلس الدوما لنناقش أفضل الوسائل لإنقاذ البلد والثورة».

فسار الموكب بصمت جليل صاعدا شارع نييفسكي. ولما كان الحراس منصرفين عنا. استفدنا من الفرصة لنتسلل من خلفهم وانطلقنا باتجاه قصر الشتاء.

الظلمة نخيمة في كل مكان. لا شيء يتحرك سوى دوريات الجنود والحرس الأحمر المحدقة العابسة. وشهدنا أمام «كاتدرائية قازان» مدفع ميدان، عيار ثلاث بوصات، مائلا إلى جنبه في عرض الشارع بعد أن أطلق آخر قذيفة له على السطوح. الجنود يقفون عند كل باب ويتحدثون بأصوات خافتة محدّقين «بجر الشرطة». وسمعت أحدهم يقول: «ربما أخطأنا...». الدوريات تستوقف جميع العابرين عند تقاطع الطرقات. وكان تكوينها طريفا: على رأس كل مجموعة من الجنود النظاميين يوجد أحد أفراد الحرس الأحمر... لقد توقف إطلاق النار...

وما أن وصلنا رصيف مورسكايا حتى سمعنا أحدا يصيح: «أرسل الينكرز خبرا يقولون فيه أنهم يريدوننا أن نذهب إليهم ونخرجهم من القصر!» فتعالت الأصوات تصدر الأوامر، بينما أخذت كتلة داكنة من البشر تتقدم في الظلمة، بصمت إلاّ من جلبة الأرجل وصليل السلاح. انضممنا إلى الصفوف الأمامية.

وتدفقنا تحت «القوس الأحمر» مثل نهر أسود، مالئين جميع الشوارع بدون أغنية ولا هتاف. وهمس الرجل الذي يمشي أمامي: «انتبهوا، يا رفاق! لا تثقوا بهم. سوف يطلقون الرصاص بالتأكيد!» فأخذنا نجري في العراء، خافضي الرؤوس، متكتلين حول بعضنا البعض، حتى وجدنا أنفسنا فجأة محشورين وراء قاعدة «نصب الإسكندر».

سألت: «كم واحد قتلوا منكم؟»

«لا أدري. حوالي العشرة...»

بعد دقائق قليلة من التلطّي هناك، بدأ هذا الجيش المكوّن من عدة مئات يستعيد اطمئنانه، فانطلق إلى الأمام فجأة بدون أوامر. ولكني استطعت هذه المرة أن أرى، في الضوء المنبعث من نوافذ قصر الشتاء، إن أول مئتين أو ثلاثمئة رجل كانوا من الحرس الأحمر مع بعض الجنود النظاميين المبعوثين بينهم هنا وهناك. وتسلقنا متراسا من الحطب، ثم قفزنا إلى الداخل مطلقين صرخة انتصار ونحن نتعثر بين كومة البنادق التي رماها «الينكرز»... المدخل الرئيسي مشرَّع الأبواب يتدفق منها النور. وما من صوت في البناء الجبار.

وحملنا هذه الشغوفة من الرجال قاذفة بنا إلى المدخل اليمين المؤدي إلى مستودع كبير، هو قبو الجناح الشرقي من القصر الذي تتفرع منه شبكة من الممرات والسلالم. وانقضّ الجنود وأفراد الحرس الأحمر على الصناديق الكبيرة بشراسة، وانهالوا عليها بأعقاب بنادقهم يهشمونها ويستخرجون منها السجاد والستائر والأنسجة والصحون الصينية والأوعية الزجاجية... واحد يتحول حاملا ساعة برونزية، وآخر قد وجد ريشة نعام فشكل بها قبعته. كان النهب قد بدأ لما صاح أحدهم: «يا رفاق، لا تلمسوا شيئا! لا تأخذوا شيئا! هذه ملكية الشعب!» وسرعان ما كان عشرون صوتا يصيح: «كفى! أعيدوا كل شيء إلى مكانه! لا تأخذوا شيئا! ملكية الشعب!» وامتدت عدة أيدٍ لتنزل النهابين من على الصناديق وانتزع الدمقس والسجاد من الذين أخذوها، وأخذ رجلان الساعة البرونزية. ثم أعيدت الأغراض كلها إلى الصناديق، بسرعة ودون ترتيب، ووقف عندها حراس متطوعون. حدث كل شيء بعفوية تامة. الصياح يتلاشى في الممرات والسلام: «الانضباط الثوري! ملكية الشعب»...

وعدنا إلى مدخل الجناح الغربي، جهة اليسار. وكان كل شيء عاد إلى حالته الطبيعة هناك أيضا: جعر أحد أفراد الحراس الأحمر، وهو يطل برأسه من البوابة الداخلية: «أخلوا القصر! تعالوا يا رفاق، فلنثبث لهم أننا لسنا لصوصا ولا نهابين. الجميع خارج القصر ما عدا المفوضين، إلى حين تنصيب الحراس».

وقف اثنان من أفراد الحرس الأحمر والجندي وضابط يحملون المسدسات بينما جلس أحد الجنود خلفهم إلى الطاولة وبيده ورقة وقلم: صيحات: «الجميع إلى الخارج! الجميع إلى الخارج!». صيحات تأتي من بعيد وقريب. الجيش يتدفق من الباب متدافعا مناقشا مجادلا. اللجنة التي عينت نفسها للقيام بهذه المهمة، تأخذ كل رجل على حدة، وتفتش جيوبه وتنظر تحت معطفه، وتصادر منه كل شيء تظن أنه ليس له، فيسجله الجندي الجالس إلى الطاولة على ورقته، ثم يودع في غرفة صغيرة. وهكذا صودرت أشياء منوعة غريبة جدا. تماثيل صغيرة، محابر، أغطية سرير مطرزة بالشعار الإمبراطوري، شموع، لوحة زيتية صغيرة، نشَّافات للمكاتب، سيوف مذهبة، القبضات، ألواح صابون الثياب على مختلف أنواعها، أغطية. كان أحد أفراد الحرس الأحمر يحمل ثلاث بنادق، واحدة له والأخريان صادرهما من «الينكرز»؛ وكان آخر يحمل أربع حقائب يدوية منتفخة بالوثائق والمخطوطات. المتهمون يستسلمون بعبوس أو يتضرعون كالأطفال. وأعضاء اللجنة يتكلمون بصوت واحد موضحين أن السرقة ليست جديرة بأبطال الشعب، وغالبا ما كان الذين يُقبض عليهم ينضمون إلى اللجنة ويساعدون في تفتيش الرفاق الآخرين (3).

ثم خرج «الينكرز» بزمر من ثلاثة أو أربعة. فانقضّ أعضاء اللجنة عليهم باندفاع غريب، يرفقون عملية التفتيش بعبارات من هذا النوع: آه، يا متآمرين! يا جماعة

كورنيلوف. أعداء الثورة. يا سفاحي الشعب!» ورغم أن «الينكرز» كانوا مذعورين، فلم يحدث أي عنف. وكانت جيوبهم هم أيضا مليئة بالمسروقات الصغيرة، يدوّنها الكاتب عنده بدقة لتودع في الغرفة الصغيرة.. ثم جرى تجريد «الينكرز» من أسلحتهم بينما زعقت بهم أصوات مدوية تسأل: «هل ستحملون السلاح مرة ثانية في وجه الشعب»؟

«لا» يجيب «الينكرز» واحدا واحدا. فيطلق سراحهم...

طلبنا أن يسمح لنا بالدخول، فترددت اللجنة، إلاّ أن أحد أفراد الحرس الأحمر الضخام الجثة أجاب مؤكدا أن الدخول ممنوع. سأل: «من أنتم، على كل حال؟ ما يدرينا أنكم لستم من جماعة كرنسكي؟» (كنا خمسة بيننا امرأتان).

«طريق، طريق، يا رفاق!» وظهر جندي وحارس أحمر في الباب، يدفعون الجمع جانبا، وتبعهم حراس آخرون رافعي الحراب. ثم ظهر ستة من المدنيين: إنهم أعضاء الحكومة المؤقتة. ظهر كيشكين أولا شاحب الوجه، ثم روتنبرغ محدقا بالأرض بعبوس، ثم جاء تريشنكو يلتفت حوله بحدة وحدق بنا ببرود... مروا بصمت، وتجمع الثوريون المنتصرون ليشاهدوهم، ولم تسمع إلاّ بعض التمتمات الغاضبة. ولكننا سمعنا فيما بعد أن الناس في الشارع أرادوا أن يشنقوهم وأطلقوا الرصاص عليهم، إلاّ أن البحارة ساقوهم بأمان إلى «حصن بطرس-بولس»...

في تلك الأثناء دخلنا القصر دون أن يعترض طريقنا أحد. الكثير من الناس ما زالوا يروحون ويجيئون، ويكتشفون شققا جديدة في هذا البناء الواسع، ويفتشون عن كتائب «ينكرز» غير موجودة. وكانت قطاعات أخرى قد دخلت هذا الجناح من القصر من وجهة نهر «نييفا». اللوحات والتماثيل والسجاد ما تزال على حالها في الشقق الحكومية الكبيرة. إلاّ أنه جرى تفتيش جميع المكاتب والخزائن، وكانت الأوراق مبعثرة على الأرض. وجردت الأسرّة من أغطيتها، في غرف النوم، وشرعت أبواب جميع خزانات الثياب. كانت الثياب أثمن غنيمة يحتاجها الشعب العامل. ورأينا جنديين يمزقان الجلد الأسباني الفاخر عن الكراسي، في إحدى الغرف التي أودع فيها الأثاث، فأفهمونا أنهم يستعملونه لصنع الأحذية...

يقف خدم القصر الكهول بعصبية، بأزيائهم الزرقاء والحمراء والذهبية، ويرددون، بحكم العادة: «ممنوع الدخول إلى هنا، يا سادة! ممنوع-». مكثنا مدة طويلة في الغرفة الذهبية والزرقاء ذات الستائر الحريرية الحمراء، حيث كان الوزراء مجتمعين طوال ذلك اليوم، إلى أن وشي بهم حرس «الشفايتساري» إلى الحرس الأحمر. الطاولة الخضراء المستطيلة ما تزال على حالها مثلما تركوها عندما اعتقلوا. يوجد محبرة وقلم وورق أمام كل مقعد فارغ. وعلى الأوراق مطالع خطط للعمل أو مسودات بلاغات وبيانات. وقد شطب معظمها لما تبين عدم جدواها، وغطّى باقي الورقة برسوم هندسية صادرة عن بال شارد، بينما جلس الوزراء فاقدي الأمل، يصغون إلى الوزير تلو الوزير يقترح خططا غير معقولة. وأخذت إحدى هذه الصفحات وقد كتب عليها كونافالوف: «إن الحكومة المؤقتة تهيب بجميع الطبقات أن تؤيدها...»

وجدير بالذكر أنه بالرغم من أن قصر الشتاء كان محاصرا، فإن الحكومة كانت على اتصال دائم، طوال ذلك الوقت، بالجبهة وبالريف الروسي. كان البلاشفة قد استولوا على وزارة الدفاع في الصباح الباكر، إلاّ أنهم لم يعلموا بوجود مكتب اللاسلكي العسكري في الطابق العلوي، ولا بوجود خط الهاتف الخاص الذي يصله بقصر الشتاء. طوال ذلك اليوم، كان أحد الضباط الشباب قابعا في ذلك الطابق العلوي، يذيع طائفة من البلاغات والنداءات على البلد كله، ولما سمع أن قصر الشتاء قد سقط بأيدي البلاشفة، اعتمر قبعته وخرج بهدوء من البناية...

ولما كنا جد منهمكين بما يجري حولنا، لم نلاحظ، طوال مدة ليست بقصيرة، التغيّر الذي طرأ على موقف الجنود وأفراد الحرس الأحمر. كان جمع صغير يلحق بنا بينما نحن نتجول من غرفة إلى غرفة. كان حوالي مئة رجل يحيطون بنا لمّا وصلنا قاعة العرض الكبيرة حيث قضينا ساعات بعد الظهر برفقة «الينكرز». ووقف جندي عملاق معترضا طريقنا ووجهه الأسمر محتقن بالريبة. ثم جعر: «من أنتم؟ ماذا تفعلون هنا؟». وتحلق الآخرون حولنا محدقين فينا، ثم بدأوا يتهامسون. وسمعت أحدهم يقول «إنهم محرّضون!»، ثم قال آخر «إنهم نهابون!». فأبرزت الأذونات التي أعطتنا إياها اللجنة العسكرية الثورية. فتناولها الجندي بحذر وقلبها رأسا على عقب ونظر إليها دون أن يفهم. وكان واضحا أنه لا يعرف القراءة. ثم أعادها إلينا وبصق على الأرض. «أوراق!»، قال باحتقار. وبدأ الحشد يضيِّق الطوق علينا مثل قطيع من الثيران الهائجة حول راعي بقر... ونظرت فوق رؤوسهم، فلمحت أحد الضباط، وقد بدأ يائسا فناديته فأخذ يشق طريقه وسطهم متوجها إلينا.

قال: «أنا المفوض. من أنتم: أنتم ما هذا؟» فتراجع الآخرون منتظرين النتيجة، بينما ناولته أوراقنا.

فسأل بسرعة بالفرنسية: «أنتم أجانب؟ الأمر خطير جدا...» ثم التفت إلى الجمع حاملا أوراقنا، وصاح: «رفاق! هؤلاء هم رفاق أجانب.. من أمريكا. جاءوا إلى هنا لكي ينقلوا إلى مواطنيهم الأخبار عن شجاعة جيش البروليتاريا وانضباطه الثوري!»!

فأجاب الجندي العملاق: «كيف تعرف ذلك؟ أنا أقول أنهم محرضون! يدّعون أنهم جاءوا هنا ليشاهدوا انضباط جيش البروليتاريا الثوري، ولكنهم كانوا يتجولون بحرية في القصر، ومن يدري إذا لم تكن جيوبهم مليئة بالمسروقات؟».

وجعر الآخرون وهم يتدافعون إلى الأمام: «صحيح!».

فتضرع إليهم الضابط والعرق ينضح من جبينه: «رفاق! رفاق! أنا مفوض في اللجنة العسكرية الثورية. هل تثقون بي؟ حسنا: إني أقول لكم أن التوقيعات الموجودة على هذه الأذونات هي لنفس الأشخاص الذين وقّعوا على إذني أنا!».

ثم قادنا خارج القصر خلال باب يفضي إلى رصيف «النييفا» تقف عنده اللجنة الموكلة بتفتيش الجيوب... وهو يردد متمتما: «نفذتم من خرم الإبرة».

سألنا: «ماذا جرى لكتيبة النساء»؟

«آه – النساء!»، وضحك. «لقد حشرن في إحدى الغرف الخلفية. وجدنا صعوبة بالغة في تقرير ماذا نفعل بهن -كان العديد منهن في حالة هستيرية. وفي النهاية، أخذناهن إلى محطة فينلندا ووضعناهن في القطار المتوجه إلى ليفاشوفا حيث يوجد أحد معسكراتهن»...

خرجنا والليلة متوترة قارسة البرد، تعج بالجيوش الداكنة المتحركة، وتهدر بأصوات الدوريات. وترمي إلينا صوت أبح من ضفة النهر الأخرى حيث ينتصب شبح حصن بطرس – بولس... وكان الممر مغطى بما تساقط من إفريز القصر عندما أصابته شظيتان من مدفعية البارجة «أورورا» وكان هذا الضرر الوحيد الذي أحدثه القصف...

الساعة الآن تتجاوز الثالثة صباحا. كانت جميع الأنوار ما تزال مضيئة على طول شارع نييفسكي، وقد اختفى المدفع، ولم يبقَ من آثار الحرب سوى الحرس الأحمر

والجنود الجالسين القرفصاء حول النيران. المدينة هادئة – ولعلها لم تعرف مثل هذا الهدوء طوال تاريخها. ففي تلك الليلة لم تحدث أية عملية تشليح ولا سرقة.

إلاّ أن بناية مجلس دوما المدينة كانت متألقة بالأنوار. فصعدنا إلى «قاعة الاسكندر» حيث علّقت صور العائلة الإمبراطورية في إطاراتها الكبيرة الحمراء المذهبة. لقد احتشد حوالي مئة رجل حول المنبر حيث يخطب سكوبيليف. فطالب بتوسيع لجنة إنقاذ الوطن والثورة. وبينما نحن هناك، جرى تشكيل لجنة الإنقاذ – تلك اللجنة التي أصبحت ألد عدو يواجه البلاشفة والتي ظهرت بعد أسبوع باسمها الحقيقي أو باسم «لجنة السلامة العامة» الذي يخفي طابعها الحزبي...

كان دان وغوتز وأفاكسانتييف هناك وبعض مندوبي السوفييت المتمردين وأعضاء اللجنة التنفيذية لسوفييت الفلاحين، وبروكوبوفيتش العجوز وحتى أعضاء مجلس الجمهورية – ومن بينهم فينافار وغيره من أعضاء حزب الكاديت. وصاح ليبر أن مؤتمر السوفييت ليس شرعيا، وأن «التسايكا» القديمة ما زالت تتمتع بكافة مسؤولياتها... وكتب نداء موجها إلى البلد كله.

استوقفنا سيارة عمومية. «إلى أين؟» سأل السائق، ولما عرف أننا ذاهبون إلى «سمولني» هز برأسه قائلا: «لا. إنهم شياطين...» ولم نتمكن من إيجاد سائق يقبل بأن يقلنا إلى هناك إلاّ بعد مسيرة طويلة مضنية، وأخذ ثلاثين روبلا وأوقف سيارته على مسافة ليست بقصيرة من البناية.

نوافذ «سمولني» تتألق بالأنوار، والسيارات تروح وتجيء، الحراس يلتصقون بعضهم ببعض حول النيران التي ما تزال مشتعلة ويسألون الجميع بشغف عن آخر الأخبار. الممرات مليئة بالرجال المهرولين المتسخين ذوي الأعين الفارغة. والبعض نائم على الأرض في غرف اللجان وبنادقهم إلى جانبهم. ورغم خروج المندوبين المنشقين، فقد كانت قاعة الاجتماعات تغص بالناس الصاخبين مثل بحر هائج، دخلنا وكامنييف يتلو لائحة بأسماء الوزراء المعتقلين. واستقبل اسم تريشنكو بعاصفة من التصفيق، وصيحات الارتياح والضحك؛ أما روتنبرغ فحظي بتصفيق أقل من زميله؛ ولما ورد اسم بالشينسكي، تعالت عاصفة من العياط والصيحات الغاضبة والهتافات.. وأعلن أنه قد جرى تعيين شودنوفسكي مفوضا مسؤولا عن قصر الشتاء.

ثم جرت مقاطعة درامية. اعتلى فلاح ضخم المنبر، ووجهه الملتحي يتشنج بالغضب، وأخذ يضرب بقبضة يده على طاولة مجلس الرئاسة.

«نحن الاشتراكيين الثوريين نصرّ على إطلاق سراح الوزراء الاشتراكيين المعتقلين في قصر الشتاء فورا! أيها الرفاق! هل تعلمون أن الرفاق الأربعة الذين جازفوا بحياتهم وحريتهم وهم يناضلون ضد طغيان القيصر قد قُذفوا إلى غياهب سجن بطرس-بولس، مقبرة الحرية؟» ثم أخذ يضرب بيده على الطاولة ويصرخ وسط الجلبة. واعتلى مندوب آخر المنصة إلى جانبه وأشار إلى أعضاء مجلس الرئاسة قائلا:

«هل سيظل ممثلو الجماهير الثورية مكتوفي الأيدي هنا بينما تقوم «الأوخرانا» التابعة للبلاشفة بتعذيب قادتهم»؟

تروتسكي يشير بيده طالبا السكوت. «لقد قبض على هؤلاء «الرفاق » المزعومين وهم يخططون لسحق السوفييت بالتعاون مع كرنسكي – هل من داع لنعاملهم بالحسنى؟ إنهم لم يرفقوا بنا بعد أيام 16 و18 تموز (يوليو)!» وصاح وصوته يصدح بتلك الرنة المظفرة: «الآن وقد ذهب «المدافعون» والجبناء، تقع مهمة

الدفاع عن الثورة وإنقاذها على عاتقنا نحن، لهذا فمن الضروري أن نعمل ونعمل ونعمل! لقد اخترنا الموت على الاستسلام»؟

وعقبه مفوض من «تسارسكويي سيلا» وكان يلهث وثيابه يعلوها الوحل من جراء رحلته: «إن حامية تسارسكويي سيلا تحرس أبواب بتروغراد وهي على أهبة الاستعداد للدفاع عن السوفييت واللجنة العسكرية الثورية»! هتافات صاخبة. «إن فرقة الدراجات التي أرسلت من الجبهة قد وصلت إلى تسارسكويي وقد انظم جنودها إلينا؛ إنهم يعترفون بسلطة السوفييت وبضرورة توزيع الأرض فورا على الفلاحين وسيطرة العمال على الصناعة. إن كتيبة الدراجات الخامسة، المعسكرة في تسارسكويي، قد انضمت إلينا»..

ثم تكلم مندوب كتيبة الدراجات الثالث، فخبر، وسط الحماس البالغ، كيف صدرت الأوامر إليه من ثلاثة أيام للتوجه من الجبهة الجنوبية الغربية إلى بتروغراد «للدفاع عنها». إلا أن الجنود شكوا في معنى الأمر الصادر لهم، وقد استقبلهم عند محطة بيريدولسك ممثلون عن الكتيبة الخامسة من تسارسكويي فعقد اجتماع مشترك تبين فيه «أنه لا يوجد جندي واحد من جنود الدراجات على استعداد لإهراق دم إخوانه، أو للدفاع عن حكومة البرجوازيين وملاك الأرض»!

اقتراح كابيلينسكي، باسم المناشفة الأمميين، أن تنتخب لجنة خاصة للوصول إلى حل سلمي للحرب الأهلية. فجعر الحضور: «لا يوجد حل سلمي! النصر هو الحل الوحيد»! وسقط الاقتراح بأغلبية ساحقة ضده، فانسحب المناشفة الأمميون من المؤتمر وسط زوبعة من الشتائم. لم يعد هناك أي خوف أو ذعر... فصاح كامنييف بهم وهم يخرجون: «لقد طلب المناشفة الأمميون إعطاء صفة الاستعجال لمسألة الحل السلمي، ولكنهم كانوا يصوتون دائما على تعليق جدول الأعمال لصالح بيانات الأجنحة التي قررت مغادرة المؤتمر. من الواضح أن انسحاب هؤلاء المرتدين قد تقرر بشكل مسبق»!

فقرر الاجتماع تجاهل انسحاب الأجنحة، وانتقل إلى مناقشة النداء الموجه إلى عمال وفلاحي وجنود روسيا بأسرها:

«إلى العمال والجنود والفلاحين

لقد انعقد المؤتمر العام الثاني لسوفييت مندوبي العمال والجنود. وهو يمثل الغالبية الساحقة من منظمات السوفييت. وقد اشترك فيه أيضا عدد من مندوبي الفلاحين. إن المؤتمر قد استلم الحكم استجابة منه لإرادة الأغلبية الساحقة من العمال والجنود والفلاحين، ولثورة عمال وجنود بتروغراد المظفرة.

إن الحكومة المؤقتة قد سقطت. وقد تم اعتقال معظم أعضائها.

إن السلطة السوفييتية سوف تقترح على جميع الأمم تحقيق سلم ديموقراطي فوري، وإعلان الهدنة على جميع الجبهات فورا. وسوف تؤمن انتقال أراضي الملاك والعرش والوقف بحرية إلى أيدي لجان الأرض، وتدافع عن حقوق الجنود، وتحول الجيش إلى جيش ديموقراطي، وتحقق سيطرة العمال على الإنتاج، وتضمن عقد الجمعية التأسيسية في الموعد المقرر، وتتخذ الإجراءات اللازمة لتأمين الخبز للمدن والحاجيات الضرورية للقرى، وتؤمن لجميع القوميات الموجودة في روسيا حقها الفعلي في تقرير المصير.

إن المؤتمر يقرر: نقل كل السلطات المحلية إلى سوفييت مندوبي العمال والجنود والفلاحين التي تقع عليها مسؤولية تأمين الانضباط الثوري.

إن المؤتمر يتوجه إلى الجنود في الخنادق طالبا منهم الصمود واليقظة. وهو واثق من أن الجيش الثوري يعرف كيف يحمي الثورة من هجمات الاستعمار إلى حين تحقيق الحكومة الجديدة السلم الديموقراطي الذي ستعرضه حالا على جميع الأمم. وأن الحكومة المؤقتة سوف تتخذ جميع الخطوات اللازمة لتأمين كل ما يحتاجه الجيش الثوري بواسطة إتباع سياسة محددة في المصادرة وفرض الضرائب على الطبقات المالكة، كما أنها ستعني بتحسين وضع عائلات الجنود.

إن الكورنيلوفيين أمثال كرنسكي وخالدين ومن سار في ركبهما، يحضرون للزحف على بتروغراد. أن أفواجا عديدة ضللها كرنسكي عادت وأنضمت إلى الشعب الثائر.

أيها الجنود! قاوموا الكورنيلوفيين وجماعة كرنسكي بضراوة! تأهبوا!

يا عمال سكك الحديد! أوقفوا جميع القطارات التي تنقل الجنود الذين أرسلهم كرنسكي ضد بتروغراد!

أيها الجنود أيها العمال يا موضفي المكاتب! إن مصير الثورة والسلم الديمقراطي بين أيديكم!

عاشت الثورة!»

المؤتمر العام لسوفييت مندوبي العمال والفلاحين

المندوبون عن سوفييت الفلاحين

كانت الساعة في تمام الخامسة وسبع عشرة دقيقة صباحا عندما اعتلى كريلنكو المنبر وهو يتعثر من التعب وبيده برقية.

«أيها الرفاق! برقية من الجبهة الشمالية. الجيش الثاني عشر يبعث بتحياته إلى مؤتمر السوفييت، معلنا تشكيل لجنة عسكرية ثورية استلمت قيادة الجبهة الشمالية!» فوضى عامة رجال يبكون ويتعانقون. «الجنرال شيرميزوف قد اعترف باللجنة – أمّا فويتينسكي، مفوض الحكومة المؤقتة فقد قدم استقالته!»

وهكذا، فإن لينين وعمال بتروغراد قرروا القيام بالثورة، وتولى سوفييت بتروغراد قلب الحكومة المؤقتة، ووضع الانقلاب بين أيدي مؤتمر السوفييت. والآن يجب كسب روسيا الكبيرة كلها – ثم العالم بأسره! هل ستلبي روسيا النداء وتثور؟ والعالم – ماذا بشأن العالم؟ هل ستلبي الشعوب النداء وتثور في موجة حمراء عارمة تشمل العالم؟

رغم أن الساعة قد بلغت السادسة صباحا، فإن الظلام كان لا يزال مخيما، وقارس البرد. لا شيء غير شحوب غريب ينسحب فوق الشوارع الصامتة ويغطي وهج نيران الحراسة: إنه ظل فجر رمادي رهيب يطلع على روسيا...

==========

هوامش الفصل الرابع

1- أحداث يوم السابع من تشرين الثاني (نوفمبر)

مكث كرنسكي في مقر القيادة العامة في بتروغراد من الرابعة صباحا حتى طلوع الفجر، وأخذ يصدر الأوامر إلى القوزاق و«الينكرز» في كليات الضباط في بتروغراد وضواحيها، إلاّ أنهم أجابوا جميعا أنهم عاجزون عن التحرك.

العقيد بولكوفنيكوف، حاكم المدينة، يهرول بين الأركان وقصر الشتاء، وكان واضحا أنه لا يحمل أية خطة. أصدر كرنسكي أمرا بفتح الجسور؛ ومضت ثلاث ساعات دون أن يحدث أي شيء، ثم تطوع ضابط وخمسة رجال وفتحوا جسر «نيقولاي» بعد أن فرّت دورية الحرس الأحمر التي كانت تحرسه. إلاّ أن بعض الجنود عادوا فأغلقوه بعد ذهابهم مباشرة.

أمر كرنسكي باحتلال مطبعة «طريق العمال». ووعد الضابط المكلف بالمهمة أن توضع حظيرة من الجنود تحت تصرفه؛ وبعد ساعتين، وعد ببعض «الينكرز» ثم نسي الأمر.

جرت محاولة لاستعادة مكتب البريد ووكالة البرق؛ ولكن بعد أن أطلق جنود الحكومة بعض الطلقات النارية، أعلنوا أنهم لن يقاوموا السوفييت.

قال كرنسكي لوفد من «الينكرز»: «إني لا أعرف شيئا بصفتي رئيس الحكومة المؤقتة والقائد الأعلى، ولا أستطيع أن أسدي إليكم أية نصيحة؛ ولكني، بصفتي ثوريا قديما، أناشدكم، أيها الثوريون الشباب، أن تبقوا في مراكزكم وتدافعوا عن مكاسب الثورة».

الأمر الصادر عن كيشكين، في 7 تشرين الثاني (نوفمبر)

«صدر مرسوم عن الحكومة المؤقتة... يمنحني سلطات استثنائية لإعادة الأمن في بتروغراد، ويجعلني قائدا لجميع الهيئات المدنية والعسكرية...»

«بناء على الصلاحيات المعطاة إلي من الحكومة المؤقتة، أعلن تجريد العقيد جورج بولكوفنيكوف، حاكم منطقة بتروغراد العسكرية، من جميع صلاحياته...»

***

نداء إلى المواطنين (يحمل توقيع نائب الرئيس كونوفالوف، في 7 **تشرين الثاني (نوفمبر)**):

«أيها المواطنون! أنقذوا الوطن الأم والجمهورية والحرية، لقد ثار المجانين ضد السلطة الحكومية الوحيدة التي انتخبها الشعب: الحكومة المؤقتة.

إن أعضاء الحكومة المؤقتة ما زالوا في مراكزهم يقومون بمهماتهم عاملين لخير الوطن ولاستتباب الأمن ولانعقاد الجمعية التأسيسية ولمستقبل روسيا السيدة وجميع الشعوب الروسية...

أيها المواطنون! يجب أن تؤيدوا الحكومة المؤقتة. يجب أن تدعموا سلطتها. يجب أن تقاوموا هؤلاء المجانين المتحالفين مع أعداء الحرية والنظام ومع أذناب العهد القيصري لنسف الجمعية التأسيسية وتخريب مكاسب الثورة ومستقبل وطننا العزيز...

أيها المواطنون! التفوا حول الحكومة المؤقتة للدفاع عن سلطاتها المؤقتة باسم النظام وسعادة جميع الشعوب...»

***

بلاغ صادر عن الحكومة المؤقتة

«أعلن سوفييت بتروغراد... أن الحكومة المؤقتة قد أسقطت، وطالب بأن يستلم السلطة الحكومية مهددا بقصف قصر الشتاء بمدافع حصن بطرس- بولس والبارجة «أورورا» الراسية في نهر النيفا.

إن الحكومة لن تتخلى عن سلطتها إلاّ للجمعية التأسيسية. ولهذا فقد قررت أن ترفض الرضوخ وأن تطلب المساعدة من المواطنين والجيش. لقد أرسلت برقية إلى «ستافكا» ويقول الرد أنه قد تم إرسال فرقة عسكرية قوية...

فليرفض الجيش والشعب محاولات البلاشفة الطائشة لإحداث تمرد في المؤخرة...»

***

في حوالي الساعة التاسعة صباحا، غادر كرنسكي العاصمة إلى الجبهة.

عند المساء وصل جنديان على الدراجات وعرّفا على نفسيهما لدى قيادة الأركان على أنهما يمثلان حامية حصن بطرس-بولس. ودخلا قاعة اجتماع الأركان حيث كان كيشكين وروتنبرغ وبالتشينسكي والجنرال باغراتوني، والعقيد باراديلوف والكونت تولتسوي، وطلبا استسلام قيادة الأركان الفوري مهددين بقصف مقر الأركان في حال الرفض.. وانسحبت قيادة الأركان إلى قصر الشتاء، بعد اجتماعين خيم عليهما الذعر. هكذا استولى الحرس الأحمر على مقر القيادة.

عند المغيب دارت عدة سيارات مصفحة تابعة للبلاشفة حول باحة القصر، وحاول الجنود السوفييت التفاوض مع «الينكرز» ولكن بدون جدوى...

بدأ إطلاق النار على القصر حوالي السابعة مساء...

وعند الساعة العاشرة مساء، بدأ قصف المدفعية من جهات ثلاث، وكانت معظم القنابل فارغة، ولم يُصب القصر إلاّ بشظايا في واجهته...

==========

2- هرب كرنسكي

غادر كرنسكي بتروغراد بالسيارة في صباح يوم 7 تشرين الثاني (نوفمبر)، إلى «غاتيشينا» حيث طلب قطارا خاصا. وكان قد وصل اوستروف، في مقاطعة بسكوف، عند المساء. وفي الصباح عُقدت جلسة استثنائية للسوفييت المحلي لمندوبي العمال والجنود واشترك فيه مندوبو القوقاز –كان ثمة 6000 قوازاقي في اوستروف.

خطب كرنسكي في الاجتماع طالبا مساعدته ضد البلاشفة، وقد وجه كلامه كليا تقريبا للقوازاق، فاحتج العمال.

وتعالت أصوات متسائلة: «لماذا جئت إلى هنا؟» فأجاب كرنسكي: «لاطلب مساعدة القوزاق لسحق الثورة البلشفية!» إذ ذاك تعالت صيحات احتجاج عنيفة أخذت تتزايد وهو يكمل حديثه: «لقد سحقت مؤامرة كورنيلوف وسوف أسحق البلاشفة!» وتعالت الجلبة بحيث اضطر إلى مغادرة المنبر...

قرر مندوبو الجنود وقوزاق منطقة اوسوري أن يقتلوا كرنسكي، إلا أن قوزاق منطقة الدون منعوهم من ذلك وهرّبوه بالقطار... وحاولت اللجنة العسكرية الثورية التي انشئت خلال اليوم ذاته أن تبلغ حامية «بسكوف» النبأ، إلا أن خطوط الهاتف والبرق كانت مقطوعة...

لم يصل كرنسكي إلى «بسكوف». كان الجنود الثوريون قد قطعوا خط سكة الحديد ليحولوا دون إرسال قوات ضد العاصمة. وفي مساء 8 تشرين الثاني (نوفمبر)، وصل إلى «لوغا» بالسيارة حيث استقبلته فيالق الموت المعسكرة هناك استقبالا حسنا.

وفي اليوم التالي، استقل القطار إلى الجبهة الجنوبية الغربية وزار لجنة الجيش في مقرها. إلا ان الجيش الخامس كان في ذروة الحماس لاخبار نجاح البلاشفة، فلم تستطع لجنة الجيش أن تعد كرنسكي بأية مساعدة.

وذهب من هناك إلى الستافكا في موغلييف، حيث أصدر أمرا إلى عشرات الافواج في مختلف مناطق الجبهة بالزحف على بتروغراد. وكان ثمة شبه إجماع بين الجنود على الرفض. أما الافواج التي تحركت فقد أوقفت على الطريق. وفي النهاية، تبعه حوالي خمسة آلاف قوزاقي...

==========

3- نهب قصر الشتاء

إني لا أدعي أن قصر الشتاء لم يتعرض للنهب. لقد جرت سرقات عديدة قبل سقوط القصر وبعده. إلاّ أن ما قالته صحيفة «الشعب» (نارود)، الناطقة باسم الاشتراكيين الثوريين، وما قاله أعضاء مجلس دوما المدينة بأنه قد سرقت أشياء ثمينة قيمتها 500 مليون روبل هو مبالغة ضخمة.

كانت أهم كنوز القصر الفنية، من لوحات وتماثيل وسجاد وأواني صينية نادرة وأسلحة، فقد نقلت إلى موسكو خلال شهر أيلول (سبتمبر)، وكانت ما تزال في حالة جيدة في قبو القصر الإمبراطوري بعد عشرة أيام من استيلاء القوات البلشفية على الكرملين. وهذا ما أستطيع أن أشهد عليه شخصيا...

إلاّ أن بعض الأفراد من الجمهور، الذي سمح له بالتجول بحرية في قصر الشتاء خلال عدة أيام بعد الاستيلاء عليه، قد سرقوا الأواني الفضية والساعات والأغطية والمرايا وبعض الأواني البورسلين الثمينة والأحجار الكريمة لا تزيد قيمتها عن 150 ألف دولار.

وفورا أنشأت الحكومة السوفييتية لجنة خاصة من الفنانين وعلماء الآثار لاستعادة الأغراض المسروقة. وفي 14 تشرين الثاني (نوفمبر)، صدر البلاغان التاليان:

«إلى مواطني بتروغراد!

إننا نلح على المواطنين طالبين منهم بذل كل مجهود ممكن لاستعادة ما يمكن استعادته من الأشياء التي سرقت من قصر الشتاء ليلة السابع والثامن من تشرين الثاني (نوفمبر)، وإعادتها إلى حاكم قصر الشتاء.

إن الذين يستلمون الأشياء المسروقة، ومحلات الآثار، وجميع من يتبين أنه يخفي مثل هذه الأشياء سوف يقع تحت طائلة القانون ويعاقب بقساوة.

المفوضان المسؤولان عن حماية المتاحف والمجموعات
الفنية: ج. ياتمانوف، ب. ماندلبوم»

***

«إلى لجان الأفواج والبحرية

في ليلة السابع والثامن من تشرين الثاني (نوفمبر)، سرقت أشياء ثمينة من قصر الشتاء، الذي أصبح ملكا للشعب الروسي.

إننا نناشدكم بذل كل المجهودات اللازمة فورا لإعادة الأشياء المسروقة إلى القصر.

المفوضان المسؤولان عن حماية المتاحف والمجموعات
الفنية: ج. ياتمانوف، ب. ماندلبوم»

واستعيد نصف المسروقات. وجد بعض منها في حقائب الأجانب وهم يغادرون روسيا.

وعُقدت ندوة من الفنانين وعلماء الآثار، بدعوة من «سمولني» انبثقت عنها لجنة كُلّفت بجرد كنوز قصر الشتاء، وبالإشراف على القصر كله وعلى جميع المجموعات الفنية والمتاحف الحكومية في العاصمة. في 16 تشرين الثاني (نوفمبر)، منع الجمهور من دخول القصر بينما كان يتم جرد محتوياته.

وفي آخر أسبوع من تشرين الثاني (نوفمبر)، صدر مرسوم عن مجلس مفوضي الشعب محولا اسم قصر الشتاء إلى «متحف الشعب» ووضع تحت إشراف لجنة من الفنانين وعلماء الآثار، وأعلن منع قيام أي نشاط حكومي في داخله...

الفصـــــل الخـــامـــــــــس

إلـــــى الأمـــــــــام

الخميس في 8 تشرين الثاني (نوفمبر). أطلّ الصباح على المدينة وهي في أشد حالات الهياج والفوضى. كانت عاصفة عنيفة تجتاح الأمة بأكملها. كل شيء هادئ ظاهريا: مئات الآلاف من الناس ناموا باكرا، واستيقظوا باكرا وذهبوا إلى أعمالهم. السيارات العمومية تعمل في بتروغراد، والحوانيت والمطاعم والمسارح مفتوحة، وقد ظهرت إعلانات عن معرض للرسم... «روتين» الحياة اليومية يسير كالمعتاد، رتيبا حتى في أيام الحرب. لا شيء يدهش أكثر من حيوية التركيب الاجتماعي – كيف يستمر، يغذي نفسه، يكسي نفسه، يسلي نفسه في وجه أفظع النكبات.

الجو مليء بالشائعات التي تقول أن كرنسكي قد استعمل الجبهة إلى جانبه، وأنه يزحف بها على بتروغراد على رأس جيش جرّار. ونشرت له صحيفة «إرادة الشعب» نداء أصدره في «بسكوف»:

«إن الاضطرابات التي نتجت عن مؤامرة البلاشفة الرعناء قد أوصلت البلد إلى شفير الهاوية. وهي تتطلب من كل واحد منا كل ما عنده من إرادة وشجاعة وإخلاص لكي نتغلب على المحنة التي يمر بها وطننا...

المطلوب من كل واحد منا أن يبقى في مركزه مؤديا واجبه تجاه روسيا الجريحة إلى حين إعلان تشكيل حكومة جديدة، إذا تم تشكيل مثل هذه الحكومة. ويجب إلاّ يغيب عن بالنا أن أي تدخل في شؤون تنظيمات الجيش الحالية قد يحدث إضرارا بالغة إذ تفتح الجبهة لجيوش العدو. لذا، فمن الضروري جدا أن نحافظ بأي ثمن، على معنويات الجنود، بالتزام النظام وتجنيب الجيش هزات جديدة وتوثيق عرى التفاهم بين الضباط ومرؤوسيهم. باسم سلامة البلد، آمر جميع القادة والمفوضين بالبقاء في مراكزهم. كما أني أحتفظ بمركزي كقائد أعلى، حتى تعبِّر الحكومة الجمهورية المؤقتة عن إرادتها»..

وألصق البلاغ التالي على الجدران ردا على بلاغ كرنسكي:

من المؤتمر العام للسوفييت

«إن اللجنة العسكرية الثورية قد ألقت القبض على الوزراء السابقين: كونوفالوف، كيشكين، تريشنكو، ماليانتوفيتش، نيكيتين وغيرهم. نأمر جميع تنظيمات الجيش بأن تتخذ الإجراءات اللازمة لإلقاء القبض على كرنسكي وسوقه إلى بتروغراد.

يعاقب كل من يساعد كرنسكي بتهمة ارتكاب جريمة خطرة ضد الدولة».

وأطلق العنان للجنة العسكرية الثورية، فأصدرت الأوامر والنداءات والمراسيم بأعداد كبيرة (1). فصدر أمر بسوق كورنيلوف إلى بتروغراد. وإطلاق سراح «لجان الأرض» الذين سجنتهم الحكومة المؤقتة. وألغيت عقوبة الإعدام في الجيش. وصدرت أوامر إلى موضفي الدولة بالاستمرار في العمل، وهددوا بعقوبات قاسية إذا رفضوا. ومنعت أعمال الفوضى والمضاربة تحت طائلة عقوبة الإعدام. وعين مفوضون مؤقتون في الوزارات المختلفة: أوريتسكي وتروتسكي للشؤون الخارجية؛ ريكوف للداخلية والعدل؛ شليابنيكوف للعمل، منجينسكي للمالية، مدام كولونتاي للإنعاش الاجتماعي، ريازانوف للتجارة والمواصلات، البحَّار كوربير للبحرية، سبيرو للبريد والبرق، مورافيوف للمسارح، غربيتشيف للمؤسسة الحكومية للنشر، الملازم نيستروف لقيادة مدينة بتروغراد، بوزيرن للجبهة الشمالية..

ووجِّهت نداءات إلى الجيش تدعوه إلى تشكيل لجان عسكرية ثورية، وإلى عمال سكك الحديد ليحافظوا على النظام، وخاصة لكي لا يعيقوا نقل الغذاء إلى المدن والجبهة... ووُعدوا، مقابل ذلك، بتمثيلهم في وزارة المواصلات.

جاء في أحد البلاغات:

«أيها الإخوة القوزاق. إنهم يسوقونكم ضد بتروغراد. يريدون دفعكم إلى معركة ضد العمال والجنود الثوريين في العاصمة. لا تصدقوا أي كلمة تصدر من أعدائنا المشتركين، ملاك الأرض والرأسماليين.

إن جميع المنظمات الواعية للعمال والجنود والفلاحين الروس ممثلة في مؤتمرنا. والمؤتمر يريد أن يستقبل القوزاق الكادحين في صفوفه. إن جنرالات منظمة «اليد السوداء»، أذناب ملاك الأرض ونقولا الشرير هم أعداؤنا.

يقولون لكم أن السوفييت تريد مصادرة أراضي القوزاق. هذا كذب! إن الثورة لا تريد أن تصادر إلاّ أراضي ملاك الأرض القوزاق الكبار، لتوزيعها على الشعب.

نظّموا سوفييت لمندوبي القوزاق! انضموا إلى سوفييت مندوبي العمال والجنود!

برهنوا لمنظمة «اليد السوداء» أنكم لستم خونة للشعب، وأنكم لا تريدون روسيا الثورية كلها أن تلعنكم!..

أيها الإخوة القوزاق، لا تنفذوا أي أمر يصدره أعداء الشعب. أرسلوا مندوبيكم إلى بتروغراد لنناقش الأمر معا... يشرِّف القوزاق في حامية بتروغراد أن يكونوا قد خيبوا أمل أعداء الشعب...

أيها الإخوة القوزاق! إن مؤتمر السوفييت لعموم روسيا يمد لكم يدا أخوية. عاشت أخوة القوزاق مع الجنود والعمال والفلاحين في كل أنحاء روسيا».

وفي الجبهة المقابلة، عاصفة من النداءات والقصاصات الموزعة في كل مكان. الصحف تزعق وتشتم وتنبئ بالشر. لقد استعرت الآن معركة المطابع بعد أن سيطر السوفييت على جميع الأسلحة الأخرى.

وكان أول هذه النداءات نداء «لجنة إنقاذ الوطن والثورة» الذي أذيع في كل أنحاء روسيا وأوروبا(2).

إلى **مواطني الجمهورية الروسية!**

في 7 تشرين الثاني (نوفمبر)، وخلافا لإرادة الجماهير الثورية، ارتكب البلاشفة جريمة اعتقال قسم من أعضاء الحكومة المؤقتة، وفرقوا مجلس الجمهورية، وأعلنوا قيام حكم غير شرعي. إن ارتكاب مثل هذا العنف ضد حكومة روسيا الثورية، إبان تعاظم الخطر الخارجي، لهو جريمة لا تغتفر بحق الوطن.

إن انتفاضة البلاشفة قد سددت ضربة قاضية لقضية الدفاع الوطني، وأجلت لحظة تحقيق السلم الغالي على قلوبنا جميعا إلى أمد غير معلوم.

إن الحرب الأهلية، التي أشعلها البلاشفة، تهدد برمي الوطن في أهوال الفوضى والثورة المضادة، وتؤدي إلى فشل الجمعية التأسيسية المفروض أنها ستدعم النظام الجمهوري وتمنح الشعب، إلى الأبد، حقه في الأرض.

إن لجنة إنقاذ الثورة، التي هي استمرار للسلطة الحكومية الشرعية الوحيدة، والتي تشكلت ليلة 7 تشرين الثاني (نوفمبر)، سوف تبادر إلى تشكيل حكومة مؤقتة تدعو الجمعية التأسيسية للانعقاد وتنقذ البلد من الفوضى والثورة المضادة معتمدة على القوى الديموقراطية. إن لجنة الإنقاذ تهيب بكم، أيها المواطنون:

أن ترفضوا الاعتراف بسلطة العنف.

لا تطيعوا أوامرها.

هبوا للدفاع عن الوطن!

ادعموا لجنة الإنقاذ!

التواقيع: مجلس الجمهورية الروسية، مجلس بتروغراد البلدي «التسايكا» (المؤتمر الأول)، اللجنة التنفيذية لسوفييت الفلاحين؛ ومن المؤتمر نفسه: مجموعة الجبهة، أجنحة الاشتراكيين الثوريين والمناشفة والاشتراكيين الشعبيين، الاشتراكيين الديموقراطيين المتحدين، ومجموعة «يدنيستوفا».

ثم صدرت بلاغات الحزب الاشتراكي الثوري، والبلاشفة المدافعين، وسوفييت الفلاحين مرة ثانية، واللجنة المركزية للجيش، و«التسنتروفلوت-اللجنة المركزية للأسطول»، كلها تصيح:

«... إن المجاعة سوف تقضي على بتروغراد! والجيوش الألمانية سوف تدوس على حريتنا. مجازر «المئات السود» سوف تشمل روسيا بأسرها، إذا لم نتحد، نحن العمال والجنود والمواطنين الواعين...

لا تثقوا بوعود البلاشفة! الوعد بسلم فوري كذب! الوعد بالخبز دجل! الوعد بالأرض خرافة!...»

كانت كلها على هذا النحو.

«أيها الرفاق! لقد خدعتم بدناءة وإجرام! انفرد البلاشفة باستلام الحكم... وأخفوا خطتهم عن الأحزاب الاشتراكية الأخرى الممثلة في السوفييت...

لقد وعدوكم بالأرض والحرية، ولكن الثورة المضادة سوف تستغل الفوضى التي أحدثها البلاشفة لتحرمكم من الأرض ومن الحرية...».

ولم تكن الصحف أقل عنفا من البلاغات. فقد كتبت صحيفة «قضية الشعب»:

«يدعونا الواجب إلى فضح خونة الطبقة العاملة.

يدعونا الواجب إلى تعبئة جميع قوانا لحماية قضية الثورة».

كذلك هددت «الازفيستيا» (الأنباء) بالعواقب الوخيمة وهي تتكلم للمرة الأخيرة باسم «التسايكا» القديمة:

«أما بالنسبة لمؤتمر السوفييت، فإننا نؤكد أن مؤتمر السوفييت لم ينعقد! إننا نؤكد أنه لم يكن سوى اجتماع خاص للجناح البلشفي! لهذا، فلا يحق لهم أن يلغوا صلاحيات «التسايكا» القديمة...».

أما صحيفة «الحياة الجديدة» فقد حملت بعنف على انسحاب الاشتراكيون الثوريين والمناشفة من المؤتمر، مطالبة بحكومة جديدة تضم جميع الأحزاب الاشتراكية، وقالت أن انتفاضة البلاشفة إنما تؤكد أمرا واحدا وهو أن جميع الأوهام حول إمكان التحالف مع البرجوازية قد أضحت باطلة من الآن فصاعدا...

وحلت «البرافدا» (الحقيقة)، صحيفة لينين التي ألغيت في تموز (يوليو)، محل صحيفة «طريق العمال». فصدحت بنشوة:

«أيها العمال والجنود والفلاحون! في آذار (مارس)، قضيتم على طغيان طغمة النبلاء. وبالأمس قضيتم على طغيان العصابة البرجوازية...

إن أول مهمة الآن هي حماية بتروغراد. والثانية هي عزل العناصر المعادية للثورة في بتروغراد عزلا تاما. والثالثة هي تنظيم السلطة الثورية وضمان تحقيق البرنامج الشعبي..»

أما صحيفة الكاديت، والبرجوازية بشكل عام، فقد تبنت موقفا بعيدا، ساخرا من القضية كلها. فكأنها تقول للأحزاب الأخرى باحتقار: «لقد حذرناكم من أن هذا سيحصل». وبدأ أعضاء الكاديت البارزون يحومون حول مجلس الدوما البلدي ولجنة الإنقاذ. وفيما عدا ذلك، فالبرجوازية لم تبدِ أي حراك منتظرة أن تحين ساعتها التي لا يمكن أن تكون بعيدة. ولم يخطر ببال أحد أن البلاشفة يستطيعون الاحتفاظ بالحكم لأكثر من ثلاثة أيام، ربما باستثناء لينين وتروتسكي وعمال بتروغراد والجنود العاديين.

بعد الظهر، قصدت «قاعة نيقولاي» ذات المدرج المرتفع حيث ينعقد مجلس الدوما بلا انقطاع، صاخبا، جامعا حوله جميع قوى المعارضة. وكان المحافظ العجوز شرايدر، المهيب بشعره الأبيض ولحيته، يصف رحلته إلى «سمولني» في الليلة الماضية، ليقدم احتجاج الإدارة الذاتية البلدية. فقال لتروتسكي: «إن مجلس الدوما، بوصفه الحكومة الشرعية الوحيدة في المدينة التي جرى انتخابها بالاقتراع العام المباشر والسري، لن تعترف بالحكم الجديد». فأجابه تروتسكي: «يوجد علاج دستوري لذلك، يمكن حل مجلس الدوما وإعادة انتخابه» تعالى صخب عظيم عند سماع هذا التقرير.

واستمر العجوز مخاطبا مجلس الدوما: «إذا كنا نعترف بحكومة جاءت بواسطة الحراب، فهذه الحكومة موجودة؛ ولكني لا أعترف بشرعية أية حكومة إلا إذا كانت أغلبية الشعب تعترف بها، ولا أعترف بحكومة قامت على اغتصاب الأقلية

للحكم!» تصفيق حاد من جميع المقاعد ما عدا مقاعد البلاشفة. ثم أعلن المحافظ، وسط الجلبة المتجددة، إن البلاشفة قد تعدوا على السيادة البلدية بتعيينهم المفوض في عدة دوائر.

فصاح المتكلم باسم البلاشفة، محاولا إسماع صوته، بأن قرار مؤتمر السوفييت يعني أن كل روسيا تؤيد عمل البلاشفة. ثم قال: «أنتم! لستم الممثلين الحقيقيين لشعب بتروغراد!» زعقات: «إهانة! إهانة!» فذكّره المحافظ العجوز، بجلال، أن الدوما قد تم انتخابها باقتراع شعبي حر. فأجاب: «نعم. ولكن هذا كان من زمن بعيد جدا – شأنها شأن التسايكا ولجنة الجيش».

فصاحوا به: «لن يعقد مؤتمر جديد للسوفييت!»

«إن الجناح البلشفي لن يبقى في وكر الثورة المضادة هذا... (ضجيج) – ونحن نطالب بإعادة انتخاب الدوما...» عند ذاك، غادر البلاشفة القاعة، تلاحقهم صيحات «عملاء الألمان! يسقط الخونة!»

ثم اقترح شينغاريوف، عضو حزب الكاديت، أن يفصل ويحاكم جميع موظفي البلدية الذين قبلوا تعيينهم كمفوضين للجنة العسكرية الثورية. ووقف شرايدر ليقدم مشروع قرار يعلن احتجاج مجلس الدوما على تهديد البلاشفة بحلّه، ورفض مغادرة موقعه، بوصفه الممثل الشرعي للشعب.

لجنة الإنقاذ تعقد جلستها في «قاعة الاسكندر»؛ وسكوبيليف يتكلم للمرة الثانية، قال: «لم يسبق أن هُدد مصير الثورة بقدر ما هو مهدَّد الآن، ولم يسبق أن أثارت مسألة وجود روسيا من القلق بقدر ما نثيره الآن، ولم يسبق أن طرح التاريخ مسألة أن تكون روسيا أو لا تكون بالقساوة والحدّة اللتين يطرحها بهما الآن! لقد أزفت ساعة إنقاذ الثورة. وعيا منا لكل هذا، سوف نحافظ على الاتحاد الوثيق بين القوى الحية للديموقراطية الثورية التي عبرت عن إرادتها الموحدة بتأسيس مركز لإنقاذ الثورة والبلد...» وعقب ذلك كلام من نفس النمط، ثم قال: «إننا نفضل الموت على تسليم مواقعنا!»

وأعلن، وسط التصفيق المدوي، أن اتحاد عمال سكك الحديد قد انضم إلى لجنة الإنقاذ. وبعد بضع دقائق دخل مندوبو موظفي البريد والبرق إلى البهو ولحق بهم بعض البلاشفة الأمميين، فاستقبلهم الحضور بالهتاف. أعلن مندوبو عمال سكك الحديد أنهم لا يعترفون بالبلاشفة وأنهم يسيطرون على جهاز سكك الحديد رافضين تسليمه لأية سلطة غاصبة. وأعلن مندوبو البرق أن عمال البرق يرفضون تشغيل أجهزتهم ما دام المفوض البلشفي في المكتب. كما أعلن مندوبو سعاة البريد أنهم يرفضون استلام أو توزيع البريد في «سمولني»... كانت جميع الخطوط الهاتفية في «سمولني» قد قُطعت. وتكلم أحدهم، وسط بهجة كبيرة، عن ذهاب أريتسكي إلى وزارة الشؤون الخارجية طالبا المعاهدات السرية، وكيف طرده نيراشوف. كان جميع موظفي الحكومة يوقفون العمل...

إنها الحرب، جرى التخطيط لها عن سابق تصور وتصميم، حرب على الطريقة الروسية أي بالإضراب والتخريب. خلال وجودنا هناك، قرأ رئيس الجلسة لائحة بالأسماء والمسؤوليات: المطلوب من فلان أن يدور على الوزارات ومن آخر أن يزور المصارف، المطلوب من عشرة أو اثني عشر رجلا أن يذهبوا إلى الثكنات ليقنعوا الجنوذ بالتزام الحياد - «أيها الجنود الروس لا تسفكوا دم إخوانكم!» وشكلت لجنة للتشاور مع كرنسكي، وأرسل آخرون إلى المدن الريفية لتكوين فروع للجنة الإنقاذ وتجميع العناصر المعادية للبلشفية وتنسيق عملها.

معنويات الجمهور عالية. «وهؤلاء البلاشفة يحاولون فرض سلطتهم على المثقفين؟ سوف يلاقون العجب!»... لا شيء أدعى للدهشة من المقارنة بين هذا الاجتماع وبين مؤتمر السوفييت. هناك الجماهير الواسعة من الجنود ذوي الثياب البالية والعمال المتسخين والفلاحين، هناك الفقراء الذين ألوى أجسادهم النضال المضني من أجل البقاء تاركا ندوبه على وجوههم. وهنا المناشفة والاشتراكيون الثوريون –أمثال أفاكسانتييف ودان وليبر- والوزراء الاشتراكيون السابقون – أمثال سكونيليف وتشيرنوف – يقفون جنبا إلى جنب مع أعضاء حزب الكاديت أمثال شاتسكي البدين، وفينافر الناعم، ومع الصحفيين والطلاب والمثقفين من جميع الاتجاهات. كان هذا الجمع في مجلس الدوما متخما، حسن الملبس، ولم أشاهد بينه أكثر من ثلاث عمال..

وردت أخبار جديدة. أفراد «الفيلق المتوحش» الذين يدينون بالولاء التام لكورنيلوف ذبحوا حراس هذا الأخير في «بيخوف»، فهرب. خالدين يتجه شمالا... سوفييت موسكو شكّل لجنة عسكرية ثورية وبدأ يفاوض حاكم المدينة العسكري لفتح مخازن السلاح وتسليح العمال.

وكانت هذه الحقائق ممزوجة بخليط مدهش من الشائعات والتهويلات والأكاذيب. فمثلا، انتحى بنا أحد الأعضاء الشباب الأذكياء في حزب الكاديت جانبا، وأخبرنا كل شيء عن الاستيلاء على قصر الشتاء. وكان يشغل في السابق منصب السكرتير الخاص لمليكوف ثم لتريشنكو. فأكد لنا:

«كان الضباط الألمان والنمساويون يقودون البلاشفة».

«هل حدث هذا حقا؟ كيف عرفت ذلك؟»، أجابنا بلطافة!

«كان صديق لي هناك ورآهم».

«وكيف عرفت أنهم ضباط ألمان»؟

«آه، لأنهم كانوا يرتدون البزة العسكرية الألمانية»!

شاعت المئات من مثل هذه التراهات السخيفة، ولم تنشرها الصحافة المعادية للبلشفية بكل جدّية وحسب، وإنما صدّقها أيضا الاشتراكيون الثوريون والمناشفة، المشهورون بتمسكهم العنيد بالوقائع...

ولكن أخطر القصص كانت عن عنف البلاشفة وإرهابهم. كتبت الصحف، مثلا، أن الحرس الأحمر لم يكتف بنهب قصر الشتاء وإنما ذبح «الينكرز» بعد تجريدهم من السلاح، وقتل بعض الوزراء عن سابق تصور وتصميم؛ أما بالنسبة للمجندات فقد اغتصب القسم الأكبر منهن وانتحر العديد تخلصا من التعذيب الوحشي الذي تعرضن له... وكان الجمع المحتشد في مجلس الدوما يصدق هذه القصص. والأسوأ من ذلك أن عائلات الطلاب والمجندات قرأت هذه التفاصيل الرهيبة التي كانت ترفق، غالبا، بلوائح تحمل أسماء «الضحايا». وما أن جاء المساء حتى بدأ جمع هستيري يحاصر الدوما...

ومن بين هذه القصص قصة الأمير تومانوف. أعلنت صحف عديدة أن جثته قد وجدت طافية على مياه «قناة مويكا» إلاّ أن عائلة الأمير كذبت هذا النبأ بعد بضع ساعات مؤكدة أن الأمير معتقل؛ فأعلنت الصحف أن الجثة هي جثة الجنرال ديميسوف. ولكن سرعان ما بعث الجنرال حيا، فأخذنا نتحرى الأمر فلم نجد أي أثر لجثة وجدت في أي مكان...

وبينما كنا نغادر بناية الدوما، كان اثنان من أفراد الكشافة يوزعان مناشير للجمهور الكبير الذي يسد شارع نييفسكي أمام البوابة، يتكون برمته من رجال الأعمال وأصحاب الحوانيت وموظفي الدولة وكتبة[26]. وورد في أحدها:

من مجلس الدوما البلدي

نظرا للأحداث التي وقعت اليوم، قرر مجلس الدوما البلدي، في اجتماعه المنعقد يوم 26 تشرين الأول (أكتوبر)، أن حرمة المنازل الخاصة مصونة. وهو يدعو سكان مدينة بتروغراد، بواسطة لجان المنازل، إلى أن يقاوموا بعنف جميع محاولات اقتحام الشقق الخاصة، وألا يتأخروا عن استعمال السلاح إذا اقتضى الأمر من أجل الدفاع عن النفس».

عند زاوية شارع «ليتايني»، كان خمسة أو ستة من الحرس الأحمر وعدد من البحارة يحاصرون أحد باعة الصحف طالبين منه أن يسلمهم أعداد «صحيفة العمال» المنشفية. بائع الصحف يصرخ في وجوههم مهددا بقبضة يده بينما أحد البحارة يمزق الصحف. وتحلق جمع غاضب أخذ يشتم الدورية، بينما كان عامل صغير القامة يفسر للناس ولبائع الصحف بإصرار قائلا: «نشرت الصحف بلاغ كرنسكي الذي يقول أننا قتلنا المواطنين الروس. هذا سيؤدي إلى مذابح»..

كانت «سمولني» أكثر حيوية من أي وقت مضى... الرجال أنفسهم يهرولون في المماشي المعتمة: فرق من العمال المسلحين، قادة يتأبطون حقائب يدوية منتفخة ويجادلون وقد تحلق حولهم الأصدقاء والمساعدون. رجال قد وصلوا حد الانهيار من التعب. خبراء في الأرق والشغل – الرجال متسخون طليقو اللحي، حمر العيون، يتجهون نحو هدفهم المحدد بسرعة ولهفة وعناد. كان عليهم أن يفعلوا الكثير، أكثر من الكثير! أن يستولوا على الحكم، أن ينظموا المدينة؛ أن يحافظوا على ولاء الحامية، أن يقاوموا الدوما ولجنة الإنقاذ، أن يصدوا هجوم الألمان، أن يحضروا للمعركة ضد كرنسكي، أن يُعلموا المناطق بما جرى. أن ينشروا دعايتهم من «أركانجل» إلى «فلاديفوستوك»... هذا كله بينما يرفض موظفو الدولة والحكومة إطاعة أوامر المفوضين، ويمتنع موظفو البريد والبرق عن العمل لهم، ويتجاهل عمال سكك الحديد طلباتهم لإرسال القطارات. هذا كله وكرنسكي يتقدم، والحامية ليست مأمونة الجانب كليا والقوزاق يتحفزون للانقضاض... لم تكن البرجوازية المنظمة ضدهم فحسب وإنما جميع الأحزاب الاشتراكية الأخرى كذلك، فيما عدا الاشتراكيين الثوريين

اليساريين وبضعة مناشفة أمميين والاشتراكيين الديموقراطيين الأمميين، وحتى هؤلاء كانوا مترددين في أن يقفوا إلى جانبهم أو لا يقفوا. صحيح أن جماهير العمال والجنود كانت إلى جانبهم وكذلك الفلاحون، ولكن بأعداد غير معروفة. ومهما يكن الأمر، فالبلاشفة جناح سياسي ليس غنيا بذوي الثقافة والخبرة.

ريازانوف يصعد السلّم الأمامي مفسرا بنوع من الذعر المرح أنه لا يعرف شيئا عن الاقتصاد مع أنه عين مفوضا للتجارة. وفي مقهى الطابق العلوي انزوى رجل مرتديا معطفا من وبر الماعز وثيابا – كدت أقول «ثيابا نام فيها» ولكنه لم ينم طبعا- وله لحية لم تحلق منذ ثلاثة أيام على الأقل. وكان يدوّن أرقاما على مغلف وسخ بينما يعض قلمه. هذا هو مينجنسكي، وزير المالية، وكل مؤهلاته هو أنه كان كاتبا في مصرف فرنسي... وهؤلاء الذين يهرولون في البهو خارجين من مكتب اللجنة العسكرية الثورية وهم يكتبون على قصاصات ورق- هؤلاء هم المفوضون المرسلون إلى جميع أنحاء روسيا ليحملوا الأنباء ويناقشوا ويصارعوا مستعملين أية حجج أو أسلحة يقعون عليها...

وكان مقررا أن يعقد المؤتمر في الساعة الواحدة بعد الظهر، لكن القاعة الكبيرة امتلأت بالناس قبل ذلك بكثير. في الساعة السابعة لم يكن أعضاء مجلس الرئاسة قد أقبلوا. البلاشفة والاشتراكيون الثوريون اليساريون يعقدون اجتماعا في الغرفتين المخصصتين لهما. وكان لينين وتروتسكي يناضلان طوال بعد الظهر ضد المساومة. فقد كان قسم كبير من البلاشفة على استعداد للتراجع إلى حد تشكيل حكومة تضم جميع الاشتراكيين. صاحوا: «لا نستطيع الصمود! يوجد كثيرون ضدنا. ليس لدينا الرجال. سوف نُعزل وينهار كل شيء». وكان بين هؤلاء كامنييف وزينوفييف وغيرهما.

إلاّ أن لينين، وتروتسكي إلى جانبه، ظلا صامدين كالصخرة: «فليقبل المساومون ببرنامجنا لنسمح لهم بالاشتراك في الحكم! لن نتراجع قيد شعرة. وإذا كان بعض الرفاق لا يملكون الشجاعة ولا الإرادة الكافية ليقدموا على ما نقدم عليه، فلينسحبوا مع بقية الجبناء والمساومين! سوف نستمر على ما نحن عليه يدعمنا العمال والجنود».

وفي الساعة السابعة وخمس دقائق، جاء من يخبر أن الاشتراكيين الثوريين اليساريين قرروا البقاء في اللجنة العسكرية الثورية.

فصاح لينين: «ألم أقل لكم؟ لقد التحقوا بنا!»

وبعد برهة، وبينما كنا جالسين إلى طاولة الصحافة في البهو الكبير، اقترح عليّ أحد الفوضويين الذين يحررون في الصحافة البرجوازية أن نذهب لنستطلع ماذا حل بمجلس الرئاسة. لم نجد أحدا في مكتب «التسايكا» ولا في مكتب سوفييت بتروغراد. وتجولنا من غرفة لغرفة في «سمولني» الواسعة. ولم يكن أحد يعرف أين يمكن أن نجد الهيئة التي ترأس المؤتمر. وفيما كنا نتجول، بدأ رفيقي يصف نشاطه الثوري السابق وفترة نفيه الطويلة والسعيدة في فرنسا... وأسرّ لي بأن البلاشفة أناس سوقة وأفظاظ وجهلة لا يملكون أية حساسية جمالية. كان نموذجا حقيقيا عن الانتلجنسيا الروسية. وصلنا إلى الغرفة رقم 17، مكتب اللجنة العسكرية الثورية، ووقفنا وسط حركة ذهاب وإياب مذهلة. فتح الباب وخرج منه رجل مربوع القامة، مسطح الوجه، يرتدي بزة عسكرية بدون أشرطة، وبدأ باسما –ولكن سرعان ما تبين لنا أنها لم تكن سوى بسمة الإرهاق الشديد. إنه كريلنكو. فأطلق صديقي الوسيم الحسن الهندام صيحة فرح وتقدم وهو يمد يده ويقول: «نيقولاي فاسيلييفيتش. ألا تذكرني يا رفيق؟ كنا في السجن معا».

فقام كريلنكو بمجهود وركز ذهنه وبصره، ثم أجاب وهو ينظر إليه من فوق لتحت بكثير من الود: «أكيد. أنت س. مرحبا! (وتعانقا). ماذا تفعل في هذه المعمعة؟» سأل وهو يشير بيده.

«آه! أنا مجرد متفرج. يبدو أنكم أحرزتم نجاحا باهرا».

«أي»، أجاب كريلنكو بحزم، «الثورة البروليتارية حققت نجاحا عظيما» ثم قهقه قائلا: «على كل حال، ربما –ربما نلتقي في السجن مرة ثانية!»

وعندما خرجنا إلى الممشى، عاد صديقي إلى شروحه: «أنا من أتباع كروبوتكين [*]. إننا نعتبر أن الثورة قد أخفقت إخفاقا كاملا، لأنها لم تتمكن من إثارة وطنية الجماهير. وهذا يبرهن، طبعا، على أن الشعب غير مستعد للثورة»...

كانت الساعة تشير إلى التاسعة إلاّ عشرين دقيقة عندما أعلنت موجة راعدة من الهتاف قدوم أعضاء مجلس الرئاسة ومعهم لينين –لينين العظيم. رجل مربوع القامة، قصيرها، ذو رأس كبير أصلع مدور يغوص بين كتفيه، وعينين صغيرتين وأنف دقيق وفم ممتلئ وذقن كبير حليقة بدأت تنمو عليها لحيته الشهيرة. كان يرتدي ثيابا رثة، وكان سرواله كبيرا عليه. ليس

مهيبا ليكون معبود الجماهير، ولكنه يحظى بحب واحترام لم يحظ بمثلهما إلاّ القليل من القادة في التاريخ. إنه نوع غريب من القادة الشعبيين، قائد بفعل قوة فكره ليس إلاّ. لم يكن بهي الطلعة ولا مرحا ولا غريب الأطوار، كان منكفئا على نفسه لا يساوم، ويملك مقدرة هائلة على تفسير أعمق الأفكار بعبارات بسيطة، وتحليل الأوضاع؛ يجمع الجرأة الفكرية البالغة إلى حدة الذكاء.

كان كامنييف يقرأ تقريرا عن أعمال اللجنة العسكرية الثورية: إلغاء عقوبة الإعدام في الجيش، إعادة الحق في الدعاية الحرة، إطلاق سراح الضباط والجنود الذين اعتقلوا بتهمة ارتكاب جرائم سياسية، أوامر بإلقاء القبض على كرنسكي وبمصادرة إمدادات الأغذية من مخازن الغذاء الخاصة... تصفيق حاد.

وعاد ممثل «العصبة» ليقول أن موقف البلاشفة المتعصب سوف يؤدي إلى سحق الثورة. لذا فإن مندوبي «العصبة» يرفضون البقاء في المؤتمر. صيحات من الحضور «خمّنا أنكم انسحبتم الليلة الماضية! كم مرة تنسحبون ثم تعودون»؟

وعقبه ممثل عن المناشفة الأمميين. صيحات: «ماذا؟ ما زلتم هنا؟» فأوضح المتكلم أن قسما فقط من المناشفة الأمميين قد غادر المؤتمر، أمّا القسم الآخر فقد قرر البقاء –ثم قال، وسط المقاطعات:

«إننا نعتبر عملية انتقال السلطة إلى يد السوفييت عملية خطيرة وربما تكون قاضية، ولكننا نشعر أن الواجب يدعونا للبقاء هنا والتصويت ضد هذه العملية»!

وعقبه متكلمون آخرون بدون نظام معين. دعا مندوب عن عمال مناجم الفحم في «حوض الدون» إلى اتخاذ إجراءات ضد خالدين الذي قد يقطع الفحم والطعام عن العاصمة. وتتالى عدة جنود، وصلوا لتوهم من الجبهة، على نقل تحيات أفواجهم المشجعة للمؤتمر... ثم اعتلى لينين المنبر، ممسكا بأطرافه، بينما تجول عيناه الصغيرتان الراعشتان بين هذا الجمع وهو واقف ينتظر، متجاهلا عاصفة التصفيق والهتاف المدوية. ولما انتهت، قال ببساطة: «سنبدأ الآن ببناء المجتمع الاشتراكي» فدوّي ذلك الرعد البشري من جديد.

«إن أول مهمة أمامنا هي اتخاذ إجراءات عملية لتحقيق السلم.. سوف نعرض السلم على شعوب جميع البلدان المتحاربة على أساس شروط السوفييت –لا دمج، لا تعويض، حق الشعوب في تقرير المصير. وفي الوقت ذاته، سنفي بوعدنا وننشر المعاهدات السرية البغيضة... إن مسألة الحرب والسلم من الوضوح بحيث سأسمح لنفسي بأن أبدأ مباشرة، وبدون مقدمات، بتلاوة مشروع النداء إلى شعوب جميع البلدان المتحاربة»...

فمه الممتلئ الكبير ينفتح واسعا وهو يتكلم، تعلوه شبه ابتسامة؛ وصوته غليظ –لا يزعج وإنما يعبر عن قساوة من تلكم خلال سنوات وسنوات- يتدفق بشيء من الرتابة موحيا بأنه يستطيع الاستمرار في الكلام في هذا النحو إلى ما لانهاية... وكان ينحني قليلا عندما يريد التأكيد على نقطة ما. إنه لا يقوم بأية إشارات. وأمامه آلاف الوجوه البسيطة تتطلع إليه بخشوع.

نداء إلى الشعوب وحكومات جميع الأمم المتحدة

إن حكومة العمال والفلاحين التي جاءت بها ثورة السادس والسابع من تشرين الثاني (نوفمبر) والمعتمدة على سوفييت مندوبي العمال والجنود والفلاحين، تعرض على جميع الشعوب والحكومات المتحاربة الشروع فورا في مفاوضات تهدف إلى تحقيق سلم ديموقراطي عادل.

إن الحكومة تعني بالسلم الديموقراطي العادل، الذي ترغب فيه الغالبية الساحقة من العمال والكادحين التي أنهكتها الحرب وامتصت قواها، ذلك السلم الذي لم يتوقف العمال والفلاحون الروس عن المطالبة به منذ تحطيمهم للملكية القيصرية، السلم الفوري بدون دمج (أي بدون اجتياح تراب أجنبي وبدون الدمج القسري للقوميات الأخرى) وبدون تعويضات.

إن حكومة روسيا تقترح على جميع الشعوب المتحاربة تحقيق مثل هذا السلم فورا، بأن تبدي استعدادها لاتخاذ الخطوات اللازمة للمفاوضات الهادفة إلى الوصول إليه مباشرة وبدون أدنى تأخير، على أن يعود أمر التصديق على جميع شروطه إلى الجمعيات المسؤولة تجاه شعوب هذه البلدان والقوميات.

إن الحكومة، استنادا إلى مفهوم الحقوق الديموقراطية بشكل عام وحقوق الطبقة العاملة بشكل خاص، تعني بالدمج وباجتياح التراب الأجنبي كل عملية يتم فيها ضم قومية صغيرة أو ضعيفة إلى دولة كبيرة وقوية بدون التعبير الإرادي والواضح

والمحدد عن موافقتها ورغبتها في ذلك، أيا كان موعد حدوث هذا الدمج القسري. ومهما كان المستوى الحضاري للأمة التي دمجت بالقوة أو فُصلت عن حدود دولة أخرى، ولا يؤثر في ذلك إذا كانت هذه الأمة في أوروبا أو في ما وراء البحار.

إذا أقيمت إحدى الأمم، بواسطة القوة، ضمن حدود دولة أخرى؛ وإذا لم تمنح هذه الأمة حق تقرير المصير بواسطة الاقتراع الحر عن الشكل الإداري والسياسي الوطني الذي تريده بدون أي عملية إرغام، وبعد الجلاء التام للقوى المسلحة التابعة للأمة التي ضمتها أو ترغب في ضمها، أو هي أقوى منها بشكل عام، إذا لم تمنح هذا الحق رغم رغبتها فيه، ولا يهم إذا عبرت هذه الرغبة عن نفسها بواسطة الصحافة أو الاجتماعات الشعبية أو مقررات الأحزاب السياسية أو بواسطة الاضطرابات والأعمال المعادية للاضطهاد الوطني فإن مثل هذا التوحيد يعتبر عملية دمج، أي أنه احتلال وعملية عنف.

وتعتبر الحكومة أن الاستمرار في هذه الحرب، لتمكين الأمم القوية والغنية من أن تتقاسم فيها بينها القوميات الضعيفة والمغلوبة على أمرها، إنما يشكل أفظع جريمة بحق الإنسانية؛ وهي تعلن أن رغبتها الأكيدة في توقيع معاهدة سلم تضع حدا لهذه الحرب وفق الشروط المبنية أعلاه إنما هي رغبة عادلة بالنسبة لجميع القوميات بدون استثناء.

لقد ألغت الحكومة الدبلوماسية السرية، وهي تعلن أمام البلد كله عن عزمها على القيام بجميع المفاوضات أمام الشعب وفي وضح النهار، وسوف تعمد فورا على نشر النصوص الكاملة لجميع المعاهدات السرية التي صادقت عليها أو وقعت عليها حكومة ملاك الأرض والرأسماليين منذ آذار (مارس) حتى السابع من تشرين الثاني (نوفمبر) 1917. والحكومة ترفض رأسا وبدون مناقشة جميع بنود المعاهدات السرية الهادفة، في أغلب الأحيان، إلى تحقيق المزيد من الفوائد والامتيازات للرأسماليين الروس وإلى المحافظة على ما ضمه الاستعماريون الروس أو توسيع رقعته.

إن الحكومة، وقد عرضت على جميع الحكومات والشعوب الدخول في مفاوضة علنية للسلم، تعلن استعدادها للقيام بهذه المفاوضات بواسطة اللاسلكي أو البريد أو بواسطة محادثات مباشرة تجري بين ممثلي البلدان المختلفة، أو في ندوة تضم هؤلاء الممثلين. والحكومة قد عينت ممثليها المفوضين في البلدان الحيادية للقيام بهذه المهمة رغبة منها في تسهيل المحادثات.

تقترح الحكومة على شعوب وحكومات جميع البلدان المتحاربة عقد هدنة فورية، كما تقترح أن تكون مدة هذه الهدنة ثلاثة أشهر يمكن خلالها إجراء المحادثات اللازمة بين ممثلي جميع الأمم والقوميات بدون استثناء من الذين جرّوا إلى الحرب أو الذين أجبروا على خوضها، وانعقاد مجالس النواب المفوضة من قبل جميع الشعوب للتصديق نهائيا على شروط السلم.

إن الحكومة المؤقتة للعمال والفلاحين في روسيا، إذ تتوجه بعرض السلم على حكومات وشعوب جميع البلدان المتحاربة، تتوجه بدعوتها في الوقت ذاته وبنوع خاص إلى العمال الواعين في الأمم الثلاث الأكبر إخلاصا للإنسانية التي هي في الوقت نفسه الدول الكبرى المشتركة في الحرب الحالية –فرنسا وإنكلترا وألمانيا. لقد قدم عمال هذه البلدان خدمات جلى لقضية التقدم والاشتراكية. إن الأمثولات الرائعة التي قدمتها «الحركة الشارتية» في إنكلترا، وسلسلة الثورات ذات الأهمية العالمية والتاريخية التي قامت بها البروليتاريا الفرنسية- وأخيرا النضال التاريخي ضد «القوانين الاستثنائية» في ألمانيا، هذا النضال الذي يشكل مثالا رائعا لعمال العالم أجمع على العمل الدؤوب العنيد، وخلق تنظيمات العمال الألمان الجبارة- إن جميع هذه النماذج عن بطولة البروليتاريا، هذه الصروح التاريخية، لهي ضمان أكيد لنا بأن عمال هذه البلدان سيفهمون واجب تحرير الإنسانية من أهوال الحرب وعواقبها الملقى على عاتقهم؛ وبأن هؤلاء العمال سوف يساعدوننا، بالعمل الحاسم والنشيط والدؤوب، على إنجاح قضية السلم، وعلى إنجاح قضية تحرير الجماهير الكادحة المضطهَدة من كل عبودية واستغلال».

ولما تلاشت عاصفة التصفيق المدوية، تكلم لينين مجددا:

«نطلب من المؤتمر أن يصدق على هذا النداء. إننا نتوجه إلى الحكومات مثلما نتوجه إلى الشعوب، لأن نداء موجها إلى شعوب البلدان المتحاربة فقط قد يُؤخر في عقد اتفاقية السلم. وسوف تصادق الجمعية التأسيسية على شروط السلم التي توضع خلال الهدنة. ونحن قد حددنا مهلة الهدنة بثلاثة أشهر لأننا نرغب في إعطاء الشعوب أطول فترة راحة ممكنة من هذه المجزرة الدموية، ووقتا كافيا لينتخبوا ممثليهم. إن اقتراح السلم هذا يلقى معارضة الحكومات الاستعمارية، ونحن لا نضلل أنفسنا في هذا الصدد. ولكننا نأمل أن تندلع الثورة قريبا في جميع البلدان المتحاربة، ولهذا السبب بالذات نتوجه إلى عمال فرنسا وإنكلترا وألمانيا بشكل خاص...».

ثم ختم قائلا:

«إن ثورة السادس والسابع من تشرين الثاني (نوفمبر) قد بدأت حقبة الثورة الاجتماعية... إن الحركة العمالية سوف تنتصر وتحقق مصيرها باسم السلم والاشتراكية...».

كان ثمة شيء هادئ وقوي في كل هذا، شيء يحرك أعماق البشر. وكان مفهوما لماذا يقتنع الناس عندما يتكلم لينين...

وتقرر، بواسطة التصويت الجماعي، السماح فقط لممثلي الفئات السياسية بالكلام حول الاقتراح، وبأن تحدد فترة خمسة عشر دقيقة لكل متكلم.

تكلم كاريلين أولا باسم الاشتراكيين الثوريين اليساريين: «لم يمنح حزبنا فرصة تقديم التعديلات على نص النداء؛ إنه وثيقة خاصة بالبلاشفة. ولكننا سنؤيده لأننا نوافق على مضمونه...».

وتكلم كراماروف عن الاشتراكيين-الديموقراطيين الأمميين، كراماروف الطويل المنحني الشحيح النظر الذي كان مؤهلا للعب دور بارز كمهرج للمعارضة. فقال أن الحكومة مؤلفة من جميع الأحزاب الاشتراكية هي وحدها التي تملك سلطة القيام بمثل هذا الدور. وإذا تشكلت حكومة ائتلاف اشتراكية، فإن حزبه سيؤيد البرنامج كله، وإلاّ فإنه سيؤيد قسما منه فقط. أما بالنسبة للنداء نفسه، فإن الأمميين يوافقون كليا على نقاطه الرئيسية...

ثم تتالى المتكلمون وسط حماس متزايد: الحزب الاشتراكي-الديموقراطي الأوكراني، تأييد؛ الحزب الاشتراكي-الديموقراطي الليتواني، تأييد؛ الاشتراكيون الشعبيون، تأييد؛ الحزب الاشتراكي-الديموقراطي البولوني، تأييد؛ الاشتراكيون البولونيون تأييد مع تفضيل تحالف اشتراكي؛ الحزب الاشتراكي-الديموقراطي اللتفياني، تأييد... كانت شعلة تظطرم في نفوس هؤلاء الرجال. تكلم أحدهم عن «الثورة العالمية القادمة ونحن طليعتها»؛ وتكلم آخر عن «عصر الأخوة الجديد عندما تصبح الشعوب كلها عائلة كبيرة واحدة»... ثم طلب أحد الحضور الكلام، فقال: «يوجد تناقض هنا. تعرضون السلم بدون دمج ولا تعويضات ثم تقولون أنكم مستعدون للنظر في جميع عروض السلم. الاستعداد للنظر يعني القبول»...

وقف لينين: «نريد سلما عادلا، ولكننا لا نخاف الحرب الثورية... ربما لن تستجيب الحكومات الاستعمارية لندائنا، ولكننا لن نوجه إنذارا يسهل رفضه... وإذا اتضح للطبقة العاملة الألمانية أننا مستعدون للنظر في أي عروض للسلم، ربما كان ذلك القشة التي تقصم ظهر البعير، فتندلع الثورة في ألمانيا..

«إننا نوافق على دراسة جميع الشروط التي تقدم لنا حول السلم، ولكن هذا لا يعني أننا سنقبلها... سوف ندافع عن بعض الشروط حتى النهاية، ولكننا قد نجد أنه من المستحيل الاستمرار في الحرب دفاعا عن البعض الآخر.. إننا نريد إنهاء الحرب قبل أي شيء آخر»..

كانت الساعة تمام العاشرة وخمس وثلاثين دقيقة عندما طلب كامنييف من جميع الموافقين على النداء أن يرفعوا بطاقاتهم. فتجاسر أحد المندوبين على رفع يده ضد الاقتراح، ولكنه أنزلها بسرعة عندما تعالت أصوات حادة حوله. فاز الاقتراح بالإجماع.

وفجأة، وجدنا أنفسنا واقفين، يحركنا دافع مشترك، نهمهم معا «نشيد الأممية» بصوت هادئ يرتفع تدريجيا. جندي عجوز أشيب ينتحب كطفل. وألكسندرا كولونتاي تلتقط دموعها، الصوت الضخم يجتاح القاعة وينفجر خارجا من النوافذ والأبواب منطلقا في السماء الهادئة. «لقد انتهت الحرب!»، صاح عامل شاب مشرق الوجه يجلس قربي. وعندما انتهينا وكنا شاخصين بصمت أخرق، صاح أحدهم من مؤخرة الغرفة: «رفاق! فلنتذكر الذين ماتوا من أجل الحرية!» فبدأنا نرنم «نشيد الموتى»، ذلك النشيد الهادئ والكئيب والظافر، الشديد التأثير والوثيق الارتباط بروسيا. ومهما يكن من الأمر، «فالنشيد الأممي» نشيد أجنبي. أما «نشيد الموتى»، فبدأ كأنه نابع من روح الجماهير السوداء التي يجلس مندوبوها في هذه القاعة، يبنون روسيا جديدة، من رؤاهم الغامضة؛ وربما يبنون أكثر...

سقطتم في الصراع المميت...

من أجل حرية الشعب، من أجل شرف الشعب...

ضحيتم بحياتكم وبكل غال ونفيس،

تعذبتم في غياهب السجون،

ونُفيتم مكبلين بالسلاسل...

وبدون كلمة، حملتم سلاسلكم لأنكم لم تتجاهلوا إخوانكم المعذبين،

لأنكم آمنتم بأن العدالة أقوى من السيف...

سيأتي يوم يقدّر فيه استشهادكم.

وهذا البوم لقريب: عندما يسقط الطغيان سينتصب الشعب عظيما وحرا!

وداعا، أيها الإخوة، لقد أخترتم الطريق النبيل،

يلحق بكم جيش مستعد للموت والتضحية...

وداعا! أيها الإخوة، لقد أخترتم الطريق النبيل،

إننا نقسم على قبوركم بأن نناضل، بأن نعمل من أجل حرية الشعب وسعادته...».

لهذا استشهد أبطال آذار (مارس) الذين أودعوا في «مقبرة التآخي» الباردة في «حقل آذار (مارس)»؛ لهذا مات الآلاف وعشرات الآلاف في السجون، في المنفى، في مناجم سيبريا. لم تحدث الثورة كما توقعوا، ولا كما رغب المثقفون. ولكنها حدثت عنيفة، قوية، حقيقية لا تحتمل الصيغ، وترفض النزاعات العاطفية...

ثم تلا لينين «مرسوم الأرض»:

1- تلغى ملكية الأرض فورا وبدون تعويض.

2- تنتقل أراضي الملاك وجميع أراضي الأسرة المالكة والأديرة، وأراضي الكنيسة وكل ما عليها من مواشٍ وبنايات وملحقات إلى لجان الأرض البلدية، وإلى سوفييتات مندوبي الفلاحين المنطقية، وتوضع تحت تصرفها إلى حين انعقاد الجمعية التأسيسية.

3- إن أي ضرر يصيب الملكية المصادرة، وقد أصبحت الآن ملكية الشعب بأسره، يعتبر جريمة خطيرة يعاقب مرتكبوها أمام المحاكم الثورية. إن سوفييتات مندوبي الفلاحين المنطقية مطالبة بأن تتخذ كل الإجراءات اللازمة للمحافظة على النظام خلال مصادرة أراضي الملاك، لمسح الأرض ولتعيين الأجزاء التي تطالها المصادرة، ولجرد محتويات الملكية المصادرة، ولتأمين الحماية الثورية الكاملة لانتقال ما تحتوي عليه قطاعات الأرض من أدوات زراعية وبنايات وملحقات وماشية ومحاصيل وما شابه، إلى أيدي الشعب.

4-خلال تحقيق الإصلاحات الزراعية الكبرى، وإلى حين تصديق الجمعية التأسيسية على هذه الإصلاحات، يعمل بالتعليمات الفلاحية التالية (ناكاز) التي استخلصها مجلس تحرير صحيفة «ازفستيا»، لسان حال سوفييت مندوبي الفلاحين لعموم روسيا، من مئتين واثنتين وأربعين مجموعة من التعليمات الفلاحية المحلية، ونشرت في العدد 88 من الصحيفة المذكورة (بتروغراد، العدد 88، 19 آب (أغسطس-)، 1917)(3).

لن تصادر أراضي الفلاحين والقوزاق الذين يخدمون في الجيش».

ثم أوضح لينين المرسوم قائلا: «هذا ليس مشروع الوزير السابق تشيرنوف الذي تكلم عن «تشييد هيكل للإصلاح» وحاول تحقيق الإصلاحات من فوق. إن قضايا تقسيم الأرض سوف تحدد من تحت، وفي الأمكنة المعنية بالأمر. وقد تختلف مساحة الأرض الممنوحة لكل فلاح حسب منطقته...

لقد رفض ملاك الأرض الانصياع لأوامر لجان الأرض في ظل الحكومة المؤقتة، هذه اللجان نفسها التي اقترحها لفوف، وأنشأها شينغاريوف وتولى كرنسكي إدارتها».

وقبل بدء النقاش، كان رجل يشق طريقه بعنف وسط جمع احتشد في الممشى واعتلى المنبر. إنه بيانيخ، عضو اللجنة التنفيذية لسوفييت الفلاحين، وكان في ذروة الغضب:

«إن اللجنة التنفيذية لسوفييت مندوبي الفلاحين في عموم روسيا تحتج على اعتقال الرفيقين الوزيرين سالازكين ومازلوف!» ثم صاح بقسوة في وجه الحضور: «إننا نطالب بإطلاق سراحهما فورا! إنهما الآن في حصن بطرس-بولس. نريد عملا سريعا. ليس لدينا وقت نضيعه!»

وتلاه جندي ذو لحية شعثاء وعينين لاهبتين: «إنكم تجلسون هنا وتتكلمون عن توزيع الأرض على الفلاحين، بينما تتصرفون كالطغاة والغاصبين تجاه ممثلي الفلاحين! إني أقول لكم –(هدد بقبضته) إذا مسستم شعرة من رؤوسهم فسوف تقوم ثورة ضدكم!» فهاج الجميع بارتباك.

ثم اعتلى تروتسكي المنبر، هادئا، ساميا، واعيا للسلطة التي بين يديه، فاستقبل بالهتاف: «أمس، قررت اللجنة العسكرية الثورية مبدئيا أن تطلق سراح الوزراء المناشفة والاشتراكيين الثوريين مازلوف، سالازكين، غفوزدوف وماليانتوفيتش. وإذا كانوا لا يزالون في سجن بطرس-بولس فلأننا كنا مشغولين جدا... إلاّ أنهم سوف يوضعون في منازلهم تحت الإقامة الجبرية بانتظار التحقيق في تواطئهم مع أعمال كرنسكي الخائنة خلال مؤامرة كورنيلوف!»

فصاح بيانيخ: «لم تحدث مثل هذه الأعمال في أية ثورة من الثورات!»

أجاب تروتسكي: «أنت مخطئ. لقد حدثت مثل هذه الأعمال حتى في ثورتنا. لقد أعتقل المئات من رفاقنا في أيام تموز (يوليو).. ولما أطلق سراح الرفيقة كولونتاي من السجن بأمر من الطبيب، وضع أفاكسانتييف أمام بابها عميلين من عملاء شرطة القيصر السرية!» فانسحب ممثلو الفلاحين مهمهمين يلاحقهم عياط ساخر.

وتكلم ممثل الاشتراكيين الثوريين اليساريين عن «مرسوم الأرض». فقال أن حزبه لن يصوّت على المسألة إلاّ بعد النقاش بالرغم من موافقته عليه، مؤكدا ضرورة استشارة سوفييت الفلاحين...

وحذا المناشفة الأمميون حذوه مؤكدين على ضرورة عقد اجتماع لمندوبي حزبهم قبل التصويت.

ثم تكلم قائد «المتطرفين»، الجناح الفوضوي من الحركة الفلاحية: «يجب علينا أن نمجد الحزب السياسي الذي يضع موضع التنفيذ مثل هذا المرسوم منذ اليوم الأول، بدون ثرثرة حوله»

واعتلى أحد الفلاحين المنبر –شعر طويل، معطف من الوبر- وأخذ ينحني أمام زوايا القاعة الأربع: «السلام عليكم، يا رفاق، ويا أيها المواطنون! بعض أعضاء حزب الكاديت يتجولون في الخارج. لقد اعتقلتم الفلاحين الاشتراكيين، فلماذا لا تعتقلون هؤلاء كذلك؟»

وبدأ على الأثر نقاش بين الفلاحين الهائجين، كان شبيها بنقاش الجنود في الليلة الماضية.. هؤلاء هم عمال الأرض الحقيقيون...

«أعضاء لجنتنا التنفيذية، أمثال أفاكسانتييف، ليسوا حماة الفلاحين مثلما كنا نعتقد. إنهم كاديت أيضا. إعتقلوهم! اعتقلوهم!»

وقال آخرون: «من هم بيانيخ وأفاكسانتييف وغيرهم! ليسوا فلاحين على الإطلاق! إنهم لا يفعلون غير تحريك أذنابهم!»

فهب الجمع إلى المتكلمين وقد عرف فيهم إخوانا لهم!

اقترح الاشتراكيون الثوريون اليساريون نصف ساعة استراحة. وبينما كان المندوبون يخرجون، وقف لينين:

«يجب ألاّ نضيع الوقت، يا رفاق! يجب أن تصدر في صحف الغد أنباء تهم روسيا بأسرها. لا تتأخروا!»

وتعالى صوت أحد رسل اللجنة العسكرية الثورية، فوق النقاش والجدال الحاد وفوق جلبة الأرجل، وأخذ يصيح: «خمسة عشر داعية مطلوبون في الغرفة 17 حالا! ليذهبوا إلى الجبهة!»

كانت قد مضت ساعتان ونصف عندما عاد المندوبون، فاعتلى أعضاء مجلس الرئاسة المنصة، وأكملت الجلسة بقراءة البرقيات الواردة من الألوية التي تعلن انضمامها إلى اللجنة العسكرية الثورية.

أخذ الاجتماع يستجمع قوته بطريقة عفوية. فتلكم مندوب الجنود الروس في مقدونيا بقساوة عن وضعهم: «إننا نعاني من صداقة «حلفائنا أكثر مما نعاني من العدو». قال مندوبون عن الجيش العاشر والجيش الثاني عشر، الذين وصلوا مسرعين: «إننا نؤيدكم بكل قوانا!» اعترض جندي فلاح على إطلاق سراح «خونة الاشتراكية مازلوف وسالازكين»؛ أمّا بالنسبة للجنة التنفيذية لسوفييت الفلاحين، فقد طالب باعتقال أعضائها بالجملة! هذا كلام ثوري حقيقي... أعلن مندوب عن الجيش الروسي في إيران أنه يحمل تفويضا بالدعوة إلى استسلام السوفييت للسلطة... وتكلم ضابط أوكراني باللهجة المحلية الأوكرانية: «لا دخل للقومية في هذه الأزمة... عاشت دكتاتورية البروليتاريا في كل البلاد!». تجاه مثل هذا الطوفان من الأفكار النبيلة الحادة لم يعد بإمكان روسيا أن تظل صماء!

وأشار كامنييف إلى أن القوات المعادية للبلشفية تحاول إثارة الاضطرابات في كل مكان، ثم تلا نداء من المؤتمر إلى جميع منظمات السوفييت في روسيا:

«إن المؤتمر العام لسوفييت مندوبي العمال والجنود، الذي يضم بعض المندوبين عن الفلاحين، يطلب من جميع منظمات السوفييت المحلية أن تتخذ إجراءات حازمة لمقاومة كل نشاط معادٍ للثورة أو أعمال ضد اليهود وضد كل المجازر مهما يكن نوعها. إن شرف ثورة العمال والفلاحين والجنود لا يحتمل أية مجازر.

لقد حافظ الحرس الأحمر والحامية الثورية والبحارة على الهدوء التام في العاصمة.

أيها العمال والجنود والفلاحون، يجب أن تسيروا، في كل مكان، على خطى عمال وجنود بتروغراد.

أيها الرفاق والجنود والقوزاق: إن واجب تأمين الانضباط الثوري الحقيقي يقع على عاتقنا.

إن روسيا الثورية كلها والعالم أجمع ينظر إلينا...».

في الساعة الثامنة، جرى التصويت على «مرسوم الأرض» فعارضه صوت واحد وجنّ مندوبو الفلاحين من الفرح... وهكذا اندفع البلاشفة إلى الأمام منتصرين، متغلبين على التردد والمعارضة. ولا عجب فهم الأناس الوحيدون في روسيا الذين كانوا يملكون برنامج عمل محدد بينما اكتفى غيرهم باللغة طوال ثمانية أشهر.

وانتصب أحد الجنود، نحيلا ورثّ الثياب وبليغا، ليحتج على بند من بنود «التعليمات» الذي يحرم الهاربين من الجيش من حصتهم في أراضي القرى الموزعة. ورغم أن الحضور زعق في وجهه وصفّر له، فإن خطبته البسيطة المؤثرة ما لبثت أن فرضت الصمت: «إن الهارب من الجيش، الذي دُفع رغما عنه إلى مجزرة الخنادق التي اعترفتم بأنفسكم في مرسوم السلم بأنها فظيعة وعبثية، قد استقبل الثورة آملا أن تحقق السلم والحرية. لماذا السلم؟ لأن حكومة كرنسكي أجبرته على الذهاب إلى غاليسيا ليَذبح ويُذبح؛ ولما طالب بالسلم ضحك عليه تريشنكو... لماذا الحرية؟ لأنه وجد اللجان التي تمثله قد ألغيت، في ظل كرنسكي، وصحفه قد منعت من الصدور والمتكلمين باسم حزبه في سجن... وفي قريته كان ملاّك الأراضي يتحدون لجان الأرض ويحبسون رفاقه... أمّا في بتروغراد، فكانت البرجوازية متحالفة مع الألمان تخرب إمدادات الطعام والذخيرة المرسلة إلى الجيش... كان بدون أحذية ولا ثياب.. من الذي أجبره على الفرار؟ إنها حكومة كرنسكي التي أسقطتم!» تصفيق.

إلا أن جنديا آخر رد عليه بحدة: «ليست حكومة كرنسكي ستارا يمكن أن نستر وراءه أعمالا دنيئة مثل الهرب من الجيش! الهاربون حقراء، فروا إلى منازلهم وتركوا رفاقهم ليموتوا وحدهم في الخنادق! كل هارب من الجيش هو خائن تجب معاقبته..» صخب، صيحات: «كفى! سكوت» فاقترح كامنييف بسرعة أن يترك الأمر للحكومة لتتخذ قرارا حوله (4).

في الساعة الثانية والنصف صباحا ساد الاجتماع صمت متوتر، فقد كان كامنييف يقرأ «مرسوم تنظيم السلطة».

«إلى حين انعقاد الجمعية التأسيسية، يجري تشكيل حكومة مؤقتة للعمال والفلاحين يطلق عليها اسم مجلس مفوضي الشعب(5)»

يوكل أمر إدارة القطاعات المختلفة من نشاط الدول إلى لجان يتم تكوينها بطريقة تضمن تنفيذ برنامج المؤتمر بالتعاون التام مع المنظمات الجماهيرية التابعة للعمال والعاملات والبحارة والجنود والفلاحين وموظفي المكاتب. توكل سلطة الحكومة إلى مجلس يتكون من رؤساء هذه اللجان هو مجلس مفوضي الشعب.

يعود حق مراقبة نشاط موظفي الشعب وحق استبدالهم إلى المؤتمر العام للسوفييت مندوبي العمال والفلاحين والجنود، وإلى لجنته المركزية التنفيذية».

وساد هدوء تام وهو يتلو أسماء المفوضين، وتعالت عواصف من التصفيق بعد كل اسم، وبشكل خاص بعد اسمَي لينين وتروتسكي:

رئيس المجلس فلاديمير أورليانوف (لينين).

الداخلية: أ. ي. ريكوف.

الزراعة: ف. ب. مليوتين.

العمل: أ. ج. شليابنيكوف.

الشؤون العسكرية والبحرية: لجنة مكونة من ف. أ. أوفسينكو (أنطونوف، ن. ف. كرينلكو وب. ي. ديبنكو.

التجارة والصناعة: ف. ب. نوغين

الثقافة الشعبية: أ. ف. لوناتشارسكي.

المالية: أ. أ. سكفورتسوف (ستيبانوف)

الشؤون الخارجية: ل. د. برنشتاين (تروتسكي)

العدلية: ج. ي. أبوكوف (لوموف)

التموين: ي. أ. تيودوروفيتش.

البريد والبرق: ن. ب. أفيلوف (غليبوف).

رئيس لجنة القوميات: ي. ف. تشوغاشفيللي (ستالين).

سكك الحديد: يعين فيما بعد.

ولاحت حراب في أرجاء القاعة، تطل برؤوسها من بين المندوبين. فقد كانت اللجنة العسكرية الثورية تسلح الجميع، البلاشفة يتسلحون للمعركة الحاسمة مع كرنسكي الذي تحمل الريح الجنوبية الغربة أصداء أناشيده العسكرية... في تلك الأثناء لم يذهب أحد إلى منزله؛ وإنما على العكس فقد دخلت المئات من الوافدين الجدد، يملأون أرجاء القاعة الكبيرة المكتظة بالجنود ذوي الوجوه القاسية والعمال الذين يقفون طوال ساعات وساعات ويصغون بلا كلل. الجو عابق بدخان السجائر والتنفس البشري ورائحة العرق والثياب الوسخة.

تكلم أفيلوف عضو هيئة تحرير «الحياة الجديدة» باسم الاشتراكيين الديموقراطيين الأمميين وبقايا المناشفة الأمميين؛ أفيلوف بوجهه الشاب الذكي، الذي لا يتناسب مع معطف السهرة الأنيق الذي يرتدي:

«يجب أن نسأل أنفسنا إلى أين نحن سائرون...لا يمكن تفسير السهولة التي تم فيها إسقاط الحكومة الائتلافية بأنها وليدة قوة الجناح اليساري من القوى الديموقراطية، وإنما فقط بعجز الحكومة عن توفير الخبز والسلم للشعب. إن الجناح اليساري لن يستطيع الاحتفاظ بالحكم إلا إذا حل هاتين المشكلتين..

«هل يستطيع الحكم توفير الخبز للشعب؟ الحبوب نادرة. وأغلبية الفلاحين لن تقف معكم لأنكم عاجزون عن منحها الآلات التي تحتاج. إنه من شبه المستحيل الحصول على المحروقات والحاجيات الضرورية الأخرى...

«أما بالنسبة للسلم، فهنا يزداد الأمر صعوبة. لقد رفض الحلفاء التفاوض مع سكوبيليف. وهم لن يقبلوا أبدا باقتراح عقد ندوة للسلم صادر عنكم. لن تعترف بكم لندن وباريس ولا برلين...

«ولن تستطيعوا الاعتماد على مساعدة فعلية تقدمها البروليتاريا في بلاد الحلفاء لأن البروليتاريا بعيدة جدا عن النضال الثوري في معظم هذه البلاد. تذكروا أن القوى الديموقراطية المتحالفة عجزت عن عقد ندوة ستوكهولم. أمّا بالنسبة للاشتراكيين الديموقراطيين الألمان، كنت أتحدث منذ قليل إلى الرفيق غولدنبرغ، أحد المندوبين إلى ستوكهولم؛ فقد قال له أحد ممثلي أقصى اليسار أن الثورة مستحيلة في ألمانيا خلال الحرب...» وهنا بدأت المقاطعات سريعة وفظة، إلاّ أن أفيلوف تابع حديثه:

«أمّا أن تؤدي عزلة روسيا إلى هزيمة الجيش الروسي المفجعة على يد الألمان، وعقد اتفاقية سلم بين الحلف النمساوي-الألماني والحلف الفرنسي البريطاني على حساب روسيا، وإمّا إلى صلح منفرد مع ألمانيا.

«لقد علمت لتوه أن سفراء دول الحلفاء يستعدون للعودة إلى بلادهم، وأنه يجري تكوين لجان لإنقاذ الوطن والثورة في جميع مدن روسيا...

«لا يستطيع حزب واحد أن ينتصر بمفرده دون صعوبات عظيمة. إن غالبية الشعب، التي تدعم حكومة ائتلاف اشتراكية، هي وحدها التي تستطيع تحقيق الثورة»...

ثم تلا القرار المشترك الصادر عن الحزبين:

«نظرا لأن إنقاذ مكاسب الثورة لا يمكن أن يتم إلاّ بالعمل فورا على تشكيل حكومة تعتمد على القوى الديموقراطية الثورية المنظمة في سوفييت مندوبي العمال والجنود والفلاحين، ولأن هدف مثل هذه الحكومة هو تحقيق السلم بأسرع وقت ممكن، ونقل الأراضي إلى اللجنة الزراعية، وتنظيم السيطرة على الإنتاج الصناعي، ودعوة الجمعية التأسيسية إلى الانعقاد في الموعد المقرر، فإن المؤتمر يعيّن لجنة تنفيذية لتشكيل حكومة بعد الاتفاق مع المجموعات الديموقراطية التي تشارك في أعمال هذا المؤتمر».

بالرغم من النشوة الثورية التي تملكت هذا الجمع الظافر، فإن حجج أفيلوف الباردة والهادئة قد هزته. فتلاشى الصياح والصفير عند نهاية خطابه، وسمع بعض التصفيق عند الختام.

وعقبه كاريلين، وهو شاب أيضا وشجاع لا يشك أحد بإخلاصه، متكلما باسم الاشتراكيين الثوريين اليساريين، حزب ماريا سبيريدونوفا، الحزب الذي يكاد أن يكون وحيدا في سيره مع البلاشفة. والذي يمثل الفلاحين الثوريين:

«إن حزبنا قد رفض الاشتراك في مجلس مفوضي الشعب لأننا لا نريد أن ننفصل نهائيا عن هذا القسم من الجيش الثوري الذي غادر المؤتمر، فإذا حدث مثل هذا الانفصال يصبح من المستحيل علينا أن نلعب دور الوسيط بين البلاشفة والفئات الديموقراطية الأخرى... ونعتبر ذلك واجبنا الرئيسي في هذا الوقت. إننا لن ندعم أية حكومة إلاّ إذا كانت حكومة تحالف اشتراكي...

«وفيما عدا ذلك، فإننا نحتج على سلوك البلاشفة الاستبدادي. لقد طرد المفوضون التابعون لنا من مراكزهم. وأمس منعت «راية العمال»، «صحيفتنا الوحيدة، من الصدور...

«إن مجلس الدوما المركزي يشكل لجنة قوية لإنقاذ الوطن والثورة ليحاربكم بها. إنكم معزولون منذ الآن، وحكومتكم لا تحظى بتأييد مجموعة ديموقراطية واحدة»...

لقد اعتلى تروتسكي المنبر الآن، واثقا من نفسه ومسيطرا، بذلك التعبير الساخر حول فمه الذي يكاد يكون مزدريا. فتكلم بصوت رنان فهب الجميع إليه.

«إن هذه العبارات حول أخطار عزلة حزبنا ليست جديدة. لقد شاعت تنبؤات عن هزيمتنا المحتملة عشية الثورة. كان الجميع ضدنا؛ ولم يبق معنا في اللجنة العسكرية الثورية إلاّ قسم من الاشتراكيين الثوريين. لماذا استطعنا أن نسقط الحكومة بدون إراقة دم تقريبا؟... إن الواقع هو البرهان الأكيد على أننا لسنا معزولين. الحكومة المؤقتة هي التي كانت معزولة فعليا، والأحزاب الديموقراطية التي تقف ضدنا كانت معزولة هي أيضا، وهي معزولة الآن، وستبقى إلى الأبد معزولة عن البروليتاريا.

«إنهم يتكلمون عن ضرورة التحالف. هناك تحالف واحد ممكن، وهو تحالف العمال والجنود وأفقر الفلاحين، وأنه ليشرّف حزبنا أن يكون قد حقق هذا التحالف... عن أي نوع من التحالف تحدث أفيلوف؟ التحالف مع الذين دعموا حكومة خيانة الشعب؟ إن التحالف لا يزيدنا قوة في جميع الحالات. هل كان بإمكاننا أن ننظم الانتفاضة، مثلا، لو كان دان وأفاكسانتييف في صفوفنا؟ (موجة ضحك).

«لم يوزع أفاكسانتييف إلاّ القليل من الخبز. فهل يؤدي التحالف مع جماعة المدافعين إلى توزيع كميات أكبر؟ بين الفلاحين وأفاكسانتييف، الذي أمر باعتقال أعضاء لجان الأرض، اخترنا الفلاحين! إن ثورتنا ستبقى نموذجا عن الثورات في التاريخ...

إنهم يتهموننا برفض الاتفاق مع الأحزاب الديموقراطية الأخرى. ولكن هل نحن الذين يجب أن نكون موضع اللوم؟ أم ترى يجب علينا أن نلقي اللوم على «سوء التفاهم»، على حد تعبير كارييلين؟ عندما يكون حزب في خضم ثورة مازال يتصاعد منها دخان البارود، ويقول «هذه هي السلطة – فخذوها!» وعندما ينضم الذين عُرضت عليهم الثورة إلى صفوف الأعداء، فهذا لا يسمى سوء تفاهم... إنه إعلان حرب لا ترحم. ولسنا نحن الذين أعلنّا الحرب...

«يهددنا أفيلوف بأن مجهوداتنا للسلم سوف تفشل إذا بقينا «معزولين». إني أكرر: أنا لا أفهم كيف يمكن للتحالف مع سكوبيلوف أو حتى تريشنكو أن يساعدنا على تحقيق السلم! يحاول أفيلوف بث الذعر فينا بالحديث عن سلم يتم على حسابنا. جوابي هو أن روسيا الثورية لا محالة هالكة إذا ظلت البرجوازية الاستعمارية تحكم روسيا...

«هناك احتمالان: أمّا أن تطلق الثورة الروسية حركة ثورية في أوروبا، وإمّا أن تسحق القوى الأوروبية الثورة الروسية!»

فحيُّوه بهتاف راعد لا ينتهي، يزكيه الإقدام الذي أظهره في فكرة نصرة الإنسانية جمعاء. ومنذ ذلك الحين أصبح يوجد عنصر واع وحاسم في جميع أعمال هذه الجماهير الثورية فلم يغادرها أبدا.

ولكن المعركة كانت تتبلور في الجهة المقابلة. أعطى كامنييف حق الكلام لمندوب عن «إتحاد عمال سكك الحديد». وكان رجلا مربوعا، قاسي الوجه، يبدو أنه يضمر عداء لا يلين. فقذف الحضور بمفاجأة مذهلة:

«باسم قوى منظمة في روسيا أطلب حق الكلام لأقول أن «الفيكجل» قد كلفتني بأن أنقل إليكم قرار الاتحاد حول تنظيم السلطة. إن اللجنة المركزية ترفض رفضا قاطعا أن تؤيد البلاشفة إذا أصروا على عزل أنفسهم عن مجموع القوى الديموقراطية في روسيا!» (تعالت جلبة عظيمة من جميع أرجاء القاعة).

«في عام 1905، وخلال أيام كورنيلوف، كان عمال سكك الحديد أحسن المدافعين عن الثورة، ولكنكم لم تدعونا إلى مؤتمركم» -(صيحات: «التسايكا القديمة هي التي لم تدعكم!» إلاّ أن الخطيب لم يأبه بها) «إننا لا نعترف بشرعية هذا المؤتمر؛ فمنذ تغيُّب المناشفة والاشتراكيين الثوريين لم يعد هناك نصاب شرعي... إن الاتحاد يؤيد التسايكا القديمة، ويعلن أنه لا يحق للمؤتمر أن ينتخب لجنة جديدة...

«يجب أن تكون السلطة سلطة اشتراكية وثورية مسؤولة أمام الهيئات الشرعية التابعة لمجموع القوى الديموقراطية الثورية. وحتى تشكيل مثل هذه السلطة، فإن اتحاد عمال سكك الحديد، الذي يرفض نقل القوات المعادية للثورة إلى بتروغراد، سوف يمتنع، في الوقت نفسه، عن تنفيذ أي أمر كان بدون موافقة «الفيكجل». وأن «الفيكجل» سوف تستلم أيضا كل إدارة سكك الحديد في روسيا».

وتلاشت خاتمة خطابه وسط عاصفة من الشتائم انهالت عليه. ولكن الضربة كانت عنيفة –وكان هذا باديا من خلال تجهُّم وجوه أعضاء مجلس الرئاسة. إلاّ أن كامنييف اكتفى بالقول أنه لا يمكن أن يكون هناك أدنى شك في شرعية المؤتمر، لأنه يتعدى ويزيد حتى عن النصاب الذي وضعته «التسايكا» القديمة بالرغم من انشقاق المناشفة والاشتراكيين الثوريين...

ثم جرى التصويت على «تنظيم السلطة» الذي منحت بموجبه الثقة، بأغلبية ساحقة، لمجلس مفوضي الشعب.

ولم تستغرق عملية انتخاب «التسايكا» الجديدة، أي البرلمان الجديد للجمهورية الجديدة، أكثر من خمس عشرة دقيقة. فأعلن تروتسكي تشكيله على الشكل التالي: 100 عضو بينهم 70 بلشفيا... أمّا بالنسبة للفلاحين والأجنحة المنشقة فقد احتفظ لها بمقاعد. وختم تروتسكي قائلا: «إننا نرحب في حكومتنا بجميع الأحزاب والمجموعات التي تتبنى برنامجنا».

وبهذا جرى حل المؤتمر العام الثاني للسوفييت، فترك المجال أمام أعضائه ليرجعوا بسرعة إلى بيوتهم في جميع أرجاء روسيا ويخبروا عن الأحداث العظيمة التي شاهدوها...

كانت الساعة تقارب السابعة صباحا عندما أيقظنا سائقي السيارات الذين كلفتهم «نقابة عمال الحافلات» بالانتظار في سمولني لينقلوا مندوبي السوفييت إلى منازلهم، من نومهم. فكّرت: الانشراح في هذه السيارة المزدوجة أقل مما كان عليه ليلة أمس. كان العديدون يبدون قلقين، وربما كانوا يسألون أنفسهم: «إننا السادة الآن، كيف نستطيع فرض إرادتنا»؟

قرب البناية التي أسكن، استوقفتنا دورية من المواطنين المسلحين الذين فتشونا بدقة. كان بلاغ مجلس الدوما يفعل فعله...

سمعتنا صاحبة البيت ندخل، فأسرعت إلينا تتعثر في ثوبها البنفسجي الحريري، قالت:

«طلبت لجنة المساكن مجددا أن تأخذوا دوركم في الحراسة مع سائر الرجال».

- لأي سبب؟

- لحماية المنزل والنساء والأطفال.

- ممن؟

- من اللصوص والمجرمين.

- ولكن افترضي أن مفوضا من اللجنة العسكرية الثورية جاء مفتشا عن الأسلحة.

- آه، هذا ما سيدّعيه الجميع... وعلى كل حال، ما الفرق؟

فأكدت لها بجدية بالغة أن القنصل قد منع جميع المواطنين الأمريكيين من حمل السلاح، خاصة إذا كانوا في جوار مثقفين روس...

[*]- كروبوتكين: مفكر فوضوي روسي من أصل نبيل. (المترجم)

==========

هوامش الفصل الخامس

1- نداءات وبلاغات

من اللجنة العسكرية الثورية في 8 تشرين الثاني (نوفمبر)

«إلى جميع لجان الجيش، إلى جميع منظمات سوفييت مندوبي الجنود.

إن حامية بتروغراد قد أطاحت بحكومة كرنسكي التي وقفت ضد الثورة والشعب...إن اللجنة العسكرية الثورية، إذ تبلغ هذه الأنباء للجبهة والبلد، تطلب من جميع الجنود أن يرافقوا بيقظة سلوك الضباط. إن الضباط الذين لا يعلنون تأييدهم العلني للثورة يجب أن يُعتقلوا فورا بصفتهم أعداء.

إن سوفييت بتروغراد يفسر برنامج الحكومة الجديدة على الشكل الآتي: اقتراحات فورية لعقد سلم ديموقراطي عام، انتقال الملكيات الكبيرة إلى الفلاحين فورا، دعوة صادقة للجمعية التأسيسية إلى الانعقاد. لا يجوز لجيش الشعب الثوري أن يسمح بإرسال قوات مشبوهة إلى بتروغراد، اعملوا بواسطة الحجج، بواسطة الإقناع، ولكن إذا فشلت هذه الأساليب، أوقفوا تحركات القوات بالقوة التي لا ترحم.

يجب تلاوة هذا الأمر على مسمع جميع الوحدات العسكرية في كل قطاع من قطاعات الخدمة. إن من يخفي محتويات هذا الأمر عن جماهير الجنود... يرتكب جريمة خطيرة ضد الثورة، يعاقبه عليها القانون الثوري.

أيها الجنود؟ ناضلوا من أجل السلم والخبز والأرض والحكم الشعبي»!

***

إلى لجان الجيش والفرق والألوية والقطاعات والفيالق في الجبهة والمؤخرة، إلى كل منظمات سوفييت مندوبي العمال والجنود والفلاحين:

«أيها الجنود، أيها الضباط الثوريون!

إن اللجنة العسكرية الثورية، بالاتفاق مع غالبية العمال والجنود والفلاحين، قد أصدرت قرارا باستقدام الجنرال كورنيلوف وجميع الذين عاونوه في مؤامراته إلى بتروغراد فورا، واحتجازهم في حصن بطرس-بولس لتقديمهم إلى المحكمة العسكرية الثورية...

تعتبر اللجنة أن كل من يرفض تنفيذ هذا القرار خائنا للثورة، وأي أمر قد يصدر عنه يُعتبر لاغيا».

اللجنة العسكرية الثورية

التابعة لسوفييت مندوبي العمال والجنود في بتروغراد

***

إلى منظمات سوفييت مندوبي العمال والجنود والفلاحين في المقاطعات والأقضية:

« يُطلق سراح جميع أعضاء لجان الأرض المعتقلين فورا بأمر من المؤتمر العام للسوفييت. ويُلقى القبض إلى المفوضين الذين اعتقلوهم.

إن السلطة هي بيد السوفييت من الآن فصاعدا. لقد فُصل مفوضو الحكومة المؤقتة. والمرجو من رؤساء مختلف منظمات السوفييت المحلية الاتصال فورا بالحكومة الثورية».

اللجنة العسكرية الثورية

==========

2- احتجاج مجلس الدوما البلدي

إن المجلس البلدي المركزي في المدينة، الذي انتُخب على أساس أكثر المبادئ ديموقراطية، قد أخذ على عاتقه، في فترة عمَّت فيها الفوضى، مهمة إدارة الشؤون البلدية والإعاشة. أمّا الآن، وقبل ثلاثة أسابيع من موعد الانتخابات للجمعية التأسيسية ورغم تهديد العدو الخارجي، فإن الحزب البلشفي، الذي قلب السلطة الثورية الشرعية الوحيدة بواسطة القوة المسلحة، يتعدى على حقوق الإدارة الذاتية واستقلالها طالبا منها الخضوع لإرادة مفوضيه ولسلطته غير الشرعية.

في هذه الفترة المفجعة والرهيبة، يتوجه مجلس بتروغراد البلدي إلى ناخبيه. وإلى روسيا بأسرها، ليعلن على رؤوس الاشهاد أنه لن يرضخ لأي مساس بحقوقه واستقلاله، وأنه سيبقى في مركز المسؤولية الذي عينته له إرادة سكان العاصمة.

إن مجلس الدوما المركزي في بتروغراد يتوجه إلى جميع مجالس الدوما والزيمستوفا في الجمهورية الروسية طالبا منها أن تتأهب للدفاع عن استقلال وحرمة الإدارة الذاتية الشعبية، أحد أعظم مكاسب الثورة الروسية».

==========

3– مرسوم الأرض –تعليمات الفلاحين (الناكاز)

إن الجمعية التأسيسية العامة هي وحدها المخوّلة بوضع حل نهائي لمسألة الأرض.

إن أعدل حل لقضية الأرض يجب أن تكون على الشكل التالي:

1- يلغى حق الملكية الفردية للأرض إلى الأبد؛ ولا يُسمح ببيع أو تأجير أو رهن أو انتزاع ملكية الأرض بأي شكل كان. إن جميع أراضي الوقف، وأراضي النبلاء، وأراضي الإمبراطور، وأراضي الأديرة والكنائس... والملكيات الخاصة، والمشاعات، وملكيات الفلاحين، أو غيرها، تصادر بدون تعويض وتصبح ملكية وطنية من الآن فصاعدا، وتوضع تحت تصرف الذين يفلحونها.

يحق للذين يتضررون من جراء هذا التحول الاجتماعي في حقوق الملكية الاستفادة من المساعدة العامة التي تُقدم لهم خلال الوقت اللازم لتكييف أنفسهم مع ظروف معيشتهم الجديدة.

2-جميع الثروات تحت الأرض، من معادن وزيوت وفحم وأملاح وما شابه، وجميع الأحراج والمياه ذات المنفعة الوطنية تصبح ملكا للدولة، توضع جميع الجداول والبحيرات والأحراج الثانوية الأهمية تحت تصرف المشاعات المعنية بالأمر، على شرط أن تديرها هيئات الحكم الذاتي المحلية.

3-لا ينطبق مشروع تقسيم الأرض على جميع الرقع المزروعة على الطريقة العلمية – حدائق، بساتين، مشاتل... وغيرها- وإنما يجري تحويلها إلى مزارع نموذجية وتنتقل ملكيتها إلى يد الدولة أو المشاعة المعني بالأمر حسب حجمها وأهميتها.

البنايات الملاصقة للبيوت في المدينة والقرى مع حدائقها وبساتينها الخاصة تبقى بين أيدي ملاكيها الحاليين؛ ويحدد القانون حجم هذه الرقع والضرائب المفروضة عليها.

4-تصادر جميع الإسطبلات ومؤسسات تربية الماشية أو الطيور وغيرها، حكومية كانت أم خاصة، وتصبح ملكية وطنية، وتوضع بين أيدي الدولة أو التجمع المعني بالأمر حسب حجمها وأهميتها.

يعود أمر البت في التعويض عما سبق إلى الجمعية التأسيسية.

5-تصادر جميع الماشية والأعتدة التابعة للأراضي المصادرة، من آليات ومواش، وتؤول ملكيتها بدون تعويض، إلى الدولة أو المشاعة حسب كميتها أو أهميتها.

لا تنطبق عملية مصادرة مثل هذه الآليات والمواشي على ملكيات الفلاحين الصغيرة.

6-يُمنح حق استعمال الأرض، بدون تمييز بين رجل وامرأة، إلى جميع المواطنين الراغبين في العمل على الأرض بمساعدة عائلتهم أو بالشراكة ما داموا مؤهلين للعمل. العمل المأجور ممنوع.

في حالة عجز أحد أعضاء المجتمع عن العمل لمدة سنتين، يجب على المشاعة أن تساعده خلال هذه المدة بالعمل المشترك على قطعة أرض.

عندما يفقد أحد المزارعين القدرة على العمل بنفسه في أرض، بسبب الشيخوخة أو المرض، يُطلب منه إعادة هذه الأراضي إلى الحكومة ويتقاضى راتبا في المقابل.

7- يجب تحقيق المساواة في استثمار الأرض، أي أنه يجب تقسيم الأرض على العمال حسب الظروف المحلية، ووحدات العمل وحاجات الأفراد.

ويمكن تحديد استثمار الأرض فرديا كمزارع أو جمعيات أو شراكات حسب ما تقرره القوى أو مراكز الاستيطان.

8-تضم كل قطعة أرض مصادرة إلى «المكتب الشعبي للأرض». ويتم توزيعها على العمال بواسطة أجهزة الإدارة المحلية والمركزية، ابتداء من الهيئات الديموقراطية في القرى إلى المؤسسات المركزية في المقاطعات، باستثناء الجمعيات التعاونية في المدن والريف.

يحق لمكتب الأرض أن يعيد توزيع الأرض دوريا، وفق زيادة عدد السكان وتطور الإنتاجية والاقتصاد الريفي.

في حال حدوث تعديلات في حدود الأرض يجب أن يبقى المركز الرئيسي للرقعة على حاله.

تعود أراضي الذين ينفصلون عن المجتمع إلى مكتب الأرض، على شرط أن يكون لأقرباء هؤلاء أو لأصدقائهم، في حال ذكر ذلك، الأولوية في إعادة توزيع هذه الأراضي.

عندما تعود الأراضي إلى مكتب الأرض قبل استنفاد الأموال التي خصصت للسماد أو لتحسين الأرض، تحق المطالبة بهذه الأموال.

إذا لم تكن أراضي مكتب الأرض في بعض الأمكنة كافية لسد حاجات السكان المحليين، يجب على الفائض من السكان أن يهاجر.

وتتعهد الدولة بتنظيم الهجرة ودفع تكاليفها وتأمين الآليات والمواشي الضرورية للمهاجرين.

تتم الهجرة كالآتي: أولا، هجرة الفلاحين الذين لا يملكون أرضا، والذين يعبرون عن رغبتهم في الهجرة؛ ثم الهاربون من الجيش والأشخاص غير المرغوب بهم في مجتمعاتهم، وما شابه؛ وأخيرا الذين تقع عليهم القرعة حسب الاتفاق.

إن كل ما تحتويه هذه التعليمات، التي تعبر عن إرادة الغالبية الساحقة من فلاحي روسيا الواعين، يتخذ صفة القانون المؤقت. ويصبح ساري المفعول حالا بقدر الامكان، ويطبق تدريجيا في بعض الحالات، حسب ما تقرره منظمات سوفييت مندوبي الفلاحين المنطقية، إلى حين انعقاد الجمعية التأسيسية.

==========

4- الأرض والهاربون من الجيش

لم تضطر الحكومة إلى اتخاذ أي قرار يتعلق بحق الهاربين من الجيش في الأرض، لأن انتهاء الحرب ورفع حالة التعبئة عن الجيش أزالا مشكلة الهاربين من الجيش أوتوماتيكيا.

==========

5- مجلس مفوضي الشعب

كان مجلس مفوضي الشعب مكونا في البدء من البلاشفة فقط. إلا أن اللوم في ذلك لا يقع على البلاشفة وحدهم. ففي 8 تشرين الثاني (نوفمبر)، عرضوا بعض المقاعد على الاشتراكيين الثوريين اليساريين فرفض هؤلاء العرض.

الفصـــــــل السادس

لجنة الإنقاذ

الجمعة، التاسع تشرين الثاني (نوفمبر)....

«نوفوتشير كاسك، في تشرين الثاني (نوفمبر).

نظرا لثورة البلاشفة، ومحاولتهم خلع الحكومة المؤقتة واستلام السلطة في بتروغراد وسواها... تعلن حكومة القوزاق أنها تعتبر هذه الأعمال إجرامية وغير مقبولة إطلاقا. وبناء عليه فإن القوزاق سيوجهون كل تأييدهم للحكومة المؤقتة التي هي حكومة ائتلافية. ونظرا لهذه الضرورة، وإلى أن تعود الحكومة المؤقتة للحكم ويعود الأمن والنظام إلى روسيا، فإني سأستلم السلطة فيما يختص بإقليم الدون ابتداء من السابع من تشرين الثاني (نوفمبر).

التوقيع: **أتامان خالدين**
رئيس حكومة الجنود القوزاق»

البلاغ الصادر في «غاتشينا» عن رئيس الوزراء كرنسكي:

«أنا، رئيس وزراء الحكومة المؤقتة والقائد الأعلى لجميع القوات المسلحة للجمهورية الروسية، أعلن بأني على رأس فرق من الجبهة مخلصة للوطن.

آمر جميع الجنود في منطقة بتروغراد العسكرية، الذين استجابوا خطأ أو عن تسرّع لنداء خونة الوطن والثورة، بالعودة إلى تأدية واجبهم دون تأخير.

يقرأ هذا الأمر في جميع الفرق والألوية والسرايا.

التوقيع: **أ. ف. كرنسكي**
رئيس وزراء الحكومة المؤقتة
والقائد الأعلى للقوات المسلحة»

برقية كرنسكي إلى الجنرال الذي يقود الجبهة الشمالية:

«لقد استولت القوات الموالية على غاتشينا دون سفك دماء. سلّمت وحدات من بحارة كرونستاد ومن فرق سيميونوفسكي وأسميلوفسكي أسلحتها دون مقاومة وانضمت إلى الجنود الحكوميين.

آمر جميع الوحدات المعنية بالأمر أن تتقدم بأسرع ما يمكن. لقد أمرت اللجنة العسكرية الثورية جنودها بالتراجع»...

سقطت «غاتشينا» ليلا، وهي تقع حوالي ثلاثين كيلومتر إلى الجنوب الغربي من بتروغراد. كانت وحدات من الفرقتين المذكورتين –وليس البحارة- تتجول بدون قيادة في المنطقة، فحاصرها القوزاق فعلا فاضطرت إلى تسليم أسلحتها. ولكنه ليس صحيحا أنها انضمت إلى جنود الحكومة. وفي هذه اللحظة بالذات كانت جموع منها في «سمولني» مضطربة خجولة تحاول تبرير ما حصل: لم يعلموا بأن القوزاق كانوا بهذا القرب... لقد حاولوا أن يناقشوا القوزاق...

يظهر أن الفوضى تعم الجبهة الثورية. فحاميات كل المدن الصغيرة جنوبا قد انقسمت نهائيا وتصنف نفسها إلى قسمين أو ثلاثة: القيادات العليا مع كرنسكي، وأكثرية الجنود والرتب الصغرى مع السوفييت، والبقية تتردد بتعاسة بين الاثنين.

عجلت اللجنة العسكرية الثورية بتعيين ضابط طموح من الجيش النظامي لقيادة الدفاع عن بتروغراد، النقيب مورافيوف، نفس الشخص الذي نظم «فيالق الموت» في الصيف، والذي سمع ذات مرة ينصح الحكومة لأنها «متهاونة كثيرا مع البلاشفة، يجب سحقهم». رجل ذو عقل عسكري، معجب بالقوة والجرأة، ربما بإخلاص...

عندما نزلت في الصباح كان قد ألصق أمران جديدان صادران عن اللجنة العسكرية الثورية يطلبان من جميع الحوانيت والمخازن أن تفتح كالمعتاد، وأن توضع كل الغرف والشقق الخالية تحت تصرف اللجنة...

مرت حتى الآن ست وثلاثون ساعة على عزلة البلاشفة عن مقاطعات روسيا والعالم الخارجي. رجال السكك الحديدية وموظفو البرق يرفضون إرسال رسائلهم، وسعاة البريد لا يمسُّون بريدهم. راديو الحكومة في «تسارسكويي سيلا» هو الوحيد الذي يذيع الأخبار والبيانات كل نصف ساعة لأطراف العالم الأربعة، ومفوضو «سمولني» يسابقون الدوما على قطارات مسرعة عبر نصف العالم، وقد طارت طائرتان محملتان بالدعاية نحو الجبهة...

ولكن أمواج الثورة تنتشر في روسيا بسرعة تفوق أي ملكة بشرية. اتخذ سوفييت «هلسنغفورس» مقررات تأييد، واحتل بلاشفة «كييف» مخزن الأسلحة ومحطة الإرسال، ولكن ما لبثت وفود مؤتمر للقوزاق صادف عقده هناك أن طردتهم منها. وفي «قازان» اعتقلت اللجنة العسكرية الثورية قيادة الحامية المحلية ومفوض الحكومة المؤقتة. من كراسنويارسك البعيدة جاءت الأخبار بأن السوفييت مسيطر على المؤسسات البلدية؛ وفي موسكو، حيث الوضع مهدد بإضراب ضخم يقوم به عمال مدابغ الجلود من جهة وبإغلاق عام من جهة أخرى، صوّت السوفييت بأغلبية ساحقة تأييدا لعمل البلاشفة في بتروغراد... وبدأت لجنة عسكرية ثورية في العمل فعلا هناك...

الشيء نفسه تكرر في كل مكان. الجنود العاديون والعمال الصناعيون ساندوا السوفييت بأغلبية ضخمة، والضباط وملاك الأرض والطبقة الوسطى بصورة عامة كانوا إلى جانب الحكومة مثل الكاديت البرجوازيين والأحزاب الاشتراكية «المعتدلة».. في كل هذه المدن تألفت لجان الإنقاذ الثورة والوطن، وأخذت تتسلح للحرب الأهلية...

كانت روسيا الواسعة في حالة تحلُّل. بدأت هذه العملية منذ 1905، ولم يكن مفعول ثورة آذار (مارس) إلاّ تعجيلا لها، وفيما ولّدت هذه الثورة رؤية لنظام جديد فقد انتهت بالحفاظ على البنية الفارغة للنظام القديم. أمّا الآن فقد حطم البلاشفة، بليلة واحدة، هذه البنية مثلما ينفخ المرء مبددا الدخان. روسيا القديمة انتهت، والمجتمع الجنيني يذوب ويتدفق في حرارة الخلق الأولية، ومن بحر اللهيب المتلاطم ينبثق الصراع الطبقي صاعقا وبدون رحمة، ومعه القشرة الرقيقة لكواكب جديدة تبرد ببطء.

كانت ست عشرة وزارة مضربة في بتروغراد بقيادة وزارتي العمل والتموين، الوزارتان الوحيدتان اللتان أحدثتهما حكومة آب (أغسطس-) المؤقتة.

«حفنة من البلاشفة» تقف وحيدة في ذلك الصباح القارس تحت العواصف المتطاولة مثلما لم يكن أحد وحيدا من قبل (1). اللجنة العسكرية الثورية المهددة بالموت تحارب دفاعا عن وجودها: «الإقدام، مزيدا من الإقدام، والإقدام دائما».

في الساعة الخامسة صباحا، دخل الحرس الأحمر مطابع الحكومة البلدية وصادر آلافا من منشورات الاحتجاج والنداءات من مجلس الدوما، كما منع جريدة السلطة المحلية من الصدور (نشرة الحكم الذاتي البلدي). وانتزعت جميع الصحف البرجوازية من مطابعها، حتى جريدة «صوت الجندي» -لسان حال «التسايكا»- ولكن هذه غيرت اسمها وظهرت بطبعة من مئة ألف تهدر غضبا وتحديا:

«الرجال الذين بدأوا ضربة الخيانة في الليل، الذين منعوا الصحف، لن يستطيعوا أن يواصلوا إخفاء الحقيقة عن البلد لوقت طويل. سيعرف البلد الحقيقة! وسوف يقدركم أيها السادة البلاشفة! سوف نرى!»...

عندما نزلنا في شارع نييفسكي بعد الظهر، كان الناس محتشدين أمام الدوما. الحرس الأحمر والبحارة يقفون هنا وهناك ببنادق مشرعة الحراب. كل واحد منهم محاط بمئة رجل وامرأة -كتبة، طلاب، أصحاب حوانيت- ملوَّحين بقبعاتهم، قاذفين بشتائمهم وتهديداتهم. وعلى الدرج وقف الكشافة وبعض الضباط يوزعون أعداد «صوت الجندي». ووقف عامل ذو شريط أحمر حول ذراعه ومسدس في يده، يرتجف من الغضب والتوجس وسط حشد معادٍ قرب قاعدة الدرج، مطالبا تسليمه الصحف... لم يحصل شيء من هذا مطلقا في التاريخ على ما أظن. من جهة حفنة من العمال والجنود والمسلحين يمثلون ثورة مظفرة وهم تعساء رغم ذلك، ومن جهة أخرى حشد غاضب مكون من نوع الناس الذي يملأ الشارع الخامس (في نيويورك) وقت الظهر، ساخرين، شاتمين، زاعقين: «خونة! مخربون! همج»!

الأبواب يحرسها الطلاب والضباط بشرائط بيض حول أذرعهم مكتوب عليها بالأحمر «ميليشيا لجنة السلامة العامة»، ونصف دزينة من الكشافة تروح وتجيء. المحل فوق مليء بالحركة. النقيب غومبرغ ينزل الدرج ويقول: «يريدون حل الدوما. المفوض البلشفي يقابل الرئيس الآن». ولما وصلنا نهاية الدرج خرج ريازانوف مسرعا. كان هناك يطالب أن تعترف الدوما بمجلس مفوضي الشعب وكان رفض الرئيس قاطعا.

في المكتب حشد لاغط، مسرع، متحرك، صائح -موظفين حكوميين، مثقفين، صحفيين، مراسلين أجانب، ضباط إنكليز وفرنسيين... مهندس المدينة يشير إليهم بانتصار، مفسرا: «السفارات تعترف بالدوما بوصفها السلطة الوحيدة الآن. المسألة مسألة ساعات بالنسبة للبلاشفة اللصوص القتلة! كل روسيا تتجمع إلى جانبنا»...

لجنة الإنقاذ تعقد اجتماعا هائلا في قاعة الاسكندر. فيليبوسكي يرأس الاجتماع وسكوبيليف على المنبر مرة أخرى، يقدم تقريرا، وسط التصفيق العاصف، عن الانضمامات الجديدة إلى اللجنة: اللجنة التنفيذية لسوفييت الفلاحين، «التسايكا» القديمة، اللجنة المركزية للجيش، اللجنة المركزية للأسطول، المندوبون المناشفة والاشتراكيون الثوريون، «جماعة الجبهة» في مؤتمر السوفييت، اللجان المركزية للأحزاب المنشفية والاشتراكية الثورية والاشتراكية الشعبية، مجموعة «يندينستوفا»، اتحاد الفلاحين، التعاونيات، الزيمستوفا، الحكومة المحلية، نقابات البريد والبرق، «الفيكجل»، مجلس الجمهورية الروسية، اتحاد التجار والصناعيين..

«... سلطة السوفييت ليست سلطة ديموقراطية، إنها سلطة ديكتاتورية –وهي ليست دكتاتورية العمال بل دكتاتورية ضد العمال. على جميع الذين يشعرون بالحماس الثوري أو المؤهلين للشعور بمثل هذا الحماس أن يلتحموا للدفاع عن الثورة...

المشكلة المطروحة الآن ليست مجرد ردع الأذى الذي تسببه جماعة من الغوغائيين اللامسؤولين، وإنما أيضا القتال ضد الثورة المضادة... إذا كانت الشائعات صحيحة بأن جماعة من الجنرالات في المناطق تستغل الظروف للزحف على بتروغراد، فإن ذلك برهان آخر على وجوب إنشاء قاعدة صلبة للحكم الديموقراطي. وإلاّ فإن المشاكل من اليمين ستتبع المشاكل من اليسار...

لا يمكن لحامية بتروغراد أن تسكت عندما يتعرض المواطنون الذين يشترون «صوت الجندي» والصبية باعة صحيفة «صوت العمال» للاعتقال في الشوارع. لقد فات وقت المقررات.. فلينسحب الذين فقدوا الإيمان بالثورة.. لكي ننشئ قوة موحدة، علينا استعادة كرامة الثورة...

فلنقسم على أن ننقذ الثورة أو نموت»!..

ووقف المجتمعون هاتفين بأعين متأججة. ولم يكن هناك عامل واحد في المكان...

ثم جاء دور واينشتين:

«يجب أن نحافظ على هدوئنا، ونمتنع من أي عمل قبل أن يتجمع الرأي العام بصلابة حول لجنة الإنقاذ –إذ ذاك نستطيع الانتقال من الدفاع إلى العمل»!

وأعلن ممثل نقابة عمال سكك الحديد أن منظمته قد أخذت المبادرة في تشكيل الحكومة الجديدة، وأن ممثليها الآن يتباحثون في القضية مع «سمولني»... ويتبع ذلك نقاش حاد: هل يسمح بقبول البلاشفة في الحكومة الجديدة؟ مارتوف ينادي بقبولهم؛ ويقول: على أية حال فهم يمثلون حزبا سياسيا مهما. الآراء جد منقسمة حول هذا، فالجناح اليميني من المناشفة والاشتراكيون الثوريون، والاشتراكيون الشعبيون، والتعاونيات والعناصر البرجوازية كلها معارضة لذلك.

يقول أحد المتكلمين: «لقد خانوا الثورة. أشعلوا الحرب الأهلية وفتحوا الجبهة للألمان. يجب سحق البلاشفة دون رحمة»...

وفضل سكوبيلين استبعاد البلاشفة والكاديت معا.

تكلمنا مع اشتراكي ثوري شاب قد انسحب من الندوة الديموقراطية مع البلاشفة ليلة فرض تسيريتللي و«المساومون» التحالف على الديموقراطية الروسية.

سألته: «أنت هنا»؟

والتهبت عيناه وأجاب صارخا: «نعم! تركت المؤتمر مع حزبي يوم الأربعاء. لم أخاطر بحياتي طيلة عشرين عاما وأكثر لأخضع الآن لطغيان «سواد الناس». إن طرقهم لا تحتمل. ولكنهم لم يحسبوا حساب الفلاحين... عندما يتحرك الفلاحون سيتقرر مصيرهم في دقائق»...

-«ولكن الفلاحين –هل سيتحركون؟ ألا يرضيهم مرسوم الأرض؟ ماذا يريد الفلاحون أكثر من ذلك؟»

-«آه، مرسوم الأرض!» قال بغضب «نعم، هل تعلم ما هذا المرسوم؟ إنه مرسومنا نحن- إنه برنامج الحزب الاشتراكي الثوري جملة وتفصيلا! لقد قرر حزبي هذه السياسة بعد أن بحث بعناية وتدقيق مطالب الفلاحين أنفسهم. إنها لفضيحة...».

-«ولكن إذا كانت تلك سياستكم فلماذا تعترضون؟ وإذا كانت تلك رغبة الفلاحين، لماذا سيعارضونها؟»

-«أنت لا تفهم! ألا ترى أن الفلاحين سيفهمون أنها خدعة –هؤلاء الغاصبون قد سرقوا البرنامج الاشتراكي الثوري؟»

سألته عن صحة خبر زحف خالدين شمالا.

هز رأسه موافقا، وفرك يديه برضى مرير: «نعم. ألا ترى ما فعله هؤلاء البلاشفة –لقد أيقظوا الثورة المضادة ضدنا. ضاعت الثورة. ضاعت الثورة».

-«ولكن ألن تدافعوا عن الثورة؟»

-«طبعا سندافع عنها. إلى آخر قطرة من دمائنا. ولكننا لن نتعاون مع البلاشفة بأي شكل من الأشكال...».

-«ولكن إذا جاء خالدين إلى بتروغراد ودافع البلاشفة عن المدينة، ألن تنضموا إليهم؟»

-«لا طبعا. سندافع عن المدينة أيضا، ولكننا لن نؤيد البلاشفة. خالدين عدو للثورة، ولكن البلاشفة هم أيضا أعداء للثورة».

-«أيهما تفضل خالدين أم البلاشفة؟»

-«ليس هذا بسؤال صالح للبحث... أقول لك: الثورة ضاعت. والذنب ذنب البلاشفة –ولكن اسمع: لماذا نتكلم عن أشياء مثل هذه؟ سيأتي كرنسكي وبعد غد سنتحول إلى الهجوم... لقد أرسلوا من سمولني يدعوننا إلى تأليف حكومة جديدة- إنهم عاجزون كليا... لكننا لن نتعاون...».

سمعنا صوت طلقة من الخارج، فركضنا إلى النوافذ. لقد نفذ صبر أحد رجال الحرس الأحمر أخيرا من إهانات الجمع، فأطلق النار، جارحا فتاة في الذراع. ورأيناها محمولة إلى عربة يحيط بها جمع منفعل. وصلت ضجته إلينا. وبينما كنا ننظر، ظهرت فجأة سيارة مصفحة من جهة شارع ميخايلوفسكي مصوّبة رشاشاتها هنا وهناك. رأسا، بدأ الجمع يركض، كما تفعل جموع بتروغراد عادة، ملقية بنفسها على الأرض في الشارع، محتشدة في القنوات، مكوّمة خلف أعمدة الهاتف. تحركت السيارة إلى سلم الدوما، وأطل رجل برأسه من فتحتها طالبا تسليم جريدة «صوت الجندي». صرخ الكشافة هازئين وركضوا إلى داخل البناية. وبعد لحظة، استدارت السيارة بتردد وذهبت باتجاه شارع «نييفسكي» بينما نهض مئات من النساء والرجال وبدأوا ينفضون ملابسهم من التراب.

في الداخل كانت هناك ركضة عامة، ناس يحملون أكداسا من «صوت الجندي» يبحثون عن مخبأ لها...

جاء صحفي إلى الغرفة مهرولا ملوّحا بورقة، صارخا: «هذا بيان من كراسنوف!» فتجمع الكل حوله: «ليطبع، ليطبع حالا، ثم إلى الثكنات!».

«لقد عيَّنني القائد الأعلى قائدا للمقاطعات العسكرية المجتمعة في بتروغراد.

أيها المواطنون! أيها الجنود! أيها القوزاق الشجعان في الدون، من كوبان، من ترانسبيكال، من الأمور، من الينيساي أناديكم جميعا، يا من بقيتم مخلصين لقسَمكم، إليكم، يا من صممتم على الحفاظ على قسم القوزاق –أدعوكم لإنقاذ بتروغراد من الفوضى، من المجاعة، من الطغيان، ولإنقاذ روسيا من العار الذي لا يمحى، الذي يحاول حفنة من الجهال. الذين اشتراهم ذهب وليام، وإلحاقه بها.

إن الحكومة المؤقتة، التي أقسم على الإخلاص لها، لم تسقط، ولكنها أخرجت بالعنف من الأبنية التي تعقد اجتماعاتها بها. ولكن الحكومة، بمعونة جيوش الجبهة المخلصة لواجباتها، وبمعونة مؤتمر القوزاق الذي وحَّد تحت قيادته كل القوزاق. المؤتمر القوي بالروح المعنوية التي تعيش في صفوفه والعامل وفق رغبة الشعب الروسي، قد أقسم على أن يخدم الوطن كما خدمه أجداده حينما خلص قوزاق الدون موسكو التي يهددها السويديون والبولونيون والليتوانيون في زمن تروبلوس عام 1612. حكومتكم لا تزال موجودة...

إن الجيش العامل ينظر إلى هؤلاء المجرمين باستبشاع واحتقار. إن أعمال التخريب والنهب التي يقومون بها، وجرائمهم والعقلية الألمانية التي ينظرون بها إلى روسيا –مهزومة والتي لم تسلّم بعد- كل ذلك قد عزلهم عن الشعب بأسره.

أيها المواطنون، أيها الجنود، أيها القوزاق الشجعان في حامية بتروغراد: أرسلوا إلي بمندوبيكم حتى أعلم من هم الذين خانوا وطنهم ومن هم الذين يحافظون على العهد، لكي لا تراق الدماء البريئة».

في نفس اللحظة انتشر من جماعة لأخرى بأن الحرس الأحمر قد حاصر البناية. ودخل أحد الضباط، بشريط أحمر حول ذراعه طالبا مقابلة رئيس البلدية. وخرج بعد بضع دقائق، ثم خرج على إثره شرايدر العجوز من مكتبه محمرّ الوجه ممتقعه في آن واحد. وصرخ: «اجتماع خاص للدوما! الآن!».

توقفت كل الأعمال في القاعة الكبيرة. «كل أعضاء الدوما، إلى اجتماع خاص!».

-«ما الخبر؟»

-«لا أعلم –سوف يعتقلوننا، سوف يحلُّون الدوما، إنهم يعتقلون الأعضاء على المدخل»- هكذا كانت التعليقات المضطربة.

لا يوجد موضع لقدم في «قاعة نيقولاي». أعلن رئيس مجلس الدوما البلدي أن جنودا قد وُضعوا عند كل مدخل ومخرج، وأن أحد المفوضين قد هدد بتفريق مجلس الدوما واعتقال أعضائه. وانهال سيل من الخطب الحماسية من الأعضاء، وحتى شرفة المتفرجين. لا يمكن لأية قوة أن تحل المجلس البلدي المنتخب بحرية. لا يمكن لأحد المساس بشخص رئيس الدوما البلدي، أو بأي من الأعضاء. يجب عدم الاعتراف بهؤلاء الغاصبين المشاغبين، عملاء الألمان. أمّا عن التهديدات بحل مجلس الدوما، فليحاولوا؛ لن يحتلوا هذه القاعة إلاّ على جثتنا. سننتظرهم هنا بجلال كما انتظر أعضاء مجلس الشيوخ الروماني قدوم البرابرة...

قرار بإبلاغ مجالس الدوما والزيميستوفا في كل روسيا بطريق البرق. وقرار يمنع على رئيس البلدية أو المحافظ إقامة أية علاقة مع ممثلي اللجنة العسكرية الثورية أو ما يسمى مجلس مفوضي الشعب. قرار: توجيه نداء ثان إلى سكان بتروغراد

للدفاع عن إرادتهم البلدية المنتخبة. قرار بإبقاء جلسات الدوما في حالة اجتماع دائم...

في هذه الأثناء دخل أحد الأعضاء يحمل أخبارا جديدة. لقد خابر «سمولني»، وقالت اللجنة العسكرية الثورية أنها لم تصدر أي قرار بحل الدوما، وأنها سوف تسحب الجنود...

عندما نزلنا، كان ريازانوف يدخل مسرعا، بالغ الانفعال.

سألناه: «هل ستحلُّون مجلس الدوما؟»

-«يا إلهي- لا! هذه كلها غلطة. أخبرت المحافظ هذا الصباح أننا لن نتعرض للدوما...».

صفّان طويلان من راكبي الدراجات يخرجان في شارع نييفسكي متنكبي السلاح والليل يتقدم. ولما توقفوا تجمهر الجمع حولهم يمطرهم بالأسئلة.

سأل رجل عجوز بدين يدخن سيجارا: «من أنتم؟ ومن أين جئتم؟»

-«من الجيش الثاني عشر من الجبهة. جئنا لنساعد السوفييت ضد البرجوازية اللعينة!»

صرخ بحنق: «آه.. جندرمة البلاشفة. قوزاق البلاشفة!»

ضابط صغير يرتدي سترة جلدية ينزل السلّم مسرعا. همس في أذني: «الحامية تنقلب! إنها بداية النهاية بالنسبة للبلاشفة. هل تريد أن تشاهد انحسار المد؟ تعال!»

وصعد شارع ميخايلوفسكي مهرولا. فتبعناه.
«أي فرقة هذه؟»

«**البرونوفيكي ...**» الوارطة عويصة إذن، فالبرونوفيكي هم جمود المدرّعات، مفتاح الوضع، والذي يسيطر عليهم يسيطر على المدينة. «كان مفوضو لجنة الإنقاذ والدوما يكلمونهم. هناك اجتماع ليقرروا...»

«ليقرروا ماذا؟ إلى أي جانب يقفون؟»

-«أوه. لا. ليست هذه طريقتنا. إنهم لن يحاربوا ضد البلاشفة. سيصوتون على التزام الحياد. ثم يأتي دور «الينكرز» والقوزاق»..

باب مدرسة ميخايلوفسكس العظيمة لسباق الخيل يتثاءب أسود. حاول حارسان منعنا من الدخول، ولكننا دلفنا بسرعة غير مبالين لصيحات الاستنكار.

في الداخل ينبعث ضوء شحيح، من مصباح وحيد علق عاليا قرب سقف القاعة الضخمة التي غرقت نوافذها وزخارفها العالية بالظلام. أشكال داكنة لسيارات مصفحة تجثم حولنا في الظلمة. تقف واحدة منها في وسط المكان تحت الضوء، وقد تجمَّع حولها ما يقارب الألفي جندي يرتدون بزات قاتمة اللون، يكادون يضيعون في ضخامة المبنى الإمبراطوري. دزينة من الرجال يجلسون على سطح السيارة –ضباط، رؤساء لجان الجنود، وخطباء. أحد الجنود يتكلم من فوق برج السيارة الرئيسي، إنه خانجونوف، الرئيس السابق لمؤتمر البرونوفيكي لعموم

روسيا خلال الصيف الماضي. إنه شاب وسيم يرتدي سترة جلدية عليها شارة ملازم. وكان يدعو إلى التزام الحياد في خطاب بليغ، مقنع، فقال:

«إنه لشيء مخيف أن يقتل الروس إخوانهم الروس. يجب الحؤول دون وقوع حرب أهلية بين جنود وقفوا جنبا إلى جنب ضد القيصر، وانتصروا على العدو الأجنبي في معارك سيسجلها التاريخ! ما شأننا، نحن الجنود، في خلافات الأحزاب السياسية؟ لن أقول أن الحكومة المؤقتة كانت حكومة ديموقراطية، كلا. لكن يجب أن تكون لنا حكومة تمثل اتحاد القوى الديموقراطية. وإلا خسرنا روسيا. هذه الحكومة هي التي ستقضي على حرب أهلية، وتضع حدا لاقتتال الأخوة!..»

كلام معقول، فدوت القاعة الضخمة بالتصفيق وصرخات الاستحسان.

تسلق جندي ذو وجه شاحب متعب، وصرخ: «يا رفاق! جئت من الجبهة الرومانية لأقول لكم: يجب أن يحل السلم. السلم حالا. سنتبع الذين يعطوننا السلم سواء أكانوا البلاشفة أو الحكومة الجديدة. السلم! نحن في الجبهة ولا نستطيع الاستمرار في القتال. لا نستطيع أن نقاتل الألمان ولا الروس». ثم قفز إلى الأرض، بينما تصاعد من الجمع المتدافع نوع من التساؤل المضطرب المعذّب انفجر بما يشبه الغضب عندما حاول الخطيب التالي –أحد «المدافعين» المناشفة- «أن يقول بأن الحرب يجب أن تستمر إلى أن ينتصر الحلفاء.

صرخ صوت خشن: «أنت تتكلم مثل كرنسكي!»

أحد مندوبي الدوما يطالب الحياد. أنصتوا إليه، مغمغمين فيما بينهم بعدم ارتياح، شاعرين أنه ليس واحدا منهم. لم أر في حياتي رجالا يحاولون أن يفهموا، أن يقرروا بجدية وجهد مثل هؤلاء. لم يتحركوا مطلقا. بل وقفوا يحدقون بشخوص مخيف في الخطيب. جباههم مقطبة من جهد التفكير والعرق يلمع عليها – رجال جبابرة، عيونهم كعيون الأطفال براءة وصفاء، وجوههم كوجوه أبطال الأساطير...

الآن وقف أحد البلاشفة خطيبا، واحد منهم، عنيفا، مليئا بالحقد. لم يفضلوه على الخطيب السابق. فهذا لم يكن شعورهم. في تلك اللحظة كانوا قد ارتفعوا فوق تيار التفكير الاعتيادي، وكانوا يفكرون بروسيا، بالاشتراكية، بالعالم، كأنما تعتمد حياة الثورة أو موتها عليهم...

تتابع الخطباء، يتحاورون في السكون المتوتر. ضجة تأييد أو غضب: هل ننحاز أو نبقى على الحياد؟ رجع خانجونوف معقولا لطيفا. لكنه يبقى من الضباط، من «المدافعين» مهما تحدث عن السلم. ثم جاء دور عامل من «فاسيللي أوسترف»- فواجهوه بالسؤال: «وهل ستعطينا السلم أيها العامل؟» قريبا يقف بعض الرجال، معظمهم من الضباط: وقد شكلوا نوعا من مجموعة تهتف لأنصار الحياد. واستمروا يصرخون:« خانجونوف! خانجونوف» ويردون على المتكلمين البلاشفة بالصفير.

فجأة نشب جدال عنيف بين أعضاء اللجان والضباط، على سطح السيارة المصفحة وأخذوا يلوحون بأيديهم. فصرخ الجمع مطالبا بمعرفة المشكلة. واضطرب الجمع وماج. وتخلص أحد الجنود من ضابط يحاول إمساكه، فرفع يده وصرخ:

«أيها الرفاق! الرفيق كريلنكو هنا، وهو يريد التحدث إلينا». انفجار من هتاف التأييد والصفير وصرخات: «ليتقدم! ليتقدم!» أو «ليسقط!». ويتقدم مفوض الشعب للشؤون العسكرية ويتسلق جانب السيارة مرفوعا بأذرع كثيرة من الوراء، ومجذوبا بأخرى من أعلى السيارة. يقف على السيارة للحظة، ثم يسير نحو

مقدمتها. يضع يده على خاصرته، وينظر حوله مبتسما، قصير القامة مليئها، قصير الساقين، حاسر الرأس وبدون شارات على زيه العسكري.

«المجموعة» إلى جانبي تصرخ بعنف: « خانجونوف! نريد خانجونوف! يسقط! إخرس! يسقط الخائن!» المكان يهدر بالزئير والهتاف. ثم بدأت حركة كأنها تيار يتدفق نحوها- رجال عمالقة يشقون طريقهم، صرخوا: «من هو الذي يشوّش على اجتماعنا؟ من يصفر هنا؟» فتفرقت «المجموعة» وهرب أعضاؤها في كل اتجاه، ولم تتكون مرة أخرى...

بدأ كرينلكو قائلا بصوت حشَّنه التعب: أيها الرفاق الجنود! لا أستطيع أن أتكلم جيدا إليكم، أنا آسف، ولكني لم أنم أربعة ليال..

«لا حاجة لأن أقول لكم إني جندي. لا حاجة لأن أقول لكم أريد السلم. ما يجب أن أقوله هو أن الحزب البلشفي الذي نجح في القيام بثورة العمال والجنود بمساعدتكم وبمساعدة جميع الرفاق الشجعان الذين أسقطوا إلى غير رجعة سلطة البرجوازيين، مصاصي الدماء، هذا الحزب قد وعد بتقديم السلم إلى جميع الشعوب، وأن هذا قد حصل – اليوم!» (تصفيق حاد).

«يطلبون منكم أن تلازموا الحياد – في حين يقوم «الينكرز» و«كتائب الموت»، الذين هم ليسوا على الحياد مطلقا، بقتلنا في الشوارع ليعيدوا كرنسكي إلى بتروغراد، أو ربما ليعيدوا آخرين من زمرته. خالدين يزحف من الدون. وكرنسكي يتقدم من الجبهة. وكورنيلوف يجمع «الفرق المتوحشة» ليعيد ما حاوله في شهر آب (أغسطس-). كل هؤلاء المناشفة والاشتراكيين الثوريين الذين يدعونكم الآن لمنع نشوب الحرب الأهلية المستمرة منذ تموز (يوليو) الماضي، والتي وقفوا فيها إلى جانب البرجوازية دائما كما يفعلون الآن. ألم يحافظوا على الحكم بواسطة الحرب الأهلية؟

«كيف لي أن أقنعكم إذا كنتم قررتم؟ المشكلة واضحة: في جانب يوجد كرنسكي وخالدين وكورنيلوف والمناشفة والاشتراكيون الثوريون والكاديت والدوما والضباط... وهم يقولون لنا أن أهدافهم خيِّرة. وفي الجانب الآخر يقف العمال والجنود والبحارة والفلاحون الفقراء. إنكم أسياد الموقف. وروسيا العظيمة لكم- هل ستسلمونها»؟

أبقى نفسه واقفا، وهو يتكلم؛ بفعل إرادي ظاهر، وعندما واصل الكلام برز شعوره العميق الصادق من خلال صوته المتعب. وعندما انتهى ترنَّح وكاد أن يسقط، فامتدت إليه مئات الأيدي تساعده على النزول، بينما أرجعت الجدران الشامخة المظلمة صدى الصيحات الحماسية والتصفيق.

حاول فانجونوف الكلام مرة أخرى، ولكنهم هتفوا «تصويت! تصويت!»، فاضطر أخيرا إلى التسليم، وقرأ مشروع القرار: أن تسحب فرق المدرعات ممثليها من اللجنة العسكرية الثورية، وأن تعلن حيادها في الحرب الأهلية. وطلب من المؤيدين أن يتجمعوا إلى اليمين، ومن المعارضين أن يتجمعوا إلى اليسار. ومرت لحظة تردد، لحظة تربُّص ساكنة، ثم بدأ الجمع يتدفق أسرع فأسرع إلى اليسار. مئات من الجنود في كتلة ضخمة تسرع عبر الأرضية الترابية في الضوء الخافت... وبقي قربنا حوالي خمسين شخصا معزولين، يصرون على تأييد القرار. وعندما اهتز سقف القاعة العالي بالهتاف المنتصر، استدار هؤلاء وخرجوا من البناية مسرعين، وكان هذا للبعض منهم بمثابة خروج على الثورة.

تصور، أيها القارئ، هذا الصراع وقد تكرر في كل ثكنات المدينة، في الأحياء، في الجبهة كلها، في روسيا كلها. تخيَّل أقران كرينلكو المحرومين من النوم،

يراقبون الفرق، يسرعون من مكان لآخر، يناقشون، يهددون، يلحون. ثم تخيل الشيء ذاته في مقر كل نقابة عمالية، في المصانع، في القرى، على بوارج الأسطول الروسي البعيدة وفكر في مئات الألوف من الروس، يحدقون إلى أعلى – إلى الخطباء في البلد الواسع بأسره: عمالا وفلاحين وجنودا وبحارة يحاولون بجهد، أن يفهموا وأن يختاروا؛ يفكرون بتركيز شديد، ثم يقررون في النهاية بإجماع منقطع النظير- هكذا كانت الثورة الروسية!

لم يكن مجلس مفوضي الشعب ليتكاسل في «سمولني». فالبيان الأول كان على المطابع ليوزع فيما بعد بالآلاف على شوارع المدينة تلك الليلة، ويشحن بالأكداس على القاطرات المتوجهة نحو الجنوب أو الشرق.

«باسم حكومة الجمهورية الروسية التي اختارها المؤتمر العام لسوفييت مندوبي العمال والجنود بمشاركة مندوبين عن الفلاحين، يقرر مجلس مفوضي الشعب ما يلي:

1-تجري انتخابات الجمعية التأسيسية في الموعد المقرر، في الخامس والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر).

2-على جميع اللجان الانتخابية، وأجهزة الحكم المحلي، وسوفييتات العمال والجنود والفلاحين، وتنظيمات الجنود في الجبهة، أن يبذلوا جهدهم لضمان انتخابات حرة ونظامية في اليوم المقرر.

باسم حكومة الجمهورية الروسية
رئيس مجلس مفوضي الشعب
فلاديمير أوليانوف – لينين

في بناية البلدية تقوم الدوما بعمل دائب. كان أحد أعضاء مجلس الجمهورية يتكلم لما دخلنا. فقال أن المجلس يرفض قرار الحل، وأن استمراره بعمله مرهون بإيجاد مكان اجتماع جديد له وحسب. وفي تلك الأثناء، قررت لجنة الأعيان الانضمام جماعيا إلى لجنة الإنقاذ.. ولابد من أن نلاحظ، بالمناسبة، أن هذه كانت آخر مرة يذكر فيها التاريخ اسم «مجلس الجمهورية الروسية».

وتبع ذلك العرض المألوف للمندوبين، من الوزارات، من نقابات السكك الحديدية، من نقابة البريد والبرق يؤكدون، للمرة الألف، عزمهم على عدم خدمة البلاشفة الغاصبين.

أحد «الينكرز»، من الذين كانوا في قصر الشتاء، يروي قصة مضخمة عن بطولته وبطولة رفاقه، وعن تصرفات الحرس الأحمر المشينة، وكل ذلك يصدق بحرارة. وقرأ أحدهم في جريدة الاشتراكيين الثوريين «الشعب» خبرا يقول أن قيمة الخسائر المتأتية من تخريب قصر الشتاء بلغت 500 مليون روبل، وتصف بكثير من التفاصيل الخراب والنهب اللذين أصاباه.

السعاة يجيئون بالأخبار الواردة هاتفيا من وقت لآخر. أطلق البلاشفة سراح الوزراء الاشتراكيين الأربعة. وذهب كريلنكو إلى حصن بطرس-بولس ليخبر الأميرال فيرديرفسكي بأن وزارة البحرية باتت مهجورة، وليرجوه، باسم مصلحة روسيا كلها، أن يستلم الوضع هناك تحت إشراف مجلس مفوضي الشعب؛ فوافق البحار العجوز... كرنسكي يتقدم شمالا من «غاتشينا» بينما تتراجع الحاميات البلشفية أمامه. أصدرت «سمولني» بلاغا آخر يوسع صلاحيات مجلس دوما المدينة ليشمل التموين بالمواد الغذائية.

أثار هذا العمل الوقح الأخير عاصفة من الغضب. لينين، هذا المغتصب، الطاغية الذي استولى مفوضوه على مرآب البلدية وأقحموا مستودعاتها، وتدخلوا في أعمال لجان التموين وفي توزيع الغذاء –لينين هذا نفسه يتجاسر بأن يفرض الحدود على صلاحيات الإدارة البلدية المستقلة ذات الحكم الذاتي! اقترح أحد الأعضاء، وهو يلوّح بقبضته، أن يقطع الغذاء عن المدينة إذا تجاسر البلاشفة على التدخل في أعمال لجان التموين... وأفاد آخر، وهو مندوب عن «لجنة التموين الخاصة»، بأن قضية الغذاء أضحت خطرة، وطالب بأن ترسل السلطة المحلية رسلها لتعجيل قطارات المواد الغذائية.

أعلن ديدونينكو أن الحامية مترددة، وأن فرقة «سيميوفونسكي» قررت الخضوع لأوامر الحزب الاشتراكي الثوري، وأن بحارة زوارق الطوربيد على النييفا لازالوا مترددين في موقفهم. فعيَّن للحال سبعة أعضاء لمواصلة الدعاية..

ثم خطا إلى المنصة رئيس البلدية العجوز: «أيها الرفاق والمواطنون! لقد سمعت الآن أن سجناء حصن بطرس-بولس في خطر. أربعة وعشرون من «ينكرز» مدرسة «بافلوفسك» قد عروا وعذبوا من قبل الحرس البلشفي. وقد أصيب أحدهم بالجنون. إنهم يهددون بقتل الوزراء!» وانطلق إعصار من الاستنكار والاستبشاع عندما طلبت الكلام امرأة قصيرة ممتلئة ترتدي ثوبا رماديا، إنها فيرا سلوتسكايا، الثورية القديمة والعضوة البلشفية في الدوما، وقد رفعت صوتها المعدني الحاد:

«هذا كذب واستفزاز»، قالت غير آبهة بوابل الشتائم المنهال عليها، «إن حكومة العمال والفلاحين التي ألغت عقوبة الإعدام لا تسمح بأعمال كهذه. نطالب التحقيق من القضية، وإذا ثبتت صحة الرواية ستتخذ الحكومة إجراءات حازمة!»

وعينت في الحال لجنة من ممثلي جميع الأحزاب وذهبت مع رئيس البلدية إلى حصن بطرس-بولس للتحقق في الأمر. وعندما خرجنا وتبعناهم، كان مجلس الدوما يعين لجنة أخرى لمقابلة كرنسكي لتجنب سفك الدماء عندما يدخل العاصمة...

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل عندما تجاوزنا الحراس على بوابة الحصن، وتقدمنا تحت الأضواء القليلة بمحاذاة الكنيسة حيث قبور القياصرة تحت القبة الذهبية الرشيقة والأجراس التي بقيت تدق «ليحفظ الله القيصر» كل يوم ظهرا طيلة أشهر... المكان المهجور، ومعظم النوافذ معتمة. أحيانا كنا نصطدم بشخص في الظلام، وكان الجميع يجيب على سؤالنا بالعبارة المعهودة: «لا أعرف».

إلى اليسار تشمخ قلعة تروبتسكي المظلمة، مقبرة الأحياء حيث مات الكثير من شهداء الحرية أو فقدوا صوابهم أيام القيصر، وحيث سجنت الحكومة المؤقتة بدورها وزراء القيصر، وحيث يسجن البلاشفة الآن وزراء الحكومة المؤقتة.

قادنا بحَّار إلى مكتب القائد، في بيت صغير قرب مركز صك النقود. نصف دزينة من الحرس الأحمر والبحارة والجنود يجلسون في غرفة دافئة يغلي فيها «السماور» بمرح. فرحبوا بنا بود كثير وقدموا لنا الشاي. لم يكن القائد هناك. ذهب ليرافق لجنة من «المخربين» من دوما المدينة يصرون بأن «الينكرز» يُقتلون في السجن عن بكرة أبيهم. ويبدو أن ذلك كان يثير ضحكهم. في جانب من الغرفة يجلس رجل أصلع مرهق، صغير الحجم، يرتدي سترة صباحية ومعطفا من الفرو الثمين، يعض على شاربيه ويحملق بالذين حوله كفأر محاصر. لقد اعتقل لتوه. وقال أحدهم، ناظرا إليه بلامبالاة، إنه كان وزيرا أو شيئا من هذا القبيل... والظاهر أن الرجل الصغير لم يسمعه فقد كان رعبه واضحا، مع أن الموجودين لم يظهروا نحوه أي عداء...

عبرت الغرفة وتحدثت إليه بالفرنسية: «أنا الكونت تولستوي»، أجابني بإغفاءة: «لا أعرف لماذا اعتقلت. كنت أعبر جسر تروبتسكي في طريقي إلى البيت عندما أوقفني اثنان من هؤلاء الأشخاص. كنت مفوضا في الحكومة المؤقتة ملحقا بالأركان العامة. ولكني لم أكن وزيرا في الحكومة...».

قال أحد البحارة: «ليذهب إنه بدون خطر».

أجاب البحَّار الذي اعتقله: «لا.. يجب أن نسأل القائد».

وعلق البحَّار بسخرية: «أوه، القائد! لماذا قمتَ بالثورة؟ ألكي تستمر في إطاعة الضباط؟».

أخبرنا أحد الملازمين من فرقة بافلوفسكي كيف ابتدأت الانتفاضة: «كانت نوبة الفرقة في الأركان العامة ليلة السادس من الشهر. وكنت أتولى الحراسة مع بعض الرفاق. واختفى إيفان بافلوفيتش مع شخص لا أذكر اسمه خلف ستائر النافذة في الغرفة التي كان ينعقد فيها اجتماع الأركان، وسمعا أشياء كثيرة. مثلا، سمعا أوامر بجلب «الينكرز» من غاتشينا إلى بتروغراد ليلا، وأمرا بإعداد القوزاق للتحرك عند الصباح.. كانوا يريدون احتلال النقاط الرئيسية في المدينة قبل الفجر. ثم كانت قضية فتح الجسور. ولكن عندما بدأوا بالكلام عن محاصرة سمولني، لم يستطع إيفان بافلوفيتش أن يتحمل أكثر. في تلك اللحظة كان الازدحام على أشده في الغرفة، فاستطاع أن يتسلل من مخبئه وأن يأتي إلى غرفة الحرس تاركا للرفيق الآخر التقاط ما يستطيع من الكلام.

«كنت أشك قبل ذلك بأن شيئا ما يحضَّر، فقد استمرت سيارات محملة بالضباط بالقدوم، كما كان جميع الوزراء هناك. أخبرني إيفان بافلوفيتش بما سمعه. كانت الساعة الثانية والنصف صباحا. وكان أمين سر لجنة الفرق هناك، فأخبرناه وسألناه ماذا يقترح أن نفعل؟

«أجاب: اعتقلوا كل واحد يجيء أو يذهب. وهكذا بدأنا. وبعد ساعة كان بعض الضباط ووزيران، أرسلناهم رأسا إلى سمولني. ولكن اللجنة العسكرية الثورية لم تكن مستعدة. لم يعرفوا ما عليهم أن يعملوا، وبعد قليل رجع الأمر إلينا بأن نطلق سراح الموقوفين، وأن لا نعتقل أحدا بعد الآن. حسنا، ركضنا إلى سمولني وتكلمنا لمدة ساعة عرفوا بعدها أن القضية قضية حرب. وكانت الساعة الخامسة عندما رجعنا إلى الأركان، وقد ذهب أكثرهم، ولكننا قبضنا على البعض وكانت الحامية كلها تتحرك»...

ووصف حارس أحمر من فاسيللي أوستروف بكثير من التفصيل، ما حدث يوم الثورة العظيم في منطقته. قال ضاحكا: «لم يكن عندنا مدافع رشاشة وقتها. ولم نستطع الحصول على شيء من «سمولني». ولكن الرفيق زالكند، عضو اللجنة المركزية لمجلس دوما المنطقة، تذكر فجأة أن ثمة مدفعا رشاشا أخذ من الألمان، وهو موجود في مقر اللجنة. فذهبنا أنا وهو ورفيق ثالث إلى هناك. وكان المناشفة والاشتراكيون الثوريون يعقدون اجتماعا. فتحنا الباب ودخلنا رأسا عليهم، كانوا اثني عشر أو خمسة عشر شخصا جالسين حول الطاولة، وكنا ثلاثة فقط. توقفوا عن الكلام لما رأونا واكتفوا بالتحديق، عبرنا القاعة، فككنا المدفع الرشاش، فحمل الرفيق زالكند جزءا منه، وحملت أنا الجزء الآخر، ووضعنا الجزءين على أكتافنا ومشينا خارجين –ولم ينبس أحدهم بكلمة»!

وسأل رجل ثالث، وهو بحَّار: «هل تعرفون كيف أخذنا قصر الشتاء»؟ حوالي الساعة الحادية عشرة، علمنا أنه لا يوجد أحد من رجال «الينكرز» على ضفة النييفا حيث القصر. خلعنا الأبواب وتسللنا صعودا على السلالم المختلفة، أفرادا أو

زمرا صغيرة. وعندما وصلنا إلى الأعلى، أوقفنا «الينكرز» وجرَّدونا من أسلحتنا. ولكن جماعتنا ظلوا يصعدون، قليلا قليلا، حتى أصبحنا الأكثرية. ثم استدرنا وجرّدنا «الينكرز» من أسلحتهم»..

في تلك اللحظة دخل القائد. ضابط صف شاب، مرح المظهر، حول عينيه حلقات التعب العميقة، وذراعه مربوطة بعلاقة إلى عنقه، فوقعت عيناه أولا على السجين الذي بدأ في الحال يشرح وضعه.

قاطعه ضابط الصف: «آه. نعم! أنت من اللجنة التي رفضت تسليم الأركان ظهر يوم الأربعاء. على أي حال، نحن لا نريدك، أيها المواطن، أقبل اعتذارنا» -وفتح الباب مشيرا إلى الكونت تولستوي بأن يغادر. تهامس البعض، وبالأخص الحرس الأحمر ولكن البحار قال بانتصار: «هه! ألم أقل لكم؟!».

ثم جذب جنديان انتباه القائد. كانا قد انتخبا كلجنة للاحتجاج من قبل حامية الحصن. قالا أن المساجين يستلمون نفس الطعام الذي يستلمه الحرس، في حين أن الكمية لا تكفي لسد الجوع: «لماذا كل هذه المعاملة الحسنة لأعداء الثورة»؟

أجاب القائد: «نحن ثوريون أيها الرفاق. ولسنا قطاع طرق». ثم استدار نحونا، فقلنا له بأن هنالك شائعات تقول أن «الينكرز» يتعرضون للتعذيب، وأن حياة الوزراء في خطر: «هل بإمكاننا أن نرى السجناء لنستطيع أن نبرهن للعالم...؟»

أجابنا الجندي الشاب بانزعاج: «لا، لن أقلق راحة المساجين مرة أخرى. لقد اضطررت الآن لإيقاظهم... كانوا متأكدين بأننا سوف نفتك بهم...أطلق سراح أكثر «الينكرز»، وسوف يخرج الباقون غدا». قال ذلك واستدار بسرعة.

«هل نستطيع أن نتحدث إلى لجنة الدوما إذاً»؟

أشار القائد برأسه موافقا، وهو يصب لنفسه كوبا من الشاي، وقال بلامبالاة: «إنهم لا يزالون في القاعة».

كانوا فعلا هناك، خارج الغرفة في ضوء مصباح زيتي ضئيل، متحلقين حول رئيس البلدية.

قلت: «سيدي رئيس البلدية، نحن مراسلون أمريكيون. هل لك أن تخبرنا رسميا بنتيجة تحقيقكم».

استدار نحونا بوجهه المسنّ الوقور وقال ببطء: «ليس للتقارير أي نصيب من الصحة. عدا بعض الحوادث التي حصلت عندما كان الوزراء يساقون إلى هنا، فإنهم يعاملون بكل دراية. أمّا عن «الينكرز» فلم يصب أحد منهم بأذى»...

إلى أعلى شارع نييفسكي في الظلام الفارغ بعد منتصف الليل، كان خط لا ينتهي من الجنود يخطو في الظلام لمقاتلة كرنسكي. السيارات تروح وتجيء في الشوارع الخلفية المظلمة. بدون أضواء. وكان هناك الكثير من الحركة في رقم 6 من شارع فونتانكا، مقر سوفييت الفلاحين، وفي شقة معينة في بناية على النييفسكي. وفي كلية المهندسين؛ وكان مقر الدوما مضيئا.

وفي «سمولني» كانت اللجنة العسكرية الثورية تبث لهيبا مخيفا، وتنبض مثل بطارية مشحونة فوق طاقتها...

==========

هوامش الفصل السادس

1 -نداءات وتهجمات

نداء إلى جميع المواطنين وإلى المنظمات العسكرية التابعة للحزب الاشتراكي الثوري.

«إن محاولة البلاشفة الخرقاء سوف تبوء بالفشل. الحامية لا تستجيب. الوزارات تعمل ببطء والخبز مفقود. إن جميع الكتل قد غادرت مؤتمر السوفييت فيما عدا حفنة من البلاشفة. البلاشفة معزولون! الإهانات على أنواعها، وأعمال النهب والسرقة، وقصف قصر الشتاء، والاعتقالات الكيفية –كل هذه الجرائم التي ارتكبها البلاشفة قد أثارت استنكار غالبية الجنود والبحارة. «التستروفلوت» ترفض الانصياع لأوامر البلاشفة...

إننا نناشد جميع العناصر العاقلة أن تلتف حول لجنة انقاد الوطن والثورة؛ وأن تتأهب لتلبية أول نداء توجهه لجنة الحزب المركزية، للتحرك الجاد ضد أعداء الثورة الذين لابد سيحاولون الاستفادة من هذه الاضطرابات التي أحدثتها المغامرة البلشفية، وأن تراقب بحذر العدو الخارجي، الذي سيحاول، هو أيضا، استغلال اقتناص الفرصة الملائمة عندما تضعف الجبهة...»

القطاع العسكري للجنة المركزية
للحزب الاشتراكي الثوري

***

كتبت صحيفة «البرافدا»:

«من هو كرنسكي؟

غاصب يجب أن يوضع في سجن بطرس-بولس إلى جانب كورنيلوف وكيشكين.

مجرم خان العمال والجنود والفلاحين الذين محضوه ثقتهم.

كرنسكي؟ الرجل الذي ذبح الجنوذ!

كرنسكي؟ السفَّاح الذي قتل الفلاحين!

كرنسكي؟ الرجل الذي خنق العمال!

هذه هي صفات كورنيلوف الجديد الذي يريد الآن أن يغتال الحرية»!

الفصل السابع

الجبهة الثورية

السبت في العاشر من تشرين الثاني (نوفمبر).

«أيها المواطنون!

تعلن اللجنة العسكرية الثورية أنها لن تتسامح مع أي خرق للانضباط الثوري...

سوف تعاقب بقسوة أعمال السرقة والنهب والسطو ومحاولات إقامة المذابح...

إقتداء «بعامية باريس»، سوف تسحق اللجنة، بلا رحمة، أي ناهب أو داع للفوضى»..

المدينة تستلقي هادئة. لم تحصل حادثة سلب أو سرقة واحدة، لم يحصل شجار حتى بين السكارى. تجولت الدوريات المسلحة في الشوارع ليلا، وعلى الزوايا تجمع الجنود والحرس الأحمر يتضاحكون ويغنون حول نيران صغيرة، أثناء النهار تحتشد جموع ضخمة في الطرقات الفرعية تستمع للنقاش الحاد بين الجنود والطلاب، بين أرباب العمل والعمال.

وكان المواطنون يستوقفون بعضهم بعضا في الشارع.

«هل سيأتي القوزاق»؟

«لا...»

«ما آخر الأخبار»؟

«لست أدري. أين كرنسكي»؟

«يقال أنه على بعد ثمانية فراسخ من بتروغراد... صحيح أن البلاشفة، هربوا إلى البارجة «أفرورا»؟»

«هكذا يقال»...

الجدران وحدها تصبح ومعها بعض الجرائد التي تحمل الادانات والمناشدات والمراسيم...

ملصق ضخم يحمل البيان الهستيري للجنة التنفيذية لسوفييت الفلاحين:

«إنهم (البلاشفة) قد تجرأوا على القول بأن سوفييت مندوبي الفلاحين يؤيدهم، وأنهم يتكلمون باسم مندوبي الفلاحين...

لتعلم كل الطبقة العاملة الروسية بأن هذا كذب، وبأن كل الفلاحين الكادحين، الذين تمثلهم اللجنة التنفيذية لسوفييت مندوبي الفلاحين لعموم روسيا، يرفضون باستنكار مشاركة الفلاحين المنظمين في هذه الجريمة النكراء التي ترتكب بحق إرادة الطبقات الكادحة»...

من قطاع الجنود التابع للحزب الاشتراكي الثوري:

«المحاولة البلشفية المجنونة على وشك الانهيار. الحامية منقسمة... الوزارات مضربة، والخبز يندر شيئا فشيئا... كل الجماعات، فيما عدا حفنة من البلاشفة، قد انسحبت من المؤتمر. البلاشفة في عزلة خانقة...

ندعو جميع العناصر العاقلة إلى الالتفاف حول لجنة إنقاذ الوطن والثورة، وإلى الاستعداد لتلبية نداء اللجنة التنفيذية».

أعاد مجلس الجمهورية، في منشور وزّع باليد، تعداد المظالم التي ألحقت به:

«لقد اضطر مجلس الجمهورية لأن يحل نفسه ويعلّق اجتماعاته مؤقتا خضوعا لقوة الحارب.

المغتصبون الذين يتغنون بـ«الحرية والاشتراكية» أقاموا حكما من الإرهاب الكيفي. لقد اعتقلوا أعضاء الحكومة المؤقتة، وأغلقوا الصحف، واستولوا على المطابع... هذه السلطة المعادية للشعب وللثورة، يجب أن تخاض المعركة ضدها إلى أن تسقط...

إلى حين عودة مجلس الجمهورية لممارسة صلاحياته، فإنه يدعو جميع مواطني الجمهورية إلى الالتفاف حول اللجان المحلية لإنقاذ الثورة والوطن، لتي تنظم العصيان ضد البلاشفة وتقود البلد نحو جمعية تأسيسية».

قالت صحيفة «قضية الشعب»:

«الثورة هي انتفاضة الشعب كله... ولكن ماذا عندنا هنا؟ لاشيء سوى حفنة من الحمقى المساكين يضللهم لينين وتروتسكي ومن على شاكلتهما... إن قراراتهم ونداءاتهم سوف تضاف إلى متحف الطرائف التاريخية»...

وقالت صحيفة «كلمة الشعب» (لسان حال الاشتراكيين الشعبيين):

«حكومة عمال وفلاحين؟ هذا مجرد هراء، فلن يعترف أحد في روسيا أو في بلدان حلفائنا أو حتى بلدان أعدائنا بهذه الحكومة»...

كانت الصحف البرجوازية قد احتجت مؤقتا..

احتوت «البرافدا» على وصف لأول اجتماع «للتسايكا» الجديدة، برلمان الجمهورية الروسية السوفييتية. لاحظ مليوتين مفوض الزراعة، أن اللجنة التنفيذية للفلاحين دعت إلى انعقاد المؤتمر العام للفلاحين في الثالث عشر من كانون الأول (ديسمبر).

فقال: «ولكننا لا نستطيع الانتظار. يجب أن نحصل على مساندة الفلاحين. أقترح أن ندعو إلى مؤتمر للفلاحين، وأن نفعل ذلك في الحال». وقد وافق الاشتراكيون الثوريون اليساريون على ذلك. وللحال وجه نداء إلى فلاحي روسيا وانتخبت لجنة خماسية للإشراف على المشروع.

وأجل البحث في قضيتي الخطط المفصلة لتوزيع الأراضي، وسيطرة العمال على الصناعة إلى أن يضع الخبراء الذين يشتغلون عليها تقريرهم. وثُليت ثلاثة مراسيم (1)التي تقضي وتمت الموافقة عليها: أولا «القواعد العامة للصحافة» من لينين بإيقاف كل صحيفة تدعو إلى مقاومة الحكومة الجديدة أو عصيان أوامرها، أو التي

تحرض على ارتكاب الأعمال الإجرامية، أو تزييف الأخبار عمدا، وثانيا مرسوم «تأجيل أجور المساكن» ومرسوم «تكوين الميليشيا العمالية» (2). ثم صدر أمران: واحد يمنح الدوما البلدية سلطة مصادرة الشقق والبيوت الفارغة، وآخر يوجه عملية تفريغ عربات النقل في محطات السكك الحديد، للتعجيل في توزيع المواد الضرورية وتحرير عربات النقل التي كانت الحاجة ماسة إليها...

وبعد ذلك بساعتين، كانت اللجنتين التنفيذية لسوفييت الفلاحين تذيع البرقية التالية على كل روسيا:

«إن التنظيم البلشفي الكيفي المسمى (مكتب تنظيم مؤتمر الفلاحين الأهلي) يقوم بدعوة جميع سوفييت الفلاحين لإرسال مندوبين إلى المؤتمر في بتروغراد...

إن اللجنة التنفيذية لسوفييت الفلاحين تعلن أنها تعتبر، مثلما كانت دائما، أنه من الخطر بمكان إفراغ الريف من القوى اللازمة لتحضير انتخابات الجمعية التأسيسية. فالجمعية التأسيسية هي طريق الخلاص الوحيد للطبقة العاملة وللبلاد. إننا نؤكد موعد مؤتمر الفلاحين: الثالث عشر من كانون الأول (ديسمبر)».

كان كل شيء مثيرا في الدوما. الضباط يروحون ويجيئون، ورئيس البلدية يتحادث مع قادة لجنة الإنقاذ... دخل أحد المندوبين مهرولا. حاملا بيان كرنسكي الذي ألقت طائرة المئات منه فوق شارع نييفسكي. البيان يهدد بانتقام مخيف من الذين يرفضون التسليم، ويأمر الجنود بإلقاء السلاح والتجمع في «ساحة مارس».

وقيل لنا أن رئيس الوزراء قد احتل تسارسكويي سيلا، وأنه على بعد بضعة أميال من بتروغراد. سيدخل المدينة غدا، أي بعد ساعات قليلة. الوحدات السوفييتية التي التحمت مع القوزاق أخذت تنحاز إلى الحكومة المؤقتة. وكان تشيرنوف في مكان ما في الوسط، يحاول أن ينظم وحدات عسكرية من «المحايدين» في قوة تعمل لوقف الحرب الأهلية.

وقيل أن أفواج الحامية تتخلى عن البلاشفة في المدينة. وسمولني مهجور منذ الآن، وأن كافة أجهزة الحكم قد توقفت عن العمل. ورفض موظفو مصرف الدولة العمل تحت امرأة مفوضي سمولني كما رفضوا تسليمهم الأموال. كل المصارف الخاصة مقفلة. كل الوزارات مضربة. تدور لجنة من الدوما على بيوت العمال لتجمع منهم النقود لدعم الإضراب ولدفع أجور العمال والموظفين المضربين (3).

ذهب تروتسكي إلى وزارة الخارجية، وأمر الكتاب بترجمة «مرسوم السلم» إلى اللغات الأجنبية، فرمى ستمائة موظف استقالاتهم في وجهه... وأمر شليابنيكوف، مفوض العمل، جميع مستخدميه بالعودة إلى أعمالهم خلال أربع وعشرين ساعة وإلا أسقط عنهم حق التقاعد، فلم يستجب له الحجَّاب... وقد فضلت بعض فروع «اللجنة الخاصة لتموين الغذاء» أن توقف أعمالها على الخضوع للبلاشفة... عمال الهاتف ما زالوا مصرّين على قطع خطوط مقر السوفييت بالرغم من الوعود السخية بأجور أعلى وشروط عمل أفضل...

صوّت الحزب الاشتراكي الثوري على طرد جميع الأعضاء الذين رفضوا الانسحاب من مؤتمر السوفييت، وكل الذين شاركوا في الانتفاضة...

أخبار من المقاطعات- أعلنت «موغلييف» رأيها ضد البلاشفة. في «كييف» أسقط القوزاق السوفييت، واعتقلوا كل قادة الثورة. سوفييت وحامية «لوغا» (ثلاثون ألف جندي) أكدا ولاءهما للحكومة المؤقتة، ودعيا كل روسيا للالتفاف حولها. حل خالدين كل مجالس السوفييت والنقابات في حوض للدون وتقدمت قواته شمالا.

قال ممثل عن سكك الحديد: «أمس أرسلنا برقية لكل أنحاء روسيا نطالب فيها بوقف الحرب حالا بين الأحزاب السياسية، وبتكوين حكومة تحالف اشتراكية، وإلا سندعو غدا إلى الإضراب... هناك اجتماع في الصباح بين جميع الأطراف لبحث الموضوع، ويظهر أن البلاشفة متلهفون للوصول إلى اتفاق»...

مهندس البلدية رجل ضخم محتقن الوجه، يقول ضاحكا: «هذا إذا بقوا على قيد الحياة حتى ذلك الحين»...

عندما ذهبنا إلى «سمولني» لم نجدها مهجورة، بل كانت مزدحمة أكثر من أي وقت مضى. جماعات من العمال والجنود تهرول داخلة وخارجة. الحرس مضاعف في كل مكان. التقينا مخبري الصحف البرجوازية والاشتراكية «المعتدلة».

صرخ أحدهم، وهو من جريدة «إرادة الشعب»: لقد طردونا! جاء بوبش-برورييفيتش إلى مكتب الصحافة وأمرنا بالخروج! قال أننا جواسيس»! وأخذ الجميع يتكلم دفعة واحدة: «إهانة! فضيحة! حرية الصحافة»!

في الباحة طاولات ضخمة تراكمت عليها أكداس من النداءات والأوامر والمراسيم الصادرة عن اللجنة العسكرية الثورية. الجنود والعمال يترنحون تحت ثقلها وهم ينقلونها إلى السيارات المنتظرة.

يقول أحد المناشير:

«إلى الحازوق!

في هذه اللحظة الحاسمة التي تعيشها الجماهير الروسية يقوم المناشفة والاشتراكيون الثوريون اليمينيون بخيانة الطبقة العاملة. لقد انضموا إلى صف كورنيلوف وكرنسكي وسافينكوف...

إنهم يطيعون أوامر كرنسكي ويشيعون الذعر في المدينة بنشر الشائعات السخيفة عن انتصارات وهمية يحرزها هذا المرتد...

أيها المواطنون! لا تصدقوا هذه الشائعات الكاذبة. لا توجد قوة تستطيع دحر ثورة الشعب... رئيس الوزراء كرنسكي وأتباعه ينتظرون العقاب العاجل الذي يستحقون...

ستعلقهم على الخازوق. إننا نتركهم لعداء كل العمال والجنود والبحارة والفلاحين، إننا نتركهم لهذه الجماهير التي يحاولون تكبيلها بالسلاسل القديمة نفسها. إنهم لن يستطيعوا أبدا أن يغسلوا عن أجسامهم لطخة احتقار الجماهير وكراهيتها.

الخزي والعار للذين خانوا الشعب»!

وانتقلت اللجنة-العسكرية الثورية إلى مقر أوسع: الغرفة رقم 17 في الطابق الأعلى. الحرس الأحمر على الباب. وفي الداخل، كانت الردهة الضيقة أمام الحاجز مكتظة بأناس مهذبين يتظاهرون بالاحترام، ويكتمون حنقهم القاتل –إنهم البرجوازيون الذين يريدون رخصا لسياراتهم أو تصريحات لمغادرة المدينة، وبينهم الكثير من الأجانب... كانت نوبة العمل على بيل شاتوف وبيترز، فأوقفا كل أعمالهما وقرأا لنا آخر نشرات الأنباء:

فرقة الاحتياط 179 تقدم تأييدها بالإجماع. خمسة آلاف من عمال الشحن البحريين في أرصفة بيوتيلوف يحيون الحكومة الجديدة. من اللجنة المركزية لاتحاد النقابات –تأييد حماسي. حامية وقطعات «ريغال» تنتخب لجنة عسكرية ثورية لتتولى التنسيق وشحن الجنود. لجان عسكرية ثورية تسيطر على «باسكوف» و«مينسك». تحيات من سوفييت «زاريتسين» و«روفنسكي- على الدون» و«تشيرنوغورسك» و«سيباستوبول»... الفرقة الفنلندية واللجان الجديدة للجيش الخامس والثاني عشر تعلن ولاءها... أخبار موسكو غامضة. قطعات اللجنة العسكرية الثورية تسيطر على النقاط الاستراتيجية للمدينة وقد انضمت إلى السوفييت كتيبتان من حرس الكرملين، ولكن مخازن السلاح ما تزال في يد العقيد ريابستيف و«الينكرز». طالبت اللجنة العسكرية الثورية بالسلاح للعمال فماطل العقيد حتى هذا الصباح عندما فاجأ اللجنة بإنذار يأمر فيه جنود السوفييت بالاستسلام. واللجنة بأن تحل نفسها. فاندلع القتال.

في بتروغراد، رضخت الأركان فورا لمفوضي «سمولني». وعندما رفضت لجنة الأسطول الرضوخ للأوامر، هاجمها ديبنكو بكتيبة من بحارة كرونستاد. فأنشأت لجنة جديدة تؤيدها بوارج بحر البلطيق والبحر الأسود.

ولكن ثمة توجس بارد وشعور بالاضطراب تحت هذه الطمأنينة السطحية. قوزاق كرنسكي يتقدمون بسرعة، تُواكبهم المدفعية. وقد اكد لي سكريبنيك، سكرتير لجان المصانع والمتاجر ذو الوجه الشاحب المتعب، بأن القوزاق يؤلفون جيشا متكاملا، وأضاف بحدة: «لن يأخذونا أحياء!» بتروفسكي يضحك متعبا: «ربما نستطيع أن ننام غدا- نوما طويلا...» قال لوزوفسكي بوجهه المعروق ولحيته الصهباء: «كيف يمكن أن ننتصر؟ إننا لوحدنا... مجرد جماهير ضد جنود مدربين!».

في الجنوب والجنوب الغربي تتقهقر قوات السوفييت أمام كرنسكي. حاميات «غاتشينا» و«بافلوفسك» و«تسارسكوبي سيلا» منقسمة على نفسها، صوّت نصفها للوقوف على الحياد، بينما تراجع الباقون، دون ضباط ولا نظام، نحو العاصمة...

نشرات الأنباء معلقة في القاعات:

«من كرانسويي –في 10 تشرين الثاني (نوفمبر)» الساعة الثامنة قبل الظهر.

إلى رؤساء الأركان والقيادات العامة والقيادات في كل مكان، إلى الجميع، الجميع، الجميع...

أرسل الوزير السابق كرنسكي برقية مزورة إلى الجميع في كل مكان مؤداها أن جنود بتروغراد الثورية قد سلموا ـأسلحتهم طوعا، وانضموا إلى جيوش الحكومة السابقة، حكومة الخيانة. وأن اللجنة العسكرية الثورية قد أمرت جنودها بالتراجع. إن الجنود أناس أحرار ولهذا فهم لن يتراجعوا ولن يستسلموا.

لقد غادر جنودها «غاتشينا» لتجنب سفك الدماء بيمهم وبين إخوانهم المضلّلين من القوزاق. ولأجل اتخاذ مواقع أصلح. وهذه المواقع قوية الآن إلى درجة ولا خوف عليها حتى لو زاد كرنسكي ورفاقه من السلاح قواتهم عشرة أضعاف. الروح المعنوية لجنودنا ممتازة. كل شيء هادئ في بتروغراد.

قائد دفاع بتروغراد ومنطقتها العسكرية
العقيد مورافيوف»

وبينما كنا نهم بمغادرة اللجنة العسكرية الثورية، دخل أنطونوف تعلوه صفرة الموت وبيده ورقة. قال: «أرسلوه هذه».

«إلى جميع سوفييت مندوبي العمال المنطقية، إلى لجان المصانع والمتاجر

أمر

عصابات كرنسكي من الكورنيلوفيين تهدد مداخل العاصمة. وقد أعطيت جميع الأوامر الضرورية لسحق مؤامرة الثورة المضادة، المعادية للشعب ولمكاسبه سحقا بلا رحمة.

جيش الثورة وحرسها الأحمر بحاجة إلى تأييد العمال الفوري.

نأمر جميع مجالس السوفييت ولجان المصانع والمتاجر في المنطقة بما يلي:

1- إرسال أكبر عدد ممكن من العمال لحفر الخنادق وإقامة المتاريس وتعزيز حواجز الأسلاك الشائكة.

2- إذا كان هذا يعني إيقاف العمل في بعض المصانع، فليحصل ذلك في الحال.

3- يجب أن تجمع كل الكميات المتوفرة من الأسلاك العادية والأسلاك الشائكة، بالإضافة إلى أدوات حفر الخنادق وإقامة المتاريس.

4- يجب مصادرة كل الأسلحة المتوفرة.

5- يجب المحافظة على الانضباط الشديد، فليستعد كل واحد منا لمساندة الثورة بجميع الوسائل.

رئيس سوفييت بتروغراد لمندوبي العمال والجنود:
مفوض الشعب **ليون تروتسكي**
رئيس اللجنة العسكرية الثورية:
القائد العام **بودفويسكي**

عندما خرجنا إلى النهار المظلم القاتم، كانت صفارات المصانع تزعق في الآفاق الرمادية حولنا بصوت أبح مليء بالتوجس. وتدفق العمال إلى الخارج بعشرات الآلاف، نساء ورجالا –عشرات الآلاف من الجموع المعذبة الداكنة تلفظها إحياؤها الفقيرة. بتروغراد الحمراء في خطر! القوزاق! وتدفقوا إلى الجنوب والجنوب الغربي نحو بوابة «موكونسكي»، رجالا ونساء وأطفالا، ببنادق ومعاول ورفوش وحزم الأسلاك، وأحزمة الرصاص فوق ألبسة العمل... لم يشاهد أبدا مثل هذا الطوفان العفوي الهائل في مدينة كهذه! إنهم يتدفقون مثل تيار هادر جارفين معهم كتائب من الجنود، ومدافع، وسيارات نقل، وعربات- الطبقات العاملة الثورية تدافع بصدورها عن عاصمة جمهورية العمال والفلاحين!

أمام بوابة سمولني تقف سيارة. رجل صغير الحجم ذو نظارة تكبِّر عينيه الملتهبتين يتكلم بصعوبة قد وقف مستندا إلى الرفراف واضعا يديه في جيوب معطفه الرث. وبقربه بحَّار ضخم ملتح عيناه لها صفاء عيون الأطفال، يعبث شاردا بمسدس كبير من الفولاذ الأزرق، ويتململ بعصبية. إنهما انطونوف وديبنكو.

حاول بعض الجنود ربط دراجتين عسكريتين إلى جوانب السيارة، اعترض السائق بعنف قائلا أن هذا يخدش الدهان. صحيح أنه بلشفي، وأن السيارة صودرت من برجوازي، وصحيح أن الدراجتين كانتا لاستعمال المراسلين. ولكن كرامة المهنة كانت قد أثيرت... وهكذا تركت الدراجتان.

كان مفوضا الشعب للحرب والبحرية في طريقهما لتفتيش الجبهة الثورية، أينما كانت. هل نستطيع مرافقتهم؟ لا بالتأكيد. لا تستطيع السيارة أن تحمل أكثر من خمسة، هناك المفوضان ومراسلان وسائق. إلا أن أحد معارفي من الروس، سأدعوه تروسيشكا ، دخل السيارة بهدوء ولم يستطع أي نقاش إخراجه منها...

لست أرى مبررا للشك في رواية تروسيشكا عن الرحلة. عندما مروا في شارع سوفوروفسكي ذكر أحدهم الطعام. فالرحلة قد تأخذ ثلاثة أو أربعة أيام في مناطق قد لا يستطيعون تموين أنفسهم فيها. النقود؟ دس مفوض الحرب يده في جيبه، فلم يلقَ كوبيكا واحدا. مفوض البحرية مفلس. والسائق كذلك. فاشترى تروسيشكا الطعام...

عندما انعطفوا على شارع نييفسكي انفجر إطار...

تساءل أنطونوف: «ما العمل؟»

لوَّح ديبنكو بمسدسه واقترح: «نصادر سيارة أخرى!»

وقف أنطونوف في منتصف الشارع ولوَّح لسيارة عابرة يقودها جندي. قال: «أريد هذه السيارة».

الجندي: «لن نحصل عليها».

«هل تعرف من أنا؟» وأخرج انطونوف ورقة من جيبه كتب عليها أنه قد عيِّن قائدا عاما لجميع جيوش الجمهورية الروسية، وأن على الجميع أن يطيعوه بدون أسئلة.

الجندي بحدَّة: «لا يهمني حتى لو كنت إبليس ذاته. هذه السيارة تخص فرقة الرشاشات الأولى، ونحن ننقل الذخيرة فيها، ولن تحصل عليها»...

وانحلت المشكلة بظهور سيارة تاكسي قديمة ترفع العلم الإيطالي (في أيام المشاكل كانت السيارات الخاصة تسجل باسم القنصليات الأجنبية لتسلم من المصادرة) فأخرج من داخلها مواطن بدين يلبس فروا غاليا. وواصلت المجموعة طريقها.

وعندما وصلوا إلى «نارفسكايا زاستافا»، على بعد حوالي العشرة أميال، ذهب انطونوف لزيارة قائد الحرس الأحمر. أخذوه إلى طرف المدينة حيث كانت مئات من العمال تحفر الخنادق وتنتظر قدوم القوزاق.

سأل انطونوف: «أكل شيء على ما يرام، يا رفاق؟»

أجاب القائد: «كل شيء تمام، يا رفيق، معنويات الجنود ممتازة... ولكن يوجد أمر واحد فقط... ما عندما ذخيرة»...

فأخبره انطونوف «في سمولني عندنا مليارا طلقة. سأعطيك أمرا. معكم ورقة؟» واخذ يبحث في جيوبه.

ولم يكن ديبنكو ولا المراسلون يحملون أوراقا. فاضطر تروسيشكا إلى تقديم دفتر الملاحظات الخاص به...

ثم صرخ انطونوف: «بحق الشيطان! ما معي قلم. من معه قلم؟» وغني عن القول أن تروسيشكا كان الوحيد بين الجمع الذي يحمل قلما...

نحن الذين بقينا، توجهنا إلى محطة تسارسكوبي سيلا. الحرس الأحمر يذرع شارع نييفسكي، الجميع مسلحون، والبعض قد شرَّع الحراب. الغروب الشتوي المبكر يطبق على المدينة. إنهم يطأون الطين البارد، شامخي الأنوف، أربعة أربعة في صفوف غير منتظمة، بدون موسيقى ولا طبول. وفوقهم ترفرف راية حمراء كتب عليها بحروف ذهبية غير متقنة: «السلم! الأرض!» وترتسم على وجوههم تعابير رجال يذهبون إلى الموت... المتجمهرون على الأرصفة يراقبونهم بصمت حقود، باحتقار وخوف...

في محطة القطار، لم يكن أحد يعرف أين كرنسكي بالضبط، أو أين تقع الجبهة. وعلى كل حال، فالقطارات لا تذهب إلى أبعد من تسارسكوييي...

عربتنا مليئة بالركاب وبالريفيين العائدين إلى مساكنهم محملين بالحزم وجرائد المساء. الكلام كله يدور حول الثورة البلشفية. وفيما عدا ذلك لم يكن المرء يلاحظ أن حربا أهلية تشطر روسيا الجبارة إلى شطرين، وأن القطار يتوجه نحو ساحة القتال. وميَّزنا من خلال النوافذ، في الظلام الذي يتكاثف بسرعة، مجموعات من الجنود تتحاور ملوّحة بأذرعها، وهي تسير على الطريق الطيني نحو المدينة... وعلى سكة جانبية وقف قطار شحن مليء بالجنود، تشع منه الأنوار. وهذا كل ما في الأمر. خلفنا يتضاءل بريق أضواء المدينة في الأفق الواطئ. سيارة عمومية تزحف في البعيد نحو إحدى الضواحي القصية...

محطة تسارسكوييي سيلا يسودها الهدوء. وقد وقفت جماعات من الجنود هنا وهناك، تتهامس، وتنظر بقلق إلى الخط الحديدي الفارغ باتجاه «غاتشينا». سألت بعضا منهم إلى أي جانب يقفون. فقال أحدهم: «لا نعرف بالضبط أي جانب على حق... لا نشك بأن كرنسكي يقوم بعمل استفزازي، ولكننا لا نوافق على أن يقتتل الروس».

في مكتب رئيس المحطة وجدنا جنديا ملتحيا، ضخما ومرحا، حول ذراعه الشريط الأحمر للجنة الفرقة. التصريحات الصادرة عن سمولني فرضت الاحترام الفوري. كان واضحا أنه يؤيد السوفييت ولكنه كان مرتبكا...

«الحرس الأحمر هنا منذ ساعتين، ولكنهم ذهبوا مرة أخرى. جاء أحد المفوضين صباحا لكنه غادر عندما وصال القوزاق».

«القوزاق هنا إذا؟»

هز رأسه بحزن: «حصلت معركة. أسروا مئتين أو ثلاثمئة من رجالنا، وقتلوا حوالي الخمسة والعشرين».

«أين القوزاق؟»

«لم يصلوا إلى هنا بعد. لست أعلم بالضبط أين هم. لعلهم في هذا الاتجاه». وأشار بيده على الغرب إشارة غامضة.

تناولنا عشاء في مطعم المحطة كان أحسن وأرخص مما في بتروغراد. جلس ضابط فرنسي قربنا وقد جاء لتوه مشيا من «غاتشينا». قال أن كل شيء هادئ هناك. احتل كرنسكي المدينة. «آه، هؤلاء الروس! أنهم شعب فريد من نوعه! يا لها من حرب أهلية! فيها من كل شيء ما عدا القتال»!

خرجنا إلى المدينة. وقف جنديان على باب المحطة بندقيتاهما مشرَّعتا الحربتين. يحيط بهما حوالي مئة من رجال الأعمال والموظفين والطلاب يمطرونهما وابلا من الصراخ والشتائم. وكان الجنديان قلقين متألمين، مثل أطفال عوقبوا بلا مبرر. وكان شاب طويل يرتدي بذلة طالب يقود الهجوم وعلى وجهه تعابير الغطرسة.

قال بوقاحة: «تعلمون، على ما أعتقد، بأنكم حين ترفعون السلاح بوجه إخوتكم تصبحون أدوات بيد القتلة والخونة؟»

أجاب الجندي بجدية: «أسمع، يا أخي. أنت لا تريد أن تفهم. ألا ترى أن هناك طبقتين: الطبقة العاملة والطبقة البرجوازية. ونحن...»

قاطعه الطالب بخشونة: «أوه! أعرف هذا الكلام السخيف. حفنة من الفلاحين الجهلاء مثلكم يسمعون شخصا يطلق بعض الشعارات. أنتم لا تفهمون معانيها. ترددونها مثل الببغاوات. (الجمهور يضحك). أنا طالب ماركسي، وأنا أقول لكم أنكم لا تحاربون في سبيل الاشتراكية. بل في سبيل إثارة الفوضى التي تخدم إلا الألمان»!

أجاب الجندي والعرق يتصبب من جبينه: «نعم، أنا أعرف أنك رجل مثقف، هذا واضح، وأنا رجل بسيط. ولكن يتهيأ لي...»

واعترض الآخر باحتقار «أتصور أنك تؤمن بأن لينين صديق حقيقي للطبقة العاملة؟»

«إي نعم» أجاب الجندي، متحملا بصبر.

«حسنا، يا صديقي. هل تعلم أن لينين قد أرسل عبر ألمانيا في عربة قطار مقفلة؟ هل تعلم أنه استلم نقودا من الألمان؟»

أجاب الجندي بعناد: «لست أعلم الكثير عن ذلك. ولكن يخيل لي أن ما يقوله هو ما أحب سماعه، أنا وكل البسطاء أمثالي. هناك طبقتان: البرجوازية والعمال».

«أنت أحمق! إسمع يا صاحبي: قضيت سنتين في سجن سلوسلبرج بسبب نشاطي الثوري، في الوقت الذي كنتم تطلقون فيه النار على الثوريين وتنشدون «»ليحفظ الله القيصر!» اسمي فاسيللي كييرغوفيتش بانيين. ألم تسمع بي من قبل؟»

قال الجندي بتواضع: «لا، مع الأسف. لأني لست بالرجل المثقف. ربما تكون بطلا عظيما».

قال الطالب باقتناع: «أنا كذلك! وأنا معارض للبلاشفة الذين يخربون بلدنا روسيا وثورتنا الحرة. والآن، كيف تفسر ذلك؟»

حك الجندي رأسه، وقال: «لا أقدر أن أفسر ذلك مطلقا!» ثم تابع وقد عبس من صعوبة التفكير: «القصة تبدو لي واضحة جدا –ولكن ثقافتي ليست جيدة، طبعا. يبدو لي أن هنالك طبقتين: العمال والبرجوازية».

صرخ الطالب «ها أنت تعود إلى تعميماتك السخيفة مرة أخرى!»

واستمر الجندي بعناد «طبقتان فقط. والذي ليس مع واحدة يكون مع الأخرى...»

تجولنا إلى أعلى الشارع حيث الأضواء قليلة ومتباعدة، وحيث يندر المارة. يخيم على المكان صمت ينطق بالتهديد –فكأنه المطهر بين الجحيم والجنة- إنها منطقة حرام سياسية. دكاكين الحلاقة وحدها مضاءة بتوهج، بينما تكوَّن صف انتظار أمام الحمامات العامة، فالليلة ليلة السبت، عندما تستحمّ روسيا بأسرها وتعطّر نفسها. لا يساورني أدنى شك في أن جنود السوفييت والقوزاق قد اختلطوا في المحلات التي تجري فيها هذه الطقوس.

كلما اقترب المرء من «الحدائق الإمبراطورية»، كلما بدت الشوارع مهجورة. دلّنا رجل دين خائف على مقر السوفييت ثم ذهب مهرولا. المقر في جناح من قصر لدوق قبالة الحديقة. النوافذ مظلمة والباب مقفل.

نظر إلينا جندي كان يتسكع هناك بريبة كئيبة قال «انتقل السوفييت منذ يومين». «إلى أين؟» هز كتفيه: «لا أدري».

إلى الأمام بناية ضخمة مضاءة، ينبعث من داخلها أصوات مطرقة. أثناء ترددنا أمامها جاء نحونا جندي وبحار يتمشيان يدا بيد. أظهرت لهم تصريحي من سمولني وسألت: «هل تؤيدان السوفييت؟» لم يجيبا بل تبادلا النظر بخوف.

سأل البحار: «ماذا يجري هناك؟» وأشار إلى البناية.

«لا أعلم».

مد الجندي يده بحذر وفتح الباب قليلا. في الداخل صالة ضخمة مزدانة بالستائر والنبات الدائم الخضرة، صفوف الكراسي، ومسرح قيد البناء. تقدمت نحونا امرأة ضخمة بيدها مطرقة وفمها مليء بالمسامير، وسألتنا: «ماذا تريدون؟»

قال البحَّار مرتبكا: «هل هناك عرض الليلة؟»

أجابت بحدّة: «هناك عرض مسرحي خاص ليلة الأحد. اخرجوا من هنا».

حاولنا استدراج البحَّار والجندي إلى الحديث، ولكنهما كانا في حالة واضحة من الخوف والتعاسة فانسحبا إلى الظلام.

تمشينا نحو القصور الإمبراطورية وسط الحدائق الشاسعة المظلمة، بمقصوراتها ذات الأشكال الغريبة، وجسورها المزينة، وأصوات المياه الناعمة تترقرق من النوافير. وفي مكان معين، حيث أوزة مضحكة تبصق الماء باستمرار في مغارة اصطناعية، أحسسنا فجأة بأننا مراقبون. نظرنا إلى أعلى فواجهتنا نظرات الريبة من نصف دزينة من الجنود العمالة يحدقون بنا يضيق من على سطحية تغطيها الحشائش. تسلقت نحوهم وسألتهم: «من أنتم؟»

أجاب أحدهم: «نحن الحارس». بدوا جميعا تعساء، والأغلب أنهم كذلك، بعد أسابيع من النقاش والبحث طوال الليل والنهار.

«أنتم من جنود كرنسكي أم السوفييت؟»

ساد لحظة صمت، تبادلوا خلالها نظرات قلقة. ثم أجاب الشخص نفسه: «نحن محايدون».

دخلنا من قوس قصر ايكاترينا الضخم إلى باحة القصر نفسها سأل عن المقر العام.

قال أحد الحراس الواقفين خارج باب في جناح أبيض دائري من القصر بأن القائد في الداخل.

في غرفة بيضاء أنيقة على الطراز الجيورجي، تقسمها إلى قسمين غير متساويين مدفأة ذات وجهين، وقفت مجموعة من الضباط تتكلم باهتمام. كانوا شاحبي الوجوه، مشتتي الأذهان، من الواضح أنهم لم يناموا منذ مدة. قدمنا تصاريحنا البلشفية إلى أحدهم قيل لنا أنه العقيد، وهو كهل أشيب اللحية بيضاء، ازدادت بزّته بعدد من الأوسمة.

بدا عليه الاستغراب. سألنا بأدب: «كيف وصلتم إلى هنا دون أن تُقتلوا؟ الوضع خطير في الشوارع. العواطف السياسية متأججة الآن في تسارسكوبي سيلا. حصلت معركة هذا الصباح وستحصل أخرى غدا. سيدخل كرنسكي المدينة الساعة الثامنة».

«أين القوزاق؟»

«على بعد حوالي الميل في هذا الاتجاه». وأشار بيده.

«هل ستدافعون عن المدينة ضدهم؟»

أجاب باسما: «أوه. كلا! إننا نحتل المدينة لكرنسكي». وهنا امتلكنا الذعر لأن تصاريحنا تذكر أننا ثوريون حتى العظم. تنحنح العقيد: «بالنسبة للتصاريح التي تحملون... ستكون حياتكم في خطر إذا قُبض عليكم... إذا أردتم مشاهدة المعركة سأعطيكم أوامر للحصول على غرف في فندق الضباط، وإذا جئتم في السابعة صباحا أعطيتكم تصاريح جديدة».

«أنتم مع كرنسكي إذا؟»

تردد العقيد ثم قال: «لسنا بالضبط مع كرنسكي. أكثر جنود الحامية من البلاشفة. وقد ذهبوا اليوم، بعد المعركة، في اتجاه بتروغراد آخذين معهم المدفعية. يمكن أن تقول أنه ليس هناك جنود مع كرنسكي، لكن بعضهم لا يريد القتال على الإطلاق. ذهب جميع الضباط تقريبا لينضموا إلى كرنسكي. وكما ترى فنحن في وضع حرج...»

لم نعتقد بأن المعركة ستحصل في الصباح... تلطف العقيد بإرسال مساعده ليرافقنا إلى المحطة. كان جنوبيا، من أبوين فرنسيين في بيسارابيا وكان يكرر: «آه. لست أبالي بالخطر ولا بالصعاب. الذي يزعجني بقائي طوال هذه المدة، ثلاث سنوات، بعيدا عن أمي...»

ناظرا من نافذتي في القطار المسرع في الظلمة الباردة نحو بتروغراد، استطعت أن أرى مجموعات من الجنود ملوّحة بأيديها في وهج النيران، وكوكبات السيارات المصفحة على مفترق الطرق، يطل سوَّاقوها من أبراجها ويتصايحون فيما بينهم...

وحدات من الجنود والحرس الأحمر دون قيادة تتجول قلقة متصادمة طيلة تلك الليلة المضطربة على السهل القاحل البارد بينما يسرع مفوضو اللجنة العسكرية من مجموعة لأخرى يحاولون تنظيم الدفاع...

في المدينة، الموجات البشرية تتدفق في شارع نييفسكي. هنالك شيء ما في الجو. أصوات المدافع البعيدة تسمع من محطة وارسو. حركة محمومة في كليات «الينكرز». أعضاء الدوما يتنقلون من ثكنة لأخرى يناقشون ويتضرعون، راوين قصصا مخيفة عن العنف البلشفي- مذبحة «الينكرز» في قصر الشتاء، اغتصاب المجنَّدات، إطلاق النار على الفتاة أمام الدوما، قتل الأمير تومانوف... في «قاعة الاسكندر» في بناية الدوما كانت لجنة الإنقاذ تعقد اجتماعا استثنائيا.. المفوضون يجيئون ويروحون ركضا... وكل الصحفيين المطرودين من «سمولني» هناك بمعنويات عالية. لم يصدقوا تقريرنا عن تسارسكوبي. الجميع «يعلم» أن تسارسكوبي في يد كرنسكي، وأن القوزاق في بولكوفا الآن. كانوا ينتخبون لجنة لاستقبال كرنسكي في محطة القطار غدا...

أسرَّ لي أحدهم أن الثورة المضادة سوف تبدأ عند منتصف الليل. وأراني مرسومين، وقَّع أحدهما غوتز ولوبلكوفنيكوف، يأمر كليات «الينكرز» والجنود الذين في طور النقاهة في المستشفيات وفرسان القديس جورج بأن يتجمعوا استعدادا للحرب، وأن ينتظروا أوامر لجنة الإنقاذ نفسها. أما المرسوم الثاني فهو بتوقيع لجنة الإنقاذ نفسها –وهذا نصه:

«إلى سكان بتروغراد!

أيها الرفاق، أيها العمال، أيها الجنود، أيها المواطنون في بتروغراد الثورية!

في الوقت الذي يدعو فيه البلاشفة إلى السلم في الجبهة، يعملون على إثارة الحرب الأهلية في المؤخرة.

لا تستمتعوا لنداءاتهم الاستفزازية!

لا تحفروا الخنادق!

لتسقط متاريس الخيانة!

ألقوا بسلاحكم!

أيها الجنود، عودوا إلى ثكناتكم!

الحرب في بتروغراد تعني نهاية الثورة.

باسم الحرية، والأرض، والسلم اتحدوا حول لجنة إنقاذ الوطن والثورة!»

عندما غادرنا الدوما كانت كتيبة من الحرس الأحمر –عابسة الوجوه ويائسة، تتقدم في الطريق المظلم المهجور ومعها دزينة من الأسرى –أعضاء الفرع المحلي لمجلس القوزاق الذين قبض عليهم في مقرهم متلبسين بجرم التآمر ضد الثورة...

أحد الجنود، ومعه صبي صغير يحمل سطلا من الصمغ، يلصق إعلانات ضخمة فاقعة اللون:

«نظرا للظروف الحالية، تُعلن حالة الطوارئ في مدينة بتروغراد وضواحيها. تُمنع كل الاجتماعات في الشوارع أو في الهواء الطلق بصورة عامة إلى حين صدور أوامر جديدة.

ن. بودفويسكي
رئيس اللجنة العسكرية الثورية»

توجهنا إلى منازلنا والجو مليء بأصوات مختلطة –أبواق سيارات، صيحات، طلقات بعيدة. المدينة يقظى تختلج بقلق.

وفي ساعات الصباح الباكر تقدمت كتيبة من «الينكرز» متنكرة كجنود من فوج سيميونوفسكي إلى مركز الهاتف قبل وقت تغيير الحرس بقليل. كانت كلمة السر البلشفية معهم، فاستسلموا حراسة المكان دون إثارة أية شبهة. وبعد دقائق جاء انطونوف في جولة تفتيشية. فألقوا القبض عليه وحبسوه في غرفة صغيرة. ولما جاءت كتيبة الحرس الحقيقية لاستلام نوبتها ووجهت بنيران البنادق وسقط منها عدة قتلى..

وبدأت الثورة المضادة...

==========

هوامش الفصل السابع

- مرسوم حول الصحافة

في اللحظة الجدية الحاسمة التي تمر بها ثورتنا وفي الأيام التي تبعتها مباشرة، اضطرت اللجنة الثورية المؤقتة إلى اتخاذ إجراءات ضد صحافة الثورة المضادة بكل ألوانها.

وفي الحال ارتفعت الصيحة من جميع الأطراف بأن السلطة الاشتراكية الجديدة تتجاوز بهذا على المبادئ الجوهرية في برنامجها إذا هي تطاولت على حرية الصحافة.

إن حكومة العمال والفلاحين تلفت انتباه السكان إلى أن هذا الدرع الليبرالي يخبئ خلفه فرصة للطبقات الغنية لاقتناص حصة الأسد من الصحافة كلها وتسميم العقلية الشعبية بهذه الواسطة، وإحلال الفوضى في وعي الجماهير.

الكل يعلم أن الصحافة البرجوازية هي من أقوى أسلحة البرجوازيين. وفي هذه اللحظة الحاسمة بالذات، التي لا تزال فيها السلطة الجديدة للعمال والفلاحين في طور التدعيم، فإنه من المستحيل ترك هذا السلاح الذي لا تقل خطورته عن القنابل والرشاشات بيد العدو. لهذا اتخذت إجراءات استثنائية مؤقتة لإيقاف سيل القذارة والافتراء الذي يحلو للصحافة الصفراء والخضراء إغراق الانتصار الشعبي الفتي به.

عندما يتثبت النظام الجديد سوف كل الإجراءات الإدارية ضد الصحافة، وتعطي الحرية كاملة ضمن نطاق المسؤولية أمام القانون وحسب أسس هي الأكثر تسامحا وتقدمية...

إن مجلس مفوضي الشعب –علما منه بأن أي تقييد لحرية الصحافة، حتى في اللحظات الحرجة، لا يمكن القبول به إلا ضمن نطاق الضرورة فقط- يقرر ما يلي:

1- تتعرض الأنواع التالية من الصحف للإغلاق:

أ- تلك التي تحرض على المقاومة المكشوفة لحكومة والفلاحين، أو على عصيان تلك الحكومة.

ب- تلك التي تخلق الفوضى عن طريق تحريف الأخبار عمدا.

ج- تلك التي تحرض على أعمال ذات طابع إجرامي يقع تحت طائلة القانون.

2- لا يتم الإغلاق المؤقت أو الدائم لأية صحيفة إلا بقرار من مجلس مفوضي الشعب.

3- إن هذه المقررات ذات طبيعة مؤقتة، وسوف تلغى بمرسوم خاص عندما تعود الأوضاع العامة إلى حالتها الطبيعة.

رئيس مجلس

مفوضي الشعب

فلاديمير اوليانوف

(لينين)

==========

2- مرسوم حول المليشيا العمالية

1- على كل سوفييت لمندوبي العمال والجنود تكوين ميليشيا عمالية.

2- تكون قوات الميليشيا العمالية تحت السيطرة التامة لسوفييت مندوبي العمال والجنود.

3- على السلطات العسكرية والمدنية أن تقدم كل ما تستطيعه من مساعدات في تسليح العمال وتجهيزهم تقنيا، إلى حد مصادرة أسلحة تعود إلى مديرية الحرب الحكومية.

4- يذاع هذا المرسوم برقيا.

بتروغراد –العاشر من تشرين الثاني (نوفمبر)- 1917

أ.أ ريكوف
مفوض الشعب للشؤون الداخلية

==========

3- صندوق الإضراب

ساهمت المصارف والبيوت التجارية في بتروغراد والمدن الأخرى والشركات الأجنبية العاملة في روسيا في صندوق الإضراب لتأييد موظفي الحكومة ومستخدمي المصارف المضربين. ودفعت أجور كاملة لجميع الذين وافقوا على الإضراب ضد البلاشفة، وفي بعض الحالات زيدت معاشاتهم. لكن الإضراب انهار عندما تأكد المساهمون في صندوق الإضراب من سيطرة البلاشفة على السلطة، فرفضوا دفع المزيد من التعويضات للمضربين

الفصل الثامن

الثورة المضادة

صبيحة اليوم التالي: الأحد في الحادي عشر منه دخل القوزاق تسارسكوييي سيلا وعلى رأسهم كرنسكي نفسه ممتطيا صهوة جواد أبيض. أجراس الكنائس كلها تدق. من على تل صغير خارج البلدة كان يمكن رؤية الأبراج الذهبية للكنائس، والقباب المتعددة الألوان، والمساحة الرمادية المترامية للعاصمة المفروشة على السهل الموحش وخلفها خليج فنلندا الفولاذي اللون.

لم تقع معركة. ولكن كرنسكي ارتكب غلطة مميتة. ففي الساعة السابعة صباحا أرسل أمرا إلى فرقة بنادق تسارسكوييي سيلا الثانية بان تلقي السلاح. أجاب الجنود أنهم سيلزمون الحياد ولكنهم لن يتخلوا عن أسلحتهم. فأمهلهم كرنسكي عشر دقائق لتنفيذ الأمر. أثار هذا غضب الجنود، فهم الذين تعوّدوا على حكم أنفسهم بواسطة اللجان طيلة الثمانية أشهر الماضية، اشتمُّوا منه رائحة العهد المباد... وبعد دقائق قليلة فتحت مدفعية القوزاق نيرانها على الثكنة قاتلة ثمانية من الجنود. ومنذ تلك اللحظة لم يبق ثمة جنود «محايدون» في تسارسكوييي...

واستيقظت بتروغراد على لعلعة الرصاص وعلى رعد الخطوات العسكرية. تحت السماء العالية المظلمة أشاعت ريح باردة رائحة الثلج. عند الفجر كانت قوات كبيرة من «الينكرز» قد احتلت «الفندق العسكري» ووكالة البرق، واستبعد الموقعان بعد معارك دامية. وحاصر البحارة مركز الهاتف، وقد انبطحوا وراء متاريس من البراميل والصناديق وصفائح التنك وسط «مورسكايا»، أو احتموا في ركن شارع «غورو كوفيليا» وساحة القديس اسحق، مطلقين النار على أي شيء يتحرك... سيارات ترفع علم الصليب الأحمر تدخل وتخرج أحيانا، بعد استئذان البحارة.

كان البرت وليماز [*] في مركز الهاتف، وخرج في سيارة للصليب الأحمر مليئة ظاهريا بالجرحى. وبعد أن تجولت السيارة في المدينة، ذهبت بطرق ملتوية إلى «مدرسة ميخايلوفسكي للينكرز». مقر الثورة المضادة، حيث ظهر أن ضابطا فرنسيا في الباحة كان مستلما قيادة العمليات... بهذه الواسطة كانت الذخيرة والتجهيزات تنقل إلى مركز الهاتف. وكان العديد من سيارات الإسعاف المزيفة هذه تعمل كواسطة اتصال وعربات نقل ذخيرة «للينكرز».

وكانت بين أيديهم خمس أو ست مصفحات تابعة لفرقة المصفحات البريطانية المنحلة. عندما كانت لويز براينت تسير في ساحة القديس اسحق، مرت مصفحة من مقر الإمبريالية قاصدة مركز الهاتف. في ركن «شارع غوغوليا»، أمام لويز براينت تماما، تعطل محركها. فبدا بعض البحارة الكامنين وراء أكوام الخشب يطلقون النار. فاستدار الرشاش من برج السيارة وأخذ يطلق النار بدون تمييز على أكوام الخشب وعلى الجمهور. عند القوس الذي احتمت تحته الآنسة براينت سقط العديد من القتلى بينهم طفلان. فجأة وثب البحارة صارخين واقتحموا الفسحة المشتعلة مطبقين على المصفحة وأقحموا حرابهم في فتحات المراقبة المرة تلو الأخرى... تظاهر السائق بأنه قد جرح فأطلقوا سراحه –ليركض إلى الدوما ويضيف إلى قصص فظائع البلاشفة قصة جديدة... وكان بين القتلى أحد الضباط البريطانيين...

وكتبت الصحف، فيما بعد، عن ضباط فرنسي آخر قُبض عليه في مصفحة للينكرز وأرسل إلى حصن بطرس-بولس. فكذَّبت السفارة الفرنسية النبأ للحال، ولكن أحد أعضاء المجلس البلدي أخبرني أنه توسط شخصيا لإطلاق سراحه...

ومهما يكن الموقف الرسمي لسفارات الحلفاء فإن ضباطا فرنسيين وإنكليز كانوا يمارسون دورا ملحوظا في تلك الأيام، على حد إسداء النصح في الاجتماعات التنفيذية للجنة الإنقاذ.

اصطدامات طيلة النهار بين الحرس الأحمر و«الينكرز»، معارك بين السيارات المصفحة في كل حي من أحياء المدينة. زخات رصاص، طلقات منفردة، ولعلعة الرشاشات تُسمع من بعيد وقريب. الأعمال ما تزال كالمعتاد خلف الأبواب الحديدية للحوانيت. حتى دور السينما تغص بالمتفرجين، مع أن الأضواء الخارجية كانت مطفأة. الحافلات تسير. أجهزة الهاتف ما تزال تعمل، وعندما تطلب البدّالة المركزية تستطيع أن تسمع إطلاق النار بوضوح... «سمولني» معزولة، إلا أن الاتصال كان مستمرا بين الدوما ولجنة الإنقاذ وكليات الينكرز وكرنسكي في تسارسكويي.

في الساعة السابعة صباحا، توجهت دورية من الجنود والبحارة والحرس الأحمر إلى كلية فلاديمير للينكرز وأمهلتهم عشرين دقيقة لإلقاء السلاح. فرفضوا الإنذار. وبعد ساعة تأهب «الينكرز» للتحرك ولكنهم اضطروا للتراجع أمام نيران غزيرة في ركن شارع غريبيتسكايا وجادة بولشوي. حاصرت مجموعات تابعة للسوفييت البناية وفتحت عليها النار، بينما كانت مصفحتان تتحركان جيئة وذهابا وتصليها نيران حامية. فطلب «الينكرز» النجدة بواسطة الهاتف. فأجاب القوزاق بأنهم لا يجرأون على القدوم لأن مجموعة ضخمة من البحارة معها مدفعان قد تمركزت قبالة ثكنتهم. كلية بافلوف محاصرة وأكثر «الينكرز» التابعين لكلية ميخايلوفسكي يقاتلون في الشوارع...

في الحادية عشرة والنصف وصلت ثلاث بطاريات من مدفعية الميدان. وقوبل طلب تسليم آخر بإطلاق النار من قبل «الينكرز» وإصابة اثنين من مندوبي الجانب السوفييتي يرفعان العلم الأبيض. الآن بدأ القصف الحقيقي. فتحت ثغرات واسعة في جدران الكلية. دافع «الينكرز» عن أنفسهم يائسين، بينما تساقطت أمواج هادرة من الحرس الأحمر المهاجمين تحت النيران القاتلة... اتصل كرنسكي هاتفيا من تسارسكويي آمرا برفض التفاوض مع اللجنة العسكرية الثورية...

الحرس الأحمر، المهتاج من جراء الخسارة وأكوام القتلى، يصب على البناية المتداعية إعصارا من النار والحديد. لم يستطع حتى ضباطهم إيقاف القصف المخيف. وعندما تدخَّل مفوض من سمولني يدعى كيريلوف، هددوه بالشنق فورا. لقد فار دم الحرس الأحمر.

في الساعة الثانية والنصف، رفع «الينكرز» العلم الأبيض. وأعلنوا أنهم سوف يستسلمون إذا أمنت لهم الحماية. وتدفق الآلاف من الجنود والحرس الأحمر من خلال الأبواب والنوافذ وثغرات الجدران هاتفين، وقبل أن يستطيع أحد أن يتدخل، قتل خمسة من « » ضربا وطعنا. وأخذت البقية، حوالي المئتين إلى حصن بطرس-بولس تحت الحراسة، بمجموعات صغيرة تجنبا للمشاكل. وفي الطريق هاجم الجمهور إحدى هذه المجموعات قاتلا ثمانية من «الينكرز»... وكان أكثر من مئة قد سقطوا من الحرس الأحمر في هذه المعركة...

بعد ساعتين استلم مجلس الدوما مكالمة هاتفية تقول أن المنتصرين يتقدمون نحو كلية الهندسة. دزينة من الأعضاء ذهبوا في الحال ليوزعوا على المشاة آخر مراسيم لجنة الإنقاذ –فلم يتمكن عدد منهم من الرجوع. وقد سلمت كل المدارس الأخرى وأرسل «الينكرز» سالمين إلى حصن بطرس-بولس وإلى كرونستاد..

ظل مركز الهاتف يقاوم إلى ما بعد الظهر، إلى أن ظهرت مصفحة بلشفية واقتحم البحارة المكان. تراكضت عاملات الهاتف المرتعبات هنا وهناك وهن يصرخن،

بينما مزق «الينكرز» عن أرديتهم الإشارات المميزة، وحاول بعضهم أن يستعير معطف وليامز لقاء أي شيء يريد للتنكر. كانوا يصرخون: «سوف يذبحوننا! سوف يذبحوننا!» وذلك أن الكثير منهم قد تعهَّد في «قصر الشتاء» بأنه لن يحمل السلاح في وجه الشعب. وعرض وليامز أن يتوسط على شرط أن يطلق سراح انطونوف. وقد تم ذلك في الحال، وخطب وليامز وانطونوف في البحارة الغاضبين من جراء خسائرهم الفادحة، وهكذا سلم «الينكرز» مرة أخرى... عدا القليل منهم من الذين حاولوا، لفزعهم، الهرب عن طريق السطوح أو الاختباء في الأدوار العليا –القي القبض على هؤلاء والقي بهم إلى الشارع.

تدفّق العمال والجنود إلى غرفة توزيع المكالمات، ظافرين ومرهقين وملطخين بالدماء. ففوجئوا هناك بذلك العدد من الأوانس الجميلات فتراجعوا بخجل لا يعرفون ماذا يفعلون. ولم تتعرض أي من الفتيات للإهانة أو الأذى. تجمعن خائفات في الزوايا، ثم رحن يعبرن عن حقدهن عندما وجدن أنفسهن سالمات «أف؟ الناس القذرون الجهلاء! الحمقى!» شعر الجنود والحراس الحمر بالخجل. صرخت الفتيات: «خنازير! وحوش!» وبدأن، ساخطات، يرتدين قبعاتهن ومعاطفهن. عاشوا تجربة رومنطيقية وهن ينقلن أحزمة الرصاص ويضمدن جراح حُماتهن من «الينكرز» الشجعان الذي ينتمي العديد منهم إلى العائلات النبيلة، ويقاتلون من أجل إرجاع قيصرهم الحبيب! أما هؤلاء فقد كانوا عمالا عاديين وفلاحين من «سواد الناس» لا أكثر...

حاول فيشنياك الصغير، مفوض اللجنة العسكرية الثورية إقناعهن بالبقاء، كان يفيض تأدبا. قال «تعرّضتن لمعاملة سيئة. مجلس الدوما البلدي يسيطر على مصلحة الهاتف. يدفعون لكن ستين روبلا في الشهر، وتعملن عشر ساعات يوميا أو أزيَد... لن يتكرر ذلك من الآن فصاعدا. الحكومة تعتزم وضع مصلحة الهاتف تحت إشراف وزارة البريد والبرق. سوف ترفع معاشاتكن حالا إلى مائة وخمسين روبلا وتخفض ساعات عملكن. يجب أن يسعدكن الانتماء إلى الطبقة العاملة...»

«الانتماء إلى الطبقة العاملة؟ هل تجرؤ على القول أن هناك ما يجمع بيننا وبين هؤلاء؟ نبقى؟! لا. حتى لو عرضتم ألف روبل! وغادرن البناية بغطرسة وكراهية ظاهرتين...

بقي المستخدمون، رجال الصيانة والعمال. ولكن كان يجب تشغيل البدّالات، فالهاتف ضروري. ولم يبقَ إلا نصف دزينة من العاملات المدربات. طلب متطوعون، فاستجاب مائة بحّار وجندي وعامل. الفتيات الست يركضن ذهابا وإيابا، بين تدريب ومساعدة وتوبيخ... هكذا عادت الخطوط إلى العمل ببطء، كسيحة، متوقفة، ولكنها تعمل... وكانت أول مهمة هي إيصال «سمولني» بالثكنات والمصانع، والثانية عزل الدوما وكليات «الينكرز»... انتشر الخبر في المدينة في المساء المتأخر، واتصل مئات من البرجوازيين بالبدّالة صارخين: «حمقى! شياطين! إلى متى تظنون أنكم ستبقون؟ انتظروا حتى يجيء القوزاق!»

الليل يخيم. أمام كاتدرائية قازان على النييفسكي شبه المهجور الذي تلعب فيه ريح قارسة البرد، تجمَّع جمهور يناقش إلى ما لا نهاية، قليل من العمال وبعض الجنود والبقية من أصحاب الدكاكين والمكتبة وما شابه.

صاح أحدهم: «ولكن لينين عجز عن فرض السلم على ألمانيا!»

أجابه جندي شاب عنيف: «ومن المسؤول عن ذلك؟ كرنسكي اللعين، البرجوازي القذر! جهنم تأخذ كرنسكي! لا نريده! نريد لينين!...»

خارج الدوما، ضابط لف شريطا أبيض حول ذراعه ينزع الإعلانات عن الحائط وهو يشتم بصوت عال. وهذا نص أحدها:

«إلى سكان بتروغراد!

في هذه الساعة الحاسمة عندما يقع على مجلس الدوما واجب تهدئة السكان وتأمين الخبز والحاجيات الضرورية الأخرى لهم، يتناسى الاشتراكيون الثوريون اليمينيون وحزب الكاديت واجبهم، ويحوّلون الدوما إلى تجمع مضاد للثورة، يقلّبون فئة من السكان ضد الأخرى، لتسهيل انتصار كورنيلوف-كرنسكي. بدل أن يقوموا بواجبهم، حوّل الاشتراكيون الثوريون اليمينيون وحزب الكاديت مجلس الدوما إلى حلبة للهجوم السياسي على سوفييت مندوبي العمال والفلاحين والجنود، ضد الحكومة الثورية، حكومة السلم والخبز والحرية.

يا مواطني بتروغراد، نحن الأعضاء البلاشفة في المجلس البلدي، الذي انتخبنا من قبلكم، نريدكم أن تعلموا أن الاشتراكيين الثوريين اليمينيين وحزب الكاديت يشتركون في الثورة المضادة، وتناسوا واجباتهم، وهم يقودون السكان إلى المجاعة والحرب الأهلية. نحن المنتخبين من قبل 183000 مواطن، نعتقد أن الواجب يدعونا إلى إطلاع ناخبينا على ما يجري في مجلس الدوما، ونعلن أننا نتصل من تحمُّل مسؤولية النتائج المخيفة المتوقعة...»

من بعيد تأتي أصوات طلقات متقطعة، لكن المدينة كانت تستلقي هادئة باردة، كأمنا التشنجات التي اجتاحتها استنفدت كل قواها.

اجتماع الدوما يشارف نهايته في قاعة نيقولاي. حتى مجلس الدوما العنيف بدا وكأنه مذهول تماما. ألقي المفوضون تقاريرهم الواحد تلو الآخر: سقوط مركز الهاتف، قتال الشوارع، سقوط كلية فلاديمير... قال تروب: «إن الدوما تقف بجانب الديموقراطية في صراعها ضد العنف الكيفي، لكن، على أية حال وكائنا من يكون الغالب، فإن الدوما ستقف دوما ضد القتل والتعذيب...»

كونوفسكي، من حزب الكاديت، كهل طويل، ذو وجه قاس. «عندما يصل جنود الحكومة الشرعية، سيطلقون النار على هؤلاء العصاة، ولن يكون هذا قتلا كيفيا!» احتجاجات من كل أنحاء القاعة، حتى من أعضاء حزبه.

الشك والكآبة يسودان المكان. كانت الثورة المضادة في طريق الإخماد. صوَّتت اللجنة المركزية للحزب الاشتراكي الثوري بنزع الثقة عن ضباطها، سيطر الجناح اليساري، واستقال أفاكسانتييف. جاء مراسل يقول أن اللجنة التي أرسلت لاستقبال كرنسكي قد اعتقلت. في الشوارع يمكن سماع الدوي المكتوم لمدفعية بعيدة، إلى الجنوب والجنوب الغربي. إلا أن كرنسكي لم يصل. اليوم صدرت ثلاث صحف فقط: «برافدا»، «ديبلو نارودا» (قضية الشعب) و«نوماباجيزن» (الحياة الجديدة). وخصصت كل منها مجالا واسعا بوزارة لأخبار الحكومة الائتلافية الجديدة. طالبت جريدة الاشتراكيين الثوريين بوزارة دون بلاشفة أو كاديت. غوركي متفائل. فقد قدمت «سمولني» بعض التنازلات. حكومة اشتراكية بحتة في طور التكوين –كل العناصر عدا البرجوازية. أما البرافدا، فقد علقت بسخرية:

«إننا نسخر من هذه الائتلافات مع أحزاب سياسية أهم أعضائها من الصحفيين الصغار ذوي السمعة المشبوهة. إن «ائتلافنا» وهو تحالف الطبقة العاملة والجيش الثوري مع الفلاحين الفقراء...»

على الجدران بيان دعي «للفيكجل» يهدد بالإضراب إذا لم يتوصل الجانبان إلى تسوية.

«إن الذين سينتصرون على أعمال الشغب هذه، الذين سينقذون بلادنا من الخراب لن يكونوا البلاشفة ولا لجنة الإنقاذ أو جنود كرنسكي –بل نحن، اتحاد عمال سكك الحديد...

إن رجال الحرس الأحمر عاجزون عن إدارة عملية صعبة مثل السكك، أما الحكومة المؤقتة فقد كشفت عن عجزها عن البقاء في الحكم...

إننا نرفض تقديم خدماتنا لأي حزب لا يستمد سلطته من حكومة تحظى بثقة كل القوى الديموقراطية...»

«سمولني» تعج بالناس الذين يعملون بحيوية لا تحدّ...

في مقر اتحاد النقابات قدمني لوزوفسكي إلة مندوب عمال سكك خط نيقولاي. فقال هذا أن العمال يعقدون اجتماعات عامة ضخمة يحتجون فيها على عمل قياداتهم.

وصرخ وهو يضرب الطاولة بيده: «كل السلطات للسوفييت! المدافعون في اللجنة المركزية يؤيدون كرنسكي بموقفهم. لقد حاولوا إرسال وفد ستافكا ولكننا اعتقلناه عند منسك... طالب فرعنا بعقد مؤتمر لعموم روسيا، ولكنهم يرفضون دعوته...»

نفس الوضع موجود في السوفييت ولجان الجيش. التنظيمات الديموقراطية في كل روسيا تنهار الواحدة تلو الأخرى وتتغير. الصراعات الداخلية تمزق التعاونيات، انفضت اجتماعات اللجنة التنفيذية للفلاحين بعد خلافات عاصفة، والخلافات تمتد إلى القوزاق أنفسهم...

اللجنة العسكرية الثورية، في الطابق الأعلى، تعمل بأقصى جهدها، وتضرب ولا تكلّ. الرجال يدخلون، نشيطين أقوياء، يقذفون بأنفسهم في هذه الآلة الرهيبة ليل نهار، ثم يخرجون منها خائري القوى وقد أعياهم الإرهاق، مبحوحي الأصوات تغطيهم الأوساخ، فيسقطون على الأرض وينامون... حُلّت لجنة الإنقاذ. أكداس هائلة من البلاغات الجديدة تغطي الأرض (1).

«... إن المتآمرين، الذين لا يحظون بتأييد أحد من الحامية أو من الطبقة العاملة، يعتمدون، بالدرجة الأولى، على عنصر المباغتة. وقد اكتشف الملازم بلاغونرانوف خططهم في الوقت المناسب، بسبب يقظة حارس أحمر سوف يعلن عن اسمه. كانت لجنة الإنقاذ هي مدبرة المؤامرة. والعقيد بولكوفنيكوف يقود قواتهم. الذي وقّع على الأوامر هو غوتز، الوزير السابق في الحكومة المؤقتة الذي أطلق سراحه بناء على كلمة شرف منه.

إن اللجنة العسكرية الثورية، إذ تلفت انتباه سكان بتروغراد إلى هذه الحقائق، تأمر باعتقال جميع الذين لهم علاقة بهذه المؤامرة تمهيدا لإحالتهم إلى المحكمة الثورية...»

ورد خبر من موسكو بأن القوزاق و«الينكرز» حاصروا الكرملين وأمروا القوات السوفييتية بإلقاء السلاح. فوافقت، وبينما كانت تغادر الكرملين هوجمت وأطلق عليها النار. وطُردت قوات صغيرة من البلاشفة من مراكز البرق والهاتف، ويسيطر «الينكرز» الآن على مركز المدينة... لكن القوات السوفييتية كانت قد بدأت تحاصرهم. قتال الشوارع يتعاظم شيئا فشيئا. وقد فشلت جميع المحاولات للوصول إلى حل وسط. بجانب السوفييت عشرة آلاف جندي من الحامية وقليل من الحرس الأحمر، وبجانب الحكومة ستة آلاف من «الينكرز» وألفان وخمسمائة قوزاقي وألفان من الحرس الأبيض.

سوفييت بتروغراد يعقد اجتماعاته، وبجواره تعمل «التسايكا» الجديدة وفق المراسيم والأوامر التي تصلها، في تيار لا ينقطع، من مجلس مفوضي الشعب الذي يجتمع في الطابق الأعلى حول «نظام إقرار القوانين ونشرها»، إقرار «يوم عمل من ثماني ساعات»، ومشروع لوناتشارسكي عن «أسس لنظام تعليم شعبي». مئات قليلة من الناس تحضر الاجتماعين، أكثرهم مسلح. «سمولني» تكاد تكون مهجورة، عدا الحراس المشغولين بتثبيت الرشاشات على النوافذ لحماية جوانب البناية (2).

في اجتماع «التسايكا» يتكلم مندوب عن نقابات السكك الحديدية:

«نرفض نقل جنود الطرفين... أرسلنا وفدا إلى كرنسكي لنخبره أننا سنقطع خطوط الاتصال التي يعتمدها إذا واصل زحفه على بتروغراد...»

ثم قدم الطلب المعهود بعقد مؤتمر لجميع الأحزاب الاشتراكية لتأليف حكومة جديدة.

أجابه كامنييف باعتدال. يسرّ البلاشفة أن يحضروا مؤتمرا كهذا. إن النقطة الأساسية ليست في تكوين مثل هذه الحكومة، وغنما في قبولها لبرنامج السوفييت. بحثت «التسايكا» تصريحات الاشتراكيين الثوريين اليساريين والاشتراكيين الديموقراطيين الأمميين، وقبلت بمبدأ «التمثيل النسبي» في المؤتمر، وقد ذهبت إلى حد الموافقة على إشراك ممثلين عن لجان الجيش وسوفيت الفلاحين...

في القاعة الضخمة يروي تروتسكي حوادث اليوم.

قال: «أعطينا «ينكرز» كلية فلاديمير فرصة للاستسلام. أردنا أن نتدبر الأمر بدون سفك دماء. ولكن الآن وقد سالت الدماء، فلم يعد ثمة من طريق غير مواصلة الصراع بلا هوادة. من السذاجة أن نظن هناك وسيلة أخرى لتحقيق الانتصار... لقد حانت اللحظة الحاسمة. يجب أن يتعاون الجميع مع اللجنة العسكرية الثورية، وأن يبلغوها عن مخازن الأسلاك الشائكة والبنزين والأسلحة... لقد استولينا على السلطة، الآن يجب أن نحتفظ بها!»

حاول يوف المنشفي قراءة بيان حزبه، لكن تروتسكي منع «النقاش حول القضايا المبدئية».

«إن نقاشنا يدور اليوم في الشوارع. لقد خطونا الخطوة الحاسمة، ونحن جميعا، وأنا شخصيا، نتحمل مسؤولية ما يحدث...»

جنود من الجبهة ومن «غاتشينا» يروون قصصهم. واحد من «فيلق الموت» 181 –مدفعية- يقول: «عندما يسمعون هذا في الخنادق سيقولون هذه هي حكومتنا!»

قال أحد «الينكرز» من بيترهوف أنه، واثنان من زملائه، رفضوا القتال ضد البلاشفة، ولما عاد رفاقه من الدفاع عن «قصر الشتاء»، عينوه مفوضا لهم ليذهب إلى «سمولني» ويعرض خدماتهم على الثورة الحقيقية...

وعاد تروتسكي ملتهبا، لا يكل، يصدر الأوامر ويجيب على الأسئلة.

وقال مرة: «إن البرجوازية الصغيرة مستعدة للاتفاق مع الشيطان نفسه لكي تهزم العمال والجنود والفلاحين!» لوحظت حالات سكر كثيرة خلال اليومين الماضيين: «لا تحتسوا الخمر، يا رفاق! يجب أن لا يكون أحد في الشارع بعد الساعة الثامنة

عدا الحرس النظامي. يجب أن نفتش على المحلات التي يشتبه أنها تخزن الخمور، وإتلافها. لا رحمة لبائعي الخمور....» (3).

أرسلت اللجنة العسكرية الثورية تطلب وفد حي فيبورغ، ثم ممثلي بوتيلوف. فخرج هؤلاء مسرعين.

قال تروتسكي: «مقابل كل ثوري يُقتل، سنقتل خمسة من أعداء الثورة!»

عدنا إلى المدينة. الدوما مشعشعة بالأضواء وجموع غفيرة تتدفق إلى الداخل. في القاعة السفلى عويل ونحيب، الجمع يتدافع حول اللوحة الإخبارية حيث علقت قائمة بأسماء «الينكرز» الذين قتلوا في معارك اليوم، أو الذين يظن أنهم قُتلوا لأن كثيرا منهم رجع سليما معافى بعد فترة... وفي قاعة الاسكندر فوق، كانت لجنة الإنقاذ تعقد اجتماعها. شارات الضباط الحمراء والذهبية تملأ المكان، والوجوه المألوفة لمثقفي المناشفة الاشتراكيين الثوريين، وأصحاب المصارف والدبلوماسيين بنظراتهم القاسية وأناقتهم الفاخرة، ورسميو العهد المباد، ونساء أنيقات...

فتيات الهاتف يدلين بشهادتهن. تقدمت الواحدة بعد الأخرى إلى المنصة – متبرّجات، مقلدات للموضة، بوجوه خائفة وأحذية مثقوبة. الفتاة تلو الأخرى تحمّر امتنانا لتصفيق ناس بتروغراد «المحترمين»، تصفيق الضباط والأغنياء والأسماء الشهيرة في دنيا السياسية، تروي ما عانته على أيدي الطبقة العاملة، وتعلن ولاءها لكل ما هو قديم وثابت وقوي...

الدوما تجتمع مرة أخرى في قاعة نيقولاي. رئيس البلدية متفائل. يقول بأن فرق بتروغراد قد خجلت من أعمالها، وأن الدعاية بدأت تعطي ثمارها... المبعوثون يروحون ويجيئون، يروون الفظائع التي يرتكبها البلاشفة، يتدخلون لإنقاذ «الينكرز»، وينشغلون بالتحقيقات...

قال تروب: «سننتصر على البلاشفة بقوة الأخلاق، وليس بالحراب...»

في تلك الأثناء، لم تكن الأحوال على ما يرام في الجبهة الثورية. جاء العدو بقطارات مصفحة معززة بالمدافع. وكانت قوات السوفييت المكونة من الحرس الأحمر عديمة الخبرة، بدون ضباط وبدون خطط واضحة، لم ينضم إليها سوى خمسة آلاف جندي من الحامية. كان الباقون مشغولين بإخماد ثورة «الينكرز» في المدينة، أو في أعمال حماية المدينة، أو أنهم لا يعرفون ماذا يصنعون. في العاشرة ليلا خطب لينين في اجتماع مندوبي فرق المدينة الذين صوتوا على القتال بأغلبية ساحقة. انتخبت لجنة من خمسة جنود لتقوم بأعمال الأركان العامة، وفي ساعات الصباح الأولى، تركت الفرق ثكناتها وهي بكامل استعدادها للقتال... عند عودتي للبيت رأيتهم يمرون، خلال الشوارع المقفرة، بخطى المحاربين المجرّبين وحرابهم في خط كامل الانتظام...

في الوقت ذاته، كان ينعقد مؤتمر كل الأحزاب الاشتراكية لتكوين حكومة جديدة، وذلك في مقر نقابات سكك الحديد في شارع «سادوفايا». قال ابراموفيتش، متكلما باسم المناشفة الوسطيين، أنه يجب أن لا يكون هناك غالب أو مغلوب، وأن ما مضى مضى... فوافقت على قوله جميع الأحزاب اليسارية. وعرض دان على البلاشفة، باسم المناشفة اليمينيين، الشروط التالية لعقد الهدنة: نزع سلاح الحرس الأحمر، وضع حامية بتروغراد تحت سلطة الدوما، جنود كرنسكي لا يطلقون النار ولا يقتلون أحدا، وزارة من جميع الاشتراكيين ما عدا البلاشفة. أعلن ريازانوف وكامنييف، باسم «سمولني»، قبول الوزارة الائتلافية لكنهما احتجا على مقترحات دان في نفس الوقت. الاشتراكيون الثوريون منقسمون، بينما رفضت

اللجنة التنفيذية لسوفييت الفلاحين والاشتراكيون الشعبيون قبول إشراك البلاشفة... وبعد صراع مرير، انتخبت لجنة لوضع خطة عمل...

ظلت اللجنة تتشاحن فيما بينها طيلة الليلة والنهار والليلة التالية. في المرة الماضية، يوم 9 تشرين الثاني (نوفمبر)، جرت محاولة مماثلة قادها مارتوف وغوركي، ولكن اليمين المنشفي والاشتراكيين الثوريين والاشتراكيين الشعبيين انسحبوا فجأة بسبب تقدم كرنسكي ونشاط لجنة الإنقاذ. أما الآن فإنهم لم ينسحبوا لأن سحق عصيان «الينكرز» قد أفزعهم...

كان يوم الاثنين في 12 منه مليئا بالترقب. أنظار روسيا كلها تتجه إلى السهل الرمادي عبر بوابات بتروغراد حيث تواجه قوات العهد المباد القوة المبعثرة للعهد الجديد المجهول. أعلنت الهدنة في موسكو. واخذ الطرفان ينتظران ما سيجري في العاصمة. مندوبو مؤتمر السوفييت يستعجلون في عودتهم إلى مواطنهم في كل أنحاء روسيا، بقطارات مسرعة، حاملين صليبهم المشتعل. انتشرت أنباء المعجزة بحلقات تتوسع بسرعة على وجه الارض، فتستيقظ مدن وقرى بعيدة على الهياج والانشقاق: السوفييت واللجان العسكرية الثورية ضد الدوما والزيميستوفا ومفوضي الحكومة. الحرس الأحمر ضد الحرس الأبيض، القتال في الشوارع والخطب العاصفة... النتائج تتوقف على أخبار العاصمة...

«سمولني» فارغ تقريبا، بينما مقر الدوما مزدحم صاخب. رئيس البلدية العجوز يحتج بطريقته المتزنة على النداء الذي أصدره الأعضاء البلاشفة في الدوما، ويقول بحرارة: «الدوما ليست وكرا للثورة المضادة. الدوما لا تشارك في الصراع الحالي بين الأحزاب. ولكن في الوقت الذي لا توجد فيه سلطة شرعية في البلد، فالحكومة الذاتية البلدية هي المحور الوحيد للنظام. هذا ما يعترف به السكان المسالمون، كما أن السفارات الأجنبية لا تعترف إلا بالوثائق التي يوقعها رئيس البلدية. إن عقل الأوروبي لا يعترف بوضعية غير هذه، فالحكومة البلدية هي الهيئة الوحيدة التي تستطيع حماية مصالح المواطنين. وأنه لمن واجب المدينة أن تعرض حسن ضيافتها على كل من يحتاجه، ولذا فلا يمكن للدوما أن تمنع توزيع أية صحيفة داخل بنايتها. إن نطاق عملنا يتوسع، ويجب أن تُعطى الحرية الكاملة في العمل، وأن يحترم الجانبان حقوقنا...

«نحن محايدون تماما. فعندما احتل «الينكرز» مركز الهاتف، أمر العقيد بولكوفينكون بقطع خطوط «سمولني»، ولكني أعلنت احتجاجي على ذلك فأعيد وصل الخطوط...»

هنا تعالت ضحكات ساخرة من البلاشفة، وتعليقات مضادة من اليمين. وتابع شرايدر: «ومع هذا، فإنهم ينظرون إلينا كأعداء للثورة، ويخبرون السكان عنا. إنهم يحرموننا من وسائل النقل بالاستيلاء على آخر سياراتنا. إذا حصلت مجاعة في المدينة، فلن يكون الذنب ذنبنا. لا فائدة من الاحتجاج...»

أبدي كوبوزيف –العضو البلشفي في مجلس البلدية- شكه في أن تكون اللجنة العسكرية الثورية قد صادرت سيارات الحكومة البلدية. وحتى ولو كان ذلك صحيحا، فإنه حتما عمل أفراد قاموا به دون تفويض من اللجنة وحتَّمته الظروف القاهرة.

قال: «رئيس البلدية يطالبنا بعدم تحويل الدوما إلى ندوة سياسية، ولكن المناشفة والاشتراكيين الثوريين لا يتكلمون هنا بشيء غير الدعاية الحزبية. وهم يوزعون على الباب صحفهم الممنوعة: «الشرارة و«صوت الجندي» و«جريدة العمال»، وكلها تحرض على العصيان. ماذا لو وزعنا نحن البلاشفة، صحفنا هنا؟ ولكننا لن نفعل ذلك لأننا نحترم الدوما. إننا نهاجم الحكومة الذاتية البلدية، ولن نهاجمها في

المستقبل. ولكنكم وجهتم نداء إلى السكان، ونحن أيضا لنا الحق في أن نفعل ذلك...»

وتبعه سينغاروف، من الكاديت، فقال بأنه لا يوجد أرض مشتركة مع الذين يُحتمل أن يدينهم المدعي العام غدا، والذين يجب محاكمتهم بتهمة الخيانة العظمى... واقترح للمرة الثانية طرد جميع الأعضاء البلاشفة من الدوما. فلم ينجح الاقتراح لعدم وجود تهم شخصية ضد الأعضاء، ولفعاليتهم في الإدارة البلدية.

ثم قام اثنان من المناشفة الأممين وأعلنوا أن نداء الأعضاء البلاشفة في الدوما هو تحريض صريح على المذابح. قال بينكيفيتش: «إذا كان من يعارض البلاشفة هو عدو للثورة فأنا لم أعد أستطيع أن أميِّز بين الثورة والفوضى... إن البلاشفة يعتمدون على غرائز الجماهير المنفلتة من عقالها، أما نحن فلا نملك إلا القوة المعنوية. سوف نحتج على المذابح والعنف عند الجانبين لأن مهمتنا هي التوصل لحل سلمي».

قال نازاريف: «إن الإعلان المعلق في الشوارع بعنوان «إلى الخازوق» والذي يدعو الشعب إلى القضاء على المناشفة والاشتراكيين الثوريين، هو جريمة لن تستطيعوا محو آثارها، أيها البلاشفة. ليست فظائع الأمس سوى مقدمة لما تحضّروه له في بيانات مثل هذه... لقد حاولت دائما أن أوفق بينكم وبين الأحزاب الأخرى، أما الآن، فإني لا أشعر تجاهكم إلا بالاحتقار!»

فانتصب الأعضاء البلاشفة وهم يصرخون بغضب، تحيط بهم الأصوات الخشنة المعادية والقبضات الملوّحة من كل جهة...

لقيت مهندس المدينة خارج القاعة، غونبرغ المنشفي، ومعه ثلاثة أو أربعة صحفيين. وكانوا جميعا متفائلين:

«هل رأيت؟ الجبناء يخافوننا. إنهم لا يجرأون على اعتقال أعضاء الدوما! لجنتهم العسكرية الثورية لا تجرؤ على إرسال مفوض إلى هذه البناية. رأيت اليوم في شارع سادوفايا حارسا أحمر يحاول منع صبي من بيع «صوت الجندي»... الصبي يضحك عليه، بينما حاول جمع من الناس قتل المجرم. القضية أصبحت الآن قضية ساعات معدودات لا أكثر. ليس عندهم رجال لتسيير الحكم حتى لو لم يأت كرنسكي. مهزلة! علمت أنهم يتقاتلون فيما بينهم في سمولني!»

وجرّني صديق اشتراكي ثوري جانبا وقال: «أعرف أين تختبئ لجنة الإنقاذ. هل تريد أن تذهب للتحدث إليهم؟»

وكان المساء قد هبط على المدينة التي بدأت تعود إلى حياتها العادية. أبواب الحوانيت مفتوحة، والأضواء تتلألأ، وفي الشوارع جماهير غفيرة تروح وتجيء وهي منهكة بالنقاش.

في رقم 86 بشارع نييفسكي دلفنا من ممر إلى ساحة تحيط بها بنايات سكنية عالية. وقرع صديقي بطريقة خاصة باب الشقة رقم 229. سمعت حركة في الداخل، وصوت باب داخلي يفتح ثم يغلق، إلى أن شُقَّ الباب الخارجي وظهر وجه امرأة. وبعد أن تفحّصتنا طيلة دقيقة، سمحت لنا بالدخول –إنها امرأة في أواسط العمر هادئة المظهر، صاحت رأسا: «كل شيء على ما يرام يا كبريل!» في غرفة الطعام حيث يغلي «سماور» على مائدة عليها صحون مليئة بالخبز والسمك النيئ، خرج ببذلة عسكرية من وراء ستار النافذة، وظهر آخر من الخزانة وهو يرتدي ثياب عامل. كانا مغتبطين بلقاء مراسل أمريكي. أخبراني بحماسة أنهما سيُعدمان

حتما إذا أمسك بهما البلاشفة. رفضا إعطاء اسميهما واكتفيا بالقول أنهما من الحزب الاشتراكي الثوري...

سألت: «لماذا تنشر صحفكم أخبارا كاذبة؟»

أجاب الضابط دون أن يعتبر هذا السؤال إهانة: «بلى. أعرف. ولكن ما العمل؟» وهز كتفيه: «عليك أن تعترف بأنه من الضروري أن نخلق رأيا عاما خاصا في أذهان الجماهير».

قاطعه الرجل الآخر «هذه مجرد مغامرة قام بها البلاشفة. ليس عندهم مثقفون. لن تقبل الوزارات أن تعمل... روسيا ليست مدينة، إنها بلد بأكمله... لأننا ندرك أنهم لن يستمروا في الحكم أكثر من أيام معدودة، قررنا أن نساعد أكبر قوة معارضة لهم –كرنسكي- فنكون بذلك قد ساهمنا في إعادة الاستقرار».

قلت: «لندع هذا جانبا. لماذا تتحالفون مع الكاديت؟»

ابتسم العامل المزيف ابتسامة صريحة وقال: «الحق يقال أن أوسع الجماهير تؤيد البلاشفة الآن. إننا لا نستطيع أن نجمع حفنة من الجنود. ليس عندنا أسلحة. البلاشفة على حق إلى حد ما عندما يقولون أن هناك قوتين فقط في هذه اللحظة في روسيا. البلاشفة والرجعيون الذين يختفون كلهم وراء قناع الكاديت. يعتقد الكاديت أنهم يستعملوننا، ولكننا نحن الذين نستعملهم في الواقع. بعد أن نحطم البلاشفة، سننقلب على الكاديت...»

«هل تقبلون اشتراك البلاشفة في الحكومة الجديدة؟»

حك رأسه واعترف: «هذه مشكلة. إذا رفضنا اشتراكهم فإنهم بالطبع سيعيدون فعلتهم. على كل حال، ستكون لهم فرصة السيطرة على توازن القوى في الجمعية التأسيسية، هذا إذا انعقدت أصلا».

قال الضابط: «ثم أن هذا يطرح مسألة إدخال الكاديت إلى الحكومة الجديدة – لأسباب نفسها. أنت تعلم أن الكاديت، في الحقيقة، لأي يردون جمعية تأسيسية – ليس إذا بالامكان سحق البلاشفة الآن». هز رأسه وتابع حديثه: «السياسة ليست سهلة بالنسبة لنا، نحن الروس. أنتم الأمريكيين تولدون سياسيين، تمارسون السياسة طوال حياتكم، أما بالنسبة إلينا...»

وسألته: «ما رأيك بكرنسكي؟»

أجاب الرجل الآخر: «آه، كرنسكي هو المسؤول عن كل أخطاء الحكومة المؤقتة. إن كرنسكي هو الذي أجبرنا على القبول بالتحالف مع البرجوازية. لو أنه نفذ تهديده واستقال، لوقعت أزمة وزارية قبل انتخابات الجمعية التأسيسية بستة عشر أسبوعا فقط. وقد أردنا أن نتجنب ذلك».

«ولكن ألم يحصل ما هو شبيه بذلك على كل حال؟»

«نعم. ولكن كيف كان لنا أن نعرف به مسبقا؟ لقد خدعونا –أقران كرنسكي وافاكسانتييف. غوتز أكثر ثورية بقليل. أنا مع تشيرنوف، إنه ثوري حقيقي... لينين نفسه أرسل يقول إنه لن يمانع في اشتراك تشيرنوف في الحكومة.

«نحن كذلك أردنا أن نتخلص من كرنسكي، ولكننا فضلنا أن ننتظر الجمعية التأسيسية... في بداية الأمر كنت مع البلاشفة، لكن اللجنة المركزية لحزبي صوتت بالإجماع ضدهم –ماذا أعمل؟ كانت القضية انضباط حزبي...

«ستنهار حكومة البلاشفة خلال أسبوع. إذا ما وقف الاشتراكيون الثوريون جانبا واكتفوا بالانتظار فإن الحكم سيسقط بين أيديهم من تلقاء نفسه. أما إذا انتظرنا أسبوعا ثانيا فإن الفوضى ستعم البلد إلى حد يؤدي إلى انتصار الاستعماريين الألمان. لهذا بدأنا ثورتنا بفرقتين من الجنود فقط، وعدونا بالمساعدة ولكنهم انقلبوا علينا... لم يتركوا لنا إلا القوزاق...»

«وماذا عن القوزاق؟»

تنهَّد الضابط قائلا: «لم يتحركوا. قالوا أولا أنهم سيخرجون إذا ساندهم المشاة. ثم أضافوا أن رجالهم مع كرنسكي وأنهم يعملون ما عليهم. وقالوا كذلك أنهم متهمون بالعداء للديموقراطية بالوراثة... وفي النهاية قالوا: «لقد وعد البلاشفة بعدم مصادرة أراضينا. ليس علينا خطر. سنلتزم الحياد».

أناس يدخلون ويخرجون بصورة دائمة طوال المحادثة، أكثرهم من الضباط الذين نزعوا شاراتهم. كنا نراهم في القاعة، ونسمع أصواتهم الخافتة الحادة. وأحيانا، كنا نستطيع أن نرى من خلال باب الحمام المفتوح رجلا ضخما ببزة عقيد، جالسا على المرحاض يكتب على دفتر وضعه في حضنه. علمنا أنه العقيد بولكوفيكوف، قائد حامية بتروغراد السابق الذي خصصت اللجنة العسكرية الثورية مكافأة ضخمة لمن يلقي القبض عليه...

قال الضابط: «برنامجنا؟ هذا هو: تسليم الأراضي للجان الأرض. تمثيل العمال تمثيلا كاملا في السيطرة على الصناعة. برنامج حيوي لإحلال السلم، وليس كالإنذار الذي وجَّهه البلاشفة للعالم. لن يستطيع البلاشفة تنفيذ الوعود التي قطعوها للجماهير، ولا للبلد نفسه... لن نسمح لهم... لقد سرقوا برنامجنا الزراعي ليكسبوا تأييد الفلاحين. وهذا ليس بعمل شريف. لو أنهم انتظروا إلى حين انعقاد الجمعية التأسيسية».

قال العامل المزيّف مقاطعا: «الجمعية التأسيسية لا تهمنا. إذا أراد البلاشفة بناء دولة اشتراكية فنحن لا نستطيع العمل معهم بأي حال! لقد ارتكب كرنسكي غلطة كبرى. عرّف البلاشفة بنواياه عندما أعلن أمام مجلس الجمهورية بأنه سيلقي القبض عليهم...»

قلت: «ولكن ما تنوون أن تعملوا؟»

تبادل الرجلان النظرات. «سوف ترى بعد أيام قليلة. إذا حصلنا على تأييد عدد كافٍ من جنود الجبهة، فلن نساوم مع البلاشفة. وإذا لم نحصل على ذلك اضطروا للمساومة....»

عدنا على شارع نييفسكي. وقفزنا إلى حافلة مليئة بالناس... تتقدم ببطء أليم نحو سمولني البعيد.

كان ميشكوفسكي نازلا إلى القاعة، إنه رجل أنيق ضامر صغير الحجم، تبدو عليه مظاهر القلق. أخبرنا بأن إضراب الوزارات بدأ يعطي مفعوله. فمثلا بعد أن كان مجلس مفوضي الشعب قد وعد الشعب بنشر المعاهدات السرية اختفى نيراتوف، الموظف المسؤول، حاملا معه الوثائق. ويقال أنه أخفاها في السفارة البريطانية...

إلا أن أسوأ ما في الأمر كانت نتائج إضراب المصارف. قال مينشينسكي: «نحن عاجزون بدون نقود. يجب أن ندفع أجور عمال السكك الحديدية، ومستخدمي البريد والبرق... المصارف مقفلة. ومصرف الدولة، مفتاح الوضع كله، مقفل هو أيضا. لقد رشوا كل مستخدمي المصارف في روسيا لإيقاف العمل...

ولكن لينين أصدر أمرا بفتح خزائن مصرف الدولة بواسطة الديناميت. وهناك مرسوم صدر الآن يأمر المصارف الخاصة بفتح أبوابها غدا، وإلا تولت السلطة فتحها بالعنف.

سوفييت بتروغراد في اجتماع حافل، يعج بالرجال المسلحين. تروتسكي يقدم تقريره:

«القوزاق يتراجعون من كراسنويي سيلا (هتاف حاد مبتهج)، ولكن هذه مجرد بداية المعركة. القتال العنيف ما زال مستمرا في بولكوفا. يجب إرسال كل القوات المتوفرة بسرعة إلى هناك...

«أخبار سيئة من موسكو. الكرملين بيد «الينكرز» وليس عند العمال إلا أسلحة قليلة. النتيجة هناك متوقفة على ما يجري في بتروغراد...

«مراسيم السلم والأرض تثير حماسا عظيما في الجبهة. بينما يغرق كرنسكي الخنادق بسيل من القصص عن بتروغراد المشتعلة الدامية، وعن ضحايا المذابح البلشفية من النساء والأطفال. ولكن لا يصدقه أحد...

«البارجات الحربية «أوليغ» و«افرورا» و«ريسبوبليكا» على نهر النييفا، ومدافعها مصوبة نحو مداخل المدينة...

صاح صوت خشن: «لماذا لستَ هناك مع الحرس؟»

أجاب تروتسكي: «أنا ذاهب الآن!» ونزل عن المنصة يعلو وجهه شحوب زائد، محاطا بالأصدقاء المتحمسين، وأسرع نحو السيارة التي تنتظره.

وأخذ كامنييف الكلام، واصفا ما دار في مؤتمر المصالحة. قال أن شروط الهدنة التي وضعها البلاشفة قد رُفضت باحتقار. حتى فروع نقابة سكك الحديد صوتت ضدها...

«الآن وقد استولينا على السلطة وبدأنا نجتاح روسيا بأسرها، يطلبون منا ثلاثة أشياء بسيطة: 1- أن نسلم السلطة، 2- أن نجبر الجنود على مواصلة الحرب، 3- أن نجبر الفلاحين على نسيان الأرض...»

ظهر لينين لفترة قصيرة ليجيب على اتهامات الاشتراكيين الثوريين:

«يتهموننا بأننا سرقنا برنامجهم الزراعي... إذا كان ذلك صحيحا فنحن ننحي لهم شاكرين. إنه يناسبنا تماما...»

وهكذا استمر هدير الاجتماع. القيادي تلو القيادي يشرح ويحث ويناقش، والجندي تلو الجندي، والعامل تلو العامل يقف ليعبر عما في قلبه وعقله...

المتفرجون يتغيرون دائما. بين الحين والآخر يدخل رجال يصيحون أن على رجال القطعة الفلانية الالتحاق بالجبهة، ويجيء آخرون بعد انتهاء نوبتهم، أما

لأنهم جرحى، وإما لأنهم قادمون على «سمولني» طلبا للأسلحة والمعدات، فيتدفقون جميعا إلى القاعة...

كانت الساعة الثالثة صباحا عندما تركنا القاعة وقابلنا هولتزمان، عضو اللجنة العسكرية الثورية، راكضا متألق الوجه.

صرخ وهو يصافحني: «كل شيء على ما يرام! رقية من الجبهة. تحطم كرنسكي؟ انظر لهذه!»

قدم لي ورقة مكتوب عليها بالقلم الرصاص بخط غير واضح، ثم قرأها بصوت عال عندما عجزنا عن قراءتها:

«بولكوفا. الأركان. الساعة الثانية وعشر دقائق قبل الظهر.

إن التاريخ سوف يخلد ليلة 30-31 من أكتوبر (التاريخ الروسي القديم). لقد صدَّت، بطريقة حاسمة، محاولة كرنسكي في تحريك القطعات المضادة للثورة إلى العاصمة. كرنسكي يتراجع، ونحن نتقدم. ولقد برهن جنود وبحارة وعمال بتروغراد المسلحون على قدرتهم على فرض إرادة الديموقراطية وسلطتها. حاولت البرجوازية عزل الجيش الثوري. وحاول كرنسكي تحطيمه بقوة القوزاق. وقد انتهت الخطتان بفشل ذريع.

إن فكرة سيطرة ديموقراطية العمال والفلاحين قد وحّدت صفوف الجيش وقوّت عزيمته. سيقتنع البلد بأسره، من الآن فصاعدا، بأن سلطة السوفييت ليست بالشيء العابر، وإنما هي الحقيقة التي لا تُقهر... إن هزيمة كرنسكي هي هزيمة ملاك الأرض والبرجوازيين والكورنيلوفيين بشكل عام. إن هزيمة كرنسكي هي تأكيد لحق الشعب في حياة مسالمة حرة، ولحقه في الأرض والخبز والسلطة. إن فرقة بولكوفا قد دعَّمت قضية ثورة العمال والفلاحين بضربتها الجريئة. لا عودة للماضي. أمامنا كفاح ومصاعب وتضحيات، لكن الطريق مفتوح والنصر أكيد.

إن روسيا الثورية والسلطة السوفييتية فخورتان بفرقة بولكوفا العاملة تحت قيادة العقيد والدن. الخلود للذين استشهدوا! المجد لمحاربي الثورة من الجنود والضباط المخلصين للشعب!

تعيش روسيا الاشتراكية الشعبية الثورية.

عن المجلس
ل. تروتسكي، مفوض الشعب»

في طريق عودتنا إلى البيت، عبر ساحة زنامينسكي، رأينا تجمعا غير عادي أمام محطة قطار نيقولاي. بضعة ألوف من البحارة متجمعين حاملين البنادق. وكان أحد أعضاء «الفيكجل» يخاطبهم:

«أيها الرفاق، لا نستطيع نقلكم إلى موسكو. نحن على الحياد. إننا لا ننقل جنود الجانبين. لا نستطيع أخذكم إلى موسكو حيث تدور الآن حرب أهلية رهيبة...»

كانت كل الساحة تزار حقدها في وجهه، وبدأ البحارة بالتقدم. وفجأة فتح باب على مصراعيه وظهر منه اثنان أو ثلاثة من سائقي القطارات، ووقَّاد وسواهم.

وصرخ أحدهم: «من هنا، يا رفاق! سننقلكم إلى موسكو أو إلى فلاديفوستوك إن شئتم! عاشت الثورة!»

==========

[*]البرت رايس وليامز ولويز برانت من الحركة العمالية الأمريكية.

هوامش الفصل الثامن

1- بيانات اللجنة العسكرية الثورية

«إن مؤتمر سوفييت مندوبي العمال والجنود والفلاحين لعموم روسيا يكلّف منظمات السوفييت المحلية بأن تتخذ أنشط الإجراءات للوقوف بوجه الشغب المعادي للثورة الذي يتخذ شكل حملات لاسامية ومذابح على أنواعها. إن شرف ثورة العمال والجنود والفلاحين لا يستطيع أن يتسامح مع أية فوضى...

«لقد حافظ الحرس الأحمر والحامية الثورية والبحارة على النظام في العاصمة بطريقة كاملة.

«أيها العمال والجنود والفلاحون في كل مكان، اقتدوا بعمال وجنود بتروغراد.

«أيها الرفاق الجنود والقوزاق، إن واجب المحافظة على النظام الثوري الحقيقي يقع على عاتقنا جميعا.

«أنظار روسيا كلها، وأنظار العالم أجمع، موجَّهة إليكم...»

***

«إن مؤتمر السوفييت لعموم روسيا يأمر بما يلي:

«إلغاء حكم الإعدام في الجبهة، الذي أعيد فرضه بأمر من كرنسكي.

«إعادة حرية الدعاية في البلاد. يُطلق سراح كل الجنود والضباط الثوريين الذين اعتقلوا بسبب ما يسمى بـ«جرائم» سياسية».

***

«إن كرنسكي رئيس الوزراء السابق الذي خلعه الشعب، يرفض الخضوع لمؤتمر السوفييت، ويحاول مقاومة الحكومة الشرعية –مجلس مفوضي الشعب- التي انتخبها المؤتمر العام. لقد رفضت الجبهة أن تساعد كرنسكي. والتفَّت موسكو حول الحكومة الجديدة. السلطة بين أيدي السوفييت في مدن كثيرة (منسك، موغيليف، خاركوف). ليس هناك قطعة مشاة واحدة توافق على التحرك ضد حكومة العمال والفلاحين الحكومة التي بدأت محادثات السلام وأعطت الأرض للفلاحين تمشيا مع إرادة الجيش والشعب...

«إننا نحذر القوزاق علنا بأنهم إذا لم يوقفوا كرنسكي الذي خدعهم والذي يقودهم ضد بتروغراد، فإن القوى الثورية ستهب، بكل ما لديها من قوة، للدفاع عن المكسبين الثوريين الثمينين: السلم والأرض.

«يا مواطني بتروغراد! لقد هرب كرنسكي من بتروغراد تاركا السلطة لكيشكين الذي أراد تسليم العاصمة للألمان، وروتنبرغ، عضو العصبة السوداء، الذي خرَّب أجهزة التموين البلدية، وبالتشينسكي الذي تكنّ له جميع القوى الديموقراطية أشد الكره. لقد هرب كرنسكي تاركا إياكم للألمان والمجاعة وحمَّامات الدم. اعتقل الشعب الثائر وزراء كرنسكي، ولقد شاهدتم كيف التحسن السريع الذي طرأ على الأمن والتموين في بتروغراد. كرنسكي يزحف ضدكم تنفيذا لمشيئة الملاك الأرستقراطيين والرأسماليين والمضاربين، وغايته إرجاع الأرض للملاك ومواصلة الحرب البغيضة المدمِّرة.

«يا مواطني بتروغراد؟ نعلم أن غالبيتكم العظمى تؤيد سلطة الشعب الثورية ضد الكورنيلوفيين بقيادة كرنسكي. لا تخدعنكن التصريحات الكاذبة من المتآمرين البرجوازيين الفاشلين الذين سيُسحقون بلا رحمة.

«أيها العمال والجنود والفلاحون. إننا ندعوكم إلى التفاني والانضباط الثوريين.

«ملايين الفلاحين والجنود معنا.

«انتصار ثورة الشعب مضمون!»
==========

2- القوانين الصادرة عن مجلس مفوضي الشعب

المساكن

1- يحق للحكومات الذاتية البلدية أن تصادر جميع المساكن الشاغرة.

2- يحق للبلديات أن تسكِن في المساكن المتوفرة المواطنين المحرومين من مسكن أو الذين يعيشون في مساكن مزدحمة أو غير صحية، وذلك وفق قوانينها وترتيباتها الخاصة.

3- يحق للبلديات أن تنشئ جهازا مكلفا بتفتيش المساكن، وان تنظمه وتحدد صلاحياته.

4- يحق للبلديات أن تصدر الأوامر حول تكوين «لجان المساكن»، وأن تنظمها وتحدد صلاحياتها وتمنحها سلطات قانونية.

5- يحق للبلديات تكوين محاكم للمساكن وأن تحدد صلاحياتها وسلطاتها.

6- يبلَّغ هذا القرار برقيا.

مفوض الشعب للشؤون الداخلية
أ.ي. ريكوف

حول الضمان الاجتماعي

لقد رفعت البروليتاريا الروسية شعار الضمان الاجتماعي الكامل للعمال المأجورين ولفقراء المدن والقرى. إن حكومة القيصر، والملاك والرأسماليين، وحكومة التحالف والمساومة قد عجزت جميعا عن تحقيق رغبات العمال فيما يتعلق بالضمان الاجتماعي.

إن حكومة العمال والفلاحين، المعتمدة على دعم سوفييت مندوبي العمال والجنود والفلاحين، تعلن إلى الطبقة العاملة الروسية، وإلى فقراء المدن والقرى أنها ستعدّ فورا المراسيم المتعلقة بالضمان الاجتماعي بناء على الاقتراحات التي قدمتها المنظمات العمالية:

1- ضمان لجميع العمال المأجورين بدون استثناء بالإضافة إلى فقراء المدن والريف.

2- ضمان يشمل كل مستويات فقدان القدرة على العمل، كالمرض، والعجز، والشيخوخة، والحبل، والترّمل، واليتم،والبطالة.

3- يتحمل أرباب العمل جميع تكاليف الضمان.

4- في حالة فقدان القدرة على العمل والبطالة يكون التعويض موازيا للأجور على الأقل.

5- التسيير الذاتي العمالي الكامل لجميع مؤسسات الضمان.

مفوض الشعب لشؤون العمل
ألكسندر شليابينكوف»

***

حول التعليم الشعبي

«يا مواطني روسيا!

مع قيام ثورة السابع من تشرين الثاني (نوفمبر)، سيطرت الجماهير الكادحة لأول مرة على السلطة الحقيقية.

إن المؤتمر العام للسوفييت قد وضع هذه السلطة، مؤقتا، بيد لجنته التنفيذية ومجلس مفوضي الشعب.

باسم الشعب الثائر جرى تعييني مفوضا للشعب لشؤون التعليم.

إن ما تبقّى للحكومة المركزية من سلطة في الإشراف العام على التعليم الشعبي قد وضع بين أيدي مفوضية التعليم الشعبي التي يرأسها وينفذ مقرراتها مفوض الشعب، إلى حين انعقاد الجمعية التأسيسية.

على أية اقتراحات أساسية ستعتمد هذه اللجنة الحكومية؟ كيف يجري تحديد مجال عملها؟

الخط العام للنشاط التعليمي

في بلد تسوده الأمية والجهل، يجب على كل سلطة ديموقراطية حقيقية أن تضع على رأس أهدافها النضال ضد هذه الآفات. يجب أن تصل إلى وضع يكون فيه كل الشعب متعلما، بأقرب فرصة، وذلك بتنظيم شبكة من المدارس على أساس متطلبات التربية الحديثة، ويجب أن تحقق التعليم العام الإلزامي والمجاني للجميع، وأن تؤسس في الوقت ذاته سلسلة من دور المعلمين بحيث تجهز، بوقت قصير، جيشا قويا من المعلمين الشعبيين، فروسيا الشاسعة بحاجة ماسة إليهم.

اللامركزية

إن مفوضية الدولة للتعليم الشعبي ليست، بأي حال من الأحوال، سلطة مركزية تسيطر على المؤسسات التعليمية والثقافية. بل على العكس، يجب نقل العمل المدرسي برمته إلى أجهزة الحكم الذاتي المحلية. إن المبادرة المستقلة التي يقوم بها العمال والجنود والفلاحون لتأسيس مؤسسات تعليمية وثقافية يجب أن تعطي استقلالا كاملا من قبل الحكومة المركزية والحكومات البلدية على حد سواء.

إن عمل مفوضية الدولة يتلخص في التنسيق والمساعدة على تنظيم مصادر التجهيزات والدعم المعنوي للمؤسسات البلدية والخاصة، وبشكل خاص للمؤسسات التعليمية ذات الطابع الطبقي التي يكوّنها العمال.

اللجنة الحكومية للتعليم الشعبي

إن اللجنة الحكومية للتعليم الشعبي قد قدمت سلسلة كاملة من مشاريع القوانين الهامة منذ بداية الثورة، وهي هيئة ديموقراطية إلى حد كبير غنية بالخبراء. إن مفوضية الدولة ترغب بإخلاص في التعاون مع هذه الجنة.

ولقد توجهت المفوضية إلى مكتب هذه اللجنة طالبة منه أن يعقد في الحال جلسة استثنائية للجنة لتنفيذ البرنامج التالي:

1- مراجعة قواعد التمثيل في اللجنة باتجاه المزيد من الديموقراطية.

2- مراجعة حقوق اللجنة باتجاه زيادتها، وتحويل اللجنة إلى مؤسسة حكومية رئيسية تعمل على إعداد مشاريع قوانين تهدف إلى إعادة تنظيم التعليم والثقافة في روسيا على أسس ديموقراطية.

3- إن تراجع، بالتعاون مع مفوضية الدولة، القوانين التي سبق أن صدرت عن اللجنة. إن هذه المراجعة تفترض أن تأخذ اللجنة بالاعتبار الروح البرجوازية التي كانت سائدة في الوزارات السابقة وحكمت عملية إعداد قوانينها، وأعاقت عملها، حتى في شكلها المبتور الراهن.

بعد مراجعة هذه القوانين تبدأ عملية تنفيذها في جو من الانضباط الثوري بعيدا عن التعقيد البيروقراطي.

المعلمون والمجتمع

عن مفوضية الدولة ترحب بجميع المعلمين ليشاركوا في الجهد النبيل والمشرِّف، جهد تعليم هذا الشعب الذي هو سيد البلد.

يجب أن لا يُتخذ أي قرار، فسي مجال التعليم الشعبي، من قبل أية سلطة إلا بعد دراسة وافية له يقوم بها ممثلو المعلمين.

ولكن من جهة أخرى، لا يجوز الوصول إلى قرار من خلال تعاون الأخصائيين وحدهم، وهذا يتعلق كذلك بإصلاح مؤسسات التعليم العام.

تعاون المعلمين مع القوى الاجتماعية –هذا هو الأساس الذي تعتمد عليه المفوضية في تنظيم نفسها، وفي الجنة الحكومية، وفي سائر نشاطاتها.

تعتبر المفوضية أن أولى مهماتها هي تحسين وضع المعلمين، وبشكل خاص معلمي المدارس الابتدائية، هؤلاء المدقعي الفقر رغم أنهم أهم المساهمين في العمل الثقافي. يجب تحقيق مطالبهم العادلة فورا وبأي ثمن. إن بروليتاريا التعليم قد طالبت، ولكن عبثا، بزيادة أجورها إلى مئة روبل في الشهر. وأنه لمن العار أن يظل معلمو الغالبية الساحقة من الشعب الروسي في حالة الفقر.

إلا أن الديموقراطية الحقيقية لا يسعها أن تتوقف عند محو الأمية وعند تعميم التعليم الابتدائي. عليها أن تعمل باتجاه تكوين مدرسة علمانية موحدة ذات عدة مستويات. إن المثال الذي نطمح إليه هو إتاحة الفرصة لجميع المواطنين أن يحصلوا تعليمهم العالي إذا أمكن. وما دامت هذه الفكرة لم تتحقق بعد بالنسبة للجميع، فإن الانتقال بين جميع المستويات المدرسية إلى المرحلة العليا، أي المرحلة الجامعية، يجب أن يعتمد كليا على كفاءة التلميذ وليس على مدخول عائلته.

إن مشكلة التنظيم الديموقراطي الحقيقي للتعليم لهي مشكلة عويصة في بلد أفقرته حرب استعمارية إجرامية طويلة. إلا أن العمال اللذين استلموا السلطة يجب أن يتذكروا أن التعليم سيكون أنجع سلاح بين أيديهم لتحسين أحوالهم ولتطورهم النفسي. إن حصة التعليم من الموازنة يجب أن تكون حصة كبيرة، رغم ضرورة تخفيض تكاليف مواد أخرى من موازنة الشعب. إن موازنة تعليمية كبيرة هي فخر للأمة ومجد لها. إن شعوب روسيا الحرة أو التي في طريق التحرر لن تنسى ذلك.

إن النضال ضد الأمية والجهل لا يمكن أن ينحصر بتوفير التعليم المدرسي للأطفال والشباب. إن الكبار أيضا متلهفون لإنقاذ أنفسهم من الوضع المنحط لرجل لا يعرف القراءة ولا الكتابة. لذا يجب أن تحتل مدارس الكبار مجالا واسعا في الخطة العامة للتعليم الشعبي.

التعليم والتثقيف

من الضرورة التمييز بين التعليم والتثقيف.

التعليم هو عملية نقل المعرفة الجاهزة من المعلم إلى التلميذ. أم التثقيف فعملية خلاقة. إن شخصية الفرد «تثقيف» طوال حياته، تتبلور، تغتني من جهة المضمون، تصبح أقوى وأكمل.

إن الجماهير الكادحة، من عمال وفلاحين وجنود، متعطشة للتعليم الابتدائي والعالي. ولكنها متعطشة أيضا إلى الثقافة. لا الحكومة ولا المثقفون ولا أية فئة أخرى خارجهم تستطيع أن تقدم لهم هذه الثقافة. المدرسة، الكتاب، المسرح، المتحف، أو ما شابه ليست إلا عوامل مساعدة. إنهم يملكون أفكارهم الخاصة، التي كوَّنها وضعهم الاجتماعي، والتي تختلف كليا عن وضع الطبقات المالكة والمثقفين الذين أنتجوا الثقافة إلى الآن. إنهم يملكون أفكارهم الخاصة، مشاعرهم الخاصة، طرقهم الخاصة في معالجة مشاكل الفرد والمجتمع. العامل في المدينة سيعمل بطريقته، والعامل الزراعي سيعمل بطريقته لبناء

نظرته الشاملة التي تخترقها نظرة العمال الطبقية. لا أروع ولا أبهى من الظاهرة التي يكون فيها أبناؤها الشهود والمشاركين في بناء الشخصية الفنية الحرة الشاملة بواسطة العمل الجماعي.

إن التعليم سيكون عاملا هاما، ولكنه ليس عاملا حاسما. والأهم في هذا المجال هو النقد، الطاقة الخلاقة عند الجماهير نفسها. فالعلوم والفنون لها أهمية إنسانية عامة في بعض أجزائها فقط. إنها تتغير جذريا مع كل ثورة طبقية عميقة.

إن حركة ثقافية تعليمية قد انبثقت في كل روسيا، بين عمال المدن خاصة وبين الفلاحين أيضا. ومنظمات العمال والجنود التي تقوم على هذا الأساس تتضاعف بسرعة. وإن أول مهمة يجب أن تقوم بها حكومة شعبية ثورية في مجال التعليم الديموقراطي هي أن تلتقي بها وأن تدعمها وأن تمهد الطريق أمامها.

الجمعية التأسيسية

الجمعية التأسيسية ستبدأ عملها عما قريب. وهي وحدها القادرة على إرساء نظام دائم للحياة الوطنية والاجتماعية في وطننا، وأن تحدد، في الوقت نفسه، الخطوط العامة لتنظيم التعليم الشعبي.

أما الآن، ومع انتقال السلطة للسوفييت، فإن الطابع الديموقراطي الحقيقي للجمعية التأسيسية أصبح مضمونا. إن الخط الذي ستسير عليه مفوضية الدولة، بالاعتماد على اللجنة الحكومية، لن يعدّل تحت تأثير الجمعية التأسيسية. إن حكومة الشعب، في هذا المجال، ترى من حقها أن تتخذ سلسلة من الإجراءات ترمي إلى إغناء وتنوير حياة البلد الروحية بأسرع وقت ممكن...

إن الدعوة إلى سلامة الوطن تكمن في تعاون جميع قواه الحية والديموقراطية الحقيقية.

إننا نؤمن أن جهد الجماهير الكادحة والمثقفين المتنورين الشرفاء هو الذي سيخرج البلد من محنته القاسية، ويسير به عبر الديموقراطية الكاملة إلى الاشتراكية وتآخي الأمم.

مفوض الشعب لشؤون التعليم
أ.ف. لوناتشارسكي

==========

3- قضية الخمور
أمر صادر عن اللجنة العسكرية الثورية

1- يمنع إنتاج الكحول والمشروبات الكحولية إلى إشعار آخر.

2- على جميع منتجي الكحول والمشروبات الكحولية أن يبلّغوا عن مكان مستودعاتهم قبل السابع والعشرين من هذا الشهر.

3- يقدم إلى المحكمة العسكرية الثورية جميع الذين يخالفون هذا الأمر.

اللجن العسكرية الثورية

***

«الأمر رقم 2

من لجنة فوج احتياط الحرس الفنلندي إلى جميع لجان المساكن وإلى مواطني فاسيللي اوستروف.

لقد اختارت البرجوازية طريقة قذرة لمحاربة البروليتاريا، فأنشأت، في أجزاء مختلفة من البلد، مستودعات خمر كبيرة وأخذت توزع الخمور على الجنود محاولة زرع بذور التفرقة في صفوف الجيش الثوري.

إننا نأمر جميع لجان المساكن بأن تتقدم في الساعة الثالثة، موعد نشر هذا الأمر، وتخبر رئيس لجنة فوج الحرس الفنلندي سرا عن كميات الخمر الموجودة في البنايات التابعة لها.

إن الذين يخالفون هذا الأمر سيُعتقلون ويقدمون إلى محاكم لا ترحم وتصادر ملكيتهم والمخزون من الخمر الذي يوجد سوف **يُنسف بالديناميت**
بعد مضي ساعتين على هذا الإنذار

لأن التجربة قد أثبتت أن الإجراءات المتسامحة لا تأتي بالنتائج المرجوة.

تذكروا أننا لن ننذركم مرة ثانية قبل النسف.

لجنة فوج الحرس الفنلندي»

الفصل التاسع

النصر

«الأمر رقم 1

إلى جنود فرقة بولكوفا

في تشرين الثاني (نوفمبر)، 1917، الساعة 9 و38 دقيقة قبل الظهر.

تمكنت فرقة بولكوفا من طرد القوات المعادية للثورة بعد قتال ضارٍ، فانسحبت هذه من مواقعها في حالة فوضى. واحتمت بـ«تسارسكوبي سيلا» لتتقهقر إلى «بافلوفسك 2» و«غاتشينا[*]».

احتلت وحداتنا الجهة الشمالية الشرقية من «تسارسكوبي سيلا» و«محطة ألكسندر فسكايا». وكانت كولبينو إلى يسارنا وفرقة كراسنويي سيلا إلى يميننا.

أصدرت أمرا إلى القوات في بولكوفا باحتلال «تسارسكوبي سيلا» وتدعيم مواقعها وخاصة جهة «غاتشينا» كما أمرت هذه القوات باحتلال «بافلوسكويي»، وتحصين جهتها الجنوبية، والسيطرة على خط سكة الحديد إلى «دنو».

يجب على القوات أن تتخذ جميع الإجراءات اللازمة لتحصين مواقعها بواسطة حفر الخنادق وسائر الأعمال الدفاعية الأخرى.

وعليها أيضا أن تبقى على اتصال وثيق بفرق كولبينو وكراسنويي سيلا، بمقر القائد العام للدفاع عن بتروغراد.

الإمضاء: المقدَّم مورافيوف، القائد العام للقوات العاملة ضد جيش كرنسكي المعادي للثورة»

صباح الثلاثاء. ولكن كيف جرى الذي جرى؟ منذ يومين فقط، كانت بتروغراد تعج بالعصابات التي لا قادة لها تتسكع في شوارعها بدون طعام ولا مدفعية ولا خطط. ما الذي صهر هذه الكتلة الهلامية من الحراس الحمر غير النظاميين، والجنود غير المنضبطين في جيش يطيع قيادته العليا المنتخبة، مؤهل لمواجهة هجوم خيالة القوزاق ومدفعيتها ودحرهم؟

يملك الشعب الثائر طريقة خاصة لتحدّي السوابق العسكرية. إن جيوش الثورة الفرنسية لم تغب بعد عن الأذهان –معركة «فالمي» وخطوط «فيسنبورغ». «الينكرز» والقوزاق وملاك الأرض والنبلاء، أفراد منظمة «المئات السوداء»، «الأوخرانا»، العصابات السيبيرية، كلها اتحدت ضد قوات السوفييت بالإضافة إلى خطر الألمان الرهيب الشامل...

مساء الأحد: مفوضو اللجنة العسكرية الثورية يعودون من المعركة بشيء من خيبة الأمل، وحامية بتروغراد قد انتخبت لجنة من خمسة، ثلاثة جنود وضابطان، لتشرف على المعركة، وكانوا جميعهم خالين من أية نزعة معادية للثورة. وتولى العقيد مورافيوف القيادة، وهو وطني سابق ورجل نشيط، ولكن يجب مراقبته بحذر. تشكَّلت في كلبينو واوبوخوفا وبولخوفا وكراسنويي سلوفا وحدات مؤقتة أخذت تكبر مع انضمام بقايا الفرق الأخرى إليها فأضحت مكوَّنة من جنود وبحارة وحرس أحمر وأجزاء من الأفواج والمدفعية والخيالة والمشاة جميعها معا بالإضافة إلى بضع سيارات مصفحة.

طلع الصباح واشتبكت هذه القوات مع وحدات من القوزاق التابعة لكرنسكي. طلقات نارية مبعثرة، دعوات إلى الاستسلام. وترامى صوت المعركة في الهواء البارد الهادئ فوق المرج الفسيح، ووصل إلى آذان عصابات متجولة تحلّقت حول نيرانها الصغيرة تنتظر... إذا، لقد بدأت! فاتجهت نحو ساحة المعركة بينما تدفقت جموع العمال مهرولة على الطرقات الرئيسية. وهكذا انصبَّت فجأة جحافل بشرية غاضبة على جميع نقاط الهجوم، يستبقها المفوضون ويعيّنون لها مراكزها وأعمالها. هذه المعركة معركتهم، من أجل عالمهم هم، والضباط الذين يقودون هم الذين انتخبوهم. فتحولت هذه الإرادة الهلامية المتنوعة إلى إرادة واحدة...

الذين اشتركوا في القتال وصفوا لي كيف قاتل البحارة حتى نفذت ذخيرتهم فهجموا، وكيف انقضّ العمال غير المدربين على القوزاق الهاجمين وأسقطوهم عن أحصنتهم، وكيف تجمعت جحافل الشعب المجهولة في الظلمة حول المعركة وارتفعت كموجة لتغرق العدو... وقبل أن يحين منتصف ليلة يوم الاثنين، كان القوزاق قد هُزموا وأخذوا يهربون تاركين مدفعيتهم وراءهم، فتقدم جيش البروليتاريا على طول جبهة غير منتظمة واقتحم «تسارسكويي سيلا» قبل أن تسنح الفرصة للعدو أن يدمر محطة اللاسلكي الحكومية الكبيرة التي أخذ يذيع منها مفوضو «سمولني» معلنين للعالم بشائر النصر...

«إلى جميع مندوبي العمال والجنود

في الثاني عشر من تشرين الثاني (نوفمبر)، وبعد قتال دموي قرب تسارسكويي سيلا، هزم الجيش الثوري قوات كرنسكي وكورنيلوف المعادية للثورة. باسم الحكومة الثورية، آمر جميع الأفواج بالهجوم على أعداء الديموقراطية الثورية، وباتخاذ جميع الإجراءات اللازمة للقبض على كرنسكي، وأيضا بأن تقاوم أية مغامرة من شأنها أن تهدد مكاسب الثورة وانتصار البروليتاريا.

عاش الجيش الثوري.

موراڤيوف»

أنباء المنطقة...

كان السوفييت المحلي قد استلم الحكم في «سيباستوبول»، وأقام بحارة البوارج في الميناء اجتماعا ضخما أجبروا فيه ضباطهم على أن يقفوا في الصف ويؤدوا قسَم الولاء للحكومة الجديدة. وسيطر السوفييت في «نيجني نوفغورود». ووردت أنباء من «قازان» عن معركة تدور في الشوارع بين «الينكرز» وفصيلة من المدفعية من جهة وبين الحامية البلشفية من جهة أخرى.

واندلع قتال عنيف في موسكو مجددا. اعتصم «الينكرز» والحرس الأبيض في الكرملين وفي وسط المدينة بينما قوات اللجنة العسكرية الثورية تكيل لهم الضربات من كل جانب. وتمركزت مدفعية السوفييت في ساحة سكوبيليف وأخذت تقصف بناية مجلس الدوما، ومفوضة الأمن وفندق متروبول. وانتزعت حجارة شارعي تغيرسكايا ونيكيتسكايا لبناء الخنادق والمتاريس. وانهال وابل من طلقات المدافع الرشاشة على منطقة المصارف والشركات التجارية. ولم يكن هناك ضوء ولا هاتف، والبرجوازيون يعتصمون في الأقبية... وحمل آخر بلاغ للجنة العسكرية الثورية إنذارا إلى لجنة السلامة العامة بتسليم الكرملين فورا وإلا اضطرت إلى قصفه.

وصاح المواطن العادي «قصف الكرملين؟ لن يجرأوا على ذلك!»

واندلعت الحرب الأهلية من «فولوغدا» إلى «شيتا» في أقاصي سيبيريا، من «بسكوف» إلى «سيباستوبول» على البحر الأسود، في المدن الكبيرة والقرى الصغيرة على حد سواء. وانهالت التحيات على بتروغراد، موجهة إلى حكومة الشعب، من آلاف المصانع والتجمعات الفلاحية والأفواج والجيوش والبواخر في عرض البحار.

أبرقت حكومة القوزاق في «نوفوشيركاسك» إلى كرنسكي تقول «**إن حكومة قوات القوزاق تدعو أعضاء الحكومة المؤقتة ومجلس الجمهورية للمجيء إلى «نوفوشيركاسك» إذا كان ذلك ممكنا، لكي ننظم معا المعركة ضد البلاشفة**».

الوضع مضطرب في فنلندا كذلك. أعلن مجلس السوفييت في «هلسنغفورس» بالاشتراك مع «التسنتروبالت» (اللجنة المركزية لأسطول البلطيق) حالة الطوارئ وأنهما سوف يقمعان بقساوة أية محاولة للتدخل في شؤون القوات البلشفية أو أية مقاومة مسلحة لأوامرها. وفي الوقت نفسه، دعت نقابة عمال سكك الحديد الفنلندية إلى إضراب عام يشمل البلد بأسره لتنفيذ القوانين التي أصدرها مجلس الدييت الاشتراكي في حزيران (يونيو) 1917 والذي حلّه كرنسكي...

قصدت «سمولني» في الصباح الباكر. وبينما كنت أعبر الممشى الخشبي من جهة البوابة الخارجية، رأيت أول ندف الثلج الهزيل يتساقط بتردد من السماء الرمادية الهادئة. «الثلج!»، صاح الجندي على الباب «مفيد للصحة!» وبدت القاعات والغرف القاتمة مهجورة في الداخل. لا أحد يتحرك في هذه البناية الضخمة. وترامى إلى أذني صوت غريب، فتلفت ورأيت رجالا يفترشون الأرض بمحاذاة الجدران. رجال خشنون، متسخون عمال وجنود ملطخون ومجبولون بالوحل، مستقلين فرادى وجماعات غارقين في نوم ثقيل لامبالٍ. البعض عليه ضمادات وسخة يرشح منها الدم. البنادق وأحزمة الرصاص مبعثرة في كل مكان... هذا هو جيش البروليتاريا المنتصر!

وكانوا مكوَّمين بعضهم فوق البعض في مطعم الطابق الأعلى بحيث يتعذر السير بينهم. الهواء منتن. والنور الشاحب يتسلل من النوافذ المغبشة. وعلى الطاولة «سماور» مهشم وبارد، وعدة أكواب فيها بقايا شاي. وقربها نسخة من آخر بلاغ أصدرته اللجنة العسكرية الثورية، مقلوب، مخربش عليه بخط رديء. إنها مرثاة كتبها أحد الجنود لرفاقه الذين سقطوا في المعركة ضد كرنسكي تماما كما تركها قبل أن يقع على الأرض ويخلد للنوم. وكانت الكتابة مبقَّعة بما يبدو أنه دموع...

«ألكسي فينوغرادوف. د. ليونسكي.

د. ماسكفين. د. بريوبراجنسكي.

س. ستولبينوف. ف. لايدانسكي.

أ. فوسكرنسكي م. بيرشيكوف.

لقد انضم هؤلاء الرجال إلى الجيش في 15 تشرين الثاني (نوفمبر) 1916. ولم يبقَ منهم إلا ثلاثة:

ميخائيل بيرشيكوف.

ألكسي فوسكرنسكي.

ديمتري ليونسكي.

***

أرقدوا أيها النسور المقاتلون، أرقدوا مرتاحي البال.

أنتم جديرون، أيا أعزائنا، بالسعادة والراحة الأبديتين.

لقد ضممتم صفوفكم في القبر. أرقدوا، يا رفاق!»

اللجنة العسكرية الثورية وحدها لا تزال ساهرة تعمل. أبلغنا سكريتنيك وهو خارج من الغرفة الداخلية أن غوتز قد اعتقل، ولكنه كان قد رفض أن يوقع على بلاغ لجنة الإنقاذ مثلما فعل أفاكسانتييف، وقال أن لجنة الإنقاذ قد رفضت النداء الموجه إلى الحامية، وما يزال هناك بعض التذمر في أوساط أفواج المدن، كما رفض فوج «فولهينسكي» القتال ضد كرنسكي.

كانت عدة وحدات «حيادية» برئاسة تشيرنوف، قد توجهت إلى «غاتشينا» في محاولة لإقناع كرنسكي بوقف هجومه على بتروغراد.

وضحك سكرينيك قائلا: «لا يمكن أن يوجد «حياديون» بعد الآن. لقد انتصرنا!» وأضاء وجهه الملتحي الدقيق حبورا يكاد يكون مقدسا: «لقد جاء أكثر من ستين وفدا من الجبهة، يحملون تأكيدات أن جميع الجيوش تؤيدنا ما عدا قوات الجبهة الرومانية التي لم يسمع منها شيء. لقد أوقفت لجان الجيش جميع الأخبار الواردة من بتروغراد، ولكن في متناول أيدينا الآن جهاز دائم من الرسل...»

كامنييف قد دخل لتوه القاعة الأمامية منهكا بسبب ندوة تشكيل حكومة جديدة التي استمرت طوال الليل، ولكنه سعيد. قال لي: الاشتراكيون الثوريون يميلون إلى إشراكنا في الحكومة الجديدة. المجموعات اليمينية خائفة من المحاكم الثورية، وقد طالبت، بشيء من الذعر، بأن نحلها قبل المضي إلى أبعد ما نحن عليه... قبلنا باقتراح الفيكجل الداعي إلى تكوين حكومة اشتراكية منسجمة، وهذا ما هم في معرض مناقشته الآن. وكما ترى، فهذا كله ناتج عن انتصارنا. عندما كنا ضعفاء لم يكن أحد يريدنا مهما كان الثمن. أما الآن، فالجميع يؤيد نوعا من الاتفاق مع السوفييت... إن ما نحتاج إليه فعلا هو انتصار حاسم. كرنسكي مستعد لعقد هدنة، (1)...» ولكن عليه أن يستسلم أولا

هكذا كان طبع القادة البلاشفة. لما سأل أحد المراسلين الأجانب تروتسكي ماذا لديه ليصرح إلى العامل، أجاب تروتسكي: «التصريح الوحيد الممكن، في الوقت الحاضر، هو الذي تطلقه فوهات مدافعنا!»

إلا أن المسألة المالية كانت تحدث قلقا حقيقيا في أوج النصر. فقد اجتمع اتحاد موظفي المصارف وأعلن إضرابا رسميا، عوضا عن أن يفتح المصارف كما أمرت اللجنة العسكرية الثورية. طلبت «سمولني» خمسة وثلاثين مليون روبل من مصرف الدولة لكن مسؤول الصندوق كان قد أقفل الخزائن ورفض تسليم الأموال إلا لممثلي الحكومة المؤقتة. فقد كان أعداء الثورة يستخدمون مصرف الدولة كسلاح سياسي. فمثلا عندما طلبت الفيكجل مالا لدفع معاشات موظفي سكك حديد الدولة، قيل لها أن تطلب ذلك من «سمولني».

قصدتُ مصرف الدولة لأقابل المفوض الجديد، وهو بلشفي أوكراني أصهب الشعر يدعى بتروفيتش. وكان يحاول تنظيم الفوضى في شؤون المصرف التي خلّفها إضراب الموظفين. جميع المكاتب في هذا المكان الشاسع مليئة بالمتطوعين

من العمال والجنود والبحارة، يعرفون ويلهثون من كثرة الشغل، وهم منكبُّون بذهول على دفاتر الحساب الكبير...

بناية مجلس الدوما تعج بالناس. لا يخلو الأمر من حالات افرادية من تحدي الحكومة الجدية، إلا أنها قد أصبحت نادرة. ناشدت اللجنة المركزية للأرض الفلاحين عدم الاعتراف بمرسوم الأرض الذي أصدره مؤتمر السوفييت، لأنه لن يؤدي إلا إلى الفوضى والحرب الأهلية. وأعلن رئيس البلدية شرايدر أنه يجب تأجيل انتخابات الجمعية التأسيسية إلى ما لا نهاية بسبب ثورة البلاشفة.

وبدا أن ثمة مسألتين تشغلان أذهان الجميع بعد أن صعقتهم شراسة الحرب الأهلية: الأولى هدنة لحقن الدماء، والثانية تشكيل حكومة جديدة. لم يعد يسمع حديث عن «سحق البلاشفة»، وندر الحديث عن إقصائهم عن الحكومة إلا من طرف الاشتراكيين الشعبيين وسوفييت الفلاحين. حتى اللجنة المركزية للجيش في «ستافكا»، ألدّ أعداء «سمولني»، خابرت إلى «موغلييف» لتقول: «إذا كان من الضروري لتشكيل الوزارة الجديدة أن نتوصل إلى اتفاق مع البلاشفة، فإننا نوافق على اشتراكهم في الوزارة كأقلية».

ولفتت «البرافدا» الأنظار بسخرية على «عواطف كرنسكي الإنسانية» فنشرت رسالته إلى لجنة الإنقاذ:

لقد أوقفت جميع العمليات العسكرية ضد المتمردين، وذلك وفقا لاقتراحات لجنة الإنقاذ وجميع المنظمات الديموقراطية الملتفة حولها. لقد أرسل مندوب عن اللجنة للتفاوض. خذوا جميع الإجراءات اللازمة لمنع إراقة الدماء بدون طائل.

وأرسلت «الفيكجل» البرقية التالية إلى جميع أنحاء روسيا:

«إن ندوة اتحاد عمال سكك الحديد مع ممثلي الطرفين المتحاربين الذين يعترفون بضرورة الوصول إلى اتفاق، تحتج بعنف على استعمال الإرهاب السياسي في الحرب الأهلية، خاصة عندما يستعمل بين الأجنحة المختلفة للديموقراطية الثورية، وهي تعلن أن الإرهاب السياسي، بمختلف أشكاله، يتناقض كليا مع فكرة تكوين حكومة جديدة.

وأرسلت وفود الجبهة إلى «غاتشينا». وبدا كأن الأمور قد وصلت إلى نقطة الانفراج في الندوة ذاتها. فقد تقرر انتخاب «مجلس الشعب» المؤقت المكون من حوالي أربعمئة عضو –خمسة وسبعون عن سمولني، وخمسة وسبعون عن «التسايكا» القديمة، وتتقاسم الباقي البلديات والنقابات ولجان الأرض والأحزاب السياسية. واقترح اسم تشيرنوف ليتولى رئاسة الوزراء، وأشيع أن لينين وتروتسكي سيبعدان عنها...

حوالي الظهر كنت أمام «سمولني» مجددا، أتحدث إلى سائق سيارة إسعاف ذاهبة إلى الجبهة. هل يسمح لي بالذهاب معه؟ أكيد! كان طالب جامعة وقد تطوع لخدمة الثورة، وبينما كنا ننزل الشارع التفت إلي وقال شيئا بلغة ألمانية مكسَّرة فهمت منه أننا سنتناول الغداء في إحدى الثكنات.

وفي شارع «كيروشنايا»، انعطفنا إلى باحة كبيرة تحيط بها عمارات عسكرية، وصعدنا درجا معتما إلى غرفة منخفضة يدخلها النور من نافذة واحدة. عشرون جنديا يجلسون إلى طاولة خشبية يتناولون بالملاعق الخشبية حساء الملفوف من وعاء كبير، ويتحدثون بصوت مرتفع ويقهقهون بكثرة:

«أهلا بك في لجنة الفوج التابعة للسرية السادسة لفوج مهندسي الاحتياط!»، صاح زميلي وقدمني إلى الجنود كأحد الاشتراكيين الأمريكيين. عند ذاك، وقف الجميع لمصافحتي، وعانقني أحد الجنود وقبلني قبلة كبيرة. وأعطيتُ ملعقة خشبية ثم أخذت مكاني إلى الطاولة. وجيء بوعاء آخر مليء «بالكاشا»، وبرغيف خبز أسود كبير، وطبعا بأباريق الشاي التي لا بد منها. رأسا بدأ الجميع يوجه لي أسئلة عن أمريكا: صحيح أن الشعب في بلدكم الحر يبيع أصواته لقاء المال؟ وإذا كان الأمر كذلك، هل يحصل على ما يريد؟ ماذا بشأن «تاماني» هذا؟ صحيح أن مجموعة صغيرة من الناس تستطيع أن تسيطر على مدينة بأكملها، في بلد حر، وتستغلها لمصالحها الشخصية؟ كيف يطيق الشعب ذلك؟ حتى في أيام القيصر لم تحدث مثل هذه الأشياء في روسيا، صحيح أنه كان هناك سرقة، أما بيع وشراء مدينة بأسرها مليئة بالبشر، فهذا غير معقول! وفي بلد حر بالذات! أليس عند الشعب أي حس ثوري؟ فحاولت أن اشرح أن الشعب في بلدي يحاول تغيير الأوضاع بواسطة القانون.

«طبعا»، أجال رقيب شاب يدعى باكلانوف ويتكلم الفرنسية، «ولكن عندكم طبقة رأسمالية متطورة جدا. إذا، لا بد وأن تكون الطبقة الرأسمالية هي المسيطرة على القوانين والمحاكم. فكيف يتمكن الشعب من تغيير الأوضاع؟ أنا مستعد للاقتناع لأني لا أعرف بلدكم، ولكن هذا صعب التصديق في اعتقادي...»

قلت أني في طريقي إلى «تسارسكويي سيلا». وفجأة قال باكلانوف: «وأنا كذلك». «وأنا أيضا، وأنا،...»، للحال قرر جميع من في الغرفة الذهاب إلى «تسارسكويي سيلا».

إذ ذاك قرع الباب. ففتح، وبرز عقيد. لم يقف أحد، وإنما حيَّاه الجميع. سأل العقيد: «هل أقدر أن أدخل؟». فأجابوه بودّ: «تفضل! تفضل!». فدخل. إنه شاب طويل باسم ووسيم يرتدي معطفا من وبر الماعز موشَّى بالذهب. قال: «أظن أني سمعتكم تقولون أنكم ذاهبون إلى تسارسكويي سيلا، يا رفاق. هل أقدر أن آتي معكم؟»

فكَّر باكلانوف. ثم أجاب: «لا أظن أن علينا ما نفعله هنا اليوم. إي، يا رفيق، يسرنا جدا أن تكون معنا.» فشكره العقيد وجلس ثم سكب الشاي في كوبه.

وفسَّر لي باكلانوف الأمر بصوت خافت خشية أن يجرح كرامة العقيد: «الأمر هو التالي: أنا رئيس اللجنة. ونحن نسيطر على الفوج سيطرة كاملة، إلا فيما يختص بالعمليات العسكرية التي يتوكل بأمر قيادتها. خلال العمليات يجب إطاعة أوامره، إلا أنه مسؤول تجاهنا مسؤولية كاملة. يجب عليه أن يطلب إذنا منا قبل القيام بأي عمل في الثكنة... يمكن أن تعتبره ضابطا تنفيذيا...»

وزعت علينا الأسلحة، بنادق ومسدسات -«ربما التقينا ببعض القوزاق»- وحشرنا جميعا في سيارة إسعاف إلى جانب ثلاث رزم كبيرة من الصحف للجبهة. انحدرنا في شارع «ليتايني» ثم سرنا في شارع «زاغورودني». يجلس قربي ملازم شاب يبدو أنه يجيد معظم اللغات الأوروبية. وهو عضو في لجنة الفوج.

وأكد لي: «لست بلشفيا. إني أنتمي إلى عائلة نبيلة عريقة. يمكنك اعتباري نصيرا للكاديت...»

وسألت مذهولا: «ولكن كيف؟»

«آه، طبعا، أنا عضو في اللجنة. إني لا أخفي آرائي السياسية، ولكن الآخرين لا يبالون لأنهم يعرفون أني لا أومن بمعارضة إرادة الأغلبية. لقد رفضت القيام بأي

عمل خلال الحرب الأهلية الحالية ذلك أني لا أومن بحمل السلاح ضد إخواني الروس...

«متآمر! كورنيلوف!» صاح به الآخرون مازحين وهم يربتون على كتفه...»

مررنا تحت القوس البحري الضخم ذي اللون الرمادي عند بوابة «موسكفوسكي» المغطاة بالخط الهيروغليفي المذهَّب والنسور الإمبراطورية الجليلة وأسماء القياصرة، ثم أسرعنا خارجين إلى الطريق الواسع المستقيم مغبَّرة من جراء سقوط الثلجة الأولى. الطريق يغص بأفراد الحرس الأحمر، يصيحون ويغنون، وهم متوجهون إلى الجبهة الثورية مشيا على الأقدام، بينما يعود منها آخرون بأوجه شاحبة ملطخة بالوحل. وكان معظمهم يبدو في شرخ الصبا. ورأينا نساء الأحياء الفقيرة، منحنيات وقد برأهن الشغل، البعض يحمل الرفوش، والبعض الآخر البنادق وأحزمة الرصاص، أو شارات الصليب الأحمر على القمصان. مفرزات من الجنود تسير بدون انتظام، تحيي الحرس الأحمر بصيحات مليئة بالحب، بحارة قساة الوجوه، أطفال يحملون صدر الطعام إلى آبائهم وأمهاتهم، جميع هؤلاء يروحون ويجيئون على الطريق المغطى بالثلج والوحل. ومررنا بمدافع وعربات الذخيرة تتجه جنوبا محدثة جلبة عالية: وشاحنات تسير في كلا الاتجاهين مليئة بالرجال المسلحين، وبسيارات إسعاف عائدة من الجبهة تغص بالجرحى. ومررنا أيضا بعربة فلاح، تسير مقرقعة، جلس عليها صبي شاحب الوجه وقد انكفأ على بطنه المبقورة يتلوى ويئن بصوت رتيب. وعلى طرفي الطريق، الرجال والنساء يحفرون الخنادق في الحقول ويمدون الأسلاك الشائكة.

الغيوم تسافر بحزن إلى جبهة الشمال، والشمس الشاحبة قد أشرقت. وبتروغراد تتلألأ وسط المرج المنبسط المغمور بالماء. إلى يميننا سطوح وقباب بيضاء أو ذهبية أو متعددة الألوان، وإلى يسارنا مداخن طويلة تنفث بعضها دخانا أسود، وراء هذا كله سماء فنلندا. على كلا الجانبين تنتصب الكنائس والأديرة... وأحيانا يظهر ناسك يتفرج بصمت على نبض جيش البروليتاريا على الطريق.

الطريق تتفرّع عند «بولكوفا». هناك توقفت وسط جمع كبير، تصب فيه سيول بشرية قادمة من ثلاث نواح، الأصدقاء يتقابلون، ويتبادلون التهاني بتأثر ويصفون المعركة لبعضهم البعض. قبالة تقاطع الطرق صف من المنازل التي تحمل آثار الرصاص، والأرض مغطاة بالوحل على مسافة نصف ميل. كان القتال عنيفا هنا... بالقرب منا تدور أحصنة القوزاق بدون فرسانها، جائعة لأن عشب الحقل هنا قد يبس من زمان. وقبالتنا يحاول أحد الحراس الحمر امتطاء أحدها، ولكن عبثا يحاول ساقطا المرة تلو الأخرى وسط حوالي ألف رجل خشن يلهون كجمع من الأطفال.

الطريق إلى اليسار، الذي انسحبت منه فلول القوزاق، يؤدي إلى قرية على تلة صغيرة تطل على مشهد رائعة للمرج الشاسع، رماديا كبحر بلا رياح، تحوم حوله غيوم سوداء، ثم المدينة الجليلة التي تلفظ الآلاف من سكانها على جميع الطرقات. وإلى اليسار تقع إحدى تلال «كراسنويي سيلا» الصغيرة، وساحة العرض التابعة للمعسكر الصيفي للحرس الإمبراطوري، ومصنع الألبان الإمبراطوري. وفي الوسط امتداد لا تعكر رتابته إلا بعض الأديرة والمصانع المبعثرة وبضع بنايات كبيرة كانت مصحّات أو دور أيتام.

قال السائق ونحن نصعد التلة الجرداء: «هنا ماتت فيرا سلوتساكايا. نعم، العضو البلشفي في مجلس الدوما. حدث ذلك باكرا هذا الصباح. كانت في سيارة مع زاكيند وشخص آخر. وقد استفادوا من فترة الهدنة ليذهبوا إلى الخنادق الأمامية. وكانوا يتكلمون ويضحكون عندما مر القطار المسلح الذي يقل كرنسكي، وفجأة شاهد أحد ركابه السيارة فأطلق عليها النار. فأصابت الشظية فيرا سلوتسكايا وقتلتها...»

ثم دخلنا «تسارسكويي سيلا» وهي تعجّ بأبطال الجيش البروليتاري. القصر الذي يجتمع فيه السوفييت يغص بالناس. أفراد الحرس الأحمر والبحارة يملأون الباحة، الحرس يقف على الأبواب، وسيل من الرسل والمفوضين يروح ويجيء. وفي غرفة السوفييت «سماور» التف حوله حوالي خمسين عاملا وجنديا وبحَّارا يشربون الشاي ويتحادثون بصوت مرتفع. وفي إحدى الزوايا يحاول عاملان تشغيل آلة طباعة، ولكن دون جدوى. وإلى إحدى الطاولات، في الوسط، يقبع ديبنكو الجبار منكبا على خريطة يحدد عليها مواقع القتال بقلم أحمر وآخر أزرق. وكان، كعادته، يحمل في يده الأخرى مسدسه الضخم الأزرق. ثم جلس وراء آلة كاتبة، وأخذ يضرب عليها بإصبع واحد، ويتوقف بين لحظة وأخرى، ويحمل مسدسه ثم يدور الغرفة بحبور.

على حافة الجدار مقعد تمدد عليه عامل شاب. وقد انحنى عليه اثنان من الحرس بينما لا يعيره الآخرون أي اهتمام. كان ثمة ثقب في صدره، والدم يرشح من ثيابه مع كل نبضة قلب. عيناه مغمضتان، ووجهه الفتي الملتحي قد انقلب شاحبا وأخضر. ما زال يتنفس ولكن ببطء وبصوت خافت، ويتنهد مع كل زفرة. «السلم قريب! السلم قريب!»

وتطلع ديبنكو لما دخلنا، ثم قال لباكلانوف: «آه. رفيق، هل لك أن تصعد إلى مكتب آمر الموقع وتتولى منصبه؟ انتظر، سأكتب لك تفويضا». ذهب إلى الآلة الكاتبة وأخذ ينتقي الأحرف ببطء.

وذهبت وحاكم «تسارسكويي سيلا» الجديد إلى «قصر ايكاترينا». كان باكلانوف متحمسا وشاعرا بأهميته. وفي نفس الغرفة البيضاء المزينة كان بعض أفراد الحرس الأحمر يتجولون بحشرية بينما وقف العقيد، صديقي القديم، قرب النافذة يعض على شاربه. استقبلني كأني الابن الضال. قرب الباب كان يجلس الفرنسي من «بيسارابيا» وراء طاولة. كان البلاشفة قد أمروه بالبقاء ومتابعة عمله.

تمتم قائلا: «ماذا عساي أفعل؟ إن أمثالي يستطيعون القتال مع أي من الطرفين في مثل هذه الحرب، بالرغم من أني أكره دكتاتورية الجماهير بالفطرة... أنا حزين لأني بعيد جدا عن أمي في «بيسارابيا».

كان باكلانوف يحل محل الحاكم رسميا. فقال العقيد بعصبية: «هاك. هذه مفاتيح المكتب».

وقاطعهما أحد أفراد الحرس الأحمر، قائلا بوقاحة: «أين المال؟» فدهش العقيد «المال؟ المال؟ آه، تعني الصندوق. ها هو. ما زال على حاله، مثلما وجدته منذ ثلاثة أيام. مفاتيح؟ ما معي مفاتيح.» قالها وهو يهز كتفيه.

وضحك الحارس الأحمر ضحكة العارف: «ملائم جدا».

قال باكلانوف: «فلنفتح الصندوق. هاتوا فأسا. هذا رفيق أمريكي. فليفتح الصندوق وليسجل ما يجد فيه».

كسرتُ الصندوق بالفأس. ولكنه كان فارغا.

قال الحارس الأحمر مسموما: «فلنعتقله. إنه من جماعة كرنسكي. سرق المال وأعطاه لكرنسكي».

فرفض باكلانوف: «لا. لا. جاء الكورنيلوفيون قبله. هو ليس مسؤولا عما حدث».

فصاح الحارس الأحمر: «يا للقرد! أقول لك أنه من جماعة كرنسكي. إذا لم تعتقله أنت، فنحن سنفعل ذلك، ونأخذه إلى بتتروغراد ونضعه حيث يستحق أن يكون: في سجن بطرس-بولس!» ووافقه الحراس الحمر الآخرون. وساقوا العقيد خارجا وهو يرمقنا بنظرة استعطاف...

في باحة قصر السوفييت كانت إحدى الشاحنات تتأهب للذهاب إلى الجبهة. وصعد إليها نصف دزينة من الحراس الحمر وبضعة بحارة وجنود بقيادة عامل ضخم، ونادوني لأذهب معهم. الحراس الحمر يخرجون من مقر القيادة العامة، وهم ينوءون تحت ثقل رزمات حديدية يحملونها، مليئة «بالغروبيت» الذي يقال عنه أنه أقوى من الديناميت بعشرة أضعاف وأكثر حساسية منه بخمسة أضعاف. حشونا مدفعا من عيار ثلاث بوصات ثم ربطناه بالشاحنة بالحبال والأسلاك.

وانطلقنا بصيحة، وطبعا بسرعة فائقة، والشاحنة تتمايل يمنة ويسرة. المدفع يقفز من دولاب لآخر، وقنابل «الغروبيت» تتدحرج فوق أقدامنا وترتطم بجوانب الشاحنة.

وأخذ الحارس الأحمر الضخم، واسمه فلاديمير نيقولايفيتش، يمطرني بوابل من الأسئلة حول أمريكا: «لماذا دخلت أمريكا الحرب؟ هل العمال الأمريكيون مستعدون لإسقاط الرأسماليين؟ ما هو وضع قضية موناي الآن؟ هل سيسلمون بيركمان إلى سلطات فرانسيسكو؟» والكثير غيرها، كلها أسئلة يصعب الإجابة عليها، يصيح بها فوق جلبة الشاحنة بينما نمسك ببعضنا البعض ونتراقص وسط القنابل المتدحرجة.

أحيانا كانت تستوقفنا إحدى الدوريات. فيركض جنود إلى عرض الطريق رافعين أسلحتهم، صارخين: «قف!»

فلا نأبه بهم. ويصيح الحراس الحمر: «جهنم تأخذكم! إننا لا نقف لأحد! نحن حراس حمر!» ثم ننطلق بجلال، بينما يصيح فلاديمير نيقولايفيتش شيئا عن تدويل قناة بناما، أو ما شابه...

وبعد مسيرة خمسة أميال، رأينا مفرزة من الجنود تسير بعكس اتجاهنا. فأبطأنا.

«أين الجبهة، يا إخوان؟»

توقف البحّار الذي في المقدمة، وحك رأسه، ثم قال: «هذا الصباح كانت على بعد نصف كيلومتر. ولكن هذه اللعينة قد اختفت الآن. مشينا، مشينا، ومشينا ولكننا لم نجدها!»

تسلقوا على الشاحنة وانطلقنا. وبعد حوالي الميل، أنصت فلاديمير نيقولايفيتش السمع ثم صاح آمرا السائق بالتوقف:

«صوت رصاص! هل تسمعونه؟» وساد صمت عميق لبرهة، ثم سمعنا ثلاث طلقات متتابعات أمامنا، جهة اليسار. كانت تلك الجهة من الطريق مليئة بالغابات الكثيفة. خفضنا رؤوسنا وأخذنا نتكلم همسا ولكن بحماس شديد إلى أن وصلت الشاحنة قبالة المكان الذي انطلقت منه النار تقريبا. فنزلنا وانتشرنا وتسللنا إلى الغابة، يحمل كل منا بندقيته.

وفي الوقت نفسه، فك اثنان من الرفاق المدفع وأداروه بحيث أصبح مصوبا إلى ظهورنا تقريبا.

الغابة هادئة. لقد تساقطت الأوراق، وللجذوع لون شاحب باهت في شمس الخريف الواطئة الشحيحة. لا شيء يتحرك إلا تحطم قطع الجليد الطافية على سطح برك الماء الصغيرة ونحن ندوسها. هل ثمة كمين؟

وتقدمنا بلا اكتراث حتى أخذت الأشجار يتضائل عددها، فتوقفنا. وإذا أمامنا يجلس ثلاثة جنود حول النار لا يبالون بشيء.

وتقدم فلاديمير نيقولايفيتش وحيَّا: «مرحبا، رفاق!»، ووراءه مدفع، وعشرون بندقية وشاحنة مليئة بقنابل «الغروبيت». فهب الجنود واقفين.

«ما سبب إطلاق النار هنا؟»

وأجاب أحدهم، وقد بدت علامات الارتياح على وجهه: «كنا تصطاد الأرانب، يا رفيق...»

واتجهت الشاحنة نحو «رومانوف» طوال النهار المشرق الفارغ. عند أول ملتقى للطرق، ركض جنديان أمامنا، ملوحين ببندقيتهما. فأبطأنا ثم توقفنا.

«أذوناتكم يا رفاق!»

وهب الحراس الحمر بجلبة عظيمة: «نحن من الحرس الأحمر. لا نحتاج إلى أذونات... إمش... لا عليك منهم!»

إلا أن أحد البحارة عارض: «هذا خطأ، يا رفاق. يجب أن نتحلى بالانضباط الثوري. افترضوا أن بعض أعداء الثورة جاءوا في شاحنة وقالوا «أننا لا نحتاج إلى أذونات»؟ الرفاق لا يعرفونكم».

وبدأ نقاش. إلا أن البحارة والجنود أخذوا ينضمون واحدا واحد إلى الأول. ثم أخذ كل فرد من أفراد الحرس الأحمر يبرز ورقته المتسخة وهو يتذمر. كانت جميع الأوراق متشابهة ما عدا ورقتي الصادرة عن القيادة الثورية في «سمولني». فأعلن الحراس أنه عليَّ أن أذهب معهم. اعترض الحراس الحمر بإلحاح، إلا أن البحَّار الذي تكلم في البدء قال مؤكدا: «إننا نعلم أن هذا الرفيق رفيق عن حق وحقيق. ولكن يوجد أوامر من اللجنة، ويجب إطاعة هذه الأوامر. هكذا يكون الانضباط الثوري...

تفاديا للمشاكل، ترجلتُ من الشاحنة، وأخذت أراقبها وهي تبتعد متمايلة، وجميع من فيها يلوّح لي مودعا. وتشاورا بصوت خافت لبرهة ثم ساقاني نحو جدار فأوقفاني على حافته. وخطر ببالي فجأة أنهما سيطلقان عليَّ النار!

ولم يكن هناك كائن بشري واحد في الجهات الثلاث. كانت إشارة الحياة الوحيدة هي الدخان المتصاعد من مدخنة كوخ خشبي على بعد ربع ميل على الطريق الفرعي. وكان الجنديان يسيران على الطريق. فركضت وراءهما يائسا.

«ولكن، يا رفاق! انظروا! هذا ختم اللجنة العسكرية الثورية!»

فحدقا في أذني ببلاهة، ثم حدقا ببعضهما البعض وقال أحدهما ببرود:

«إنه مختلف عن الآخرين. إننا نجهل القراءة، يا أخ».

أخذت بذراعه وقلت: «تعال. لنذهب إلى هذا البيت. لا بد أن نجد فيه أحدا يعرف القراءة.» فترددا، وقال أحدهما: «لا.» بينما أخذ الآخر يتفحصني من راسي إلى أخمص قدميَّ، متمتما: «لمَ لا؟ على كل حال، فإن قتل رجل بريء جريمة لا تُغتفر».

سرنا إلى باب البيت الأمامي وطرقناه. ففتحته امرأة قصيرة، مربوعة القامة، تراجعت مذعورة لما رأتنا متمتمة: «لا أعرف شيئا عنهم؟ لا أعرف شيئا عنهم!» فمد لها أحدهما الأذن. فصرخت: «اقرئيه فقط، يا رفيقة» 9 فأخذت الورقة بتردد، وقرأت بسرعة وبصوت مرتفع:

«إن جون ريد، حامل هذا الأذن، هو ممثل الحركة الاشتراكية-الديموقراطية الأمريكية، وهو أممي...»

ولما عدنا إلى الطريق، تشاور الجنديان مجددا. ثم قالا: «يجب أن نأخذك إلى لجنة الفوج.» وفي دغشة الغروب، أخذنا نسير في الطريق الموحل. كنا نلقي أحيانا مفرزات من الجنود فيتوقفون ويحيطون بنا متوعدين، فيدور أذني عليهم وهم يتجادلون بعنف حول ما إذا كان يجب قتلي أم لا...

كان الظلام قد خيم لما وصلنا ثكنات فرقة القناصة الثانية في «تسارسكويي سيلا»، وهي مجموعة بنايات منتشرة على طول الطريق. الجنود الواقفون عند المدخل يسألون بلهفة: «جاسوس؟ متآمر؟» صعدنا سلما لولبيا يفضي إلى غرفة شاسعة جرداء تقبع في وسطها مدفأة كبيرة، وحولها صفوف من الأسرّة الصغيرة عليها حوالي ألف جندي يلعبون الورق يتحادثون، يغنون، أو يغطون في النوم. في السقف ثغرة كبيرة أحدثتها شظية أطلقتها قوات كرنسكي.

وقف عند الباب، فران صمت مفاجئ على المجموعات التي بدأت تتلفت وتحدق بي. وفجأة بدأ الجنود يتحركون ببطء أولا ثم هجموا راعدين ووجوههم مليئة بالحقد. فصاح أحد الحراس: « رفاق! رفاق! لجنة! لجنة!» فتوقفوا وتحلقوا حولي مهمهمين. وخرج من بينهم شاب نحيل يرتدي على ذراعه شارة حمراء. سأل بجفاء:

«من هذا؟» فشرح له الحارسان الأمر.

«أعطني أوراقك!» فقرأها بتمعن وهو يحدق بي بعينين شغوفتين ثم ابتسم وأعاد الأذن إلي: «رفاق. هذا رفيق أمريكي. أنا رئيس اللجنة. أهلا بك في الفوج...» وتحولت الهمهمة العامة إلى عاصفة من الترحيب، وتدافع الجنود لمصافحتي.

«لم نتناول العشاء بعد؟ نحن قد تناولنا عشاءنا. سنأخذك إلى نادي الضباط حيث البعض يعرف لغتك...»

وقادني عبر الممشى إلى باب بناية أخرى. ودخل شاب أرستقراطي المنظر يرتدي شارات ملازم. فقدمني إليه رئيس اللجنة ثم صافحني وعاد.

قال الملازم بلغة فرنسية ممتازة: «أنا الملازم ستيفان جورجيوفيتش موروفسكي، في خدمتك.» دخلنا بهوا مزينا ثم صعدنا سلما فاخرا تضيئه ثريات مشعشعة. وفي الطابق الثاني غرف «بليار»، وغرف للعب الورق، ومكتبة يدخل إليها من البهو. ثم دخلنا غرفة الطعام: في وسطها طاولة كبيرة يجلس إليها حوالي عشرون ضابطا بزيهم الكامل، وسيوفهم ذات القبضات الفضية والذهبية، وشرائط وصلبان الأوسمة الإمبراطورية. وفق الجميع بأدب عندما دخلت وأفسحوا لي مكانا قرب

العقيد، وهو رجل ضخم مهيب ذو لحية شعثاء. بعض الجنود يقدمون العشاء بمهارة. الجو هو جو أي نادٍ للضباط في أوروبا فأين هي الثورة؟

سألت موروفسكي: «أنت لستَ بلشفيا؟»

وابتسم الجميع، وألفيت بعضهم يلتفت بحذر جهة الجنود. وأجاب: «يوجد ضابط بلشفي واحد فقط في هذا الفوج. وهو في بتروغراد الآن. العقيد منشفي. والنقيب خيرلوف كاديت. وأنا من الجناح اليميني للاشتراكيين الثوريين... في الواقع معظم ضباط الجيش ليسوا بلاشفة، ولكنهم يؤمنون مثلي بالديموقراطية، ويؤمنون بأن عليهم أن ينصاعوا لإرادة جماهير الجنود».

ولما انتهينا من تناول العشاء، جيء بالخرائط، فبسطها العقيد على الطاولة، بينما تجمَّع الباقون حوله.

قال العقيد وهو يشير إلى علامات مرسومة بقلم الرصاص: «هنا كانت مواقعنا هذا الصباح. فلاديمير كيريلوفيتش أين هي سريتك؟»

وأشار النقيب خيرلوف: «قمنا باحتلال الموقع الذي على الطريق حسب الأوامر. حل محلي كارسافين في الساعة الخامسة».

إذ ذاك فتح الباب ودخل رئيس لجنة الفوج ومعه جندي آخر. وانضما إلى المجموعة الواقفة وراء العقيد تحدق بالخريطة. قال العقيد:

«حسنا. لقد تراجع القوزاق عشرة أميال عن قطاعنا. لا أظن أنه من الضروري أن نحتل المواقع المتقدمة. لهذه الليلة حافظوا على الخط الحالي، يا سادة، ودعِّموا مراكزكم بواسطة...»

وقاطعه رئيس لجنة الفوج: «عن إذنك. الأوامر تقول بأن نتقدم بسرعة ونمهد للدخول في اشتباك مع القوزاق هذا الصباح شمال غاتشينا. يجب أن نهزمهم. الرجاء أن تتخذوا الإجراءات اللازمة».

وساد صمت. ثم عاد العقيد إلى الخريطة، وقال بصوت آخر: «حسنا، من فضلك، يا ستيفان جورجيوفيتش...» وأخذ يرسم خطوطا بقلم أزرق، ويصدر الأوامر التي يسجلها أحد النقباء. ثم انسحب النقيب، وبعد عشر دقائق عاد ومعه نسختان مطبوعتان عن الأمر. فأخذ رئيس لجنة الفوج يدرس الخريطة وأمامه الأوامر.

«حسنا.» قال وهو يقف. ثم طوى نسخة عن الأوامر ووضعها في جيبه. ووقع على النسخة الثانية ومهرها بختم مدور أخرجه من جيبه، وقدمها للعقيد...

إذ ذاك أدركت أين هي الثورة!

عدت إلى قصر السوفييت في تسارسكويي سيلا في سيارة قيادة الفوج. ما زالت جموع العمال والجنود والبحارة تتدفق إليها ومنها، وما زال حشد الشاحنات والسيارات المصفحة الخانق. أمام الباب ينتصب مدفع، ومن كل مكان يتعالى الصياح وضحك الانتصار غير المألوف. بعض الأفراد من الحرس الأحمر يشقون طريقهم وبينهم كاهن. وقبل أنه الأب ايفان الذي بارك القوزاق عندما دخلوا المدينة. وسمعت فيما بعد أنه قتل..

كان ديبنكو خارجا يصدر أوامر سريعة يمنة ويُسرة. ويحمل بيده المسدس الكبير ذاته. وكانت إحدى السيارات بانتظاره دائرة المحرك. فصعد إلى مقعدها الخلفي وحده، وانطلق إلى غاتشينا ليقهر كرنسكي.

مع مجيء الليل، كان قد وصل إلى مشارف المدينة، فترجل من السيارة وتابع سيره مشيا. لا أعرف هل يدري ما الذي قاله ديبنكو للقوزاق. الذي أعرفه هو أن الجنرال كراسنوف وقيادته استسلموا ومعهم عدة آلاف من القوزاق، ونصحوا كرنسكي بأن يحذو حذوهم (2).

أما بالنسبة لكرنسكي، فهذا ما يخبرنا عنه الجنرال كراسنوف في شهادته يوم 14 تشرين الثاني (نوفمبر):

«غاتشينا في 14 تشرين الثاني (نوفمبر) 1917، حوالي الساعة الثالثة صباحا. استدعاني القائد الأعلى كرنسكي وكان هائجا وعصبيا جدا...

وقال لي: «يا جنرال. لقد خنتني. أعلن القوزاق الذين بقيادتك أنهم سيقبضون عليَّ ويسلمونني للبحارة»

أجبت: «نعم، جرى حديث من هذا النوع. وأنا أعرف أن ما من أحد يعطف عليك هنا».

-«ولكن الضباط يقولون عين الشيء».

-« الضباط يتذمرون منك أكثر من غيرهم».

-«ولكن ما عساي أفعل! لم يعد أمامي إلا الانتحار!»

-«ولو كنتَ رجلا شريفا، لذهبت إلى بتروغراد حالا رافعا العلم الأبيض، وسلَّمت نفسك للجنة العسكرية الثورية، ودخلت في مفاوضات معها بصفتك رئيسا للحكومة المؤقتة».

-«حسنا سأفعل ذلك، يا سيدي الجنرال».

-«سأرسل معك مفرزة حرس، وأطلب من أحد البحارة أن يرافقك».

-«لا. لا. لا أريد بحارة. أتعلم إذا كان صحيحا ما يشاع من أن ديبنكو هنا؟»

-«لا أعرف من هو ديبنكو».

-«إنه عدوي».

-«لا علاقة لهذا الموضوع. إذا كنت تطمح إلى الكثير، عليك أن تتعلم المجازفة».

-«حسنا. سأذهب هذه الليلة!»

-«لماذا؟ سيكون ذلك هربا. اذهب بهدوء وعلى مرأى من الجميع، فيرى الجميع أنك لا تهرب».

-«حسنا. ولكن يجب أن تعطيني حراسا أستطيع الاعتماد عليهم».

«اتفقنا».

وذهبت وناديت القوزاقي روسكوف، من الفوج العاشر في الدون، وأمرته بأن يختار عشرة من القوزاق لمرافقة القائد الأعلى. وبعد نصف ساعة، عاد القوزاق وأبلغوني أن كرنسكي ليس في مقره، وأنه هرب.

وأعلنت حالة الطوارئ، وأمرت بالبحث عنه مفترضا أنه لن يتمكن من مغادرة غاتشينا، إلا أننا لم نجده...»

هكذا هرب كرنسكي وحده، متنكرا بزي بحَّار، وخسر بذلك ما تبقى من شعبية له عند الجماهير الروسية...

عدت إلى بتروغراد راكبا في المقعد الأمامي لشاحنة تحمل أفرادا من الحرس الأحمر ويقودها أحد العمال. لم يكن معنا وقود، فلم نشعل الأنوار. كان الطريق مليئا بالجيش البروليتاري العائد إلى بيوته، وبقوات الاحتياط الذاهبة لتحل محله. شاحنات ضخمة مثل شاحنتنا، صفوف من قوات المدفعية تخترق الليل مطفأة الأنوار مثلنا. وكنا نتهادى من جهة لأخرى لنتحاشى الاصطدامات التي بدت محتمة، فتتعالى أصوات الدواليب الحادة تعقبها شتائم المشاة.

عند الأفق تنتشر أنوار العاصمة المتألقة، وقد بدت أبهى بكثير في الليل مما هي في النهار، فكأنها عناقيد من الألماس تكومت فوق المرج الأجرد.

العامل العجوز الذي يقود السيارة أمسك عجلة القيادة بيد، وأشار بالأخرى إلى العاصمة البعيدة المتألقة بحركة منتشية وهو يصيح ووجهه وضَّاح:

«أنتِ لي!، كلك الآن لي، يا بتروغراد»

==========

[*] غاتشينا ضاحية بتروغراد الجنوبية التي انتهى عندها زحف كرنسكي على العاصمة.

هوامش الفصل التاسع

1 أحداث يوم 13 تشرين الثاني (نوفمبر) في بتروغراد

رفضت ثلاثة أفواج في حامية بتروغراد الاشتراك في المعركة ضد كرنسكي. وفي صباح الثالث عشر من تشرين الثاني (نوفمبر)، دعت ستين مندوبا من الجبهة إلى ندوة مشتركة لإيجاد طريقة لوقف الحرب الأهلية. وعيّنت هذه الندوة لجنة لتذهب إلى قوات كرنسكي وتقنعها بوقف القتال. واقترحت أن توجه إلى جنود الحكومة الأسئلة التالية: 1) هل يعترف الجنود والقوزاق التابعون لكرنسكي «بالتسايكا» كقاعدة لسلطة الحكومة تكون مسؤولة أمام مؤتمر السوفييت؟ 2) هل يقبل الجنود والقوزاق بالقرارات الصادرة عن المؤتمر الثاني للسوفييت؟ 3) هل يوافقون على مراسيم الأرض والسلم؟ 4) هل يقبلون بوقف الأعمال العدوانية والعودة إلى وحداتهم؟ 5) هل يوافقون على اعتقال كرنسكي وكراسنوف وسافينكوف؟

قال زينوفييف في اجتماع سوفييت بتروغراد:

«من البلاهة الظن بأن اللجنة تستطيع حل المشكلة. لا يمكن قهر العدو إلا بواسطة العنف. إلا أننا نكون مجرمين إن لم نجرب جميع الوسائل السلمية لنستميل القوزاق

إلى جانبنا... إن ما نحتاجه هو نصر عسكري... أخبار الهدنة غير ناضجة. إن قيادتنا سوف توقع على اتفاقية هدنة عندما لا يعود بمقدور العدو أن يحدث أي أذى...

«إن تأثير انتصارنا يخلق ظروفا سياسية جديدة في القوت الحاضر... الآن بات الاشتراكيون الثوريون على استعداد لاشتراك البلاشفة في الحكومة الجديدة... لا بد من انتصار حاسم يقضي على تردد المترددين....»

في مجلس الدوما، كان كل الاهتمام منصبا على تشكيل الحكومة الجديدة. كانت المحاكم الثورية قد باشرت عملها في العديد من المصانع والثكنات، والبلاشفة يهددون بإنشاء المزيد منها ومحاكمة غوتز وافاكسانييف أمامها. فاقترح دان توجيه إنذار يطلب إلغاء هذه المحاكم الثورية وإلا اضطر أعضاء الندوة إلى وقف جميع المحادثات الجارية مع البلاشفة.

وأعلن شينغاريوف، عضو حزب الكاديت، بأنه لا يجوز للبلدية أن تشترك في حكومة يكون البلاشفة ممثلين فيها... «إن أي اتفاق مع هؤلاء المعتوهين مستحيل، ما داموا لم يلقوا سلاحهم، ولم يعترفوا بسلطة المحاكم المستقلة...»

وأعلن بارتسيف، باسم مجموعة «يدينستوفا»، أن أي اتفاق مع البلاشفة معناه انتصار لهم...

وقال رئيس البلدية شرايدر، باسم الاشتراكيين الثوريين، أنه يعارض أي اتفاق مع البلاشفة... «أما بالنسبة للحكومة، فيجب أن تنبثق مع الإرادة الشعبية، وبما أن هذه قد عبرت عن نفسها في الانتخابات البلدية، فالإرادة الشعبية القادرة على تشكيل حكومة موجودة حاليا في مجلس الدوما».

وبعد أن توالى عدة متكلمين، كان ممثل المناشفة الأمميين هو الوحيد بينهم الذي أيَّد إشراك البلاشفة في الحكومة الجديدة، أقر مجلس الدوما بقاء ممثليه في ندوة «الفيكجل» مع الإصرار على إعادة تشكيل الحكومة المؤقتة كمهمة أولى، وعلى إقصاء البلاشفة عن الحكومة الجديدة...

==========

2- نداء الحكومة السوفييتية

«إن الوحدات المعسكرة في غاتشينا، والتي ضلَّلها كرنسكي قد ألقت أسلحتها وقررت اعتقال كرنسكي. لقد هرب رئيس الردة المضادة للثورة. أعلن الجيش، بغالبيته الساحقة، تأييده للمؤتمر العام الثاني للسوفييت وللحكومة التي انبثقت عنه. عشرات الوفود أسرعت من الجبهة إلى بتروغراد لتؤكد للحكومة السوفييتية ولاء الجيش لها. إن تشويه الحقائق والتهجم على العمال والجنود والفلاحين الثوريين لم يفلح في قهر الشعب. لقد انتصرت ثورة العمال والجنود...

إن «التسايكا» تتوجه إلى الجنود الذين يسيرون تحت لواء الثورة المضادة وتناشدهم إلقاء أسلحتهم، والامتناع عن إراقة دم إخوتهم لمصلحة حفنة من ملاك الأرض والرأسماليين. إن ثورة العمال والجنود والفلاحين تعلن جميع الذين يبقون، ولو للحظة واحدة، تحت لواء أعداء الشعب...

أيها القوزاق! انضموا إلى صفوف الشعب المنتصر. يا عمال سكك الحديد، يا مستخدمي البرق والبريد، هبُّوا جميعا لتأييد حكومة الشعب!»

الفصل العاشر

موسكو

تابعت «اللجنة العسكرية الثورية» انتصاراتها بحدة شرسة:

«في 14 تشرين الثاني (نوفمبر)،

إلى جميع لجان الجيوش والوحدات والقطاعات والفرق، إلى جميع سوفييت مندوبي العمال والجنود والفلاحين، إلى الجميع، الجميع، الجميع.

وفقا للاتفاقات التي عقدت بين القوزاق، و«الينكرز»، والجنود، والبحارة، والعمال، تقرر تقديم ألكسندر فيودوروفيتش كرنسكي إلى إحدى محاكم الشعب. نطلب اعتقال كرنسكي، وأمره، باسم المنظمات المذكورة أذناه، بالتوجه فورا إلى بتروغراد لتقديم نفسه للقضاء.

التوقيع:

قوزاق الوحدة الأولى لخيالة «أرسوري»، لجنة «الينكرز»
التابعة لقناصة بتروغراد، مندوب عن الجيش الخامس
مفوض الشعب ديبنكو»

«لجنة الإنقاذ»، ومجلس الدوما، واللجنة المركزية للحزب الاشتراكي الثوري – التي تفاخر بكون كرنسكي عضوا فيها- أعلنت باندفاع، أنه لا يمكن أن يكون مسؤولا إلا أمام الجمعية التأسيسية.

ليلة 16 تشرين الثاني (نوفمبر). شاهدت عرضا لألفي حارس أحمر في «شارع زاغورودني» يسيرون خلف جوقة عسكرية تعزف نشيد «المارسلييز» -كم كان وقعها ملائما!- حاملين أعلاما حمرا بلون الدم ترفرف فوق صفوف العمال ذات الألوان القاتمة، ليستقبلوا إخوانهم الذين دافعوا عن «بتروغراد الحمراء». وكانوا يسيرون عند الغروب القارس، رجالا ونساء، وحرابهم الطويلة تتماوج، مخترقين شوارع ذات أنوار خافتة يغطيها وحل لزج، بين جموع صامتة من البرجوازيين الحاقدين والخائفين...

الجميع ضدهم –رجال الأعمال والمضاربون والمستثمرون وملاك الأراضي وضباط الجيش والسياسيون والمعلمون والطلبة وأصحاب المهن الحرة وأصحاب الحوانيت والموظفون والعملاء، والأحزاب الاشتراكية الأخرى تضمر للبلاشفة حقدا أعمى. ولكن تقف إلى جانب السوفييت قاعدة العمال والبحارة والجنود الذين لم تتحطم معنوياتهم، والفلاحون الذين لا يملكون الأرض، وعدد قليل –قليل جدا- من المثقفين...

من أقاصي روسيا الواسعة، التي تغمرها موجة من قتال الشوارع الضاري، أرجعت أخبار هزيمة كرنسكي صدى الهدير العظيم لانتصار البروليتاريا. قازان ساراتوف نوفغورود، فينيتزا –حيث كان الدم يجري في الشوارع، موسكو حيث وجه البلاشفة مدفعيتهم ضد آخر معقل للبرجوازية- قصر الكرملين.

«إنهم يقصفون الكرملين!» وتناقلت الشفاه الخبر في شوارع بتروغراد بما يشبه الرعب. وروى المسافرون القادمون من موسكو «الأم الصغيرة البيضاء البرَّاقة» قصصا مفزعة. آلاف القتلى، أبنية «تفيرسكايا» و«كوزنتزكي» تحترق، كنيسة

«فاسيللي بلاجيني» خربة محترقة، كاتدرائية «أوسبينسكي» تنهار: بوابة «سباسكايا» في الكرملين تتداعى، بناية الدوما خربة يتصاعد منها الدخان (1).

لم يكن شيء قام به البلاشفة ليُقاس بهذا الانتهاك الشنيع في قلب «روسيا المقدسة». وترامت إلى آذان الأتقياء أصوات المدافع وهي تبصق لهيبها في وجه «الكنيسة الأرثوذكسية المقدسة»، وتدك محراب الأمة الروسية.

في 15 تشرين الثاني (نوفمبر)، انفجر مفوض الثقافة لوناتشارسكي باكيا في اجتماع لمجلس مفوضي الشعب، وخرج من الغرفة صائحا: «لا أقدر أن أتحمل! لا أطيق التخريب البشع للجمال والتقاليد...»

وفي بعد ظهر اليوم نفسه نشرت الصحف استقالته:

«علمت لتوه، من بعض القادمين من موسكو، عما جرى هناك: «كاتدرائية القديس باسيليوس المبارك»، و«كاتدرائية الصعود» تتعرضان للقصف. نيران المدفعية تقصف الكرملين، حيث تتجمع أثمن كنوز بتروغراد وموسكو الفنية. وقد سقط ألوف الضحايا.

الصراع هناك وصل إلى ذروة الوحشية البهيمية.

ماذا تبقى؟ ماذا يمكن أن يحدث أكثر مما حدث؟

أنا لا أستطيع أن أتحمل ذلك. لقد بلغ السيل الزبا.

لست أستطيع احتمال هذه الفظائع. يستحيل عليَّ العمل تحت ضغط أفكار تدفع بي إلى حد الجنون!

لهذا السبب أقدم استقالتي من مجلس مفوضي العشب.

إني على علم تام بخطورة هذا القرار. ولكني لم أعد أستطيع التحمل بعد الآن..(2)
»

وفي اليوم ذاته استسلم الحرس الأبيض و«الينكرز» في الكرملين، وسمح لهم أن يخرجوا منه بدون أذى. وعقب ذلك توقيع اتفاقية الصلح التالية:

«1- تحل لجنة السلامة العامة.

2- الحرس الأبيض يسلّم أسلحته ويحل نفسه. يحتفظ الضباط بسيوفهم ومسدساتهم. ويحتفظ في الكليات العسكرية بالأسلحة الضرورية للتعليم، على «الينكرز» أن يسلموا جميع الأسلحة الأخرى. تتعهد اللجنة العسكرية الثورية بحماية حرية وسلامة الأشخاص.

3- تعين لجنة خاصة من ممثلي جميع المنظمات التي اشتركت في مفاوضات الصلح لحل موضوع نزع السلاح المنصوص عليه في القفزة 2.

4- ابتداء من موعد اتفاقية الصلح، يدعو كلا الفريقين إلى وقف إطلاق النار، ووفق جميع العمليات العسكرية فورا، ويتخذان الإجراءات اللازمة لتأمين التنفيذ الدقيق للأوامر.

5- لدى توقيع الاتفاقية، يطلق سراح جميع الأسرى من الطرفين».

البلاشفة يسيطرون على المدينة منذ يومين. والمواطنون المذعورون يتسللون من أقبيتهم بحثا عن موتاهم، أو يعملون على إزالة المتاريس من الشوارع. إلا أن القصص عن خراب موسكو ازدادت عوضا عن أن تقلّ. وكان أن قررنا الذهاب إلى هناك تحت تأثير هذه الشائعات المخفية.

ومهما يكن من أمر، فإن بتروغراد تبقى مدينة اصطناعية بالرغم من كونها مقر الحكومة منذ قرن. إن موسكو هي روسيا الحقيقية، روسيا كما كانت وسوف تكون. وفي موسكو سوف يتسنى لنا أن نعرف الشعور الحقيقي للشعب الروسي حول الثورة. فالحياة اكثر زخما هناك.

طوال الأسبوع المنصرم، كانت اللجنة العسكرية الثورية في بتروغراد قد استولت على خط سكك حديد نيقولاي، بمساعدة عمال سكك الحديد، وأخذت ترسل شحنة تلو الشحنة من البحارة والحرس الأحمر إلى جنوب الغربي... وتزودنا بأذونات من «سمولني» التي لا يمكن الخروج من العاصمة بدونها...

وعندما دخل القطار المحطة، هجم جمع من الجنود ذوي الثياب الرثة على الأبواب، وحطموا النوافذ، وتدفقوا إلى جميع المقصورات فغصَّت المماشي بهم إلى درجة أن البعض أخذ يصعد إلى السطح. واستطاع ثلاثة منا أن يشقوا طريقهم إلى إحدى المقصورات، ولكن ما إن دخلناها حتى لحق بنا حوالي العشرين جنديا... ولم يكن ثمة مكان إلا لأربعة أشخاص، وعبثا حاولنا أن نناقش ونقنع، وانضم المفتش إلينا، ولكن الجنود اكتفوا بالابتسام. لماذا يهتمون براحة رتل من البرجوازيين! ولكن ما أن أبرزنا أذوناتنا من «سمولني» حتى تعدّل موقف الجنود فجأة.

فصاح أحدهم: «تعالوا، يا رفاق، هؤلاء رفاق أمريكيون. لقد قطعوا آلاف الأميال ليشاهدوا ثورتنا، ولا بد أنهم متعبون...»

وبدا الجنود بالانسحاب متمتمين عبارات اعتذار مهذبة وودودة. وبعد برهة سمعناهم يقتحمون مقصورة يشغلها روسيان قويا البنية، يرتديان ثيابا فاخرة كانا قد رشيا المفتش وأغلقا الباب عليهما...

في حوالي السابعة مساء خرج القطار من المحطة، كان قطارا ضخما طويلا تجره قاطرة ضعيفة تسير على احتراق الحطب، تتهادى ببطء متعثرة في سيرها، وتتوقف كثيرا. الجنود على السطح يقرعون بأعقاب أحذيتهم ويغنون أغاني فلاحية حزينة. وفي الممشى، المكتظ بالناس إلى درجة يستحيل السير فيه. تدور المناقشات السياسية الحادة طوال الليل. ومن وقت لآخر يبرز المفتش، بحكم العادة، طالبا تذاكر السفر. فلا يجد منها إلا العدد القليل، بما فيه تذاكرنا. وبعد نصف ساعة من الجدال غير المجدي، يرفع ذراعيه يائسا وينسحب. الجو خانق، مليء بالدخان والروائح الكريهة. ولو لم تكن النوافذ محطمة فما من شك أننا كنا اختنقنا خلال الليل.

وفي الصباح، بعد تأخير ساعات، أشرفنا على عالم من الثلج. البرد قارس. وحوالي الظهر صعدت فلاحة تحمل سلة مليئة بكسرات الخبز، ووعاء كبيرا من القهوة الاصطناعية الفاترة. ومنذ ذلك الحين حتى العشية، لم يكن هناك غير القطار المكتظ، يتمايل ويتوقف، وعند بعض المحطات يجتاح جمع كاسر المطعم وينظفه مما فيه من طعام قليل.. وعند إحدى هذه الوقفات رأيت نوغين وريكوف. مفوضي الشعب المنشقين، عائدَين إلى موسكو لتقديم شكواهما أمام السوفييت الذي ينتميان إليه، وفيما بعد، رأيت بوخارين، وهو رجل قصير القامة، أحمر اللحية، له عينا رجل متزمت، ويقال أنه «على يسار لينين»...

ثم قرعت دقات الجرس الثلاث، فأسرعنا عائدين إلى القطار، شاقين طريقنا بصعوبة وسط الممشى المكتظ المليء بالضجيج... جمع طيِّب القلب يقاسي الإزعاج بصبر مرح، يناقش إلى ما لانهاية كل شيء من الوضع في بتروغراد إلى التنظيم النقابي البريطاني، ويجادل بصوت مرتفع القلة من البرجوازيين الموجودة في القطار. وقبل أن نصل موسكو، كانت كل عربة قد شكلت لجنة لتأمين الغداء وتوزيعه. وسرعان ما انقسمت هذه اللجان على أجنحة سياسية تتجادل فيما بينها حول المبادئ الرئيسية...

محطة موسكو مهجورة. دخلنا مكتب المفوض لكي نؤمن تذاكر العودة. كان يافعا عليه ملامح الحزن، على كتفيه شارات ملازم. وعندما أبرزنا أوراقنا من «سمولني» فقد أعصابه وأعلن انه ليس بلشفيا، وأنه يمثل «لجنة السلامة العامة»... في الغليان العام الذي رافق الاستيلاء على المدينة، نسي المنتصرون السيطرة على حطة سكك الحديد الرئيسية...

لم نجد سيارة عمومية نستأجرها. إلا أننا التقينا بسائق زلاجة، يرتدي ثيابا سميكة، وينام واقفا على صندوق زلاجته الصغيرة، فأيقظناه قائلين: «كم تريد لتقلنا إلى مركز المدينة؟»

حك رأسه وقال: «لن يستطيع السادة العثور على غرفة في فندق. ولكني سآخذكم لقاء مائة روبل...» كانت التعرفة روبلين اثنين قبل الثورة. فاعترضنا. إلا أنه اكتفى بهز كتفيه، ثم أردف قائلا: «يحتاج المرء إلى الكثير من الشجاعة ليقود زلاجة في هذه الأيام...» ولم نستطع أن نقنعه بأن يأخذ أقل من ثلاثين روبلا... وبينما كنا نسرع في الطرقات الهادئة المغطاة بالثلج، الخافتة الأنوار، أخذ يقص علينا مغامراته خلال الأيام الستة عندما كان القتال دائرا في المدينة: «بينما كنت أسوق أو انتظر طلبا، تنفجر قنبلة مدفع هنا فجأة، بووم! وأخرى هناك، بووم! رات –رات –رات، رشاش... فأسرع والشياطين يطلقون النار من كل الجهات. واصل إلى طريق هادئ، فأتوقف وأغفو، ثم «بووم» قنبلة أخرى، رات –رات – رات... شياطين! شياطين! شياطين! برررر!»

في مركز المدينة، كانت الطرق المغطاة بالثلج هادئة يغمرها ذلك السكون الذي يرافق فترة النقاهة. كانت بعض الأنوار مضيئة، وبعض المشاة يهرولون على الأرصفة. الريح الجليدية تهب من السهل الكبير وتخترق العظام. ولما وصلنا أول فندق، دخلنا مكتب تضيئه شمعتان:

«نعم. عندنا غرف مريحة جدا ولكن جميع النوافذ محطمة. إذا كان السادة لا ينزعجون من بعض الهواء المنعش...»

كانت واجهات المتاجر محطمة في شارع «تفيرسكايا»، المليء بالحجارة المقلوبة والحفر التي أحدثتها القذائف. وتجولنا من فندق إلى فندق وكانت كلها مليئة، أو كان أصحابها الذين ما زالوا مذعورين يقولون: «إلا. لا. ما عندنا غرف! ما عندنا غرف!». كانت المدفعية البلشفية قد أحدثت إضرارا بالغة في الشوارع الرئيسية حيث المصارف والمتاجر الكبيرة. وقال لي أحد موظفي السوفييت: «لمّا كنا لا نستطيع أن نحدد بالضبط أين يوجد «الينكرز» والحرس الأبيض، كنا نقصف المنطقة كلها...»

وأخيرا وجدنا غرفا في «الفندق الوطني» الكبير، ذلك أننا أجانب، واللجنة العسكرية الثورية كانت قد وعدت بحماية مساكن الأجانب... وفي الطابق العلوي، دلّنا مدير الفندق على النوافذ التي هدمتها القذائف: قال وهو يهز قبضته في وجه

بلاشفة وهمبيين: «الحيوانات! ولكن تمهَّلوا! سوف يأتي دورهم، بعد بضعة أيام ستنهار حكومتهم السخيفة وسوف نعذبهم بدورنا!»

تناولنا الطعان في مطعم للنباتيين له اسم طريف: «أنا لا آكل أحدا»، تعلوا جدرانه صورة لتولستوي. ثم خرجنا نتجول في الشوارع.

كان سوفييت موسكو قد أتخذ قصر الحاكم العام مقرا له، وهو بناية بيضاء مهيبة تطل على «ساحة سكوبيليف». أفراد الحرس الأحمر يحرسون الباب. ولما وصلنا إلى رأس السلم الواسع البهي المغطاة جدرانه بإعلانات عن اجتماعات اللجان وبيانات الأحزاب السياسة، عبرنا سلسة من الغرف علقت فيها صور ذات أطر حمراء مذهبة، إلى القاعة الرسمية الرائعة، بثرياتها الكريستال الفخمة وإفريزها المذهب. وكانت همهمة حديث خافت وجلبة أصوات آلات الخياطة تملأ المكان. بالات من القماش الأحمر والأسود تملأ الأرض وتغطي الطاولات التي تجلس عليها حوالي الخمسين امرأة. تقص وتخيط الأعلام لدفن شهداء الثورة. نساء تركت مصاعب الحياة على وجوههن ندوبها القاسية، يعملن بدأب، وقد احمرت عيون العديد منهن من كثرة البكاء... فقد تكبد الجيش الأحمر خسائر فادحة.

وفي إحدى الزوايا، جلس روغوف وراء مكتب. إنه رجل ذكي ملتح ذو نظارات. يرتدي قميص العمال الأسود. فدعانا إلى السير مع اللجنة المركزية التنفيذية في الجنازة في اليوم التالي. ثم قال: «من المستحيل تعليم المناشفة والاشتراكيين الثوريين أي شيء. إنهم يساومون بحكم العادة، تصوروا! لقد اقترحوا علينا أن نقيم جنازة مشتركة نحن والينكرز!»

في الطرف الثاني من القاعة، رأيت رجلا يرتدي معطفا عسكريا رثا. ولم يكن وجهه غريبا عني. وسرعان ما تذكرته: إنه ملنيشانسكي الذي عرفته عندما كان يسمّى الساعاتي جورج ملشير في «بايون»، ولاية نيوجيرزي. خلال إضراب عمال «ستاندارد اويل» الكبير. وأخبرني أنه قد أصبح الآن سكرتير اتحاد عمال المعادن في موسكو، وأحد مفوضي اللجنة العسكرية الثورية خلال القتال.

فصاح وهو يريني ثيابه الرثة: «تصور! كنت مع الشباب في الكرملين عندما جاء «الينكرز» أول مرة. فحبسوني في أحد الأقبية وأخذوا معطفي ومالي وساعتي وحتى الخاتم الذي في إصبعي. هذا كل ما تبقى لي لأرتدي!»

وعلمت منه الكثير عن المعركة الدامية التي استمرت خلال ستة أيام والتي قسمت موسكو إلى معسكرين. ففي موسكو، وعلى عكس ما جرى في بتروغراد. استلم مجلس الدوما قيادة «الينكرز» والحرس الأبيض، وقاد عمليات «لجنة السلامة العامة» والقوات المسلحة. وكان حاكم المدينة، ريابتسيف، وهو رجل ذو حس ديموقراطي، قد تردد في الوقوف بوجه اللجنة العسكرية الثورية. إلا أن مجلس الدوما أجبره على ذلك. وكان رئيس البلدية هو صاحب مشروع احتلال الكرملين معلنا: «أنهم لن يجرأوا على إطلاق النار عليكم هناك...»

وجرى أن أتصل الطرفان بأحد أفواج الحامية الذي كان قد تحطمت كل معنوياته بسبب البطالة. فاجتمع الفوج ليتخذ قراره. فكانت النتيجة إصراره على البقاء على الحياد والاستمرار في نشاطاته السابقة التي تتلخص في بيع المحَايات وحبوب زهرة دوّار الشمس!

قال ملنيشانسكي: «ولكن أسوأ ما في الأمر اضطرارنا إلى تنظيم أنفسنا ونحن نقاتل. كان الطرف الآخر يعرف ماذا يريد على وجه التحديد، ولكن عندنا، كان للجنود سوفييتهم وللعمال سوفييتهم... ونشب صراع عنيف حول من سيكون القائد

العام. بعض الأفواج ظلت تناقش الأمر طوال أيام قبل أن تتخذ قرارها، عندما هجَرَنا الضباط فجأة وجدنا أنفسنا في المعركة بدون قيادة...»

وقد رسم لي صورا حية عما جرى. في ذات يوم غائم وبارد كان واقفا عند زاوية شارع «نيكيتسكايا» الذي تلعلع فيه نيران المدافع الرشاشة. وكان جمع من صبية الأزقة مجتمعا هناك. ممن كانوا في السابق بائعي صحف. وكانوا ينتظرون بحماس وفرح، كأنهم يلعبون لعبة جديدة، حتى يخفَّ تبادل إطلاق النار فيحاولون عبور الشارع راكضين... قُتل منهم العديد، إلا أن الباقين ظلوا يعبرون ويرجعون ضاحكين متحدّين بعضهم البعض.

ذهبت في المساء المتأخر إلى «نادي النبلاء» حيث كان مقررا أن يجتمع البلاشفة ليستمعوا إلى تقرير نوغين وريكوف وغيرهما من الذين استقالوا من مجلس مفوضي الشعب.

قاعة الاجتماع عبارة عن مسرح كانت فرقة للهواة، أيام العهد البائد، تقدم عليه أحدث المسرحيات الهزلية الفرنسية أمام جمهور من الضباط ومن النساء المتبرِّجات.

في البدء، كانت القاعة مليئة بالمثقفين الذين يسكنون قرب مركز المدينة. ولما تكلم نوغين كان واضحا أن معظم المستمعين على اتفاق معه. وتأخر العمال في الوصول، فقد كانت الأحياء العمالية في أطراف المدينة والسيارات العمومية متوقفة. وحوالي منتصف الليل، بدأوا يتوافدون بمجموعات من عشرة أو عشرين من الرجال الضخام الأشداء الذين يرتدون ثيابا خشنة، قادمين حديثا من المعركة حيث قاتلوا كالشياطين طوال أسبوع بكامله، وشاهدوا رفاقهم يتساقطون حولهم.

وما إن بدأ الاجتماع حتى انهال على نوغين وابل من الزعيق والصيحات الغاضبة. وعبثا حاول أن يحاجج، ويناقش، فرفضوا الاستماع إليه. انسحب من مجلس مفوضي الشعب، أي أنه تخلى عن مركزه خلال المعركة. أما بالنسبة للصحافة البرجوازية فإنها معدومة هنا في موسكو، حتى مجلس الدوما قد حُلَّ. وانتصب بوخارين، لاذعا ومنطقيا، بصوت يغوص ويضرب، يغوص ويضرب... فاستمعوا إليه بأعين براقة. وفاز اقتراح بتأييد أعمال مجلس مفوضي الشعب بأغلبية ساحقة. هكذا قالت موسكو كلمتها...

في ساعة متأخرة من الليل عبرنا الطرقات الخاوية إلى الساحة الحمراء قبالة الكرملين مررنا بالبوابة الإيبيرية. وكانت كنيسة «فاسيلي بلاجيني» تنتصب رائعة بظلال قبابها المشرئبة ذات الألوان البراقة. لا يوجد أي اثر للأضرار... وعند جهات الساحة، ترتفع قلاع الكرملين وجدرانه. وفوق الجدران العالية، تشعّ نيران مخفية، وترامت إلينا عبر المكان الواسع أصوات وجلبة معاول ورفوش. فاجتزنا الساحة.

كانت تلال من التراب والحجارة مكومة عاليا قرب حافة الجدار. وتسلقناها وأشرفنا على حفرتين كبيرتين يبلغ عمق الواحدة منهما عشرة إلى خمسة عشر قدما وطولها خمسون ذراعا، وكان مئات الجنود والعمال يحفرون تحت ضوء نيران ضخمة.

وتحدث إلينا طالب شاب بالألمانية مفسرا: «إنها مقبرة الأخوّة». غدا سوف ندفن فيها خمسمئة بروليتاري استشهدوا من أجل الثورة!»

ثم أنزلنا إلى الحفرة. المعاول والرفوش تعمل بسرعة مذهلة وتلال التراب تتعالى. لا أحد يتكلم. السماء مليئة بالنجوم وجدار الكرملين الإمبراطوري العتيق يشمخ فوقنا.

وقال الطالب: «هنا، في هذا المكان المقدس، أقدس مكان في روسيا، سوف ندفن أقدس الناس بالنسبة لنا. هنا حيث مدافن القياصرة، سيرقد قيصرنا: الشعب.» وكانت يده في علاّقة من جراء جرح أصيب به في المعركة. نظر إلى يده وقال: «أنتم الأجانب تزدروننا، نحن الروس، لأننا احتملنا نظاما ملكيا من أنظمة القرون الوسطى خلال مدة طويلة. ولكننا اكتشفنا أن القيصر لم يكن الطاغية الوحيد في العالم. فالرأسمالية أسوأ منه. إن الرأسمالية هي إمبراطور جميع بلدان العالم... الخطط التكتيكية الثورية الروسية هي أفضل الخطط...»

وبينما كنا نغادر المكان، بدأ العمال يتركون الحفر، منهكين يعلو أجسادهم العرق رغم البرد القارس. ورأينا جمعا داكنا من الرجال يهرول عابرا الساحة الحمراء. وتدافعوا إلى الحفر وأخذوا يحفرون ويحرفون، بدون أية كلمة...

وهكذا كان المتطوعون من أبناء الشعب يتناوبون طوال الليل محافظين على السرعة الفائقة في العمل. وما إن أطل نور الفجر البارد وعرى الساحة الكبرى المغطاة بالثلج حتى بان شدق الحفرتين البنيَّتين لمقبرة الأخوة وقد أصبحت جاهزة.

استيقظنا قبل طلوع الشمس وهرولنا إلى «ساحة سكوبيليف» غبر الطرقات المظلمة. لم نشاهد رجلا واحدا في هذه المدينة الكبيرة. إلا أن صوت جلبة خافتة ترامى إلينا، بعيدا وقريبا في آن، مثل هبوب ريح قوية. جمع من الرجال والنساء يحتشد أمام مقر السوفييت في النور الشاحب، حاملا الرايات الحمراء التي كتب عليها بأحرف ذهبية: اللجنة المركزية التنفيذية لمنظمات السوفييت في موسكو. وطلع الضوء. الصوت الغامض القادم من البعيد قد ازداد عمقا وارتفاعا... المدينة تستيقظ. فنزلنا «شارع تفيرسكايا» ترفرف فوقنا الأعلام. الكنائس الصغيرة على طريقنا مقفلة مظلمة، وبينها كنيسة العذراء الإيبيرية التي كان يزورها القياصرة قبل التوجه إلى الكرملين ليتوّجوا أنفسهم، والتي كانت مفتوحة ليلا ونهارا ومزدحمة بالناس، ينعكس فيها ضوء شموع المؤمنين على الأيقونات الذهبية والفضية المرصعة بالجواهر. ويقال أن هذه هي المرة الأولى التي تطفأ فيها الشموع منذ أن كان نابليون في موسكو.

كانت الكنيسة الأرثوذكسية المقدسة قد نزعت بركتها عن موسكو بعد أن أصبحت وكرا لأفاعي الكفرة الذين قصفوا الكرملين. الكنائس مظلمة وصامتة، والكهنة قد اختفوا. لم يحضر الجنازة الحمراء أي رجل دين. لم تمنح بركة الميرون للموتى، ولم ترتل الصلوات على قبور المجدفين. وبعد ذلك بقليل، أعلن تيخون، متروبوليت موسكو، الحرم على السوفييت.

الحوانيت مقفلة هي أيضا، والطبقات المالكة لازمت بيوتها. ولكن لأسباب أخرى. فهذا يوم الشعب، وكانت الشائعة التي أعلنت مجيئه كالموجة العاتية.

بدأ سيل من البشر يتدفق تحت «البوابة الإيبيرية». والساحة الحمراء أضحت مرقطة بالبشر، ألوف البشر. ولاحظت أن الجمع لم يأبه بالكنيسة الإيبيرية، هذه الكنيسة التي كان الجميع يرسمون إشارة الصليب عندما يمرون بها.

وشققنا طريقنا وسط الجمع المحتشد عند جدار الكرملين، واعتلينا إحدى التلال الترابية. وكان العديد هناك، بينهم مورانوف، الجندي الطويل، البسيط الشكل الوسيم ذو الوجه الملتحي، الذي انتخب حاكما عسكريا لموسكو.

وتدفق البشر كالسيل الجارف بالآلاف المؤلفة من كل الطرقات المؤدية إلى الساحة الحمراء، وجميعهم من الفقراء والكادحين. ثم جاءت جوقة عسكرية تعزف النشيد الأممي، وبشكل عفوي أخذ اللحن يستحوذ على الناس ويتسع بهدوء وجلال مثل اتساع التماوجات التي تحدثها الريح على سطح الماء. وتدلت من أسطح الكرملين بيارق حمراء ضخمة كتب عليها بالأبيض ولون الذهب: «طليعة شهداء الثورة الاجتماعية العالمية» و«عاشت أخوة عمال العالم اجمع».

ريح قارسة تجتاح الساحة وتنشر الأعلام. الآن بدا عمال المصانع المختلفة يتوافدون من الأحياء البعيدة حاملين موتاهم. وها هم يجتازون البوابة بأعلامهم الخفاقة والنعوش الحمراء القانية كالدم الذي يحملون. كانت صناديق مصنوعة من الخشب غير المصقول، ومطلية بالأحمر ومرفوعة عاليا على أكتاف رجال أشداء يمشون والدموع تنحدر على وجوههم، تلحق بهم نساء تنوح وتصرخ، أو تمشي بجمود بأوجه شاحبة فقدت كل أثر للحياة. وكانت بعض النعوش مفتوحة، وأغطيتها محمولة وراءها، والأخرى مغطاة بالقماش الذهبي أو الفضي، أو قد سمَّرت عليها قبعة جندي. ثمة أكاليل عديدة من الأزهار الاصطناعية...

المسيرة تتقدم نحونا ببطء وسط طريق متعرجة تنفتح وتنغلق. الآن يتدفق من البوابة جدول لا ينتهي من الأعلام ذات اللون الأحمر بمختلف ظلاله، والأحرف الفضية أو المذهبة، والعقد المتدلية من رؤوسها، وبعض أعلام الفوضويين السوداء المخطوط عليها بأحرف بيضاء. الجوقة تعزف «نشيد الموتى الثوري»، وتتعالى أصوات أعضاء المسيرة الحاسري الرؤوس، تغنى بخشونة وتغص بالدموع، رغم غناء الجمهرة المرتفع...

وبين عمال المصانع، جاءت سرايا من الجنود حاملة النعوش، وفرق الخيالة مؤدية التحية، وفرق المدفعية وقد غطت مدافعها إلى الأبد بالألوان الحمراء والسوداء. وقد كتب على أعلامها: «عاشت الأممية الثالثة!» أو «نريد سلما ديموقراطيا شاملا صادقا».

وتقدمت المسيرة ببطء بنعوشها إلى مدخل المقبرة، وتسلق حاملو النعوش تلال التراب ونزلوا إلى الحفرة. وكان بينهم العديد من النساء، نساء عاملات قويات مربوعات القامة. ثم تقدم مزيد من النساء وراء النعوش، صبايا بلغن حد الانهيار، أو عجائز يصحن مثل حيوانات جريحة ويحاولن اللحاق بأبنائهن أو أزواجهن إلى «مقبرة الأخوة»، ويزعقن عندما تمتد الأيدي لتمنعهن. الفقراء يحبون بعضهم البعض كما لا أحد!

ظلت الجنازة تتوافد طوال النهار، قادمة من «البوابة الإيبيرية»، ومغادرة الساحة عن طريق شارع «نيكولسكايا»، نهرا من الأعلام الحمراء التي تحمل عبارات الأمل والأخوة والنبوءات المذهلة، يتدفق أمام حشد من حوالي خمسين ألف رجل وتحت أعين عمال العالم وأحفادهم إلا الأبد...

وأنزل خمسمائة نعش إلى الحفرتين الواحد تلو الآخر. وكان الغسق!... والأعلام ما تزال تتوالى منكسة أو خفَّاقة، والجوقة تعزف نشيد الموتى والجمهرة العظيمة تنشد. والأكاليل معلقة على أغصان الأشجار العارية من الورق، مثل أزهار غريبة متعددة الألوان. وبدأ حوالي مئتي رجل يردمون الحفرتين، فتساقط التراب فوق النعوش محدثا أصوات بكماء تُسمع بوضوح رغم الغناء.

انطفأت الأنوار. ومرت الأعلام الأخيرة وآخر النساء النائحات، اللواتي يلتفتن إلى الوراء بتوتر مريع. وأخذت الموجة البروليتارية تنحسر بطء عن الساحة الكبيرة.

وأيقنتُ فجأة أن الشعب الروسي المؤمن، لم يعد بحاجة إلى الكهنة ليعبِّدوا طريقه إلى السماء بالصلوات. إنه يبني على الأرض ملكوتا أكثر إشراقا من أي ملكوت تستطيع أن تَعِد السماء به، ملكوت يبلغ المجد من يموت في سبيله... (3)

==========

هوامش الفصل العاشر

1-الأضرار التي أصابت الكرملين

لقد تحققت بنفسي من الضرر الذي أصاب الكرملين عندما زرته بعد القصف مباشرة. «قصر نيقولاي الصغير» بناية ليس لها أهمية خاصة كان يُستخدم أحيانا لاستقبالات إحدى الأميرات الكبيرات، وقد أصبح ثكنة «للينكرز». هذا القصر لم يُقصف وحسب، ولكنه نُهب كذلك. ولكنه لم يكن يحتوي على أي شيء ذي قيمة تاريخية لحسن الحظ.

اخترقت قذيفة إحدى قباب «كاتدرائيات اوسبينسكي». وفيما عدا سقوط بضع قطع من الفسيفساء من السقف، لم تصب بأي أذى. وقد أحدثت قذيفة عطبا بالغا في جدرانيات بوابة «كاتدرائية بلاغوفيتشينسكي». كما أصابت قذيفة أخرى طرف «كاتدرائية ايفان فيليكي». وقُصف «دير تشولوفسكي» أكثر من ثلاثين مرة، إلا أن قذيفة واحدة دخلته من النافذة، بينما هدمت القذائف الأخرى حوافي النوافذ وإفريز السقف.

تحطمت الساعة فوق «بوابة سبكاسكايا». وتهدمت «بوابة ترويتسكي» ولكن يمكن ترميمها بسهولة. هذا بالإضافة إلى أن إحدى القلاع الدنيا فقدت قمتها المصنوعة من القرميد.

أما كنيسة «القديس باسيل» و«القصر الإمبراطوري الكبير»، الذي يحتوي قبوه على جميع كنوز بتروغراد وموسكو كما تحتوي خزينته على المجوهرات الملكية، فلم يُصابا بأي أذى.

==========

2- تصريح لوناتشارسكي

«أيها الرفاق! أنتم سادة هذا البلد الشباب، وبالرغم أن لديكم الكثير تفكرون فيه أو تعملونه، فأنتم قادرون على الدفاع عن كنوزكم الفنية والعلمية.

أيها الرفاق! إن ما حدث في موسكو لهو نكبة مروعة لا يمكن إصلاحها... إن الشعب، في نضاله من أجل استلام الحكم، قد شوه وجه عاصمتنا المجيدة.

إن تحمّل مسؤولية مفوضية الثقافة العامة في أيام الصراع العنيف والحرب المخربة هذه، لهو أمر مروّع. إن الأمل في انتصار الاشتراكية التي هي منبع ثقافة جديدة متفوقة، هو وحده الذي يجلب لي العزاء. إن مسؤولية حماية ثروة الشعب الفنية ترزح على كاهلي... ولكوني لا أستطيع البقاء في مركزي، حيث لم يكن لي أية سلطة، قدمت استقالتي. إلا أن رفاقي، المفوضين الآخرين، رفضوا الاستقالة.

لذا، سوف أبقى في مركزي... وبالإضافة إلى ذلك، فقد تبين لي أن الضرر الذي أصاب الكرملين ليس بالخطورة التي صوّرتها بعض التقارير...

ولكني أتوسل إليكم، أيها الرفاق، أن تساعدوني... حافظوا على جمال بلدكم من أجلكم ومن أجل أبنائكم. كونوا حراس ملكية الشعب.

قريبا، قريبا جدا، سوف يتسنى لأجهل الناس، للذين أبقي عليهم في الجهل مدة طويلة جدا، أن يستيقظوا ويفهموا إلى أي مدى يمكن للفن أن يكون مصدر غبطة وقوة وحكمة...»

==========

3- -قسمة للبرجوازيين

<table>
<tr><td colspan="3">الحي:
الرقم:
العنوان:</td><td colspan="2">الاسم:

الشهرة: المهنة:</td><td colspan="2">رقم لجنة المساكن:</td></tr>
<tr><td>الجنس</td><td>العمر</td><td colspan="5">الموجودات</td></tr>
<tr><td></td><td></td><td>النسيج</td><td>الكمية</td><td colspan="2">الألبسة الجاهزة</td><td>القطع</td></tr>
<tr><td colspan="2">المعدل الشهري</td><td rowspan="2">للملبوسات الداخلية

للبذلات

للمعاطف</td><td rowspan="2"></td><td colspan="2" rowspan="2">معاطف:
شتاء

صيف
خريف</td><td rowspan="2"></td></tr>
<tr><td>الداخل</td><td>المصروف</td></tr>
<tr><td colspan="2"></td><td rowspan="3"></td><td rowspan="3"></td><td colspan="2" rowspan="3">بذلات وقساطين
ثياب داخلية
أحذية

جَزمات</td><td rowspan="3"></td></tr>
<tr><td colspan="2">الإيجار الشهري</td></tr>
<tr><td>الشقة</td><td>الغرفة</td></tr>
<tr><td></td><td></td><td>أنواع أخرى</td><td></td><td colspan="2"></td><td></td></tr>
</table>

أنا الموقع أدناه أعلن أن الأرقام المبنية في الصفحة السابقة صحيحة وأني لم أستلم هذه البطاقة من مكان آخر.

التوقيع: .....

(توقيع المستأجر)

موسكو في 191
(ختم لجنة المساكن)

الفصل الحادي عشر

الاستيلاء على السلطة (1)

«بيان حقوق شعوب روسيا (2)

... في شهر حزيران (يونيو) من هذا العام، أعلن المؤتمر الأول للسوفييت حق شعوب روسيا في تقرير المصير.

وفي شهر تشرين الثاني (نوفمبر) المنصرم، أكد المؤتمر الثاني للسوفييت هذا الحق الأبدي لشعوب روسيا نهائيا وبحزم أكثر.

إن مجلس مفوضي الشعب، تنفيذا منه لإرادة هذين المؤتمرين، قد اعتمد المبادئ التالية كأساس لنشاطه في مسألة القوميات:

1- سيادة شعوب روسيا ومساواتها.

2- حق شعوب روسيا في تقرير مصيرها بحرية، إلى درجة السماح لها بالانفصال وتكوين دولة مستقلة.

3- إلغاء جميع الامتيازات والتقييدات القومية والدينية.

4- التطور الحر للأقليات القومية والمجموعات الإثنية التي تسكن الأرض الروسية.

وسوف تصدر المراسيم المتعلقة بذلك فور تشكيل لجنة القوميات.

باسم الجمهورية الروسي:
(مفوض الشعب لشؤون القوميات)
يوسف دجوغاشفيللي-ستاين
(رئيس مجلس مفوضي الشعب)
ف. اوليانوف- لينين

ورأسا أعلن مجلس الإدارة المركزي في «كييف» جمهورية أوكرانيا المستقلة، وحذت حذوه حكومة فنلندا بواسطة مجلس الشيوخ في هلسينغفورس. وانبثقت «حكومات» مستقلة في كل من سيبيريا والقوقاز. وبسرعة جمعت اللجنة العسكرية البولونية الرئيسية الجنود البولونيين في الجيش الروسي وألغت لجانهم وفرضت عليهم نظاما حديديا.

وكان يجمع بين كل هذه «الحكومات» و«الحركات» ميزتان مشتركتان: إنها تحت سيطرة الطبقات المالكة. وإنها تخشى البلشفية وتكرهها...

وسط فوضى التغيُّر المذهل. أخذ مجلس مفوضي الشعب يعمل بثبات على تشييد دعائم النظام الاشتراكي. فأصدر المراسيم عن الضمان الاجتماعي، والسيطرة العمالية، وأنظمة لجان الأرض في الأقضية وإلغاء الألقاب. وإلغاء المحاكم وإنشاء محاكم الشعب (3)...

وأخذ الجيش تلو الجيش، والأسطول، يرسل الوفود «لتحيي بفرح حكومة الشعب الجديدة».

وذات يوم، رأيت قبالة «سمولني» فوجا في حالة فوضى، قدم لتوه من الخنادق. كان الجنود مصطفين أمام البوابات الكبيرة، نحيلين وسود الوجوه، يتطلعون إلى البناية وكأن الله قد حل فيها. البعض يشير إلى النور الإمبراطورية ويقهقه... وخرج بعض الحراس الحمر ليأخذوا دورهم في الحراسة. فالتفت الجنود كلهم بفضول نحوهم وكانوا قد سمعوا عنهم ولكنهم لم يشاهدوهم قط. وأخذوا يضحكون بطيبة. ويغادرون الصفوف ليربتوا على ظهور الحراس الحمر مطلقين ملاحظات ممزوجة بالمزاح والإعجاب...

الحكومة المؤقتة لم تعد موجودة. وفي 15 تشرين الثاني (نوفمبر) توقف الكهنة عن الصلاة من أجلها في جميع كنائس العاصمة. ولكن «ليس هذا سوى بداية الاستيلاء على السلطة»، على حد قول لينين «للتسايكا». لقد جردت المعارضة من السلاح. إلا أنها ما زالت تسيطر على حياة البلد الاقتصادية. فأخذت تتعاون على خلق الفوضى مستغلة كل عبقرية الروس للعمل التعاوني، لتشل السوفييت وتعرقل عملها وتسيء إلى سمعتها.

وكان إضراب موظفي الحكومة منظما تنظيما حسنا، تموِّله المؤسسات المصرفية والتجارية. وجرت مقاومة لكل خطوة اتخذها البلاشفة للاستيلاء على الجهاز الحكومي.

ذهب تروتسكي إلى وزارة الشؤون الخارجية، فرفض الموظفون الاعتراف به وأقفلوا على أنفسهم في الغرف، ولما خلعت الأبواب قدموا استقالتهم. وطلب تسليمه مفاتيح الوثائق، فلم تعط له إلا بعد أن جاء بعمال ليحطموا الأقفال. ثم تبين أن نيراتوف، المساعد السابق لوزير الخارجية، قد اختفى حاملا معه الوثائق السرية.

وحاول شليابنيكوف أن يضع يده على وزارة العمل. كان البرد قارسا ولم يجد أحدا ليشعل له نارا. وبين مئات الموظفين لم يجد موظفا واحدا يدله على مكتب الوزير...

أما الكسندرا كولونتاي، التي عيَّنت في 13 تشرين الثاني (نوفمبر) مفوضة للإنعاش الاجتماعي، أي المؤسسة المسؤولة عن الأعمال الخيرية والمؤسسات العامة، فقد استقبلها موظفو وزارتها بإضراب شملهم جميعا، ما عدا أربعين واحدا فقط. وسرعان ما عمت الحاجة الملحة فقراء المدن الكبرى والمستفيدين من المؤسسات الخيرية، فأخذت وفود الكسيحين الجياع والأيتام ذوي الوجوه المزرقَّة المنكمشة يحاصرون البناية. فأمرت كولونتاي، والدموع تنحدر من عينها، باعتقال الموظفين حتى يسلموها مفاتيح المكتب والخزينة. ولما حصلت على المفاتيح، اكتشفت أن الوزيرة السابقة الكونتيسا بانينا قد هربت حاملة معها المال كله، رافضة تسليمه إلا بأمر من الجمعية التأسيسية.

وجرت حوادث مشابهة في وزارات الزراعة، والتموين والمالية. أما الموظفون الذين وجِّهت إليهم الدعوات للعودة إلى أعمالهم تحت طائلة خسارة مراكزهم وتعويضاتهم، فلم يعد القسم الأكبر منهم. أما القسم الذي عاد، فقد عاد ليخرب... وبما أن الانتلجنسيا كانت في معظمها معادية للبلاشفة، فلم تجد الحكومة السوفياتية قطاعا آخر من الشعب تأخذ منه الموظفين الجدد.

وظلت المصارف الخاصة مقفلة بعناد، فاتحة أبوابها الخلفية للمضاربين. وكان الموظفون يغادرون المكان عندما يدخلها المفوضون البلاشفة، حاملين معهم الوثائق والأموال. وأضرب جميع موظفي مصرف الدولة فيما عدا المسؤولين عن الخزانة وعن سك العملة، وقد رفض هؤلاء جميع طلبات «سمولني» في حين كانوا يدفعون المبالغ الضخمة، سرا، للجنة الإنقاذ ولمجلس دوما للمدينة.

وجاء أحد المفوضين رسميا مصطحبا معه سرية من الحرس الأحمر ليصر على تسلم مبالغ ضخمة لمصروفات الحكومة في مرتين متتاليتين. في المرة الأولى، كان أعضاء مجلس دوما المدينة وقادة المناشفة والاشتراكيين الثوريين، موجودين بأعداد كبيرة متكلمين عن العواقب الوخيمة التي قد تتأتى عن هذا العمل، فخاف المفوض وعاد من حيث أتى. وفي المرة الثانية، جاء ومعه مذكرة أخذ يتلوها على مسمع من الجميع، إلا أن أحدهم لفت انتباهه إلى أن المذكرة لا تحمل تاريخا ولا خاتما، فأجبره الاحترام الروسي التقليدي «للوثائق» على الانسحاب.

وأحرق موظفو مكتب المعاملات المالية جميع سجلاتهم. ففقدت بذلك جميع الوثائق عن العلاقات المالية بين روسيا والبلدان الأخرى.

أما بالنسبة للجان التموين، أي الإدارات المسؤولة عن المنافع العامة تملكها البلديات، فكانت متوقفة عن العمل أو أن العاملين فيها يخربونها. ولما حاول البلاشفة مساعدة مؤسسات الخدمات العامة أو إدارتها، تدفعهم إلى ذلك الحاجات الملحة لسكان المدن، أضرب الموظفون حالا وأغرق مجلس الدوما روسيا بأسرها بالربقيات عن انتهاك البلاشفة «لحرمة الحكم الذاتي البلدي».

في مقر القيادة وفي مكاتب وزارتي الحرب والبحرية، حيث قبل الموظفون القدامى بالعمل، كانت لجان الجيش والقيادة العامة تعرقل عمل السوفييت بجميع الوسائل المتوفرة لديها، وقد ذهبت إلى حد إهمال القوات في الجبهة. كانت «الفيكجل» (اللجنة المركزية لاتحاد عمال سكك الحديد) معادية، ترفض نقل القوات السوفييتية، فيضطر السوفييت إلى مصادرة قطارات نقل الجنود التي تغادر بتروغراد، واعتقال موظفي سكك الحديد في كل مرة، فتهدد «الفيكجل» بإضراب عام فوري إذا لم يفرج عنهم...

وكان واضحا أن «سمولني» عاجزة إلى حد كبير. وقالت الصحف أن مصانع بتروغراد ستغلق بعد ثلاثة أسابيع لعدم توفر المحروقات. وأعلنت «الفيكجل» أنه يجب إيقاف القطارات ابتداء من 1 كانون الأول (ديسمبر). الغذاء الموجود في بتروغراد يكفيها لثلاثة أيام وقد انقطعت الإمدادات. والجيش يجوع على الجبهة... وراسلت لجنة الإنقاذ واللجان المركزية المختلفة نداءات إلى جميع أنحاء البلاد تناشد المواطنين أن يتجاهلوا مراسيم الحكومة. أما سفراء دول الحلفاء، فكانوا لامبالين ببرودة، أو معادين علنا...

وكانت صحف المعارضة تحتجب يوما لتصدر في اليوم التالي بأسماء جديدة وتمطر النظام الجديد بوابل من السخرية الحادة (4). وحتى صحيفة «الحياة الجديدة» وصفت النظام بأنه «خليط من الديماغوجية والعجز». وقالت:

«يوما بعد يوم تغوص حكومة مفوضي الشعب أعمق فأعمق في مستنقعات التسرع السطحية. إن البلاشفة، وقد استولوا على الحكم بسهولة، يعجزون الآن عن استعماله...

وهم إلى جانب عجزهم عن إدارة الجهاز الحكومي الحالي، لا يستطيعون أن يخلقوا جهازا جديدا يعمل بسهولة وحرية حسب نظرياتهم الاجتماعية الاختبارية.

من مدة وجيزة لم يكن عند البلاشفة العدد الكافي من الرجال لإدارة حزبهم الآخذ في النمو، وهذا لم يكن يتطلب أكثر من المقدرة على الخطابة والكتابة، فأين إذا سيجدون الرجال المجربين ليتحملوا أعباء الحكم المتعددة والمعقدة؟

إن الحكومة الجديدة تعمل وتتوعد، وتغرق البلاد بمراسيم يكون الواحد منها أكثر جذرية وأكثر «اشتراكية» من السابق. ولكنها، في تبجحها بالاشتراكية –على الورق- الهادف على الأرجح إلى إذهال أحفادنا، لا تبدي الرغبة ولا المقدرة على حل المشاكل الراهنة والملحة!».

في ذلك الحين كانت ندوة «الفيكجل» من أجل قيام حكومة جديدة تواصل اجتماعاتها ليل نهار. وكان الطرفان قد اتفقا مبدئيا على أسس تشكيل الحكومة، والنقاش يدور الآن حول «مجلس الشعب». وجرى اختيار تشكيلة وزارية برئاسة تشيرنوف تقرر أن يدخلها البلاشفة، ولكن كأقلية كبيرة، شرط إقصاء لينين وتروتسكي. فاللجنة المركزية للمناشفة وللاشتراكيين الثوريين، واللجنة التنفيذية لسوفييت الفلاحين قررت أنها لن تعارض دخول البلاشفة إلى مجلس الشعب «لتفادي الاقتتال بين الإخوة»، رغم معارضتها الضارية «لسياسة البلاشفة الإجرامية».

إلا أن فرار كرنسكي، والنجاح الباهر الذي أحرزه السوفييت في كل المجالات، سرعان ما غيَّرا الوضع. في اجتماع «التسايكا» يوم 16 تشرين الثاني (نوفمبر)، أصر الاشتراكيون الثوريون على أن يشكل البلاشفة حكومة ائتلافية مع الأحزاب الاشتراكية الأخرى، وإلا اضطروا إلى الانسحاب من اللجنة العسكرية الثورية «والتسايكا». وقال ماكلين: «إن أنباء من موسكو، حيث يموت رفاقنا على جانبَي المتاريس، قد جعلنا نصمم على إعادة طرح مسألة تنظيم السلطة. وهذا ليس مجرد حق لنا وإنما هو واجب علينا كذلك... لقد اكتسبنا حق الجلوس مع البلاشفة، هنا، بين جدران سمولني والتكلم من أعلى هذا المنبر. وبعد الصراع الحزبي المرير سنضطر إلى الانتقال إلى المعركة العلنية في الخارج إذا رفضتم الاتفاق... علينا أن تقترح على القوى الديموقراطية شروط وفاق مقبولة...»

وبعد استراحة لمناقشة الموضوع، عاد البلاشفة بالقرار التالي الذي تلاه كامنييف:

«ترى «التسايكا» أنه من الضروري أن يضم إلى الحكومة ممثلون عن جميع الأحزاب الاشتراكية الموجودة في سوفييت مندوبي العمال والجنود والفلاحين التي تعترف بمكاسب ثورة السابع من تشرين الثاني (نوفمبر) –أي: بالسلطة السوفييتية، ومراسيم السلم، والأرض، وسيطرة العمال على الصناعة، وتسليح الطبقة العاملة. لذا، فإن «التسايكا» تقترح على جميع الأحزاب المتمثلة في السوفييت المباشرة بمفوضات لتشكيل حكومة جديدة، وتصر على أن تكون الشروط التالية أساسا لهذه المفاوضات:

-الحكومة مسؤولة تجاه التسايكا، التي يجري توسيعها إلى 150 عضوا. يضاف إلى ممثلي سوفييت مندوبي العمال والجنود المائة والخمسين 75 ممثلا عن منظمات سوفييت مندوبي الفلاحين في المحافظات، و80 عن منظمات الجبهة التابعة للجيش والبحرية، و40 عن النقابات (25 عن مختلف الاتحادات العامة، حسب أهميتها، و10 عن «الفيكجل» و5 عن موظفي البريد والبرق)، و50 ممثلا عن المجموعات الاشتراكية في مجلس بتروغراد البلدي. يجب إعطاء البلاشفة نصف مقاعد الوزارة على الأقل. بينها وزارات العمل والداخلية والخارجية. وتبقى قيادة حاميتي بتروغراد وموسكو بين أيدي مندوبين عن مجلسي سوفييت لموسكو وبتروغراد.
-تتولى الحكومة تسليح عمال روسيا.

-تقرَّر الإصرار على اشتراك الرفيقين لينين وتروتسكي في الوزارة».

وشرح كامنييف موقف البلاشفة قائلا: «سيتكون مجلس الشعب المزعوم الذي أنشأته الندوة، من 420 عضوا، بينهم 150 بلشفيا. وسينضم إليه مندوبون عن

التسايكا القديمة المعادية للثورة، و100 مندوب تختارهم مجالس الدوما البلدية وكلهم من جماعة كورنيلوف، و100 مندوب عن الفلاحين سيعينهم افاكسانتييف، و80 مندوب عن لجان الجيش القديمة التي لم تعد تمثل جماهير الشعب.

«إننا نرفض اشتراك التسايكا القديمة ومندوبي مجالس الدوما البلدية. إن مؤتمر الفلاحين، الذي دعوناه للانعقاد، هو الذي سينتخب المندوبين عن سوفييت الفلاحين كما سينتخب لجنة تنفيذية جديدة. إن الاقتراح بإقصاء لينين وتروتسكي هو اقتراح لشق الحزب ولذا فنحن نرفضه. أخيرا، إننا لا نجد أية ضرورة لوجود مجلس الشعب في أي حال، إن مجالس السوفييت مفتوحة أمام جميع الأحزاب الاشتراكية، والتسايكا تمثلهم حسب نسب تواجدهم الحقيقي في أوساط الجماهير...»

وأعلن كارپلين، باسم الاشتراكيين الثوريين اليساريين، أن حزبه سيصوّت إلى جانب قرار البلاشفة، محتفظا لنفسه بحق تعديل بعض التفاصيل كتمثيل الفلاحين والمطالبة بالاحتفاظ بوزارة الزراعة للاشتراكيين الثوريين اليساريين. فتم الاتفاق على ذلك...

وفيما بعد، في اجتماع سوفيت بتروغراد، أجاب تروتسكي على سؤال بشأن تشكيل الحكومة الجديدة، فقال: «إني لا أعرف شيئا عنه. لست مشتركا في المحادثات... إلا أني لا اعتبرها ذات أهمية بالغة على كل حال...»

في تلك الليلة، خيم انزعاج عظيم على الاجتماع. فانسحب مندوبو مجلس دوما المدينة...

أما في سمولني نفسها، فقد بدأت تنمو معارضة عنيفة لسياسة لينين داخل الحزب البلشفي. في ليلة 17 تشرين الثاني (نوفمبر) كانت القاعة الكبيرة مزدحمة والجو متوترا بانتظار اجتماع التسايكا.

وأعلن لارين، وهو بلشفي، أن موعد انعقاد الجمعية التأسيسية قد اقترب، وان الوقت قد حان للتخلي عن الإرهاب السياسي»:

«يجب تعديل الإجراءات التي اتخذت ضد حرية الصحافة. وإذا كان لهذه الإجراءات ما يبررها أيام الصراع، فقد زالت هذه المبررات الآن. يجب أن تكون الصحافة حرة إلا فيما يتعلق بالدعوات إلى المجازر والفتن».

واقترح لارين القرار التالي، وسط همهمة وعياط أفراد حزبه:

«يُعتبر مرسوم مفوضي الشعب حول الصحافة لاغيا من الآن فصاعدا.

لا يجود اتخاذ إجراءات القمع السياسي إلا بقرار من محكمة خاصة تنتخبها التسايكا حسب التمثيل النسبي للأحزاب المختلفة الموجودة، ويحق لهذه المحكمة أيضا إعادة النظر في إجراءات القمع التي اتخذت سابقا».

فاستقبل الاقتراح بعاصفة من التصفيق من الاشتراكيين الثوريين اليساريين ومن بعض البلاشفة.

فسارع أفانيسوف إلى الاقتراح، باسم اللينيين، أن يؤجل موضوع الصحافة إلى ما بعد الوصل إلى نوع من التسوية مع الأحزاب الاشتراكية الأخرى. فسقط الاقتراح بأغلبية ساحقة. فأكمل أفانيسوف قائلا: «أن الثورة القائمة الآن لم تتردد في التعرض للملكية الفردية، وعلينا أن ننظر إلى مسألة الصحافة على أنها مسألة ملكية فردية». ثم تلا القرار البلشفي الرسمي:

«إن إقفال الصحافة البرجوازية لم تفرضه المقتضيات العسكرية خلال الثورة ولا ضرورة وضع حد للنشاط المعادي للثورة وحسب، ولكنه ضروري أيضا كإجراء انتقالي نحو إنشاء نظام جديد للصحافة، نظام لا يسمح للرأسماليين مالكي المطابع والورق أن يصبحوا محتكري القدرة على توجيه الرأي العام.

وفيما عدا ذلك، علينا مصادرة المطابع وموارد الورق الخاصة، وتحويلها إلى ملكية للسوفييت، في العاصمة والمناطق، بحيث يتسنى للأحزاب والمجموعات السياسية أن تستعمل التسهيلات الطباعية حسب الوزن الفعلي للأفكار التي تمثل، وبكلمات أخرى حسب نسبة الناخبين التي تمتلك.

إن إعادة ما يسمى «حرية الصحافة»، أي الاكتفاء بإعادة المطابع والورق إلى الرأسماليين –مسمِّمي عقول الشعب- هو مجرد رضوخ لا نقبله لإرادة رأس المال، وتنازل عن أحد أهم مكاسب الثورة. وبكلمات أخرى سيكون إجراء لا يرقى شك إلى طبيعته المعادية للثورة.

عطفا على ما سبق، ترفض «التسايكا» بحزم جميع الاقتراحات الهادفة إلى إعادة العهد المباد في مجال الصحافة، وتعلن تأييدها المطلق لوجهة نظر مجلس مفوضي الشعب حول هذه المسألة ضد الادعاءات والتهديدات التي تمليها العُقد البرجوازية الصغيرة، أو يمليها الاستسلام الواضح لمصالح البرجوازية المعادية للثورة».

قوطعت تلاوة هذا الاقتراح بصيحات ساخرة من الاشتراكيين الثوريين اليساريين، وبفورات غضب من البلاشفة المتمردين. فانتصب كاريلين محتجا: «منذ ثلاثة أسابيع، كان البلاشفة من أشد المدافعين عن حرية الصحافة... إن الحجج الواردة في هذا القرار تعيد إلى الأذهان وجهة نظر منظمة المئات السوداء البائدة ومراقبي النظام القيصري –لأن هؤلاء كانوا يتحدثون أيضا هن «مسمِّمي عقول الشعب».

وتكلم تروتسكي مطولا مؤيدا الاقتراح. فميَّز بين الصحافة خلال الحرب الأهلية والصحافة بعد النصر: «خلال الحرب الأهلية يكون حق استعمال العنف بيد المضطهَدين فقط...» (صيحات: «من هو المضطهد الآن؟ همجي!»)

«إن انتصارنا على أعدائنا لم ينته بعد، وما تزال الصحف أسلحة في أيديهم. إن إغلاق الصحف، في هذه الظروف، هو دفاع مشروع عن النفس...» ثم انتقل تروتسكي إلى مسألة الصحافة بعد النصر فقال:

«إن موقف الاشتراكيين من مسألة حرية الصحافة يجب أن يكون مثل موقفهم من الاقتصاد الحر... إن الحكم الديموقراطي الذي يجري إنشاؤه الآن في روسيا يتطلب إلغاء سيطرة الملكية الفردية على الصحافة، تماما مثلما نلغي سيطرة الملكية الفردية على الصناعة... إن السلطة السوفييتية يجب أن تصادر جميع المطابع.» (صيحات: «صادروا مطابع البرافدا!»)

«يجب إلغاء احتكار البرجوازية للصحافة. وإلا فلا داع لأن نستلم الحكم! يجب أن تكون المطابع والورق في متناول جميع المواطنين... إن ملكية المطابع والورق يجب أن تؤول أولا بأول إلى العمال والفلاحين، ومن بعدهم إلى الأحزاب البرجوازية التي تشكل الأقلية... إن انتقال السلطة إلى أيدي السوفييت سوف يحدث تغييرا جذريا في ظروف الحياة الرئيسية، وسوف يتجلى هذا التغيُّر بالضرورة في الصحافة... إذا كنا سنؤمم المصارف، فهل سنتسامح مع الصحف التي تمولها المصارف؟ إن العهد المباد يجب أن يموت، هذا ما يجب أن نفهمه للمرة الأولى والأخيرة...» (الصفيق مصحوب بصيحات غاضبة).

وأعلن كاريلين أنه لا يحق للتسايكا أن تقر هذه المسألة الرئيسية التي يجب تركها وبشغف، أن تكون الصحافة حرة. للجنة خاصة. ثم طلب مجددا،

ثم جاء دور لينين الهادئ البارد، وكان جبينه يتجعد وهو يتكلم ببطء مختارا كلماته بعناية، فتنهال كل جملة كضربة مطرقة: «لم تنته الحرب الأهلية بعد، العدو ما زال موجودا...، وبالتالي يستحيل إلغاء إجراءات القمع ضد الصحافة.

«نحن البلاشفة قد صرحنا دوما بأننا سنغلق الصحافة البرجوازية عندما نصل إلى الحكم. إن السماح وجود الصحف البرجوازية يعني التخلي عن الاشتراكية. ما أن تقوم الثورة حتى يستحيل عليها الجمود في مكانها. فإما أن تتقدم وإما أن تتقهقر. إن الذي يتكلم الآن عن حرية الصحافة يتقهقر، ويعيق مسيرتنا نحو الاشتراكية.

«لقد خلعنا نير الرأسمالية، مثلما خلعت الثورة الأولى نير القيصرية. وإذا كان يحق للثورة الأولى أن تقمع الصحف الملكية، يحق لنا إذا أن نقمع الصحافة البرجوازية. يستحيل فصل مسألة حرية الصحافة عن مسائل الصراع الطبقي الأخرى. لقد وعدنا بإغلاق هذه الصحف وسوف نفي بوعدنا. إن غالبية الشعب الساحقة تقف إلى جانبنا!

«الآن وقد انتهت الانتفاضة، فإننا لا نرغب مطلقا بقمع صحف الأحزاب الاشتراكية الأخرى إلا بمقدار ما ندعو إلى الثورة المسلحة، أو إلى عصيان الحكومة لسوفييتية. إلا أننا لن نسمح لهم أن يستغلوا وجود حرية الصحافة الاشتراكية فيحتكرون المطابع والحبر والورق بدعم سري من البرجوازية... إن هذه الحاجيات الأساسية يجب أن تصبح ملكا للحكومة السوفييتية التي تتولى توزيعها على الأحزاب الاشتراكية حسب قوتها الانتخابية...»

وجرى التصويت. فهزم اقتراح لارين والاشتراكيين الثوريين اليساريين بـ 31 صوتا مقابل 22، ونجح اقتراح لينين بـ 34 صوتا مقابل 24. وانضم البلشفيان ريازانوف ولوزوفسكي إلى صفوف الأقلية، معلنين أنه يستحيل عليهما التصويت مع أي تقييد لحرية الصحافة.

عند ذاك، أعلن الاشتراكيون لثوريون اليساريون أنهم لم يعودوا مسؤولين عما جرى بعد ذلك الوقت، وانسحبوا من اللجنة العسكرية الثورية وجميع المسؤوليات التنفيذية الأخرى.

واستقال خمسة أعضاء من مجلس مفوضي الشعب، وهم: نوغين، ريكوف، مليوتين، تيودوروفيتش، وشليابنيكوف معلنين:

«إننا نؤيد قيام حكومة اشتراكية تضم جميع الأحزاب الممثلة في السوفييت. ونعتبر أن قيام مثل هذه الحكومة هو الضمان الوحيد لمكاسب النضال البطولي الذي خاضته الطبقة العاملة والجيش الثوري. أما الاحتمال الوحيد المتبقي، في حال عدم قيام هذه الحكومة، فهو تشكيل حكومة بلشفية صرفة بواسطة الإرهاب السياسي. وهذا هو الخط الذي يسير عليه مجلس مفوضي الشعب. إننا لا نستطيع ولا نرضى السير فيه، لأننا نرى أنه سيؤدي مباشرة إلى إقصاء عدة منظمات بروليتارية عن الحياة السياسية، وإلى قيام نظام غير مسؤول، وإلى خراب الثورة والوطن. إننا نرفض تحمل مسؤولة مثل هذه السياسة، ونتخلى أمام التسايكا عن مسؤولياتنا كمفوضين للشعب».

وانضم إليهم مفوضون آخرون في توقيع هذا البلاغ، ولكن دون أن يستقيلوا من مناصبهم: ريازانوف، دربيتشيف من قسم الصحافة، اربوزوف من المطبعة

الحكومية، يورينييف عن الحرس الأحمر، فيودوروف عن مفوضية العمل، ولارين أمين سر مكتب وضع مشاريع القوانين.

وفي الوقت ذاته، استقال كامنييف وريكوف ومليوتين وزينوفييف ونوغين من اللجنة المركزية للحزب البلشفي، معلنين عن الأسباب التي دعتهم على ذلك:

«... إن تشكيل مثل هذه الحكومة (المكونة من جميع الأحزاب الموجودة في السوفييت) هو شرط لا غنى عنه للحيلولة دون تجدد إراقة الدماء، وهجوم المجاعة، وسحق جماعة خالدين للثورة، ولتأمين انعقاد الجمعية التأسيسية في الموعد المقرر، والتطبيق الصحيح للبرنامج لذي تبنَّاه مؤتمر السوفييت.

إننا لن نتحمل مسؤولية السياسة الهوجاء التي تسلكها اللجنة المركزية ضد إرادة غالبية ضخمة من البروليتاريا والجنود الذين يتوقون إلى وضع حد سريع لإراقة الدماء بين مختلف الأحزاب السياسية الديموقراطية... إننا نعلن تخلينا عن عضوية اللجنة المركزية لكي يتسنى لنا أن نتكلم علنا إلى جماهير العمال والجنود...

إننا نغادر اللجنة المركزية في لحظة النصر، لأننا نرفض الوقوف مكتوفي الأيدي بينما تؤدي سياسة قادة اللجنة المركزية إلى خسارة ثمار النصر وإلى سحق البروليتاريا...»

جماهير العمال وجنود الحامية تموج وترسل وفودا عنها إلى سمولني وإلى ندوة تشكيل الحكومة الجديدة حيث استقبل الانشقاق في صفوف البلاشفة بفرح عظيم.

إلا أن جواب اللينيين جاء سريعا وحاسما. فانصاع شليابنيكوف وتيودوروفيتش إلى الانضباط الحزبي وعادا إلى مراكزهما. وجرَّد كامنييف من صلاحيته كرئيس التسايكا، وانتخب سفيردلوف محله. كما جرد زينوفييف من رئاسة سوفييت بتروغراد. وفي صباح الخامس من كانون الأول (ديسمبر)، صدرت «البرافدا» حاملة نداء حارا إلى شعب روسيا بقلم لينين، طبعت منه مئات الآلاف من النسخ وألصق على الجدران في كل مكان، ووزع في جميع أنحاء روسيا:

«إن المؤتمر العام للسوفييت أعطى الأغلبية للبلاشفة. لذا، فإن الحكومة التي يشكلها هذا الحزب هي وحدها الحكومة السوفييتية. والجميع يعلم أن اللجنة المركزية للحزب البلشفي دعت ثلاثة من القادة البارزين في المجموعة الاشتراكية الثورية اليسارية وهم الرفاق كامكوف وسبيرو وكاريلين قبل ساعات من تشكيل الحكومة الجديدة وقبل اقتراح قائمة أعضاءها على مؤتمر السوفييت العام. وطلبت منهم الاشتراك في الحكومة الجديدة. وأنه ليؤسفنا أن يكون الرفاق المدعوون قد رفضوا الطلب لأننا نعتبر أن مثل هذا الرفض لا يليق بثوريين مدافعين عن الطبقة العاملة. إننا على استعداد لإشراك الاشتراكيين الثوريين اليساريين في الحكومة في أي وقت. ولكن، بوصفنا الحزب الذي يتمتع بالأغلبية في المؤتمر العام الثاني للسوفييت، نعلن أننا نحن الذين يحق لهم تشكيل الحكومة، لا بل أننا ملزمون تجاه الشعب بتشكيلها.

... أيها الرفاق! إن عدة أعضاء من اللجنة المركزية لحزبنا ومجلس مفوضي الشعب قد استقالوا من هاتين الهيئتين يوم امس في 17 تشرين الثاني (نوفمبر). فاستقال زينوفييف وكامنييف من اللجنة المركزية بينما استقال نوغين وريكوف ومليوتين وغيرهم من مجلس مفوضي الشعب...

إن الرفاق الذين تركوا قد تصرفوا كمرتدين لأنهم لم يهجروا المراكز التي ائتمنوا عليها وحسب، وإنما عصوا كذلك التعليمات الصريحة التي صدرت عن اللجنة المركزية لحزبنا القاضية بأن ينتظروا قرارات منظمات الحزب في بتروغراد

وموسكو قبل أن ينسحبوا. إننا نشجب مثل هذه الردة بعنف. ونحن على يقين من أن جميع العمال والجنود والفلاحين المنتمين إلى حزبنا أو المناصرين له سوف يشاركوننا في شجب تصرف المرتدين...

تذكروا، أيها الرفاق، أن اثنين من هؤلاء المرتدين، زينوفييف وكامنييف، قد تصرفا كمرتدين ومخربين حتى قبل انتفاضة بتروغراد، إذ صوّتا ضد الثورة في الاجتماع الحاسم للجنة المركزية يوم 23 تشرين الثاني (نوفمبر)، حتى أنهما بعد أن أقرت اللجنة المركزية الاقتراح واصلا حملتهما في اجتماع لمناضلي الحزب... إلا أن الاندفاع العظيم عند الجماهير، والبطولة الرائعة التي أظهرها ملايين العمال والجنود والفلاحين في بتروغراد وموسكو وفي الجبهة والخنادق والقرى، ما لبثت أن أزاحت هؤلاء المرتدين جانبا مثلما يبعثر القطار ذرات الغبار...

عار على ضعيفي الإيمان والمترددين والمتشككين الذين يسمحون للخوف من البرجوازية أن يتسلل إلى قلوبهم، أو الذين يرضخون أمام صيحات عملائهما المباشرين أو غير المباشرين! إن جماهير بتروغراد وموسكو وسائر روسيا لا تعرف ذرة من التردد...

... إننا لن نرضخ لأية إنذارات تصدر عن مجموعات من المثقفين المعزولين عن الجماهير، والذين لا يحظون عمليا إلا بدعم جماعة كورنيلوف وسافينكوف و«الينكرز» ومن كان على شاكلتهم...»

وجاء جواب البلد كله مثل لهيب عاصفة حارة. كانت هذه المرة الأولى التي يتكلم فيها الثوار «بصراحة إلى جماهير العمال والجنود». فانهالت على التسايكا زوبعة من الشجب الشعبي «للمرتدين». وظلت «سمولني» تغص طوال أيام بوفود ولجان غاضبة توافدت إليها من الجبهة، ومن منطقة «الفولغا» ومصانع بتروغراد: «لماذا تجرأوا على ترك الحكومة؟ هل قبضوا الأموال من البرجوازية لينسفوا الحكومة؟ يجب أن يعودوا وينصاعوا لقرارات اللجنة المركزية!»

وكانت حامية بتروغراد وحدها المترددة. فعقد اجتماع كبير للجنود في 24 تشرين الثاني (نوفمبر) تكلم فيه مندوبون عن جميع الأحزاب السياسية. وقد أقرت سياسة لينين بأغلبية كبيرة، وطلب من الاشتراكيين الثوريين اليساريين الاشتراك في الحكومة (5)...

ووجه المناشفة آخر إنذار لهم مطالبين بالإفراج عن جميع الوزراء و«الينكرز»، وبإطلاق حرية الصحافة كاملة، وتجريد الحرس الأحمر من السلاح ووضع الحامية تحت إشراف مجلس الدوما. فأجابت «سمولني» على ذلك مؤكدة أنه قد أطلق سراح جميع الوزراء الاشتراكيين ومعظم «الينكرز»، وأن الحرية ممنوحة لجميع الصحف فيما عدا الصحف البرجوازية وأن السوفييت سيظل يشرف على القوات المسلحة... وفي 19 تشرين الثاني (نوفمبر) تفرقت ندوة تشكيل الحكومة الجديدة، واتجه أفراد المعارضة الواحد تلو الآخر إلى «موغيلييف» حيث ظلوا يشكلون الحكومة تلو الحكومة برعاية القيادة العامة حتى قضي عليهم جميعا...

في ذلك الحين، كان البلاشفة يجردون «الفيكجل» من سلطتها، فصدر نداء عن سوفييت بتروغراد إلى جميع عمال سكك الحديد يطالبهم بإجبار «الفيكجل» على التخلي عن سلطتها. وفي الخامس عشر من الشهر نفسه، عملت «التسايكا» بالنسبة لعمال سكك الحديد ما عملته بالنسبة للفلاحين. فدعت إلى مؤتمر عام لعمال سكك الحديد في 1 كانوا الأول (ديسمبر). ردت «الفيكجل» فورا بالدعوة إلى مؤتمر لها ينعقد بعد أسبوعين من ذلك التاريخ. وفي 16 تشرين الثاني (نوفمبر) احتل أعضاء «الفيكجل» مقاعدهم في «التسايكا». وفي جلسة افتتاح المؤتمر العام لعمال سكك

الحديد، ليلة الثاني من كانون الأول (ديسمبر)، عرضت «التسايكا» رسميا على «الفيكجل» مفوضية الطرق والمواصلات فقبلتها...

وبعد أن انتهى البلاشفة من مسألة السلطة، وجهوا اهتمامهم إلى مسائل الإدارة العملية. قبل أي شيء آخر، كان يجب إطعام المدينة والريف والجيش. فأخذت فرق من البحارة والحرس الأحمر تغزو المخازن ومحطات سكك الحديد وحتى القوارب فتجد وتصادر الأطنان من المواد الغذائية التي خبأها المضاربون. وأرسل مندوبون إلى المناطق حيث استولوا على مخازن كبار تجار الحبوب بالتعاون مع لجان الأرض. وأرسلت بعثات من البحارة المدججين بالسلاح، في مجموعات من خمسة آلاف رجل للواحدة، إلى الجنوب وسيبيريا للاستيلاء على المدن التي ما تزال بين أيدي الحرس الأبيض، ولتوطيد الأمن، وجلب الطعام. وأوقفت قطارات المسافرين على الخط الحديدي عبر سيبيريا طوال أسبوعين أرسل خلالهما ثلاثون قطارا محملا بالثياب والأقمشة وقضبان الحديد التي جمعتها لجان المتاجر والمصانع، متوجهين شرقا وعلى رأس كل منها مفوض ليقاضوا بها فلاحي سيبيريا مقابل الحبوب والبطاطا.

وأصبحت مسألة المحروقات مسألة ملحة لأن خالدين كان يسيطر على مناجم الفحم في منطقة الدون. فقطعت سمولني الكهرباء عن المسارح والمتاجر والمطاعم، وخفضت عدد السيارات العمومية وصادرت مستودعات الحطب التي يملكها تجار المحروقات... ولما أشرفت مصانع بتروغراد على الإغلاق لافتقارها إلى الفحم، أرسل بحارة أسطول البلطيق أربعة آلاف طن من الفحم من عنابر الأسطول...

وحدثت عمليات نهب أقبية الخمر في أواخر تشرين الثاني (نوفمبر)، مبتدئة بنهب أقبية قصر الشتاء (6). طوال أيام كانت الشوارع مليئة بالجنود السكارى... وتبين أن أعداء الثورة يقفون وراء هذا كله، فهم الذين وزعوا على الأفواج خرائط أقبية الخمر. وبدأ مفوضو «سمولني» بالرجاء والنقاش فلم يساعد ذلك على الحد من الفوضى المتزايدة، فعقب ذلك معارك ضارية بين الجنود والحرس الأحمر... وأخيرا، أرسلت اللجنة العسكرية الثورية سرايا من البحارة المزودين بالرشاشات، فأطلقوا النار بلا هوادة على المشاغبين وقتلوا العديد منهم، ثم صدرت الأوامر باجتياح أقبية الخمر، فدخلها أعضاء اللجان بفؤوسهم يحطمون الزجاجات أو ينسفون الأقبية بالديناميت (7).

وأخذت سرايا الحرس الأحمر، المنضبطة والتي تتناقض أجورا مرتفعة، تحل محل الميليشيا في حراسة منظمات سوفييت الأحياء ليلا نهارا. وانتخب العمال والجنود «محاكم ثورية» صغيرة في جميع أحياء المدينة لتتولى النظر في الجرائم الصغيرة...

وحاصر الحرس الأحمر الفنادق الكبيرة حيث يمارس المضاربون أعمالهم، وساقوهم إلى السجون (8).

وبحذر وريبة، حوَّلت الطبقة العاملة نفسها في المدينة إلى جهاز تجسس واسع من خلال تنصت الخدم على ما يدور في المنازل البرجوازية ونقل جميع المعلومات إلى اللجنة العسكرية الثورية التي تضرب بيد من حديد وبدون رحمة. وبهذه الطريقة، جرى اكتشاف المؤامرة الملكية بقيادة بوريشكيفيتش، العضو السابق في مجلس الدوما، ومجموعة من النبلاء والضباط للقيام بانقلاب عسكري. وكانوا قد بعثوا برسالة إلى خالدين يدعونه فيها للتوجه إلى بتروغراد... وبهذه الطريقة أيضا، اكتشفت مؤامرة الكاديت الذين كانوا يرسلون المال والمتطوعين إلى خالدين.

وفزع نيراتوف من الغضبة الشعبية التي أثارها هربه، فعاد وسلّم المعاهدات السرية لتروتسكي الذي شرع في نشرها على صفحات «البرافدا» يهز بها العالم...

وازدادت القيود على الصحافة بصدور مرسوم يجعل الإعلانات احتكار للصحيفة الحكومية الرسمية فتوقت جميع الصحف الأخرى احتجاجا، أو هي خرقته فأغلقت... ولم ترضخ إلا بعد ثلاثة أسابيع.

واستمر الإضراب في الوزارات، والتخريب الذي يقوم به الموظفون القدماء، وعرقلة الحياة الاقتصادية الطبيعية. ولم يكن يقف وراء «سمولني» إلا إرادة الجماهير الشعبية الواسعة غير المنظمة، فاتجه إليها مجلس مفوضي الشعب متوليا قيادة العمل الجماهيري الثوري ضد أعدائه. وأخذ لينين يوضح أهداف الثورة، في بنايات بليغة مكتوبة بلغة بسيطة وزّعت في كل أنحاء روسيا، مناشدا الشعب استلام السلطة وسحق مقاومة الطبقات المالكة والاستيلاء على المؤسسات الحكومية بالعنف. الأمن الثوري! الانضباط الثوري! مراقبة دقيقة! لا إضرابات! لا تكاسل! (7).

وفي 20 تشرين الثاني (نوفمبر)، أصدرت اللجنة العسكرية الثورية الإنذار التالي: «الطبقات الغنية تقاوم سلطة السوفيت المتمثلة في حكومة العمال والفلاحين والجنود. وأنصارها يعرقلون عمل موظفي الحكومة ومجلس الدوما، ويحرضون المصارف على الإضراب، ويحاولون قطع الاتصالات، أكانت في سكك الحديد أو البريد والبرق...

إننا نحذرهم بأنهم يلعبون بالنار. البلد وجيشه مهددان بالمجاعة. لذا فإن العمل المنتظم لجميع الدوائر ضروري جدا لمواجهة هذه المجاعة. إن حكومة العمال والفلاحين قد انتخبت كل إجراء لازم لتأمين ما يحتاجه البلد والجيش. وأن معارضة هذه الإجراءات جريمة ضد الشعب. إننا ننذر الطبقات الغنية وأنصارها بأنهم سيكونون أول من يتأذى إذا لم يقلعوا عن أعمال التخريب والتحريض هذه. سوف يحرمون من حق استلام الغذاء، وسوف تصادر جميع مخزوناتهم كما سوف تصادر ملكيات كبار المجرمين بينهم.

لقد قمنا بواجبنا في تحذير الذين يلعبون بالنار.

ونحن على يقين بأن العمال والجنود والفلاحين سوف يمنحوننا كل دعمهم عندما يصبح من الضروري اتخاذ الإجراءات الحاسمة»(8).

وفي 22 تشرين الثاني (نوفمبر)، ألصق على جميع جدران المدينة «البلاغ الاستثنائي» التالي نصه:

«لقد تلقى مجلس مفوضي الشعب برقية مستعجلة من قيادة الجبهة الشمالية، هذا نصها:

لا تتأخروا علينا أكثر مما حصل حتى الآن. لا تتركوا الجيش يموت من الجوع. إن جيوش الجبهة الشمالية لم تستسلم كسرة خبز واحدة منذ عدة أيام. وبعد يومين أو ثلاثة سينفذ ما لدينا من كعك يوزع حاليا على الجنود من الاحتياطي المخزون الذي لم يمس قبل الآن... لقد بدأ مندوبون عن جميع قطاعات الجبهة يبحثون الضرورة الملحة لنقل جزء من الجيش إلى المؤخرة، استباقا لما قد يحدث بعد بضعة أيام من عمليات هرب جماعية يقوم بها الجنود الذين يموتون من الجوع، الذين حطمتهم ثلاث سنوات من العيش في الخنادق، هؤلاء المرضى، الذين لا يملكون الكساء الكافي، الحفاة، الذين يدفعون إلى الجنون تحت وطأة بؤس لا يطاق.

إن اللجنة العسكرية الثورية تلفت نظر حامية بتروغراد وعمالها إلى هذا. إن الوضع في الجبهة يتطلب الإجراءات العاجلة الحاسمة... ورغم ذلك، فإن الموظفين الكبار في المؤسسات الحكومية والمصارف وسكك الحديد والبريد والبرق مضربون يعرقلون عمل الحكومة في تزويد الجبهة بالإمدادات... إن كل ساعة تأخير قد تؤدي إلى هلاك آلاف الجنود. إن الموظفين المعادين للثورة هم أشنع المجرمين بحق إخوانهم الجائعين والمحتضرين في الجبهة...

إن اللجنة العسكرية الثورية توجه لهؤلاء المجرمين الإنذار الأخير. وفي حال أية معارضة أو مقاومة تبدر منهم، فإن قساوة الإجراءات التي ستتخذ بحقهم سوف تكون بمستوى شناعة جريمتهم...»

واستجاب العمال والجنود بموجة غضب وحشية عمت روسيا بأسرها. فأصدر موظفو الحكومة والمصارف، في العاصمة، مئات البلاغات والنداءات محتجين، مدافعين عن أنفسهم. وهذه واحدة منها:

«إلى جميع المواطنين...

مصرف الدولة مقفل! لماذا؟

لأن العنف الذي مارسه البلاشفة ضد مصرف الدولة جعل عملنا مستحيلا. كان أول عمل قام به مفوضو الشعب أنهم طلبوا عشرة ملايين روبل. وفي 27 تشرين الثاني (نوفمبر) طلبوا خمسة وعشرين مليون أخرى دون أن يقدموا أي دليل على طريقة صرف هذا المال...

نحن الموظفين نرفض الاشتراك في نهب ملكية الشعب. ولهذا توقفنا عن العمل.

أيها المواطنون: إن المال المودع في مصرف الدولة هو لكم، انه مال الشعب، حصلتم عليه بعملكم، بعرقكم ودمكم. أيها المواطنون! أنقذوا ملكية الشعب من السرقة، وأنقدونا من العنف، فنعود إلى عملنا حالا.

موظفو مصرف الدولة»

وأصدر موظفو وزارتي التموين والمالية ولجنة التموين الخاصة بلاغات تقول أن اللجنة العسكرية الثورية أوجدت ظروفا يستحيل عليهم العمل في ظلها، وتطالب السكان بدعمهم ضد «سمولني»... إلا أن غالبية العمال والجنود لم تصدقهم، فقد كان الرأي العام الشعبي على يقين من أن الموظفين يخربون ويجوِّعون الجيش والشعب... وفي طوابير الإعاشة الطويلة التي أخذت تحتشد في الطرق الشتوية القارسة. لم يكونوا يلومون الحكومة، مثلما كان الحال أيام كرنسكي، وإنما كانوا يلومون موظفي الدولة والمخرِّبين، لأن الحكومة هي حكومتهم، والسوفييت سوفييتهم، وموظفو الوزارات هم أعداء هذه الحكومة...

كان مجلس الدوما ومنظمته المقاتلة ومنظمته المقاتلة –لجنة الإنقاذ- يقف وراء كل هذه المعارضة، محتجا على جميع مراسيم مجلس مفوضي الشعب، مقررا المرة تلو الأخرى عدم الاعتراف بالحكومة السوفييتية، متعاونا علنا مع «الحكومات» الجديدة المعادية لثورة التي تتشكل في «موغلييف». ففي 17 تشرين الثاني (نوفمبر) مثلا، توجهت لجنة الإنقاذ إلى «جميع الحكومات البلدية والزيميستوفات وجميع المنظمات الديموقراطية والثورية التابعة للعمال والجنود والفلاحين وسائر المواطنين» بهذه الكلمات:

«لا تعترفوا بحكومة البلاشفة، ناضلوا ضدها.

من اللجان المحلية لإنقاذ الوطن والثورة التي ستوحد جميع القوى الديموقراطية لمساعدة لجنة الإنقاذ لعموم روسيا في المهمات التي حددتها لنفسها...»

في ذلك الحين، كانت انتخابات الجمعية التأسيسية قد أعطت البلاشفة أغلبية كبيرة في بتروغراد، فأجبر حتى المناشفة الأمميون على المطالبة بإعادة انتخاب مجلس الدوما لأنه لم يعد يمثل تركيب الرأي العام السياسي لسكان بتروغراد (9). وفي الوقت ذاته، تدفق على مجلس الدوما سيل من المقررات الصادرة عن المنظمات العمالية والوحدات العسكرية وحتى عن الفلاحين في الريف المجاور، ناعتة أعضاءه بأنهم «كورنيلوفيون معادون للثورة»، مطالبة باستقالتهم. كانت أيام الدوما الأخيرة عاصفة: فقد طالب عمال البلدية بمرارة بأجور تكفي لحياة كريمة مهددين بالإضراب...

في 23 تشرين الثاني (نوفمبر)، صدر مرسوم رسمي عن اللجنة العسكرية الثورية يعلن حل لجنة الإنقاذ. وفي 29 منه، أمر مجلس مفوضي الشعب بحل مجلس الدوما في بتروغراد وإعادة انتخابه:

«نظرا لأن مجلس الدوما المركزي في بتروغراد الذي انتخب في 2 أيلول (سبتمبر)... لم يعد يمثل سكان بتروغراد لتعارضه مع آرائهم وتطلعاتهم... ونظرا لأن أعضاء الأغلبية في مجلس الدوما، رغم أنهم يفتقدون أي أتباع سياسيين، ما زالوا يستعملون صلاحيات الدوما ليقاموا، بطريقة معادية للثورة، إرادة العمال والجنود والفلاحين، ليخربوا ويعرقلوا عمل الحكومة االطبيعي، فإن مجلس مفوضي الشعب يعتبر من واجبه أن يدعو سكان العاصمة إلى محاكمة سياسية الجهاز الممثل للحكم الذاتي البلدي.

لهذه الغاية، يقرر مجلس مفوضي الشعب ما يلي:

1- يحل مجلس الدوما البلدي ابتداء من 20 تشرين الثاني (نوفمبر) 1917.

2- يبقى جميع الموظفين المنتخبين أو المعنيين من قبل مجلس الدوما الحالي في مراكزهم لتصريف الأعمال حتى يحل محلهم ممثلو مجلس الدوما الجديد.

3- يستمر جميع مستخدمي البلدية بالقيام بمهماتهم، والذين يغادرون الخدمة باختيارهم يعتبرون مفصولين.

4- يحدد يوم كانون الأول (ديسمبر) 1917 موعدا للانتخابات الجديدة لمجلس الدوما البلدي في بتروغراد.

5- يجتمع مجلس الدوما البلدي في بتروغراد يوم 11 كانون الأول (ديسمبر) 1917 في الساعة الثانية.

6- إن الذين يعصون ما ورد في هذا المرسوم، والذين يسيئون عن قصد إلى ملكية البلدية أو يخربونها، سوف يعتقلون فورا ويقدمون للمحاكم الثورية...

اجتمع مجلس الدوما متحديا قرار الحل، وأصدر قرارات تقول أنه سيحافظ على موقعه حتى آخر قطرة من دمه»، وتضرع إلى السكان لينقذوا «حكومة مدينتهم التي انتخبوها بأنفسهم». إلا أن السكان كانوا لامبالين أو معادين. في 31 تشرين الثاني (نوفمبر) اعتقل رئيس البلدية شرايدر وبضعة أعضاء آخرين، وحقق معهم ثم أفرج عنهم. وواصل مجلس الدوما اجتماعاته في ذلك اليوم وفي اليوم الذي

تلاه، يقطعها عليهم مرارا الحرس الأحمر والبحارة الذين يطلبون من المجتمعين بأدب أن يتفرقوا. وفي اجتماع يوم 2 كانون الأول (ديسمبر)، دخل ضابط وبضعة بحارة إلى قاعة نيقولاي بينما كان أحد الأعضاء يلقي خطابا، وأمر المجتمعين بمغادرة القاعة وإلا اضطر لاستعمال العنف. ففعلوا ذلك بعد أن أعلن كل منهم احتجاجه، ثم «رضخوا للقوة»...

وكان مجلس الدوما الجديد، الذي انتخب بعد عشرة أيام، يكاد يقتصر على البلاشفة وحدهم، ذلك أن الاشتراكيين «المعتدلين» قاطعوا الانتخابات.

لم تزل هناك عدة مراكز معارضة خطرة، «كجمهوريتي» أوكرانيا وفنلندا اللتين كانتا تحملان اتجاهات واضحة في عدائها للسوفييت. وكانت الحكومتان، في هلسنغفورس وكييف، تجمعان قوات يمكن الاعتماد عليها وتخوضان حملات لسحق البلاشفة وتجريد القوات الروسية من أسلحتها وطردها. مجلس «الرادا» الأوكراني يسيطر على روسيا الجنوبية كلها ويقدم لخالدين الإمدادات والمؤن. أوكرانيا وفنلندا تفاوضان الألمان سرا، وقد اعترفت حكومات الحلفاء بهما فورا، وأخذت تمدهما بكميات كبيرة من المال لعملهما المشترك مع الطبقات المالكة من أجل إنشاء بؤر معادية للثورة تتولى الهجوم على روسيا السوفييتية. وفي النهاية، عندما انتصرت البلشفية في كلا البلدين، استنجدت البرجوازية المهزومة بالألمان لتعود إلى الحكم...

إلا أن الخطر الأعظم ضد الحكومة السوفييتية كان داخليا وذا راسين: حركة خالدين من جهة، والقيادة العامة في «موغلييف» التي يتراسها الجنرال دوخونين، من جهة ثانية.

وعيِّن مورافيوف النشيط قائدا للعمليات ضد القوزاق، وبدأ تكوين جيش أحمر من بين عمال المصانع. أرسل المئات من الدعاة إلى منطقة «الدون»، وأصدر مجلس مفوضي الشعب نداء إلى القوزاق يشرح فيه طبيعة الحكومة السوفييتية، وكيف تحاول الطبقات المالكة وموظفو الحكومة، وملاّك الأرض، وأصحاب المصارف وحلفاؤهم، وأمراء القوزاق والجنرالات تصفية الثورة، والحيلولة دون مصادرة الشعب لثروته.

في 27 تشرين الثاني (نوفمبر)، جاء وفد من القوزاق لمقابلة تروتسكي ولينين. وسأل أعضاؤه إذا كان صحيحا أن الحكومة السوفييتية تنوي توزيع أراضي القوزاق على فلاحي روسيا الكبرى. فأجاب تروتسكي بالنفي. وتشاور القوزاق فيما بينهم لمدة، ثم سألوا: «حسنا، هل تنوي الحكومة السوفييتية أن تصادر مزارع الملاك القوزاق الكبار وتوزعها على القوزاق الكادحين؟» فأجاب لينين: «هذا ما عليكم أن تقوموا به أنتم. نحن سندعم القوزاق الكادحين في جميع أعمالهم... وأفضل طريقة للبدء هي تشكيل سوفييت للقوزاق، فيجري تمثيلكم في «التسايكا»، وتصبح الحكومة آنذاك حكومتكم كذلك...»

وذهب القوزاق وهم مشغولون بالتفكير. وبعد أسبوعين استقبل الجنرال خالدين وفدا يمثل جنود جيشه، وسأل الوفد: «هل تعدنا بأن توزع المزارع الكبيرة التابعة للملاّك من القوزاق على القوازق الكادحين؟» فأجاب خالدين «لن يجري ذلك ما دمت على قيد الحياة.» وبعد شهر من تلك الحادثة، انتحر خالدين بعد أن رأى جيشه يتخلى عنه. وهكذا انتهت حركة القوزاق...

في ذلك الحين كانت «التسايكا» القديمة، والقادة الاشتراكيون «المعتدلون» -من افاكسانتييف على تشيرنوف- وقادة لجان الجيش القديمة والضباط الرجعيون مجتمعين في «موغلييف». وأصرَّت قيادة الجيش على موقفها في رفض الاعتراف بمجلس مفوضي الشعب، وجمعت حولها «فيالق الموت»، و«فرسان

القديس جورجيوس» والقوزاق العاملين في الجبهة، وكانت على اتصال سري بالملحقين العسكريين التابعين لدول الحلفاء وبحركة خالدين ومجلس «الرادا» الأوكراني.

ولم تجب حكومات الحلفاء على مرسوم السلم الصادر في 8 تشرين الثاني (نوفمبر)، والذي يقترح فيه مؤتمر السوفييت هدنة شاملة...

وفي 20 تشرين الثاني (نوفمبر)، وجه تروتسكي المذكرة التالية إلى سفراء دول الحلفاء: «أتشرف بأن أبلغك، يا سعادة السفير، بأن المؤتمر العام للسوفييت قد شكّل، في 8 تشرين الثاني (نوفمبر)، حكومة جديدة للجمهورية الروسية تدعى مجلس مفوضي الشعب. إن رئيس هذه الحكومة هو فلاديمير ايلييتش لينين. وقد كُلّفت بإدارة الشؤون الخارجية بصفتي مفوض الشعب للشؤون الخارجية...

وإني، إذ الفت انتباهكم إلى النص الذي أقره المؤتمر العام حول اقتراح تحقيق الهدنة والسلم الديموقراطي، بلا ضم ولا تعويض، على أساس حق الشعوب في تقرير المصير، أتشرف بأن أطلب منكم اعتبار هذه الوثيقة بمثابة اقتراح بتحقيق هدنة فورية على جميع الجبهات، والشروع في مفاوضات عاجلة للسلم. إن الحكومة الشرعية للجمهورية الروسية قد وجهت هذا الاقتراح في الوقت ذاته، إلى جميع الشعوب والحكومات المشتركة في الحرب.

وتفضل، سيدي السفير، بقبول احترام الحكومة السوفييتية العميق لشعبكم الذي لا يمكن إلا أن يكون راغبا في السلم، شأنه جميع الشعوب التي أنهكتها وامتصت قواها هذه المجزرة التي لا مثيل لها...»

وفي الليلة ذاتها أرسل مجلس مفوضي الشعب البرقية التالية إلى الجنرال دوخنين:

«... إن مجلس مفوضي الشعب يرى أنه من الضروري اقتراح الهدنة بلا تأخر على جميع القوى، أكانت عدوة أم حليفة. ولقد أرسل مفوض الشؤون الخارجية مذكرة بهذا الشأن إلى ممثلي حكومات الحلفاء في بتروغراد.

إن مجلس مفوضي الشعب يأمرك، أيها القائد المواطن... بأن تقترح على السلطات العسكرية العدوة أن توقف عملياتها العدوانية حالا وأن تدخل في مفاوضات للسلم.
إن مجلس مفوضي الشعب، إذ يكلفك بهذه المحادثات الأولية، يأمرك بما يلي:

1- أن تُبلغ المجلس فوار، وبواسطة الاتصال المباشر، بجميع خطوات المحادثات مع ممثلي جيوش العدو.

2- أن لا يوقع الهدنة إلا بعد أن يصدق عليه مجلس مفوضي الشعب».

استقبل سفراء الدول الحليفة مذكرة تروتسكي بصمت مزدر رافقته مقابلات غير موفقة في الصحف تنضح بالحقد والاستهزاء. ووصم الأمر الصادر إلى دوخونين علنا بأنه خيانة...

أما بالنسبة لدوخونين نفسه، فلم يجب على المذكرة. وفي ليلة 22 تشرين الثاني (نوفمبر)، تم اتصال هاتفي به وسئل إذا كان ينوي إطاعة الأمر. فأجاب أنه لا يستطيع إطاعته إلا إذا كان صادرا عن «حكومة يدعمها الوطن والجيش».

فطارت برقية فورا تبلغه عزله من منصبه كقائد عام، وعيِّن كريلنكو مكانه. تمشيا مع سياسته في التوجه إلى الجماهير، بعث لينين برسالة إذاعية إلى جميع لجان الألوية والأفواج والفرق، وإلى جميع جنود وبحارة الجيش والأسطول يعلمهم فيها

رفض دوخونين، ويأمر «الأفواج في الجبهة بانتخاب مندوبين عنها للدخول في مفاوضات مع قطعات العدو المقابلة لمراكزهم...»

وفي 23 منه، قام الملحقون العسكريون للأمم الحليفة، حسب تعليمات وردت إليهم من حكوماتهم، بتسليم مذكرة إلى دوخونين يحذرونه فيها «بعدم خرق شروط المعاهدات التي وقّعت بين قوى الحلفاء». وجاء في المذكرة أيضا أن روسيا «ستجر على نفسها العواقب الوخيمة»، إذا هي وقعت على هدنة من طرف واحد مع ألمانيا. فأذاع دوخونين محتويات المذكرة فورا على لجان الجنود.

وفي اليوم التالي، أذاع تروتسكي نداء جديدا إلى القوات واصفا مذكرة ممثلي الحلفاء بأنها تدخُّل سافر في شؤون روسيا الداخلية ومحاولة خرقاء «لإجبار الجيش الروسي والشعب الروسي، بواسطة التهديد، على مواصلة الحرب تنفيذا لمعاهدات وقعها القيصر».

وتدفق البلاغ تلو البلاغ من «سمولني» مهاجما دوخونين وزمرة الضباط المعادين للثورة الملتفة حوله، وشاجبا السياسيين الرجعيين المجتمعين في «موغلييف»، مثيرا ملايين الجنود الغاضبين المتشككين من أقصى جبهة المئة ميل إلى أقصاها (10). وفي الوقت ذاته، اتجه كريلنكو، على رأس ثلاث وحدات من البحارة المندفعين، نحو «ستافكا»، مهددا بالثأر (11). فاستقبله الجنود في كل مكان بعواصف من الهتاف. وكان هذا تقدما عظيما. وأصدرت اللجنة المركزية للجيش بلاغا تؤيد فيه دوخونين فتحرك في الحال عشرة آلاف جندي على «موغلييف».

وثارت حامية «موغلييف» يوم الثاني من كانون الأول (ديسمبر) وسيطرت على المدينة، واعتقلت دوخونين ولجنة الجيش وخرجت لاستقبال القائد العام الجديد حاملة أعلام النصر الحمراء. وفي صباح اليوم التالي، دخل كريلنكو «موغلييف» ليجد جمعا غاضبا يحاصر سكة الحديد التي سُجن فيها دوخونين. وألقى كريلنكو خطابا يرجو فيه الجنود أن لا يؤذوا دوخونين لأنه سينقل إلى بتروغراد ليحاكم أمام المحكمة الثورية. وما أن انتهى من خطابه، حتى أطل دوخونين فجأة من النافذة وكأنه يريد أن يخاطب الجمع. إلا أن الشعب هجم إلى العربة هجوما وحشيا وجر الجنرال العجوز إلى الخارج وانهال عليه بالضرب حتى الموت على الرصيف...

هكذا انتهى تمرد «ستافكا»...

وبدأت الحكومة السوفييتية تنظيم الدولة بثقة، بعد أن تعززت قواها من جراء انهيار آخر معقل هام للقوى العسكرية المعادية في روسيا. وعاد العديد من الموظفين القدماء للانضواء تحت لوائها، وانضم عدد كبير من أعضاء الأحزاب الأخرى إلى الجهاز الحكومي. إلا أن «مرسوم أجور موظفي الدولة» الذي حدد أجر مفوضي الشعب –وهو أعلى أجر- بخمسمائة روبل في الشهر (حوالي خمسين دولارا) حال دون عودة الطامعين بالكسب المالي... وانهار إضراب موظفي الحكومة، بقيادة «اتحاد الاتحادات»، بعد أن تخلّت عنه المصالح المالية والتجارية التي كانت تدعمه. وعاد موظفو المصارف إلى أعمالهم...

ومع صدور مرسوم تأميم المصارف، وتكوين «المجلس الأعلى للاقتصاد الشعبي»، وتنفيذ مرسوم الأرض في القرى، وإعادة تنظيم الجيش على أسس ديموقراطية والتغييرات الجذرية التي حدثت في جميع قطاعات الحكم والحياة –مع هذه الإجراءات كلها، التي استمدت فعاليتها من إرادة جماهير العمال والجنود والفلاحين، بدأت ببطء، وسط أخطار وزلّات عديدة، عملية بناء روسيا البروليتارية.

لم يستسلم البلاشفة الحكم بالمساومة مع الطبقات المالكة، أو مع القادة السياسيين الآخر، ولا بإرضاء جهاز الحكومة القديم. لم يستلموا الحكم بواسطة عنف منظم مارسته زمرة قليلة العدد. فلو لم تكن الجماهير في جميع أنحاء روسيا مستعدة للثورة، لأخفقت محاولاتهم. إن التفسير الوحيد لنجاح البلاشفة يكمن في أنهم يمثلون الرغبات البسيطة والطموحة لفئات الشعب الدنيا، داعين إياهم إلى العمل لهدم القديم، ثم التعاون معا لإرساء أسس البنيان الجديد وسط غبار الخرائب المتهاوية.

==========

هوامش الفصل الحادي عشر

حدود هذا الفصل

يغطي هذا الفصل فترة شهرين تقريبا. أي أنه يشمل المفاوضات مع الحلفاء، والمفاوضات والهدنة مع الألمان، وبداية مفاوضات السلم في بريست-ليتوفسك، والفترة التي تم خلالها إرساء أسس الدولة السوفييتية.

إلا أني لم أدخل في حساب هذا الكتاب أن أصف وأحلّل هذه الأحداث التاريخية الهامة جدا التي تتطلب مجالا أوسع، وهذا ما سوف أتناوله في كتاب آخر: «من كورنيلوف إلى بريست-ليتوفسك».

لذا فقد اقتصرت في هذا الفصل على التعرض لمحاولات الحكومة السوفييتية في تدعيم سلطتها السياسية في الداخل، ورسمت بخطوط عريضة انتصاراتها المتتالية على العناصر الداخلية المعادية، هذه العملية التي انقطعت مؤقتا نتيجة سلم بريست-ليتوفسك المفجع.

==========

2- مقدمة إعلان حقوق شعوب روسيا

لقد بدأت ثورة العمال والفلاحين في تشرين الثاني (نوفمبر) تحت راية التحرر المشتركة.

الفلاحون يتحررون من سلطة ملاّك الأرض، لأنه لم يعد ثمة حق للملاك على الأرض –لقد ألغي هذا الحق. الجنود والبحارة يتحررون من سلطة الجنرالات المستبدين، لأن الجنرالات سوف ينتخبون من الآن فصاعد ويحق نزع الثقة عنهم. العمال يتحررون من إرادة الرأسماليين وأهدافهم، لأنه قد تحققت سيطرة العمال على المعامل والمصانع. إن كل ما هو حي وقادر على الحياة يجري تحريره من القيود البغيضة.

ولم يبقَ سوى قوميات روسيا، التي عانت وما تزال تعني من القمع والتصرفات الكيفية، والتي يجب العمل فورا على تحريرها منها نهائيا وبحزم.

كان الحكم القيصري يحرض شعوب روسيا بعضها ضد بعض. ونتائج هذه السياسية معروفة لدى الجميع: المجازر والمذابح من جهة، وعبودية الشعوب من جهة أخرى.

لا يمكن ولا يجوز العودة إلى هذه السياسة المشينة. بل يجب أن تحل محلها، من الآن فصاعدا، سياسة اتحاد شعوب روسيا الطوعي والصادق.

في فترة الإمبريالية، بعد ثورة آذار (مارس)، عندما انتقلت السلطة إلى أيدي حزب الكاديت البرجوازي، حلت سياسة عدم الثقة الجبانة بشعوب روسيا، وسياسة

البحث عن الأخطاء المماحكة المتسترة بالحديث الأجوف عن «الحرية» و«المساواة» للشعوب محل سياسة الإثارة العلنية. وأن نتائج هذه السياسة معروفة أيضا لدى الجميع: إزكاء العداوة القومية، ونسف الثقة المتبادلة بين القوميات.

يجب وضع حد لهذه السياسة الباطلة القائمة على الكذب والريبة والمماحكة والتحريض. ويجب استبدالها، من الآن فصاعدا، بسياسة منفتحة صادقة تؤدي إلى الثقة المتبادلة الكاملة بين شعوب روسيا. إن مثل هذه الثقة هي الشرط الوحيد لوجود وحدة صادقة دائما بين شعوب روسيا. وكنتيجة لهذه الوحدة فقط يمكن صهر عمال وفلاحي الشعوب الروسية في قوة ثورية واحدة، قادرة على مقاومة جميع المشاريع التوسعية للبرجوازية الاستعمارية.
==========

3- مراسيم حول تأميم المصارف

في مصلحة السير المنتظم للاقتصاد الوطني، والقضاء النهائي على المضاربة المصرفية، وللتحرر الكامل للعمال والفلاحين وسائر الكادحين من استغلال رأس المال المصرفي، ومن أجل إنشاء مصرف وطني واحد للجمهورية الروسية يخدم المصالح الحقيقية للشعب والطبقات الفقيرة، تقرر اللجنة المركزية التنفيذية «التسايكا» ما يلي:

1- يصبح العمل المصرفي احتكارا للدولة.

2- تدمج في مصرف الدولة جميع المكاتب المصرفية الخاصة والمصارف المساهمة.

3- تعود موجودات وديون المؤسسات قيد التصفية إلى مصرف الدولة.

4- يصدر مرسوم خاص يحدد عملية دمج المصارف الخاصة في مصرف الدولة.

5- يكلّف مجلس إدارة مصرف الدولة، مؤقتا، بالإشراف على إدارة شؤون المصارف الخاصة.

6- إن مصالح صغار المدخرين مضمونة.

***

حول مساواة جميع العسكريين في الرتب

تنفيذا لإرادة الشعب الثائر في إلغاء عدم المساواة في الجيش إلغاء سريعا وحازما، يقرر مجلس مفوضي ما يلي:

1- تلغي جميع الرتب والدرجات في الجيش ابتداء من رتبة عرف إلى رتبة جنرال، إن جيش الجمهورية الروسية يتكون الآن من موظنين أحرارا ومتساوين، يحملون اللقب المشرِّف «جندي في الجيش الثوري».

2- تلغى جميع الامتيازات المرتبطة بالرتب والدرجات السابقة وتلغى أيضا كافة إشارات الامتياز الخارجية.

3- يلغى استعمال الألقاب عند المخاطبة.

4- تلغى جميع الأوسمة، والأوامر، ومظاهر الامتياز الأخرى.

5- مع إلغاء رتبة ضابط تلغى جميع تنظيمات الضباط المنفصلة.

ملاحظة: يبقى نظام المناوبة سائرا بالنسبة للقيادات العامة ومكاتب الأفواج واللجان وتنظيمات الجيش الأخرى.

رئيس مجلس مفوضي الشعب:
فلاديمير أوليانوف لينين
مفوض الشعب للشؤون العسكرية والبحرية:
ن. كريلنكو
مفوض الشعب للشؤون العسكرية:
ن. بودفويسكي
أمين سر المجلس:
ن. غوربونوف

***

حول اعتماد المبدأ الانتخابي وحول تنظيم السلطة في الجيش

1- إن الجيش، بحكم كونه يخدم إرادة الشعب العامل، يرضخ لسلطة هذا الشعب العليا المتمثلة في مجلس مفوضي الشعب.

2- تتمتع منظمات السوفييت ولجان الجنود بالسلطات الكاملة ضمن حدود الوحدات العسكرية والتشكيلات الأخرى.

3- إن مراحل حياة ونشاط الجنود التي تقع حاليا تحت سلطة اللجان توضع رسميا تحت إدارة هذه اللجان المباشرة. أما بالنسبة لتلك القطاعات التي لا تستطيع اللجان العمل فيها، فتوضع تحت إدارة سوفييت الجنود.

4- إن انتقاء الضباط والأركان يتم من الآن فصاعدا بواسطة الانتخاب. ينتخب جميع القادة بما فيهم قادة الأفواج، من قبل الحظائر والفصائل والسرايا والفرق والأفواج. وينتخب جميع القادة فوق مستوى قائد الفوج، بما فيهم القائد الأعلى للجيش، بواسطة مؤتمرات أو ندوات اللجان.

ملاحظة: كلمة «ندوة» تعني اجتماعا للجان المعنية بالأمر بالإضافة إلى مندوبين عن اللجان التي تمثل القطاعات الدنيا. (مثلا «ندوة» لجان الأفواج التي يشترك فيها مندوبون عن لجان السرايا-المؤلف)

5- يجب أن تصادق أقرب لجنة عليا على انتخاب القادة فوق رتبة قائد فوج.

ملاحظة: في حال رفض لجنة عليا التصديق على القائد المنتخب، مع تبيان أسباب هذا الرفض، تصبح ملزمة، يف المرة الثانية، على تصديق انتخاب لجنة أدنى لقائدها.

6- قادة الجيوش يُنتخبون من قبل مؤتمرات الجيوش. وقادة الجبهات ينتخبون من قبل مؤتمرات الجبهات.

7- بالنسبة للمناصب ذات الطابع التقني، والتي تتطلب معرفة معينة أو خبرة عملية (أطباء، مهندسون، تقنيون، ضباط إرسال برقي، طيارون، سائقو سيارات، الخ.)،

يُسمح بانتخاب الذين يتمتعون بالخبرة اللازمة فقط، وتقوم بعملية الانتخاب اللجان التابعة لوحدات الخدمة المعنية بالأمر.

8- يجب اختيار رؤساء الأركان من بين العسكريين الذين يتمتعون بالتدريب العسكري الخاص الذي يؤهلهم احتلال هذا المنصب.

9- تعين رئاسة الأركان جميع أعضاء القيادة الآخرين، على أن تصدق المؤتمرات المعنية بالأمر على هذه لتعيينات.

ملاحظة: توضع أسماء جميع الذين يتمتعون بتدريب خاص على لائحة منفصلة.

10- يحتفظ مجلس مفوضي الشعب بحقه في أن يفصل من الخدمة جميع القادة العاملين الذين لم ينتخبهم الجنود لأي مركز، والذين يُعتبرون بالتالي أنفارا عاديين.

11- تُملأ جميع المناصب الأخرى، فيما عدا المناصب المتعلقة بالقيادة، وباستثناء المناصب في الدوائر الاقتصادية، بواسطة التعيين من قبل القادة المنتخبين المعنيين بالأمر.

12- سوف تُنشر بشكل منفصل التعليمات التفصيلية المتعلقة بانتخابات القادة العسكريين.

رئيس مجلس مفوضي الشعب:
فلاديمير أوليانوف لينين
مفوض الشعب للشؤون العسكرية والبحرية:
ن. كريلنكو
مفوض الشؤون العسكرية:
ن. بودفويسكي
أمين سر المجلس:
ن. غوريونوف

مرسوم إلغاء الطبقات والألقاب

1- تُلغى جميع فئات الامتياز والانقسامات الفئوية، وجميع الامتيازات والتحريمات وجميع المنظمات والمؤسسات الفئوية، وجميع الرتب المدنية.

2- تُلغى جميع فئات المجتمع (نبلاء، تجار، برجوازية صغيرة الخ)، وجميع الألقاب (أمير، كونت، وغيرهما)، وجميع الرتب المدنية (مستشار خاص للدولة، وغيره)، ويحل محلها لقب عام هو: مواطن الجمهورية الروسية.

3- تنتقل ملكية هيئات التجار والبرجوازيين فورا إلى الحكومات الذاتية البلدية.

5- توضع كل المؤسسات الفئوية، مهما كان نوعها، وملكيتها وأنظمتها الداخلية، ووثائقها تحت إدارة البلديات والزيميستوفات.

6- تعتبر جميع النصوص القانونية الحالية المتعلقة بهذه القضايا لاغية ابتداء من هذا التاريخ.

7- يصبح المرسوم الحالي نافذ المفعول يوم نشره، وتتولى سوفييتات مندوبي العمال والجنود والفلاحين أمر تطبيقه.

لقد اقرت «التسايكا» هذا المرسوم في اجتماعها يوم 23 تشرين الثاني (نوفمبر)، 1917، ووقع عليه:

رئيس التسايكا:
سفيردلوف
رئيس مجلس مفوضي الشعب:
فلاديمير اوليانوف لينين
منفذ مجلس مفوضي الشعب:
ف. بونش-برويفيتش
أمين سر المجلس:
ن. غوربونوف

==========

4- السخرية من النظام الجديد

عن صحيفة «دروغ نارودنا» (صديق الشعب)، في 18 تشرين الثاني (نوفمبر):

إن قصة «السلم الفوري» الذي يتحدث عنه البلاشفة، يذكر بفيلم هزلي... نيراتوف يركض وتروتسكي يطارده، نيراتوف يستلق الجدار وكذلك يفعل تروتسكي، نيراتوف يقفز إلى الماء فيلحق به تروتسكي، نيراتوف يصعد إلى السطح وتروتسكي وراءه، نيراتوف يختبئ تحت سرير فيحاصره تروتسكي! لقد قبض عليه! وطبعا يجري توقيع معاهدة السلم فوار...

كل شيء فارغ وهادئ في وزارة الشؤون الخارجية. الرسل يبدون الاحترام، إلا أن وجوههم تعتليها تعابير ساخرة...

ماذا لو اعتقلنا أحد السفراء ووقعنا معه هدنة أو معاهدة سلم؟ ولكنهم غريبو الأطوار،هؤلاء السفراء. يلتزمون الصمت كأنهم لم يسمعوا شيئا. يا عالم، يا ناس، يا فرنسا، يا إنكلترا، يا ألمانيا! لقد وقعنا معاهدة هدنة معكم! هل من المعقول أن لا تعرفوا شيئا عنها؟ لقد نُشرت في جميع الصحف، وأُلصقت على جميع الجدران. لقد وقعنا معاهدة سلم، بشرفي البلشفي، إننا لا نطلب منكم الكثير، ما عليكم إلا أن تكتبوا كلمتين فقط...

السفراء لا يجيبون. القوى تلازم الصمت. كل شيء فارغ وهادئ في وزارة الشؤون الخارجية.

روبيسبير-تروتسكي يقول لمساعده منارا-أوريتسكي: «اسمع. أسرع إلى السفارة البريطانية وقل للسفير أننا نقترح عليه السلم!».

ويجيب مارا-اوريتسكي: «إذهب بنفسك، انه لا يستقبل أحدا».

-اتصل به هاتفيا إذا.

-حاولت. الخط مقطوع.

-أرسل له برقية.

-فعلت ذلك.

-حسنا، وما النتيجة؟

ويتنهد مارا-اوريتسكي ولا يجيب. فيبصق روبسبير-تروتسكي بغضب في إحدى الزوايا... ثم يقول بعد برهة:

-اسمع، يا مارا... كيفما كان الأمر، يجب أن نثبت أننا ننفذ سياسة خارجية فعالة. كيف يمكننا ذلك؟

ويجيب أوريتسكي بجدِّية:

-فلنصدر مرسوما جديدا! يقضي باعتقال نيراتوف.

فيصيح تروتسكي:

-مارا، أنت تيس!

وينتصب فجأة، رهيبا وجليلا، وقد بدا مثل روبسبير، ثم يقول بقساوة:

-اكتب، يا أوريتسكي! اكتب رسالة مسجلة إلى السفير البريطاني مع إشعار بالوصول. اكتب. أنا بدوري سأكتب! شعوب العالم تنتظر سلما فوريا!»

لا يسمع غير صوت آلتين كاتبتين في وزارة الشؤون الخارجية الواسعة الفارغة. تروتسكي يشرف بنفسه على سياسة خارجية فعالة...»

==========

5- حول مسألة الاتفاق

إلى جميع العمال، إلى جميع الجنود.

عُقد اجتماع استثنائي لممثلي جميع وحدات حامية بتروغراد يوم 11 تشرين الثاني (نوفمبر) في نادي فوج بريوبراجانسكي وسيمينيوفسكي لمناقشة الموضع التالي: من بين الأحزاب الاشتراكية الموجودة، أي حزب يؤيد سلطة السوفييت وأي حزب يقف ضدها! أي حزب يقف مع الشعب وأي حزب يقف ضده؟ وهل بالامكان الوصول إلى اتفاق بين هذه الأحزاب؟

وقد دُعي إلى الاجتماع ممثلون عن «التسايكا»، ومجلس الدوما البلدي، وسوفييت الفلاحين الذي يراسه افاكسانتييف، وجميع الأحزاب السياسية من البلاشفة إلى الاشتراكيين الشعبيين.

وبعد نقاش طويل، وبعد الاستماع إلى مساهمات جميع الأحزاب والمنظمات، أقر الاجتماع، بأغلبية ساحقة، أن البلاشفة والاشتراكيين الثوريين اليساريين هما الحزبان الوحيدان اللذان يقفان إلى جانب الشعب، وأن جميع الأحزاب الأخرى تحاول، تحت ستار السعي إلى اتفاق، حرمان الشعب من المكاسب التي أحرزها أيام ثورة العمال والفلاحين العظيمة في تشرين الثاني (نوفمبر).

وفيما يلي نص القرار الصادر عن اجتماع حامية بتروغراد بأغلبية 61 صوتا ضد 11 وامتناع 12:

«1- لقد أعلن ممثلون عن «التسايكا» والحزب البلشفي والاشتراكيين الثوريين اليساريين أنهم يقفون بحزم إلى جانب حكومة السوفييت، ومراسيم الأرض، والسلم، وسيطرة العمال على الصناعة، وأنهم على استعداد للاتفاق على أسس هذا البرنامج، مع جميع الأحزاب الاشتراكية الأخرى.

2- وفي الوقت ذاته، فقد امتنع ممثلو الأحزاب الأخرى (مناشفة، اشتراكيون ثوريون) عن إعطاء أي جواب، أو أنهم أعلنوا أنهم يعارضون سلطة السوفييت ومراسيم الأرض والسلم والسيطرة العمالية.

بناء على ذلك، يقرر الاجتماع ما يلي:

1- إدانة الأحزاب التي تريد عمليا القضاء على المكاسب الشعبية لثورة تشرين (نوفمبر)، بحجة الوصول إلى اتفاق.

2- الثقة الكاملة «بالتسايكا» ومجلس مفوضي الشعب، واعدا بتقديم دعمه كاملا.

وفي الوقت ذاته، يرى الاجتماع انه من الضروري أن يشارك الرفاق الاشتراكيون اليساريون في حكومة الشعب».
==========

6- اضطرابات الخمر

لقد اكتُشف فيما بعد أن الكاديت قد أنشأوا منظمة خاصة لإثارة الاضطرابات بين الجنود. كانت المكالمات الهاتفية تُرسل إلى الثكنات المختلفة معلنة أن الخمر يُوزَّع مجانا في عنوان ما، وعندما يصل الجنود إلى المكان المعين، يجدون رجلا وضع خصيصا ليدلهم على موقع القبو...

وقد عيَّن مجلس مفوضي الشعب مفوضا للنضال ضد موجة السكر. وقد عمل على إتلاف مئات الآلاف من زجاجات الخمر بالإضافة إلى قمع الاضطرابات المتأتية عن السطو على الخمارات وأقبية الخمور. في بادئ الأمر أغرقت أقبية قصر الشتاء، التي تحتوي على خمور نادرة معتقة تزيد قيمتها على خمسة ملايين دولار، ثم نُقلت الخمور إلى كرونستاد حيث أُتلفت.

وقد تصرف بحارة كرونستاد، في هذا المجال، بسيطرة حديدية على النفس، ولا عجب، ألبسوا هم الذين أسماهم تروتسكي «زهرة القوى الثورية وفخرها؟»
==========

7- قرار إلزامي

1- تُعلن حالة الحصار في مدينة بتروغراد.

2- تُمنع كافة الاجتماعات في الشوارع والساحات.

3- محاولات نهب أقبية الخمر، أو المستودعات، أو المصانع، أو الحوانيت، أو المتاجر، أو المساكن الخاصة، أو ما شابه، **سوف تُقمع بنار المدافع الرشاشة دون إنذار.**

4- يكلف أعضاء لجان المساكن والبوابون ووكلاء البنايات وأفراد الميلشيا بالحفاظ على الأمن الشديد في جميع المنازل والباحات والشوارع. يجب إقفال أبواب المنازل والعربات في الساعة التاسعة مساء، وفتحها في السابعة صباحا. ويُسمح

للمستأجرين فقط بالخروج من البيت بعد الساعة التاسعة تحت الرقابة المشددة للجان المساكن.

5- إن كل من يوزع أو يبيع أو يشتري أي نوع من المشروبات الكحولية، وكل من يخرق البندين 2 و4 سوف يُعتقل فورا ويتعرض للأحكام القاسية.

لجنة منع المذابح التابعة للجنة التنفيذية
لسوفييت مندوبي العمال والجنود

بترغراد في 6 كانون الألو (ديسمبر)، الساعة الثالثة صباحا.
==========

8- المضاربون

وقد أصدر الأمران التاليان بالنسبة لهم.

من مجلس مفوضي الشعب إلى اللجنة العسكرية الثورية

إن الفوضى في إمدادات الطعام التي خلّفتها الحرب وفقدان النظام آخذة بالتعاظم نتيجة لعمل المضاربين واللصوص وأتباعهم في سكك الحديد وأحواض البواخر ومكاتب الشحن، الخ...

إن هؤلاء اللصوص المجرمين، يتلاعبون لمصلحتهم الخاصة، بصحة وحياة ملايين العمال والجنود مستغلين أفظع النكبات التي حلّت بهذه الأمة.

لا يمكن احتمال مثل هذا لوضع بعد الآن.

إن مجلس مفوضي الشعب يدعو اللجنة العسكرية الثورية لاتخاذ الإجراءات الحاسمة للقضاء على المضاربة والتخريب وإخفاء المؤن وتأخير الشحنات لغايات خبيثة، إلى آخره.

إن جميع الأشخاص المتهمين بمثل هذه الأعمال يجب اعتقالهم فورا، بأمر خاص من اللجنة العسكرية الثورية، وسوقهم إلى سجون كرونستاد بانتظار تقديمهم إلى المحكمة الثورية.

إن جميع المنظمات الشعبية مدعوة لتوحيد الجهود في المعركة ضد سارقي المؤن.

رئيس مجلس مفوضي الشعب:
ف. أوليانوف- لينين

تمت الموافقة على تنفيذه،

اللجنة العسكرية الثورية التابعة للجنة المركزية التنفيذية
لسوفييت مندوبي العمال والجنود

بتروغراد في 23 تشرين الثاني (نوفمبر) 1917.

***

إلى جميع المواطنين الشرفاء،

إن اللجنة العسكرية الثورية تقرر ما يلي:

إن المخربين، واللصوص والمضاربين هم أعداء الشعب...

تقترح اللجنة العسكرية الثورية على جميع المنظمات الاجتماعية، وعلى جميع المواطنين الشرفاء أن يبلغوها حالا عن جميع حالات التخريب والسرقة والمضاربة عندما يعملون بها.

إن الصراع ضد هذا الشر واجب على جميع الناس الشرفاء. واللجنة العسكرية الثورية تتوقع أن تحظى بتأييد جميع الذين تعز عليهم مصالح الشعب.

إن اللجنة العسكرية الثورية ستعمل بلا رحمة على ملاحقة المضاربين واللصوص.

اللجنة العسكرية الثورية

بتروغراد في 2 كانون الأول (ديسمبر) 1917

==========

9 و10
بلاغان

لينين، إلى شعب روسيا:

أيها الرفاق العمال والجنود –يا جميع الشغيلة!

إن ثورة العمال والفلاحين قد انتصرت في بتروغراد، وفي موسكو... وكل يوم- بل كل ساعة، تنهال التحيات على الحكومة الجديدة من الجبهة والقرى... إن انتصار الثورة... مضمون، لأنها تحظى بدعم غالبية الشعب.

إن الرأسماليين والملاك، والموظفين والمستخدمين المتحالفين مع البرجوازية، باختصار: الأغنياء كلهم وجميع المتعاونين معهم، يناصبون الثورة العداء ويهددون بوقف عمل المصارف ويخربون أو يعرقلون عمل المؤسسات الأخرى. هذا أمر بديهي.. إن كل عامل واع يفهم تماما أننا لا نستطيع أن نتفادى هذا العداء، لأن الموظفين الكبار قد وقفوا ضد هذا الشعب وهم يرفضون التخلي عن مواقعهم بدون مقاومة. إلا أن الطبقات الكادحة لا تهاب هذه المقاومة في أي حال. إن غالبية الشعب تساندنا. وغالبية العمال المضطهَدين في العالم بأسره تساندنا. والعدالة إلى جانبنا. لذا، فإن انتصارنا أكيد.

سوف تتحطم مقاومة الرأسماليين والموظفين الكبار. لا يُحرم أحد من ملكية إلا بقانون خاص حول تأميم المصارف والسنديكات. وهذا القانون قيد الإعداد. لن يخسر أي عامل كوبيكا واحدا، بل على العكس، فسوف نمده بالمساعدة. وإذا كانت الحكومة لم تقرر جباية ضرائب جديدة للوقت الحاضر فهي تعتبر أن من واجباتها الأولية اعتماد المحاسبة والرقابة الشديدة على جباية الضرائب المعمول بها في العهد المباد...

أيها الرفاق العمال! تذكروا أنكم أنتم من يقود الدولة الآن. لن يساعدكم أحد إلا إذا نظمتم أنفسكم وتوليتم شؤون الدولة.

إن منظمات السوفييت هي الآن أجهزة السلطة الحكومية... عززوها. افرضوا رقابة ثورية صارمة واسحقوا بلا رحمة كل المحاولات الفوضوية التي يقوم بها السكارى واللصوص و«الينكرز» المعادون للثورة والكورنيلوفيون.

افرضوا رقابة مشددة على الإنتاج وعلى حساب المنتوجات. اعتقلوا وقدموا لمحكمة الشعب الثورية جميع الذين يسيئون إلى ملكية الشعب بتخريب الإنتاج، أو إخفاء المخزون من الحبوب أو من السلع الأخرى، أو تأخير شحن الحبوب، أو بإحداث البلبلة في سكك الحديد ومراكز البريد والبرق، أو بواسطة المعارضة العامة للعمل الجبار لتحقيق السلم وتوزيع الأرض على الفلاحين...

أيها الرفاق العمال والجنود والفلاحون –يا جميع الشغيلة!

استلموا كل السلطة المحلية فورا... إننا سوف نسير، خطوة خطوة وبموافقة غالبية الفلاحين، نحو انتصار الاشتراكية بحزم ودون تردد، هذا الانتصار الذي سيدعم المواقع الهجومية للطبقة العاملة في البلدان المتقدمة، ويحقق للشعب سلما دائما، ويحرره من جميع العبودية والاستغلال.

إلى جميع عمال بتروغراد:

أيها الرفاق! الثورة في طريق الانتصار، الثورة قد انتصرت! وانتقلت كل السلطة إلى السوفييت التي تمثلنا. إن أول أسابيع هي أصعبها. يجب سحق الرجعية المهزومة سحقا نهائيا، يجب تأمين الانتصار الكامل لمساعينا. يجب على الطبقة العاملة أن تبدي، في هذه الأيام، أعظم الصلابة والصمود لكي تسهل تحقيق جميع أهداف الحكومة الشعبية السوفيتية الجديدة. في الأيام القليلة القادمة، سوف تصدر المراسيم حول قضايا العمل، وفي مقدمتها المرسوم حول السيطرة العمالية على الإنتاج والرقابة على الصناعة.

إن اضرابات وتظاهرات الجماهير العمالية في بتروغراد لن يكون لها من تأثير إلا الإساءة إلى الوضع.

إننا نطالبكم التوقف فورا عن جميع الاضرابات الاقتصادية والسياسية والعودة إلى العمل بانتظام تام. إن العمل في المصانع وفي جميع فروع الصناعة لهو ضروري لحكومة السوفييت الجديدة لأن أية مقاطعة لهذا العمل لن تؤدي إلا إلى صعوبات جديدة. ولدينا من الصعوبات ما فيه الكفاية. ليعد كلّ إلى مركزه.

إن أفضل طريقة لمساندة حكومة السوفييت في هذه الأيام هي أن يقوم كل واحد منا بعمله.

عاشت صلابة البروليتاريا الحديدية! عاشت الثورة!

سوفييت بتروغراد لمندوبي العمال والجنود
مجلس نقابات بتروغراد
مجلس لجان المصانع والمتاجر في بتروغراد

==========

11- نتائج انتخابات الجمعية التأسيسية في بتروغراد

تنافست في بتروغراد تسع عشرة لائحة. والنتائج التي نُشرت في 30 تشرين الثاني (نوفمبر) هي كما يلي:

الحزب	عدد الأصوات
الاشتراكيون الشعبيون	19109
الكاديت	245006
المسيحيون الديموقراطيون	3707
البلاشفة	424027
الاشتراكيون العالميون	108
العمال الاشتراكيون الديموقراطيون والاشتراكيون الثوريون الاوكرانيون واليهود	4219
عصبة حقوق المرأة	5310
اشتراكيون ثوريون (مدافعون)	4696
اشتراكيون ثوريون يساريون	152230
عصبة التطور الشعبي	385
الديموقراطيون الجذريون	413
الأبرشيات الأرثوذكسية	24139
العصبة النسائية لإنقاذ الوطن	318
العصبة المستقلة للعمال والجنود والفلاحين	4942
الاشتراكيون الديموقراطيون (كاثوليك)	14382
الاشتراكيون الديموقراطيون المتحدون	11740
المناشفة	17427
مجموعة «يدينستوفا»	1823
عصبة قوات القوزاق	6712

==========

12- نداءات إلى الجبهة ضد دوخونين

... إن النضال من أجل السلام يلقى مقاومة البرجوازية والجنرالات المعادين للثورة... تقول الصحف أن عملاء البرجوازية وحلفائها أمثال كرنسكي وافاكسانتييف وتشيرنوف وغوتز وتسيريتللي وغيرهم يتجمعون في مقر دوخونين، القائد العام السابق للقوات المسلحة. ويبدو أنهم ينوون تشكيل حكومة جديدة معادية للسوفييت.

أيها الرفاق الجنود! إن جميع الذين ذكرناهم قد سبق لهم أن استلموا مناصب وزارية. وقد عملوا بالاتفاق مع كرنسكي والبرجوازية. إنهم مسؤولون عن هجوم الأول من تموز (يوليو)، وعن استمرار الحرب. لقد وعدوا الفلاحين بالارض ثم اعتقلوا أعضاء لجان الأرض. لقد أعادوا تسليط عقوبة الإعدام فوق رؤوس الجنود. إنهم يطيعون أوامر رجال المال الفرنسيين والإنكليز والأمريكيين...

لقد عُزل الجنرال دوخونين من منصبه كقائد عام للجيش لأنه رفض إطاعة أوامر مجلس مفوضي الشعب... وقد رد على ذلك بتوزيع مذكرة الملحقين العسكريين للقوى الاستعمارية المتحالفة بين الجنود، وبمحاولة إثارة ثورة مضادة...

لا تطيعوا دوخونين! لا تأبهوا لتحريضه! راقبوه بحذر والزمرة من الجنرالات المعادين للثورة التي تلتف حوله...

13-من كريلنكو

الأمر رقم 2

... يعتبر الجنرال دوخونين، القائد العام السابق للجيش، عدوا للشعب لأنه رفض تنفيذ الأوامر، ولأعماله الإجرامية التي قد تؤدي إلى إشعال حرب أهلية. سوف يُقبض على جميع الذين يساعدون دوخونين، بغض النظر عن وضعهم الاجتماعي أو السياسي أو ماضيهم. وسيتولى أناس يتمتعون بصلاحيات خاصة تنفيذ هذه الاعتقالات. إني أكلف الجنرال مانيخوفسكي بتنفيذ الأوامر المبنية أعلاه...

الفصل الثاني عشر

مؤتمر الفلاحين

كان تشرين الثاني (نوفمبر) قد بلغ الثامن عشر منه عندما هطل الثلج. استيقظنا في الصباح وحافات النوافذ مغطاة بالأبيض، ونتف الثلج تزوبع بغزارة بحيث تتعذر الرؤية على بعد أكثر من عشرة أقدام. اختفى الوحل. وفجأة أصبحت المدينة القاتمة بيضاء باهرة. وتحولت العربات إلى زلاجات، تخترق الطرقات بسرعة فائقة وسوّاقوها قد تجمدت لحاهم... الفرحة تكتسح المدينة مع مجيء الثلج، رغم الثورة، ورغم أن روسيا تلقي بنفسها في غد رهيب مجهول. الجميع يبتسم. الناس يركضون في الطرقات، يرفعون أيديهم ضاحكين للنتف القطنية المتساقطة. اختفت الألوان الرمادية. الحراب والقباب الذهبية والملونة وحدها تتلألأ، في روعتها البدائية، وسط الثلج الأبيض.

حتى الشمس طلعت عند الظهر شاحبة وباهتة اللون. اختفت الرشوحات وآلام العصبي التي كانت سائدة طوال الأشهر الممطرة. وطبعت البهجة حياة المدينة، والثورة نفسها تسارعت وتيرتها...

جلست ذات مساء في حانة لأبناء الطبقات الدنيا تقع قبالة بوابات «سمولني». كانت واطئة السقف، مرتفعة الضجيج تدعى «كوخ العم توم» يرتادها أفراد الحرس الأحمر بكثرة. وكانوا محتشدين فيها ذلك المساء، متحلقين حول الطاولات الصغيرة ذات الأغطية الوسخة وأباريق الشاي الكبيرة، مالئين المكان برائحة الدخان الخانقة بينما يركض الندال في كل الاتجاهات صائحين: «لحظة! بأمرك!»

في إحدى الزوايا جلس رجل بزي نقيب يخاطب الجمع الذي كان يقاطعه بعد كل بضع كلمات. صاح:

«لستم أحسن من المجرمين! تقتلون إخوانكم الروس في الشوارع!»

فسأل عامل: «ومتى فعلنا ذلك؟»

«الأحد الماضي... عندما الينكرز...»

«ألم يطلقوا هم الرصاص علينا؟» قال أحد الرجال وهو يعرض ذراعه في علاقة: «أليس عندي ما أتذكرهم به هؤلاء الشياطين!»

فصاح بصوت مرتفع: «يجب أن تلتزموا الحياد! يجب أن تلتزموا الحياد! من أنتم لكي تقضوا على الحكومة الشرعية؟ من هو لينين؟ عميل ألماني!».

فجعروا به: «ومن أنت؟ عدو للثورة! متآمر!»

ووقف النقيب لما لم يعد باستطاعته أسماع صوته: «حسنا. إنكم تسمّون أنفسكم شعب روسيا. ولكن لستم أنتم شعب روسيا. الفلاحون هم شعب روسيا. انتظروا حتى يقوم الفلاحون».

صاحوا: «إي. فننتظر حتى يتكلم الفلاحون. نعرف ما سيقولون... ليسوا عمالا مثلنا؟»

كان كل شيء يعتمد على الفلاحين في نهاية الأمر. إنهم يشكلون أكثر من ثمانين بالمئة من الشعب الروسي، ورغم أنهم متخلفون سياسيا فقد كانوا يتمسكون

بأفكارهم الخاصة. وكان للبلاشفة أتباع قليلون نسبيا بين الفلاحين، وقيام دكتاتورية دائمة ترتكز على العمال الصناعيين وحدهم أمر مستحيل في روسيا... الحزب الفلاحي التقليدي هو الحزب الاشتراكي الثوري. ومن بين جميع الأحزاب التي تؤيد الحكومة السوفييتية، كان الاشتراكيون الثوريون اليساريون الورثة الطبيعيين للقيادة الفلاحية. والاشتراكيون الثوريون اليساريون، الواقعون تحت رحمة بروليتاريا المدن المنظمة، بحاجة ماسة إلى دعم الفلاحين لهم.

في تلك الأثناء، لم تهمل «سمولني» الفلاحين. فبعد صدور مرسوم الأرض، كانت أول أعمال «التسايكا» هي الدعوة لمؤتمر للفلاحين من وراء ظهر اللجنة التنفيذية لسوفييت الفلاحين. وبعد بضعة أيام، صدرت تعليمات مفصلة لجان الأرض في الأقضية، عقبها «تعليمات إلى الفلاحين»[1] التي أصدرها لينين والتي تشرح، بلغة بسيطة، الثورة البلشفية والحكومة الجديدة. وفي 16 تشرين الثاني (نوفمبر)، أصدر لينين وميليوتين «تعليمات إلى مبعوثي المناطق» وتولت الحكومة السوفييتية إرسال الآلاف من هؤلاء المبعوثين إلى القرى:

«1- عندما يصل المبعوث إلى المنطقة المعينة له، يجب أن يدعو إلى اجتماع مشترك للجنة التفنيذية لسوفييت مندوبي الفلاحين وللجنة التنفيذية لسوفييت مندوبي العمال والجنود. وأن يقدم تقريرا أمام هذا الاجتماع عن القوانين الزراعية ثم يطلب عقد اجتماع مشترك موسع لكلا التنظيمين...

2- يجب أن يدرس جوانب القضية الزراعية في المنطقة:

أ- هل تمت مصادرة أراضي الملاك الكبار؟ وإذا كان الأمر كذلك، ففي أية مقاطعات؟

ب- من يشرف على الأراضي المصادرة: المالك السابق أم لجان الأرض؟

ج- ماذا حل بالأعتدة الزراعية؟

3- هل ازدادت رقعة الأرض المزروعة؟

4- كيف وبأية كمية تختلف مساحة الأرض المزروعة حاليا عن المساحة التي حددتها الحكومة كحد أدنى؟

5- يجب على المبعوث أن يصر، بعد استلام الفلاحين للأرض، على ضرورة زيادة مساحة الأرض المزروعة، وعلى الإسراع في إرسال الحبوب إلى المدن لأنه الوسيلة الوحيدة لإبعاد شبح المجاعة.

6- ما هي الإجراءات المطبقة، أو المنوي تطبيقها، لتحويل الأرض من الملاك الكبار إلى لجان الأرض والهيئات المماثلة التي يعيِّنها السوفييت؟

7- يُفضَّل أن تتولى منظمات السوفييت المكونة من المستخدمين الدائمين إدارة الملكيات الزراعية، بعد تعيينها وتنظيمها بدقة، على أن يتم ذلك تحت إشراف خبراء زراعيين أكفاء.

موجة من التغيير تجتاح القرى ساهم في خلقها الأثر الصاعق الذي تركه مرسوم الأرض إلى جانب نشاط الألوف من الجنود الفلاحين العائدين من الجبهة يحملون معهم الأفكار الثورية... هؤلاء الرجال هم الذين حيُّوا بحماس الدعوة لانعقاد مؤتمر الفلاحين.

وسارت اللجنة التنفيذية لسوفييت الفلاحين على خطى «التسايكا» القديمة بالنسبة للمؤتمر الثاني لسوفييت العمال والجنود، فحاولت عرقلة مؤتمر الفلاحين الذي دعت إليه «سمولني». وبعد أن اكتشفت، مثلما اكتشفت «التسايكا» القديمة، أن مقاومتها غير مجدية، أخذت اللجنة التنفيذية ترسل البرقيات الهستيرية تأمر فيها بانتخاب مندوبين محافظين. وذهبت إلى حد أن تشيع بين الفلاحين أن المؤتمر سينعقد في «موغلييف» فذهب بعض المندوبين إلى هناك. ولكن في الثالث والعشرين من تشرين الثاني كان قد اجتمع أربعمائة مندوب في بتروغراد، وبدأت اجتماعات الأحزاب بالانعقاد...

عُقدت الجالسة الأولى في قاعة الاسكندر في بناية الدوما، وتبين من التصويت الأول أن أكثر من نصف المندوبين هم من الاشتراكيين الثوريين اليساريين، بينما كان البلاشفة لا يسيطرون على أكثر من الخمس، والاشتراكيون الثوريون اليمينيون على الربع، أما الباقون فلم يكن يوحدهم إلا معارضتهم للجنة التنفيذية القديمة، التي يسيطر عليها افاكسانتييف وتشايكوفسكي وبيشيخونوف...

القاعة الكبيرة تغص بالناس يهزها الدوي الدائم. والمرارة العميقة العنيدة تقسم المندوبين إلى كتل متعادية. إلى اليمين بعض الضباط والأوجه المهيبة الملتحية للفلاحين المسنين والميسورين. وفي الوسط بعض الفلاحين والنقباء والجنود، وإلى اليسار معظم المندوبين يرتدون بزة الجنود العاديين. هؤلاء الأخيرون كانوا الجيل الجديد الذي كان يخدم في الجيش... وكانت الشرفات مكتظة بالعمال. فالعمال في روسيا ما زاولوا يتذكرون أصلهم الفلاحي.

عند افتتاح الجلسة لم تفعل اللجنة التنفيذية مثل «التسايكا» القديمة، فلم تعترف بأن المؤتمر رسمي، وإنما دعت إلى انعقاد المؤتمر الرسمي يوم 13 كانون الأول (ديسمبر). وأعلن رئيس الجلسة، وسط عاصفة من التصفيق والصيحات الغاضبة، أن الاجتماع هو مجرد «دورة استثنائية»... ولكن هذه «الدورة الاستثنائية» سرعان ما عبرت عن رأيها باللجنة التنفيذية بانتخابها ماريا سبيريدونوفا، قائدة الاشتراكيين الثوريين اليساريين، رئيسة للجلسة.

وخصص القسم الأكبر من اليوم الأول لنقاش عنيف دار حول ما إذا كان يجب قبول ممثلي سوفييتات الأقضية أو الاكتفاء بمندوبي الأقاليم فقط. وكما في مؤتمر العمال والجنود، فقد كانت الغالبية الساحقة تؤيد أوسع تمثيل ممكن. عند ذاك غادرت اللجنة التنفيذية القديمة القاعة...

وكان واضحا. منذ البدء، أن معظم المندوبين معادون لحكومة مفوضي الشعب. ولما حاول زينوفييف التكلم باسم البلاشفة، تعالى الزعيق، فغادر المنبر وسط الضحك وصيحات: «هكذا يقع مفوض الشعب في بركة وحل!»

صاح نازاريف، وهو مندوب عن المقاطعات: «نحن الاشتراكيين الثوريين اليساريين نرفض الاعتراف بما تسمى حكومة العمال والفلاحين إلى أن يتمثل الفلاحون بها. ليست هذه الحكومة، في الوقت الحاضر، إلا دكتاتورية العمال... إنا نصرّ على تشكيل حكومة جديدة تتمثل فيها جميع القوى الديموقراطية!»

وغدّى المندوبون الرجعيون هذا الشعور بدهاء، معلنين، وسط صيحات المعارضة المنطلقة من مقاعد البلاشفة: أن مجلس مفوضي الشعب ينوي السيطرة على المؤتمر أو حله بقوة السلاح –فاستقبل الفلاحون هذا الكلام بعاصفة من الغضب...

وفي اليوم الثالث اعتلى لينين المنبر فجأة. فجنَّت القاعة خلال عشر دقائق. زعقوا: «يسقط! لن نستمع إلى أي من مفوضي الشعب! لا نعترف بحكومتكم!»

ووقف لينين بكل هدوء ممسكا بطرفي المنبر، وعيناه الصغيرتان تراقبان، وهو يفكر، الجلبة تحته. وأخيرا هدأت التظاهرة بعض الشيء، عدا الجهة اليمنى من القاعة.

«لم أجئ إلى هنا كعضو في مجلس «مفوضي الشعب»»، قال لينين، وانتظر مجددا حتى تهدأ الضحية، «ولكن كعضو في الجناح البلشفي انتُخب إلى هذا المؤتمر». ورفع أوراق اعتماده لكي يتسنى للجميع رؤيتها.

ثم أردف بصوت ثابت: «ولكن لا أحد ينكر أن الحزب البلشفي قد شكّل حكومة روسيا الحالية»، واضطر إلى الانتظار لحظة، «فالأمر سيّان إذن...» هنا انفجرت جلبة مدوية من مقاعد اليمين إلا أن اليسار والوسط كانا متلهفين، ففرضا الصمت.

كانت حجة لينين بسيطة: «قولوا لي بصراحة، أيها الفلاحون، يا من وزعنا عليكم أراضي الملاك الكبار، هل تريدون حرمان العمال من السيطرة على الصناعة؟ هذه حرب طبقية. ملاك الأرض يقفون ضد الفلاحين، والصناعيون ضد العمال، هذا طبيعي. هل ستسمحون بشق صفوف البروليتاريا؟ إلى أية جهة ستقفون؟

«نحن البلاشفة حزب البروليتاريا –البروليتاريا الفلاحية والبروليتاريا الصناعية على حد سواء. نحن البلاشفة حماة السوفييت –سوفييت الفلاحين وسوفييت العمال والجنود على حد سواء. والحكومة الحالية هي حكومة السوفييت، لم ندع سوفييت الفلاحين إلى الاشتراك في هذه الحكومة فحسب، وإنما دعونا ممثلين عن الاشتراكيين الثوريين اليساريين إلى دخول مجلس مفوضي الشعب كذلك...

«السوفييت هي خير من يمثل الشعب-العمال في المصانع والمناجم والعمال في الحقول. إن كل من يحاول تحطيم السوفييت يرتكب عملا معاديا للديموقراطية وللثورة. وإني أشير بهذا إليكم، أيها الرفاق الاشتراكيون الثوريون اليمينيون – وإليكم أيها السادة الكاديت. إذا حاولت الجمعية التأسيسية تحطيم السوفييت فنحن سنمنعها من ذلك!»

وبعد ظهر يوم 25 تشرين (نوفمبر) وصل تشيرنوف مسرعا من موغلييف، بعد أن استدعته اللجنة التنفيذية. منذ شهرين فقط كان ثوريا متطرفا يحبه الفلاحون كثيرا، وها هو قد استدعي الآن ليضع حدا لانحراف المؤتمر الخطير نحو اليسار. اعتقل تشيرنوف عند وصوله وأخذ إلى «سمولني» حيث أطلق سراحه بعد محادثة قصيرة.

وكان أول شيء قام به هو أن أنَّب بعنف اللجنة التنفيذية لمغادرتها الاجتماع. فوافقت هذه على العودة، فدخل تشيرنوف القاعة يستقبله تصفيق حاد من الغالبية والزعيق والعياط من البلاشفة.

«رفاق! كنتُ خارج العاصمة. اشتركت في ندوة الجيش الثاني عشر حول مسألة دعوة مؤتمر لجميع مندوبي الفلاحين في جيوش الجبهة الغربية، وأني أعرف القليل عن الثورة التي حدثت هنا».

هب زينوفييف صارخا: «إي. كنت في الخارج –لبضع دقائق!» جلبة رهيبة. صيحات: «يسقط البلاشفة!»

واستمر تشيرنوف: «إن التهمة القائلة أني ساعدت في قيادة زحف الجيش على بتروغراد لا أساس لها من الصحة وهي خاطئة تماما. من أين جاءت هذه التهمة؟ أرني المصدر!»

زينوفييف: «من ازفستيا (الأخبار) ومن صحيفتك ديبلو نارودا (قضية الشعب)- من هناك جاءت!»

وجه تشيرنوف العريض ذو العينين الصغيرتين والشعر المتماوج واللحية الرمادية يحمرّ ويحتقن غضبا. ولكنه سيطر على نفسه وتابع كلامه: «إني أكرر، أنا لا أكاد أعرف شيئا عما جرى هنا، وإني لم أقُد جيشا إلا هذا الجيش (وأشار إلى مندوبي الفلاحين)، الذين يعود لي القسم الأكبر من الفضل في كونه هنا!» ضحك وصيحات: «برافو! أحسنت!».

«زُرت سمولني عند عودتي. ولم توجَّه إليّ مثل التهمة هناك... غادرت المكان بعد محادثة قصيرة، هذا كل ما في الأمر! إني أتحدى أيا من الحاضرين أن يوجه إلى مثل هذه التهمة!»

وعقب ذلك جلبة، فقد انتصب البلاشفة وبعض الاشتراكيين الثوريين اليساريين معا مهددين بقبضاتهم صارخين، وسائر الحضور يحاول إغراق صراخهم بصراخ أعلى.

«هذه زريبة حيوانات وليست جلسة!» صاح تشيرنوف وغادر القاعة. ورفعت الجلسة بسبب الضجيج والفوضى...

في تلك الأثناء كان موضوع صلاحيات اللجنة التنفيذية يشغل الجميع. كانت الغاية من إعلان الاجتماع مجرد «دورة استثنائية» الحيلولة دون انتخاب اللجنة التنفيذية. إلا أن هذا كان سيفا ذا حدَّين: قرر الاشتراكيون الثوريون اليساريون أنه إذا لم يكن للمؤتمر سلطة على اللجنة التنفيذية، إذن فلا سلطة للجنة التنفيذية على المؤتمر. وفي 25 تشرين الثاني (نوفمبر)، قرر الاجتماع أن تتولى «الدورة الاستثنائية» سلطات اللجنة التنفيذية، فلم يسمح بالتصويت إلا لأعضاء اللجنة التنفيذية اللذين انتخبوا كمندوبين.

وفي اليوم التالي، ورغم المعارضة العنيفة للبلاشفة، عُدِّل القرار بحيث سمح لجميع أعضاء اللجنة التنفيذية، أكانوا مندوبين منتخبين أم لا، بالكلام والتصويت في الاجتماع.

وفي السابع والعشرين منه جرت مناقشة المسألة الزراعية التي كشفت الاختلافات بين برنامج البلاشفة الزراعي وبرنامج الاشتراكيين الثوريين اليساريين.

كولشينسكي، باسم الاشتراكيين الثوريين اليساريين، يرسم تاريخ المسالة الزراعية. قال أن أول مؤتمر لسوفييت الفلاحين قد صوّت على قرار محدد حاسم يؤيد وضع الأراضي بين أيدي لجان الأرض. إلا أن قادة الثورة والبرجوازيين في الحكومة أصروا على أنه لا يمكن حل المسألة إلا عندما تنعقد الجمعية التأسيسية... وبدأت المرحلة الثانية من الثورة، مرحلة «المساومة»، مع دخول تشيرنوف إلى الوزارة. كان الفلاحون مقتنعين بأن الحل العملي للمسألة الزراعية سيبدأ الآن، إلا أن الرجعيين والمساومين في اللجنة التنفيذية حاولوا دون القيام بأي عمل، وذلك بالرغم من القرار الواضح الصادر عن مؤتمر الفلاحين الأول. فأثارت هذه السياسة سلسلة من الاضطرابات في المناطق الزراعية، بدت كتعبير طبيعي عن نفاذ صبر الفلاحين ومطامحهم الملجومة. لقد فهم الفلاحون المعنى الحقيقي للثورة –حاولوا تحويل الأقوال إلى أعمال...

«إن الأحداث الأخيرة لا تشير إلى عملية شغب بسيطة ولا إلى «مغامرة بلشفية»، بل على العكس، إنها انتفاضة شعبية حقيقية يعطف عليها البلد بأسره...

«لقد اتخذ البلاشفة، بشكل عام، الموقف الصحيح تجاه مسألة الأرض. ولكنهم ارتكبوا خطأ فادحا عندما دعوا الفلاحين إلى مصادرة الأرض بالقوة... منذ الأيام الأولى، أعلن البلاشفة أنه يجب على الفلاحين أن يصادروا الأراضي بواسطة «العمل الجماهيري الثوري». وهذا ليس إلا فوضى. يمكن مصادرة الأراضي بطريقة منظمة... ما يهم البلاشفة هو أنت تُحَلّ مشاكل الثورة بأسرع طريقة ممكنة —ولكنهم لا يهتمون بكيفية حل هذه المشاكل.

«إن مرسوم الأرض الصادر عن مؤتمر السوفييت مطابق، في روحه، لمقررات مؤتمر الفلاحين الأول. لماذا إذن لا تتبَّع الحكومة الجديدة الخطط التكنيكية التي حددها ذلك المؤتمر؟ لأن مجلس مفوضي الشعب أراد الإسراع في حل مسألة الأرض، بحيث لا يبقى للجمعية التأسيسية أي شيء تقوم به.

«إلا أن الحكومة ارتأت أنه من الضروري أن تتبنى الإجراءات عملية، فتبنَّت، بدون دراسة كافية، قوانين لجان الأرض خالقة بذلك وضعا شاذا. كان مجلس مفوضي الشعب قد ألغي الملكية الفردية في الأرض، ولكن القوانين التي سنَّتها لجان الأرض كانت مبنية على الملكية الخاصة... ولم ينجم أي ضرر عن ذلك، لأن لجان الأرض لا تأبه بمراسيم السلطة السوفييتية، وإنما تطبق قراراتها العملية —هذه القرارات المعتمدة على إرادة غالبية الفلاحين الساحقة...

«إن لجان الأرض هذه لا تعتمد الحل التشريعي لمسألة الأرض، لأن هذا من اختصاص الجمعية التأسيسية وحدها... ولكن هل سترغب الجمعية التأسيسية في تنفيذ إرادة الفلاحين الروس؟ هذا ما لا يمكن أن نكون واثقين منه... كل ما نحن واثقون منه هو أن حزم الفلاحين الثوري قد ازداد، وأن الجمعية التأسيسية ستكون مجبرة على حل مسألة الأرض حسب رغبة الفلاحين... إن الجمعية التأسيسية لن تجرؤ على معاندة إرادة الشعب...»

وتبعه لينين، فاستمعوا إليه آنذاك باهتمام بالغ: «في هذه اللحظة لا نحاول حل مشكلة الأرض فقط ولكن مسألة الثورة الاجتماعية ليس في روسيا وحسب وإنما في العالم أجمع. لا يمكن حل مشكلة الأرض بمعزل عن المشاكل الأخرى للثورة الاجتماعية... إن مصادرة أراضي الملاك، مثلا، لن تثير مقاومة ملاك الأرض الروس وحسب وإنما رأس المال الأجنبي أيضا الذي يرتبط ملاك الأراضي الكبار به بواسطة المصارف...

«إن ملكية الأرض في روسيا هي الأساس في أشنع عملية اضطهاد. ومصادرة الفلاحين لأراضي أهم خطوة في ثورتنا. ولكن لا يمكن عزلها عن الخطوات الأخرى، وهذا ما تؤكده بوضوح المراحل التي اضطرت ثورتنا إلى المرور بها. كانت المرحلة الأولى هي مرحلة سحق الحكم الفردي وسلطة الرأسماليين الصناعيين وملاك الأراضي ذوي المصالح الوثيقة الارتباط به. وكانت المرحلة الثانية هي مرحلة تدعيم السوفييت والمساومة السياسية مع البرجوازية. إن خطأ الاشتراكيين الثوريين اليساريين يكمن في أنهم لم يعارضوا سياسة المساومة، في ذلك الوقت، لأنهم كانوا يتمسكون بنظرية تقول أن وعي الجماهير لم يتبلور بما فيه الكفاية بعد...

«إذا كان يمكن تحقيق الاشتراكية فقط عندما يسمح بذلك تطور الشعب الفكري، فإننا لن نرى الاشتراكية إلا بعد خمسمائة سنة على الأقل... الحزب السياسي الاشتراكي —هذه هي طليعة الطبقة العاملة. ولا يجوز لهذا الحزب أن يعرقل مسيرته بسبب تدني مستوى الوعي لدى الجماهير، بل يجب أن يقود الجماهير مستخدما السوفييت كأجهزة للمبادرة الثورية... ولكن لكي نتمكن من قيادة المترددين، يجب على الرفاق الاشتراكيين الثوريين اليساريين أن يتجاوزوا ترددهم...

«في تموز الماضي نشبت سلسلة من الخلافات بين الجماهير الشعبية و«المساومين». وأما الآن، في تشرين الثاني (نوفمبر)، فالاشتراكيون الثوريون اليساريون ما زالوا يمدون يدهم لافاكسانتييف الذي يتمسك ببقايا حقيرة من شعبيته السابقة... إذا استمرت المساومة فإن الثورة سوف تتعرض للتهلكة. لا مساومة ممكنة مع البرجوازية، يجب سحقها سحقا كاملا...

«نحن البلاشفة لم نغير برنامجنا بالنسبة للأرض، لم نتخلَّ عن إلغاء الملكية الزراعية الخاصة، ولا ننوي ذلك. لقد تبنينا قوانين لجان الأرض –والتي لا تقوم على الملكية الخاصة أبدا- لأننا نريد تنفيذ الإرادة الشعبية بالطريقة التي قررها الشعب نفسه، بغية تمتين تحالف جميع العناصر المناضلة من أجل الثورة الاجتماعية.

إننا ندعو الاشتراكيون الثوريين اليساريين إلى الانضمام إلى هذا التحالف. ونلحّ عليهم، إلى ذلك، على أن ينقطعوا عن الالتفاف إلى خلف، وأن ينفصلوا عن «المساومين» في حزبهم...

«أما فيما يتعلق بالجمعية التأسيسية، فصحيح ما قاله الخطيب السابق من أن عمل الجمعية التأسيسية يعتمد على تصميم الجماهير الثوري. إني أقول اعتمدوا على هذا التصميم الثوري ولكن لا تنسوا مسدساتكم!»

ثم تلا لينين مشروع القرار البلشفي:

«إن مؤتمر الفلاحين، إذ يعلن دعمه الكامل لمرسوم الأرض الصادر في 8تشرين الثاني (نوفمبر)... يوافق على الحكومة المؤقتة للعمال والفلاحين في الجمهورية الروسية التي شكّلها المؤتمر للعام الثاني لسوفييت مندوبي العمال والفلاحين...

إن مؤتمر الفلاحين... يدعو جميع الفلاحين بدون استثناء لتأييد هذا القانون، ولتولي تطبيقه بأنفسهم فورا. وهو يدعو الفلاحين، في الوقت ذاته، إلى أن ينتخبوا إلى المناصب المسؤولة فقط أولئك الذين أثبتوا، بالأعمال وليس بالأقوال، إخلاصهم التام لمصالح العمال والفلاحين المستغَلين، عن المقدرة والرغبة للدفاع عن هذه المصالح بوجه أية مقاومة تصدر عن ملاك الأرض الكبار والرأسماليين وأنصارهم وشركائهم.

«وفي الوقت ذاته، يعبر مؤتمر الفلاحين عن اقتناعه بأن التحقيق الكامل لكافة الإجراءات التي ينص عليها مرسوم الأرض لا يمكن أن ينجح إلا من خلال انتصار ثورة العمال الاجتماعية التي بدأت يوم السابع من تشرين الثاني (نوفمبر) 1917، لأن الثورة الاجتماعية هي وحدها التي تضمن انتقال الأرض نهائيا للفلاحين الكادحين، بدون امكان انتزاعها منهم، ومصادرة المزارع النموذجية ووضعها بيد الجماعات الفلاحية، ومصادرة الآليات الزراعية التي كانت ملكا لملاك الأرض الكبار، وحماية مصالح العمال الزراعيين بإلغاء عبودية الأجور إلغاء تاما، والتوزيع المنهجي والمنتظم لمنتوجات الزراعة والصناعة على جميع مناطق روسيا، ومصادرة المصارف (التي لا يمكن أن يتم امتلاك الشعب كله للأرض بدونها بعد إلغاء الملكية الخاصة)، وجميع أنواع المساعدة التي تقدمها الدولة للعمال...

لهذه الأسباب يمحض مؤتمر الفلاحين ثورة السابع من تشرين الثاني (نوفمبر) دعمه الكامل... لكونها ثورة اجتماعية، ويعبر عن إرادته الحازمة في الشروع بالتحويل الاجتماعي للجمهورية الروسية بدون أي تردد وبعد إجراء التعديلات اللازمة...

إن الشروط التي لا غنى عنها لانتصار الثورة الاجتماعية، الكفيلة وحدها بضمان دوام النجاح والتنفيذ الكامل لمرسوم الأرض، هي الاتحاد الوثيق بين الفلاحين الكادحين والطبقة العاملة الصناعية وبروليتاريا البلدان المتقدمة كافة. من الآن فصاعدا يجب على إدارة الدولة وتنظيمها من فوق إلى تحت، في الجمهورية الروسية، أن تعتمد على هذا الاتحاد. فإن هذا الاتحاد هو وحده الكفيل بانتصار الاشتراكية في العالم كله بسحقه جميع المحاولات المباشرة أو غير المباشرة، الظاهرة أو المخفية، للعودة إلى سياسة المساومة مع البرجوازية –سياسة المساومة مع قادة السياسة البرجوازية التي لعنتها التجربة...

لم يعد يجرؤ الرجعيون في اللجنة التنفيذية على الظهور علنا. ومع ذلك فقد تكلم تشيرنوف أكثر من مرة بحياد متواضع جدًّاب. دُعي إلى الجلوس على المنصة... وفي الليلة الثانية لانعقاد المؤتمر ورد إلى الرئاسة اقتراح من مجهول يطالب بانتخاب تشيرنوف رئيسا فخريا. قرأ يوستينوف الاقتراح بصوت عال فانتصب زينوفييف فجأة زاعقا أن هذه مؤامرة من اللجنة التنفيذية القديمة للسيطرة على الاجتماع، وبلحظة تحولت القاعة إلى كتلة صائحة من الأذرع الملوّحة والأوجه الغاضبة في كلا الجانبين... ومع ذلك فقد ظل تشيرنوف يتمتع بشعبية كبيرة...

خلال النقاشات العاصفة حول مسألة الأرض واقتراح لينين، اشرف البلاشفة على مغادرة القاعة مرتين، وفي كلا المرتين كان قادتهم يردعونهم عن ذلك... وبدل لي كأن المؤتمر قد وصل إلى طريق مسدود.

ولكن لم يكن أحد منا يعلم أن سلسلة من الندوات السرية تُعتقد بين الاشتراكيين الثوريين اليساريين والبلاشفة في «سمولني». في البدء طالب الاشتراكيون الثوريون اليساريون بحكومة تضم جميع الأحزاب الاشتراكية داخل السوفييت وخارجها تكون مسؤولة أمام مجلس الشعب المكوَّن من عدد متساو من المندوبين الذين يمثلون منظمات العمال والجنود، ومنظمات الفلاحين يضاف إليهم ممثلو الزيميستوفات ومجالس دوما المدينة، على أن يُقصى لينين وتروتسكي، وتُحَلّ الجنة العسكرية الثورية وأجهزة القمع الأخرى.

وتوصل الطرفان إلى اتفاق في صباح الأربعاء في 28 تشرين الثاني (نوفمبر) بعد نزاع رهيب طوال الليل. أُضيف إلى «التسايكا» المكونة من مئة وثمانية أعضاء، نفس العدد يجري انتخابه من مؤتمر الفلاحين، كما أضيف مائة مندوب ينتخبون مباشرة من الجيش والأسطول، وخمسون عضوا يمثلون النقابات (35 عن الاتحادات العامة، و10 عن عمال سكك الحديد، و5 عن عمال البريد والبرق). أسقطت فكرة اشتراك مجالس الدوما والزيميستوفا. وبقي لينين وتروتسكي في الحكومة واستمرت اللجنة العسكرية الثورية في عملها.

تُعقد جلسات المؤتمر الآن في بناية كلية الحقوق الإمبراطورية، 6 شارع فونتانكا، مقر سوفييت الفلاحين. وهناك تجمع المندوبون بعد ظهر يوم الأربعاء في قاعة الاجتماعات الكبيرة. وكانت اللجنة التنفيذية القديمة قد انسحبت وعقدت اجتماعا طارئا خاصا بها في غرفة أخرى من البناية نفسها حضره المندوبون المنشقون وممثلو لجان الجيش.

تشيرنوف ينتقل من اجتماع لآخر، مراقبا الإجراءات بدقة، كان يعلم أن الاتفاق مع البلاشفة قيد البحث، ولكنه لم يكن يعلم أنه قد تم فعلا.

خاطب الاجتماع الطارئ قائلا: «الآن، وقد أصبح الجميع يؤيد تشكيل حكومة تضم جميع الاشتراكيين، ينسى الكثير من الناس الوزارة الأولى، التي لم تكن وزارة ائتلافية والتي لم يكن فيها إلا اشتراكي واحد –كرنسكي، وزارة كانت تتمتع بشعبية

عظيمة في أيامها. الآن يتهم الناس كرنسكي ولكنهم ينسون أن الذي أوصله إلى الحكم لم تكن مجالس السوفييت وحدها وإنما الجماهير الشعبية أيضا...

«لماذا تغيرت نظرة الرأي العام إلى كرنسكي؟ الأقوام البدائية تنصِّب الآلهة وتصلي لها ولكنها تعاقبها إذا لم تلبِّ الصلوات... وهذا ما يجري الآن... بالأمس كرنسكي، واليوم لينين وتروتسكي، وغدا يأتي غيرهم...

«لقد اقترحنا على كلا من كرنسكي والبلاشفة الانسحاب من الحكم. قيل كرنسكي، وأعلن اليوم من مخبئه أنه قد استقال من منصبه كرئيس وزراء، ولكن البلاشفة يتشبثون بالحكم مع أنهم لا يعرفون كيف يمارسونه...

«إن مصير روسيا لن يتغير، أنجح البلاشفة أم أخفقوا. والقرى الروسية تعرف بالضبط ماذا تريد وهي تنفذ إجراءاتها الآن... القرى هي التي ستنقذنا في النهاية...»

في تلك الأثناء كان يوستنيوف يعلن، في القاعة الكبيرة، الاتفاق المعقود بين مؤتمر السوفييت و«سمولني». فاستقبله المندوبون بفرح عظيم. فجأة ظهر تشيرنوف وطلب الكلام:

«سمعت أن اتفاقا قد عُقد بين مؤتمر السوفييت وسمولني. هذا الاتفاق غير شرعي نظرا لأن مؤتمر الفلاحين الحقيقي لن يجتمع إلا في الأسبوع القادم...»

«وما هو أكثر من ذلك. فإني أريد أن أحذركم الآن بأن البلاشفة لن يقبلوا شروطكم بأي حال من الأحوال...»

قاطعته عاصفة من الضحك، ولما أدرك سخافة وضعه نزل عن المنبر وغادر الغرفة حاملا معه بقايا شعبيته...

عشية الخميس في 16 تشرين الثاني (نوفمبر) اجتمع المؤتمر في جلسة استثنائية. كان الجو جو أعياد، والبسمات تعلو جميع الوجوه... أنهى بسرعة ما تبقى من عمل أيام المؤتمر، ثم قام ناثانسون العجوز، شيخ الجناح اليساري للاشتراكيين الثوريين ذو اللحية البيضاء، وقرأ التقرير عن «زواج» سوفييت الفلاحين مع سوفييت العمال والجنود بصوت متقطع وعينين دامعتين. وكان التصفيق يتعالى في كل مرة ترد فيها كلمة «وحدة»... وفي النهاية أعلن يوستنيوف عن وصول وفد من «سمولني» يرافقه ممثلون عن الجيش الأحمر، فاستقبلوا بعاصفة من الهتاف. وتعاقب على المنبر عامل وجندي وبحَّار وحيوا الاجتماع.

ثم جاء بوريس راينشتين، مندوب حزب العمال الاشتراكي الأمريكي: «إن يوم الوحدة بين مؤتمر الفلاحين وسوفييت مندوبي العمال والجنود لهو يوم من أعظم أيام الثورة. إن العالم كله سيردد صداه، في باريس، في لندن، وفي نيويورك عبر المحيط. إن هذه الوحدة ستملأ قلوب جميع الكادحين بالسعادة.

«لقد انتصرت فكرة عظيمة. كان الغرب وأمريكا يتوقعان من روسيا، من البروليتاريا الروسية أعمالا جبارة... إن البروليتاريا في العالم تنتظر الثورة الروسية، تنتظر المنجزات العظيمة التي تحققها...»

وحيَّاهم سفيردلوف، رئيس «التسايكا». ومع صيحة «تعيش نهاية الحرب الأهلية! تعيش الديموقراطية الموحدة!»، تدفق الفلاحون خارج البناية.

كان المساء قد حل، وعلى الثلج المغطى بقشرة من الجليد يتلألأ نور القمر والنجوم الشاحب. على ضفاف القتال اصطف جنود فوج بافلوفسكي مع جوقتهم التي أخذت تعزف «المارسلييز» واصطف جنود الفلاحون بدورهم، وسط صراخ الجنود، ورفعوا علم اللجنة التنفيذية لسوفييت الفلاحين لعموم روسيا، وكان هذا العلم الأحمر الكبير قد كُتب عليه حديثا بالذهب: «عاشت وحدة الجماهير الثورية الكادحة!» ثم توالت أعلام أخرى: من سوفييت الأحياء، من مصنع بوتيلوف تقول: «إننا ننحني لهذا العلم لنحقق أخوّة جميع الشعوب!»

وظهرت المشاعل من مكان ما، ضوء برتقالي يشع في الليل وينعكس على الجليد، يتصاعد دخانه فوق الجمع السائر على ضفاف الفونتانيكا وهو ينشد، وسط جموع مباغتة صامتة:

«عاش الجيش الثوري! عاش الحرس الأحمر! عاش الفلاحون!»

هكذا سار الموكب متعرجا وسط المدينة، يزداد عددا ويرفع أعلاما حُمرا جديدة كُتب عليها بالذهب. فلاحان عجوزان، أحنى ظهريهما الكدح، يسيران يدا بيد ووجهاهما يضيئان بحبور طفولي.

قال أحدهما: «أريد أن أراهم يحاولون انتزاع الأرض منا الآن!»

عند «سمولني» اصطف أفراد الحرس الحمر على جانبي الطريق وقد امتلكهم فرح عظيم. قال الفلاح العجوز الثاني: «لست تعبا. كنتُ أطير طول الطريق!»

عند درج «سمولني» تجمّع حوالي مئة من مندوبي العمال والجنود حاملين علمهم وقد بدوا ككتلة دكناء قبالة شعلة النور المتسللة بين القناطر. واندفعوا كموجة يعانقون الفلاحين ويُقبّلونهم، وتدفَّق الموكب من البوابة الكبيرة وصعد الدرج بصوت كالرعد...

كانت «التسايكا» تنتظرهم في قاعة الاجتماعيات البيضاء الشاسعة ومعها كل سوفييت بتروغراد وحوالي ألف من المشاهدين، بتلك الرهبة التي ترافق اللحظات الواعية العظيمة في التاريخ.

أعلن زينوفييف الاتفاق المعقود مع مؤتمر الفلاحين، فتعالى صخب مدوٍ ارتفع وتحول إلى عاصفة راعدة عندما صدح صوت الموسيقى في الممشى وأطلت مقدمة الموكب. وقف أعضاء مجلس الرئاسة على المنصة وأفسحوا مكانا لمجلس رئاسة الفلاحين وهم يتعانقون. وقد تشابك وراءهم العلمان على الجدار الأبيض فوق إطار فارغ انتزعت منه صورة القيصر.

ثم افتتحت الجلسة المظفَّرة. بعد بضع كلمات ترحيب من سفيردلوف، اعتلت ماريا سبيريدونوفا المنبر، نحيلة، شاحبة تبدو كمعلمة مدرسة –تلك هي أحب امرأة إلى قلوب الروس وأقوى امرأة في كل روسيا:

«... تنفتح الآن أمام عمال روسيا آفاق لم يعرفها التاريخ من قبل. إلا أن الحركة الحالية حركة أممية، ولهذا السبب فهي لا تُقهر. لا توجد قوة في العالم تستطيع أن تخمد نار الثورة! العالم القديم ينهار، العالم الجديد يولد...»

ثم جاء دور تروتسكي، تروتسكي المحشو نارا: «مرحبا بكم أيها الرفاق الفلاحون! لستم هنا ضيوفا وإنما سادة هذا البيت حيث يخفق قلب الثورة الروسية. إن إرادة ملايين الكادحين قد تجمعت الآن في هذه القاعة... والآن يوجد سيد واحد للأرض الروسية، أنه تحالف العمال والجنود والفلاحين...»

ثم شرع يتكلم، بسخرية لاذعة، عن دبلوماسيي بلدان الحلفاء التي كانت، حتى ذلك الوقت،تزدري دعوة روسيا إلى الهدنة التي وافقت عليها الدول المركزية.

«ستولد إنسانية جديدة من هذه الحرب... ومن هذه القاعة نعاهد شغيلة العالم أجمع بأن نلازم مواقعنا الثورية. إذا هُزمنا فلن يكون ذلك إلا دفاعا عن علمنا...»

وعقبه كريلنكو شارحا الوضع على الجبهة حيث كان دوخونين يجهز المقاومة ضد مجلس مفوضي الشعب. «ليعلم دوخونين والذين معه أننا لن نعامل برفق أولئك الذين يسدّون طريق السلام!»

وحيّا ديبنكو الجمع باسم الأسطول. وقال كروشنكي، عضو «الفيكجل»: «ابتداء من هذه اللحظة التي تحققت فيها وحدة جميع الاشتراكيين الحقيقيين، فإن كل جيش عمال سكك الحديد يضع نفسه تحت تصرف الديموقراطية الثورية!»

ثم جاء لوناتشارسكي، وكان مشرفا على البكاء، وبروشيان، باسم الاشتراكيين الثوريين اليساريين، وأخيرا ساماراشفيللي، باسم الاشتراكيين-الديموقراطيين الأمميين المتحدين الذين يضمون جماعة مارتوف وجماعة غوركي، فأعلن:

«غادرنا «التسايكا» بسبب رفض البلاشفة المساومة، ولإجبارهم على التنازل لكي تتحقق وحدة جميع قوى الديموقراطية الثورية. الآن وقد تحققت هذه الوحدة، نعتبر أن أقدس واجب علينا هو أن نعود إلى احتلال مقاعدنا في «التسايكا»... نعلن أن جميع الذين انسحبوا من «التسايكا» يجب أن يعودوا الآن».

ستاشخوف، فلاح عجوز وقور من مجلس رئاسة مؤتمر الفلاحين، ينحني أمام زوايا القاعة الأربع: «أحيّيكم بمناسبة عمادة حياة وحرية جديدتين في روسيا!»

غرونسكي، باسم الاشتراكيين الثوريين البولونيين، سكربينيك، باسم لجان المصانع والمتاجر، تيفونوف، باسم الجنود الروس في سالونكيا، وآخرون وآخرون إلى ما لانهاية يفرغون ما في قلوبهم بتلك البلاغة السعيدة التي تولد عن آمال تحققت...

في أواخر الليل قدم مشروع القرار التالي، فأقر بالإجماع:

«إن التسايكا»- اللجنة التنفيذية المركزية لعموم روسيا لسوفييتات مندوبي العمال والجنود-المتحدة في جلسة استثنائية مع سوفييت بتروغراد ومؤتمر الفلاحين، تصادق على مرسومي الأرض والسلام اللذين أقرهما المؤتمر الثاني لسوفييت مندوبي العمال والجنود، وتصادق كذلك على مرسوم السيطرة العمالية الذي أقرته التسايكا.

«إن الاجتماع المشترك للتسايكا ولمؤتمر الفلاحين يعبر عن إيمانه الراسخ بأن تحالف العمال والجنود والفلاحين، هذا التحالف الأخوي الذي يربط جميع الكادحين وجميع المستغَلين، سوف يدعم السلطة التي استولوا عليها، ويتخذ كل الإجراءات الثورية اللازمة للتعجيل بانتقال السلطة إلى يد العمال في البلدان الأخرى، فيضمن بذلك التحقيق الكامل للسلم وانتصار الاشتراكية» (2).

==========

هوامش الفصل الثاني عشر

1- إلى الفلاحين

ردا على عدة استفسارات وردت من الفلاحين، نجيب أن كل السلطة في البلد هي، من الآن فصاعدا، بيد سوفييت مندوبي العمال والجنود والفلاحين. إن الثورة العمالية آخذة بالانتصار الآن في جميع أنحاء روسيا بعد انتصارها في بتروغراد وموسكو. إن حكومة العمال والفلاحين تحمي مصالح جماهير الفلاحين الفقراء، وهي تقف إلى جانب غالبية والعمال ضد ملاك الأرض وضد الرأسماليين.

وهكذا، فإن سوفييت مندوبي الفلاحين، وبخاصة سوفييتات الأقضية ثم سوفييتات المحافظات هي هيئات تمثيل سلطة الدولة في مجال عملها وتتمتع بكافة الصلاحيات. وهذا الأمر، يصبح ساري المفعول من الآن إلى حين انعقاد الجمعية التأسيسية. لقد ألغى المؤتمر العام الثاني للسوفييت جميع سندات تملك الأرض التي في حوزة كبار ملاك الأرض. وقد صدر مرسوم متعلق بالأرض عن الحكومة المؤقتة الحالية للعمال والفلاحين، ينص بأن تنتقل الأراضي التي كانت بحوزة الملاك إلى أيدي سوفييت مندوبي الفلاحين. إن لجان الأرض التابعة لكل ناحية (فولوست) مدعوة إلى مصادرة أراضي الملاك فورا، وإحصائها بدقة، والمحافظة على الأمن، ، وحماية الأرض نظرا لأن جميع الملكيات الخاصة قد أصبحت، من الآن فصاعدا، ملكية عامة ولذا يتوجب على الشعب نفسه أن يحميها.

إن جميع الأوامر التي تصدر عن لجان الأرض في النواحي تنفيذا للمرسوم الذي صدر عن السلطة الثورية والتي يتبناها سوفييت مندوبي الفلاحين في الأقضية، هي شرعية ويجب الشروع في تنفيذها حالا وبدون تلكؤ.

إن حكومة العمال والفلاحين التي عينها المؤتمر العام الثاني للسوفييت يُطلق عليها اسم مجلس مفوضي الشعب.

إن مجلس مفوضي الشعب يدعو الفلاحين إلى استلام السلطة في كل منطقة.

إن كل العمال سيعملون على دعم الفلاحين دعما كاملا غير مشروط، ويوفرون لهم جميع ما يحتاجون من آلات وأدوات، وهم يطلبون من الفلاحين أن يستعدوهم، في المقابل، بمدهم بالحبوب.

رئيس مجلس مفوضي الشعب

ف. أوليانوف (لينين)

بتروغراد في 18 تشرين الثاني (نوفمبر، 1917)

==========

2 - التأم مؤتمر سوفييت الفلاحين، الكامل الصلاحيات، بعد أسبوع من تاريخه وظل منعقدا طوال أسابيع. وقصته ما هي إلا نسخة موسَّعة عن قصة «الدورة الاستثنائية». كانت غالبية المندوبين معادية للحكومة السوفييتية في البدء، ودعمت الجناح المعارض. بعد مضي بضعة أيام انحازت الجمعية إلى الجناح المعتدل الذي يمثله تشيرنوف. وبعد ذلك بأيام، كانت غالبية المؤتمر تصوّت مع جناح ماريا سبيريدونوفا، وأرسلت ممثلين عنها إلى سمولني... فانسحب الجناح اليميني من المؤتمر ودعا إلى مؤتمر خاص به ظل يتناقص عدديا يوما بعد يوم إلى أن حُلّ في النهاية..